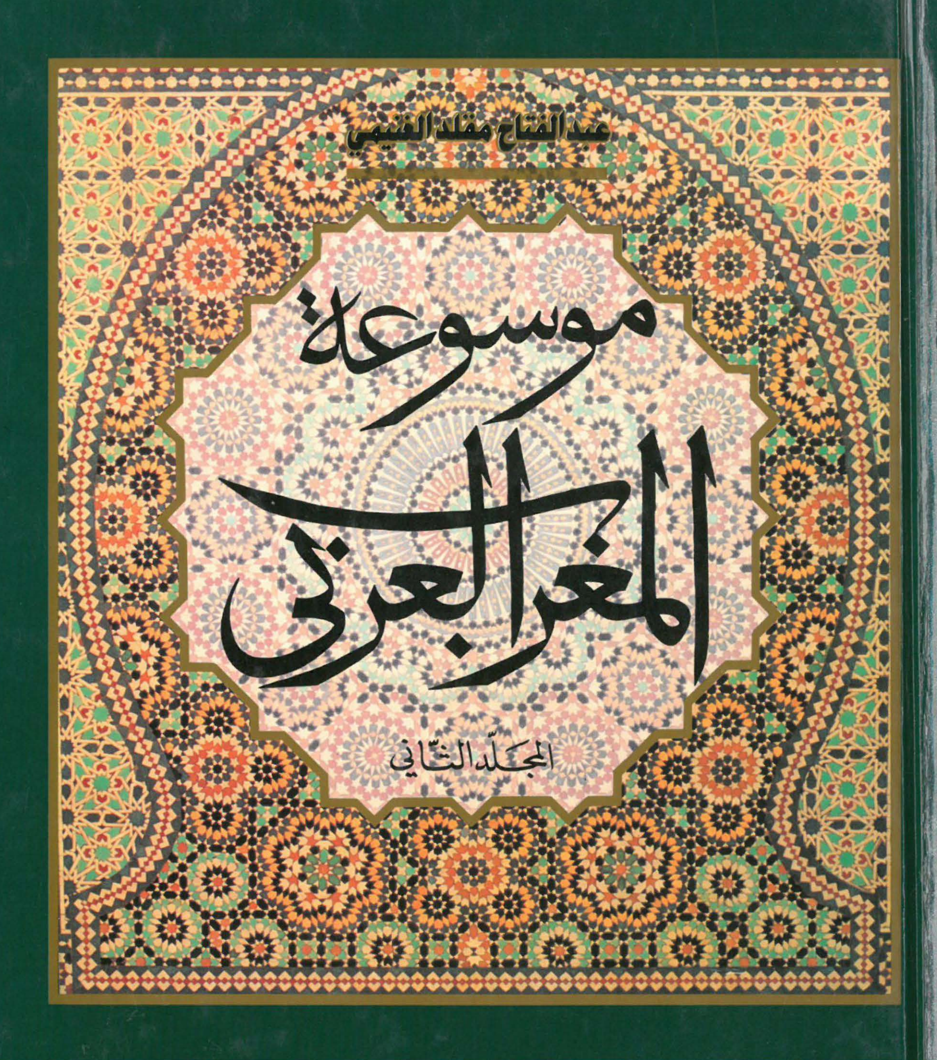
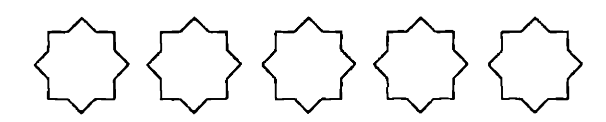
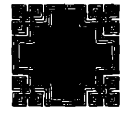


مكتبة مدبولي
القاهرة



موسوعة تاريخ المغرب العربى

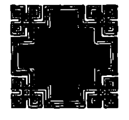


المغرب العربى بين

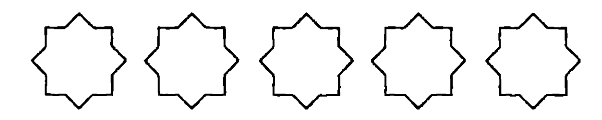
بنى زيرى وبنى هلال وبنى حماد

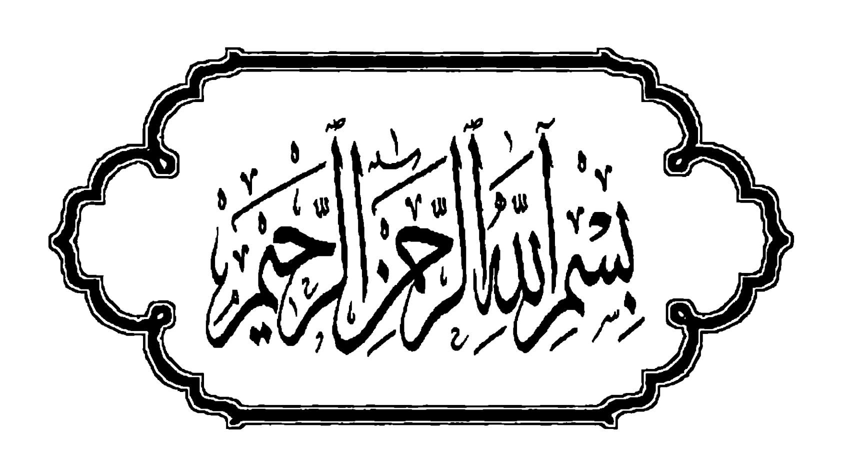
الغزوة الهلالية صفحة مضيئة من تاريخ المغرب

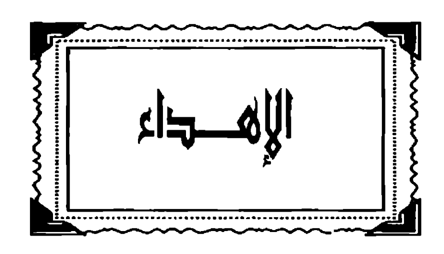
دراسة فى التاريخ الإسلامى



الجزء الرابع




بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ



إلي إبنى محمـــــد

تيمنا باسم الرسول العظيم ﷺ . رؤية المستقبل وصورة الماضى وحلم الأيام وهو يقترب من نهاية عامه الحادى عشر راجيا المولى العلى القدير أن يجعله ابنا باراً مباركاً.

هذا الجزء الرابع من موسوعة المغرب العربى .

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

التمهيد

هذا هو الجزء الثالث من موسوعة تاريخ المغرب العربى والذى كان يجب أن لايكون على تلك الصورة من حيث الأحداث التاريخية ذلك لأن هذه الدويلات الزيرية والحمادية وما تلاها من أحداث ووصول الهجرة العربية الهلالية الواسعة إلى المغرب كانت تتطلب أن تكون متممة للدولة الفاطمية التى كانت جزءا من الجزء الثانى من هذه الموسوعة وأن تكون هذه الدراسة مكملة لها وفاصلا بينها وبين دولة المرابطين والموحدين اللتين اشتمل عليهما الجزء الثانى ، لكن الحديث عن الفاطميين والمرابطين والموحدين فى الجزء السابق لم يكن إلا حديثا عن أهم وأكبر ثلاث دول ظهرت فى تاريخ المغرب الإسلامى حتى عصرنا الحالى ، فلم يشهد المغرب العربى منذ الفتوحات الإسلامية الأولى فى القرن الهجرى الأول قيام كيان موحد إلا فى ظل هذه الدول الثلاث (الفاطمية والموحدية) وإن ضمت المرابطين المغرب الأقصى وجزءا كبيرا من المغرب الأوسط .

ومن هنا فانى أرجو القارئ الكريم أن يقبل بصدر رحب هذا الوضع الدراسى وليس الزمانى التاريخى ، ذلك لأن الحديث عن الفاطميين وبنى زيرى وبنى حماد فى جزء واحد لم يكن ليضع أعظم ثلاث دول فى المغرب الإسلامى فى دراسة شاملة وهذا مما قصدت إليه من وراء ذلك . علما بأن تسلسل الأحداث التاريخية لم يكن بالضرورة إلا فى إطار المنهج الذى تسير عليه هذه الدراسة وهو وضع صورة متكاملة للمغرب الإسلامى من خلال الدول أو الدويلات التى ظهرت على ساحته السياسية ومارست نوعا من السلطة والتأثير .

كذلك فان قيام دراسة علمية عن الغزوة الهلالية والنظرة إليها نظرة موضوعية علمية دون تأثر بما كتب عنها من كتابات معادية أو خاضعة لتأثير قوى سياسية معاصرة لها وقت الحديث عن الغزوة الهلالية دفعنى لكى أفند هذه الأباطيل والأقوال غير العلمية التى حاولت أن تشوه الوجه الحضارى الباسم لهذه الغزوة التى غيرت وجه

المغرب وصانت له إسلامه وعروبته وحضارته ودافعت عن كيانه السياسى ومحاولة ابعاده عن العرب والإسلام .

ولهذا فان الذى يطالع هذا الجزء من الموسوعة سوف يجد متعة ذهنية وفكرية وعلمية حين يجد أن كل ما قيل عن الغزوة الهلالية لم يكن إلا بهتانا وزورا قصد من ورائه ارضاء رغبة الحكام والخضوع لما يطلبون من امتهان وكراهية للعرب الذين كان لهم الدور الأكبر فى إثراء المغرب جنسيا وحضاريا وثقافيا وعمرانيا واجتماعيا والذين لم يكونوا إلا مسيرة لاحقة لمسيرات سابقة عبر أغوار التاريخ قام بها الفينقيون الذين كانوا فى الأصل عربا وتفرع منهم البربر الذين سكنوا الديار فجاء أخوة العروبة والإسلام لينضموا إلى من سبقهم فى الهجرة إلى هذه الديار .

ومن هنا كان هذا الجزء دراسة وافية عن بنى زيرى وبنى هلال وبنى حماد طوال القرون الثلاثة الهجرية (الرابع والخامس والسادس) سيرة سياسية وحضارية على أرض المغرب .

التمهيد

هذا هو الجزء الثالث من موسوعة تاريخ المغرب العربي والذى كان يجب أن لايكون على تلك الصورة من حيث الأحداث التاريخية ذلك لأن هذه الدويلات الزيرية والحمادية وما تلاها من أحداث ووصول الهجرة العربية الهلالية الواسعة إلى المغرب كانت تتطلب أن تكون متممة للدولة الفاطمية التى كانت جزءا من الجزء الثانى من هذه الموسوعة وأن تكون هذه الدراسة مكملة لها وفاصلا بينها وبين دولة المرابطين والموحدين اللتين اشتمل عليهما الجزء الثانى ، لكن الحديث عن الفاطميين والمرابطين والموحدين فى الجزء السابق لم يكن إلا حديثا عن أهم وأكبر ثلاث دول ظهرت فى تاريخ المغرب الإسلامى حتى عصرنا الحالي ، فلم يشهد المغرب العربى منذ الفتوحات الإسلامية الأولى فى القرن الهجرى الأول قيام كيان موحد إلا فى ظل هذه الدول الثلاث (الفاطمية والموحدية) وإن ضمت المرابطين المغرب الأقصى وجزءا كبيرا من المغرب الأوسط .

ومن هنا فانى أرجو القارئ الكريم أن يقبل بصدر رحب هذا الوضع الدراسى وليس الزمانى التاريخى ، ذلك لأن الحديث عن الفاطميين وبنى زيرى وبنى حماد فى جزء واحد لم يكن ليضع أعظم ثلاث دول فى المغرب الإسلامى فى دراسة شاملة وهذا مما قصدت إليه من وراء ذلك . علما بأن تسلسل الأحداث التاريخية لم يكن بالضرورة إلا فى إطار المنهج الذى تسير عليه هذه الدراسة وهو وضع صورة متكاملة للمغرب الإسلامى من خلال الدول أو الدويلات التى ظهرت على ساحته السياسية ومارست نوعا من السلطة والتأثير .

كذلك فان قيام دراسة علمية عن الغزوة الهلالية والنظرة إليها نظرة موضوعية علمية دون تأثر بما كتب عنها من كتابات معادية أو خاضعة لتأثير قوى سياسية معاصرة لها وقت الحديث عن الغزوة الهلالية دفعنى لكى أفند هذه الأباطيل والأقوال غير العلمية التى حاولت أن تشوه الوجه الحضارى الباسم لهذه الغزوة التى غيرت وجه

المغرب وصانت له إسلامه وعروبته وحضارته ودافعت عن كيانه السياسى ومحاولة ابعاده عن العرب والإسلام .

ولهذا فان الذى يطالع هذا الجزء من الموسوعة سوف يجد متعة ذهنية وفكرية وعلمية حين يجد أن كل ما قيل عن الغزوة الهلالية لم يكن إلا بهتانا وزورا قصد من ورائه ارضاء رغبة الحكام والخضوع لما يطلبون من امتهان وكراهية للعرب الذين كان لهم الدور الأكبر فى إثراء المغرب جنسيا وحضاريا وثقافيا وعمرانيا واجتماعيا والذين لم يكونوا إلا مسيرة لاحقة لمسيرات سابقة عبر أغوار التاريخ قام بها الفينقيون الذين كانوا فى الأصل عربا وتفرع منهم البربر الذين سكنوا الديار فجاء أخوة العروبة والإسلام لينضموا إلى من سبقهم فى الهجرة إلى هذه الديار .

ومن هنا كان هذا الجزء دراسة وافية عن بنى زيرى وبنى هلال وبنى حماد طوال القرون الثلاثة الهجرية (الرابع والخامس والسادس) سيرة سياسية وحضارية على أرض المغرب .

المقدمـــة

الحمد لله رب العالمين القائل « وقل ربى زدنى علما » والصلاة والسلام على النبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ القائل « اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد » وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه وسنته إلى يوم الدين .

أمـا بعـــد .

فهذا هو الجزء الثالث من موسوعة تاريخ المغرب العربى . نضعه بين يدى القارئ العلمى الأكاديمى المتخصص فى الدراسات التاريخية الإسلامية وطلاب الدراسات العليا وطلاب مرحلة الليسانس والقارئ العادى المطلع المثقف الشغوف لمعرفة تاريخ عالمنا العربى والإسلامى لكى يكون إضافة إلى أبحاث كثيرة أعدت فى هذا الجانب لكن هذه الدراسة جاءت بصورة مغايرة عما سلفها من أبحاث ودراسات . ذلك لأنها دراسة متكاملة عن الحقبة الإسلامية منذ الفتح الإسلامى للمغرب حتى بداية التاريخ الحديث وظهور الدولة السعدية فى المغرب الأقصى ووقوع بلاد المغرب الأدنى والأوسط تحت السيطرة التركية العثمانية .

وقد حاولت فى هذه الدراسة أن ألم بجوانب الموضوع الخصبة والتى لم تمتد إليها الأبحاث السابقة لعلى أكون قد قدمت جديدا فى هذا المجال .

وقسم هذا الجزء إلى ثلاثة أبواب كل باب منها قسم إلى عدة فصول وكل باب يعالج موضوعا معينا تندرج تحته الفصول التى تكون هذه الدراسة ثم تلتها الأبواب الأخرى التى تنهى حقبة زمنية معينة فالباب الأول تحدثت فيه عن دولة بنى زيرى فى المغربين الأدنى والأوسط ثم تندرج تحته ستة فصول : الفصل الأول عن بنى زيرى على مسرح الأحداث فى المغرب وكيف ظهرت أثر ترك الخلافة الفاطمية للمغرب وبنى زيرى فى ظل الخلافة والتبعية الفاطمية ، وجاء الفصل الثانى عن السيادة الزيرية على المغرب والانفصال عن الفاطميين وظهور الكيان الزيرى كدولة مستقلة ودور المعز بن

باديس في حركة الاستقلال وانتصار المذهب السنى على المذهب الشيعى فى المغرب ، وكان الفصل الثالث يعالج موضوعا لابد من ذكره فى سياق هذا الباب وإن كنت قد أفردت له دراسة مستقلة عن زحف بنى هلال إلى المغرب وكيف آلت الأمور فى دولة بنى زيرى بعد الزحف الهلالى وفى الفصل الرابع تحدثت عن المظاهر الحضارية والحياتية فى الدولة ومنها الحياة الاقتصادية والمظاهر الحضارية والثقافية والاجتماعية ثم كان تابعا لها حديث عن الجيش والأسطول والشرطة ودور كل منها فى الحياة الزيرية ، والفصل الخامس عالجت فيها العلاقات الخارجية مع دول العالم وكان الحديث فيه عن العلاقات الزيرية مع الخلافة الفاطمية بالقاهرة والعلاقات مع المرابطين فى المغرب الأقصى والعلاقات مع بنى حماد ثم العلاقات مع الموحدين والعلاقات مع صقلية ومع دول جنوب أوربا ودور الدولة الزيرية فى هذه العلاقات .

والفصل السادس وهو نهاية الباب الأول وكان الحديث فيه عن سقوط الدولة ونهايتها وقائمة بأسماء حكام بنى زيرى فى القيروان والمهدية والعوامل التى أدت إلى هذا الانهيار .

ثم كان الباب الثانى فى هذا الجزء من الموسوعة عن الغزوة الهلالية لبلاد المغرب ولقد آثرت أن يكون هذا الباب هو حلقة الربط بين الباب الأول والثالث لدوره التاريخى فى هاتين الدولتين اللتين ظهرتا فى المغرب الأدنى والأوسط ففى الفصل الأول تحدثت عن بنى هلال قبل الرحيل إلى المغرب وأنسابهم وبطونهم وبنى هلال والدولة الفاطمية، ثم الفصل الثانى عن بنى هلال فى المغرب وصراعهم مع المعز بن باديس والسيطرة على القيروان العاصمة ورحيل ابن باديس إلى المهدية ، وفى الفصل الثالث عالجت موضوع القبائل الهلالية بعد القيروان ودورها فى الأحداث التى جرت فى المغرب ، ثم الفصل الرابع عن الامارات العربية التى خضعت للحكم الهلالى فى صورة شبه مستقلة أو حكم ذاتى ، والفصل الخامس عن بنى هلال وعلاقاتهم بالنورمان ودورهم فى صد غاراتهم وصراعهم مع الموحدين ثم كان الفصل السادس عن المآثر الحضارية للغزوة

الهلالية وأثر البعد الاجتماعى والاقتصادى للغزوة الهلالية فى الحياة اليومية فى المغرب بأقسامه المختلفة .

وكان الفصل السابع الذى تحدثت فيه عن أسباب الحملة العدائية التى شنت ضد بنى هلال وحاولت أن أبين للقارئ الكريم أسباب هذه الحملة العدائية ثم تلاه الفصل الثامن والأخير فى هذا الباب وفيه تناولت بالتحليل الموضوعى والعلمى الأسانيد الصحيحة للرد على ابن خلدون فيما نسبه للهلالية وفى حقيقة الأمر فان الفصلين السابع والثامن هما أخطر ما فى هذه الموسوعة لأنهما دراسة لم يسبق الإشارة إليها من قبل ولم يحاول باحث سابق أن يدحض مزاعم ابن خلدون العدائية للعرب الهلالية .

ثم كان الباب الثالث وهو خاتمة هذا الجزء وفيه تحدثت عن بنى حماد وظهورهم على مسرح الأحداث فى المغرب الأوسط وتم تقسيم هذا الباب إلى ستة فصول ، الفصل الأول تناولت فيه البحث عن ميلاد الدولة الحمادية ككيان مستقل وشمل الحديث عن الدولة الحمادية وظهورها بالقلعة كعاصمة سياسية والحكام الذين حكموا فيها كحماد بن بلكين الزيرى والقائد بن حماد ومحسن بن القائد وبلكين بن حماد ودور كل منهم فى أحداث الدولة وتلاه الفصل الثانى وتناولت فيه البحث والتحرى عن الدولة الحمادية بالعاصمة الجديدة بجاية ومن هم الأمراء الذين حكموا فى هذه العاصمة وهم الناصر بن علناش الحمادى ، والمنصور بن الناصر وباديس بن المنصور والعزيز بن المنصور ، ثم يحيى بن العزيز الذى كان خاتمة حكام بنى حماد .

والفصل الثالث عالجت فيه موضوع مآثر الحكم الحمادى بالمغرب الأوسط وأثر البعد الاجتماعى والبعد الاقتصادى والمنظور الثقافى والحضارى للدولة وظهور فن البناء والتشييد والهندسة الإسلامية المعمارية .

والفصل الرابع عن الجيش والأسطول والشرطة ودورها فى تدعيم كيان الدولة والمحافظة على وجودها .

وكان الفصل الخامس عن السياسة الخارجية لإمارة بنى حماد كالسياسة الخارجية مع أبناء عمومتهم بنى زيرى ثم العلاقات مع الخلافة الفاطمية فى القاهرة والعلاقات مع المرابطين بالمغرب الأقصى وأيضا العلاقات مع الأندلس وأيضا العلاقات مع الدول الأوربية المعاصرة لاسيما مع بابوات روما وأثر ذلك على حركة الجهاد الإسلامى فى هذه العصور ثم العلاقات المحلية الداخلية كالعلاقات مع بنى هلال وزناتة.

وكان الفصل السادس عن نهاية العرش الحمادى وسقوط الدولة وأسرة بنى حماد الذين حكموا البلاد ثم كانت خاتمة تلك الدراسة وما تم الوصول إليه من نتائج علمية وجاءت نهاية المطاف قائمة المصادر والمراجع العربية والأجنبية التى عولت عليها فى هذه الدراسة وللحقيقة فقد استفدت من الدراسات العلمية التى قدمت فى كلية دار العلوم حول هذه الكيانات الثلاثة وإن كانت هذه الدراسات لم تعالج جوانب الموضوع ولكل باحث أو دارس أو متعمق رؤية للأحداث التاريخية وطرق تحليلها ودراستها .

وفى هذا المجال أرجو من الله العلى القدير أن يكون هذا الجهد العلمى خالصا لوجهه ساعيا به أن يكون ثوابه رحمة ومغفرة من رب العباد وأن يفتح به الطريق أمام الذين يحاولون إعادة كتابة التاريخ الإسلامى من زاوية عربية إسلامية تخلصا مما علق به من كيد المستشرقين والمناهضين للحق الإسلامى والمشوهين للوجه المشرف للتاريخ الإسلامى وحضارته الخالدة الوارفة الظلال الزاخرة بنتاج العلماء الذين أثروا الحضارة العالمية والذين تركوا بصماتهم فى المجال الحضارى وأن يتابع أبناء اليوم مسيرة الحياة الحضارية العلمية الابداعية من أجل أمتنا العربية والإسلامية .

والله ولى التوفيق .

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الملك فيصل - الهرم - القاهرة

٦ شعبان ١٤١٢ هـ / ١١ فبراير (شباط) ١٩٩٢

الباب الأول

دولة بنى زيرى

بنى زيرى والدولة الفاطمية

قامت الدولة الفاطمية فى المغرب وحالفتها كتامة وصنهاجة وسارتا فى ركابها وبدأت الدولة الجديدة تتوسع صوب المغرب وكان الصراع على أشده بين الفاطميين وأحلافهم وبين زناتة التى كانت وأحلافها صاحبة السيادة على المغرب الأقصى بالإضافة إلى أن زناتة قد اتخذت المغرب الأوسط والأقصى وطنا لها .

وكانت منازل ومرابط صنهاجة وزناتة متجاورة مختلطة والعداء بينهما معروف ذلك العداء الذى عرفه تاريخ المغرب ، لكن خرج هذا النزاع المحلى إلى نطاق أوسع حيث ساندت صنهاجة الدولة الفاطمية منذ قيامها وكان هذا التأييد الصنهاجى قد حقق أحلام الفاطميين وأتاح لجنود الفاطميين أن تتوسع شرقا وغربا ووقفت زناتة فى المغرب الأوسط موقف الحذر ثم أخذت تهاجم المدن مما دعا الدولة الفنية أن تهاجمها اعتمادا على قوات صنهاجة وكتامة ولم تستطع زناتة أن تصمد طويلا أمام قوات هذه الدولة الناهضة .

وسيطرت زناتة على المغرب الأقصى وبايعت عبد الرحمن الناصر فى الاندلس وأحس الفاطميون أن زناتة أصبحت خطرا على كيان الدولة فكان إرسال الحملات العسكرية لاستعادة المغرب . واتخذ العداء بين الطرفين صورة جديدة من الحروب العنيفة والغارات المتواصلة .

وأمعن الصنهاجيون كيدا لزناتة فى تأييد الفاطميين أكثر من ذى قبل . فأقام مناد بن منقوش زعيم صنهاجة سلسلة من الحصون فى أملاكه استطاع عن طريقها أن يصد عدوان زناتة عن أفريقية وكانت زناتة بالمغرب الأوسط لاتزال قوية وبرز دور مناد كمساند أول للدولة الفاطمية والتى اعتمدت عليه كثيرا .

لكن الخطر الزناتي بلغ أشده في ثورة أبي يزيد بن مخلد بن كيداد الذي كاد أن يقضي على ملك الفاطميين في أفريقية وبقية المغرب ، لكن الفاطميين انتصروا وهزمت زناتة ولاذت قبائلهم بالفرار وزال خطر أبي يزيد وما أن انتهت ثورة أبي يزيد حتى كانت قوات الفاطميين تغزو المغرب الأوسط وتصدعت جبهة زناتة وتفرق شملها وتقلص نفوذها وبدأت زناتة ترحل بالتدريج من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى وأمعن ابن زعيم صنهاجة زيري (تستمد الدولة اسمها منه) بن مناد بن منقوش الصنهاجي في حربهم والتقى بقوات زناتة في موقع بين أشير وتلمسان وأحرز نصرا عظيما عليهم كما ذكر ذلك جوتيه وحوصر العدو وبذلك تمت سيادة صنهاجة على المغرب الأوسط بعد ذلك النصر ، إذ لولا ذلك الانتصار العظيم الذي حققه زيري بن مناد لما قدر للمعز أن يبايع صنهاجة وأن تخلف الفاطميين في حكم المغرب .

وتوفي زيري ، تاركا ابنه أحد أبطال البربر البرانس في أفريقية وهو بلكين الذي قاد قوات صنهاجة لتهزم زناتة والتي لم تستطيع الصمود أمامه فولت الأدبار صوب سجلماسة وراح بلكين ينتزع منها مدن المغرب الأوسط فاسترد طبنة وبغاية والمسيلة وبسكرة وتلمسان وقتل من زناتة في هذه المعارك جموعا لا تحصى وأصبح المغرب الأوسط لأول مرة منذ الغزو والفتح الإسلامي خاليا من زناتة وهاجرت فولوها إلى المغرب الأقصى وبذلك فان سيطرة صنهاجة بقيادة زعيمها بلكين الذي بدأ نجمه يسطع في سماء الفروسية والقتال والسياسة والذي استعان به الفاطميون وأدركوا قوته فزاد اعتمادهم عليه . وقد أصبحت صورة حقيقية وواقعة في مجال السياسة المغربية .

ولكن بلكين والذي أصبح من أكبر قواد الدولة والزعيم الأوحد بعد والده زيري لصنهاجة رأى تدخل الأمويين بالأندلس في عهد المستنصر قد ازداد في المغرب الأقصى وساندوا زناتة ومدوا لها يد العون وقضى على نفوذ الخلفاء الفاطميين في المغرب الأقصى وعاد المغرب الاقصى إلى طاعة الأمويين ، لكن بلكين كان لها بالمرصاد إذ

انقض على المغرب الأقصى لينال من زناتة فى عقر دارها الجديد فاسترد سجلماسة وفاس وهزم زناتة شر هزيمة . ولاذوا بالفرار إلى سبتة ليكونوا تحت حماية الأسطول الأموى .

وفى ذلك الوقت كانت عين المعز على مصر وكان يعد العدة للغزو حيث أنه رأى أن قوة الفاطميين فى المغرب قد تزعزعت بثورة أبى يزيد التى قضى عليها الصنهاجيون وأصبحوا بقيادة زيرى ومن بعده ابنه بلكين أصحاب القوة فى الدولة وكان باب مصر وفتحها هو الخلاص الوحيد أمام الخليفة الرابع أبى تميم مضر بالملقب بالمعز لدين الله والذى تولى الحكم فى ذى القعدة عام ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م . وهذا هو الهدف الذى كان يسعى إليه الخليفة الفاطمى الرابع فى المغرب .

الانتقال إلى مصر وبداية ظهور بنى زيرى :

ليس هناك أدنى شك فى أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله كان أقدر الفاطميين وأبعدهم رؤية فى بناء المستقبل السياسى للدولة إذ أنه أدرك أنه لايستطيع البقاء والاستمرار فى حكم المغرب بعد الصراع الطويل بين المالكية والاسماعيلية (المذهب الشيعى) وبعد ثورة أبى يزيد بن كيداد الملقب بصاحب الحمار ونفور الناس من الفاطميين واتهامهم بالخروج عن الإسلام وأفتى زعماء السنة بأن حربهم حرب جهاد وأن محاولات السيطرة على المغرب الأوسط بقيادة صنهاجة لم تكن تؤدى إلى ما يبتغيه الفواطم ذلك لأن بنى زيرى بقيادة بلكين كانوا أصحاب القوة والسيادة فيه وهم بدورهم حلفاء الفاطميين والذين لايعصون لهم أمرا ولا خطر على الدولة من ناحيتهم .

وكان النفوذ الفاطمى فى المغرب الأقصى رغم جهود صنهاجة بقيادة بلكين لم يخضع الخضوع النهائى فسرعان ما كان يثور عندما تعود قوات صنهاجة إلى المغرب الأوسط وكان المستنصر بن عبد الرحمن الناصر الأموى قد تمكن من طرد قوات الفاطميين من المغرب الأقصى والقضاء على نفوذهم وأصبح المغرب تحت حكم مغراوة

وبنى يفرن من زناتة وسيادة الأمويين فى سبتة وأدرك المعز لدين الله بعد مناقشات مع كبار قواده ومنهم جوهر الصقلى وبلكين بن زيرى أن المغرب وأفريقية لم يعودا الوطن الخصب للدعوة الشيعية فلابد من الاستيلاء على مصر .

وحشد المعز مائة ألف جندى وقيل أنه صرف على إعداد هذا الجيش أكثر من أربعة وعشرين مليونا من الدنانير عدا ما حمله ألف جمل من صناديق الذهب للصرف منها على الحملة وقد وصف أحد المصريين بالاسكندرية عند دخول هذا الجيش إليها بأنه مثل « جمع عرفة كثرة وعدة » وكان المعز قد دخل الاسكندرية فى شعبان عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م .

ولكن قوله حق فان الفاطميين طوال تاريخهم الطويل لم يكونوا بيتا محببا من الناس والعامة ولم يكونوا وثيقى الصلة بالشعب الذى يحكمونه فكما كانوا غرباء فى المغرب كانوا غرباء فى مصر والشام وكل موقع وصلت إليه دعوتهم الشيعية حيث كان المالكية قد وقفوا بالمرصاد للدعوة الشيعية واحتدم الصراع بين المالكيين والشيعة وكثرت الثورات مما جعل الفاطميين يفكرون فى قاعدة جديدة تستطيع الدعوة الشيعية أن تجد فيها الأمن والاستقرار والانتشار بدلا من المغرب وأهله فاتجهت وجهتهم صوب مصر .

وهكذا كان فتح مصر هو الموقف الذى يتلاءم طبيعيا مع ما وجد المعز لدين الله نفسه فيه وكانت الظروف كلها تقف فى صفه واستقر المعز فى مصر واستقبل أعيان المصريين وهو يحمل بيده اليسرى قدرا من الدنانير الذهبية وفى اليد اليمنى سيفا مسلولا وقال لهم (من لم يرض بهذا - إشارة إلى الذهب فله هذا إشارة إلى السيف) .

وكان آل زيرى من صنهاجة هم الذين أتاحوا للخلافة الفاطمية سبيل القضاء على نفوذ الأمويين فى المغرب الأقصى واستمرت معونتهم للفاطميين أكثر من أربعين عاما كانوا هم العدة والسند القوى والمساندة السريعة وكان دورهم فى ذلك حاسما

ووثق بهم أبو القاسم إلى حد أنه سمح لهم ببناء عاصمة لهم هى أشير على سفح الجبل الأخضر .

ورحل الفاطميون عن المغرب إلى مصر بعد أن حكموه أكثر من ستين عاما لم يقدموا للبلاد التى حكموها أى أثر حضارى أو ثقافى أو علمى اللهم إلا أنهم عمروا مدينة واحدة هى المهدية والتى كانت قاعدة بل حصنا خاصا لهم أما المدن المغربية الأخرى فلم يكن للفاطميين أدنى أثر فيها ولم ينشئوا مسجدا واحدا يذكر لهم فيما عدا مسجد المهدية الذى كان مسجدا خاصا للأسرة الحاكمة ولم تكن لديهم أية نية فى عمران المغرب فلا هم شقوا طريقا ولا شيدوا أسواقا ولا نفعوا قبيلة من القبائل التى خدمتهم ككتامة أو غيرها .

وقد اتسمت سياستهم بالأنانية البالغة فقد حرصوا على بقاء المغرب تحت سيطرتهم وكذلك عند الانتقال إلى مصر احتفظوا بولاية صقلية مع علمهم ببعد مصر عنها . وعجزهم عن مساندتها عند الشدة ولو كانوا أخضعوها لحكم بنى زيرى لتغير المسار التاريخى بها .

كما أن الفاطميين لعبوا دورا فى اذكاء الصراعات العصبية بين القبائل فاستعانوا ببعضها على البعض الآخر (صنهاجة وكتامة ضد زناتة) إلى درجة جعلت هذه القبائل تدخل فى حرب ابادة بل هرب بعض زعماء هذه القبائل إلى الأندلس ناجين بأنفسهم من الصراع القبلى وسنرى أثر ذلك فيما بعد على مستقبل الكيان السياسى للدولة الزيرية . حتى أنه ليمكن القول أن العاصمة الفاطمية وقيام دولتهم فى كل من المغرب ومصر كانت من أكبر أسباب ضعف دولة الإسلام فى الأندلس لأنها كانت بداية الضعف فى المغرب وليست الغزوة الهلالية التى كان الفضل كل الفضل فى الوجه الحضارى والثقافى والعربى والإسلامى للمغرب . وهكذا رحل الفاطميون وبدأ الدور على القيادة الصنهاجية البربرية فى أفريقية والمغرب الأوسط .

الفصل الأول

بني زيرى على مسرح الأحداث فى المغرب الأدنى والأوسط

تقول الروايات التاريخية التى يرويها المقريزى وابن عذارى وابن خلدون وابن الخطيب أن المعز لدين الله الفاطمى قبل رحيله إلى مصر بل أنه عندما عزم على الانتقال إليها استقدم جعفر بن على بن حمدون الزناتى وعرض عليه استخلافه نائبا عنه فى أفريقية وأن يتولى أمور هذه البلاد وهى أفريقية والمغرب (الأوسط والأقصى) تابعا للفاطميين فى مصر ومنها أن يكون أميرا مستقلا يتصرف فيما يراه دون انتظار رأى المعز ويولى القضاء بنفسه وألا يرسل أية أموال إلى مصر وقال للمعز « أترك معى أحد أولادك أو أخوتك يجلس فى القصر وأنا أدبر ولا تسألنى عن شئ من الأموال لأن ما أجبيه (جباية) يكون بازاء ما أنفقته وإذا أردت أمرا فعلته دون أن أنتظر ورود أمرك فيه لبعد ما بين مصر والمغرب ويكون تقليد القضاء والخراج وغيره إلى فغضب المعز لذلك حتى قال يا جعفر عزلتنى عن ملكى وأردت أن تجعل لى فيه شريكا فى أمرى واستبددت بالأعمال والأموال دونى . قم فقد أخطأت حظك .

وعقب ذلك استعدى المعز لدين الله الفاطمى بلكين بن زيرى بن مناد بن منقوش الصنهاجى وكان من أكبر أكابر قبيلة صنهاجة بل هو الزعيم الأوحد لصنهاجة وقائد الانتصارات الكبيرة على زناتة وأحد كبار رجال دولته وجيشه وعرض عليه ولاية افريقية والمغرب فقبلها بشروط المعز وأسند إليه ولاية المغرب بعد أن حدد له كثيرا من اختصاصاته واقتصرها على ولاية الحرب فقط .

ولقد كانت رؤية المعز فى استدعاء بلكين صائبة ذلك لأن جد بلكين وهو مناد ابن منقوش الصنهاجى قد ملك أفريقيا والمغرب وكان يقيم الدعوة لبنى العباس فى بغداد ثم أقامها من بعده ابنه زيرى بن مناد وكان من أعظم ملوك البربر ولما استتب

الأمر للفاطميين بأفريقية والمغرب تحيز إليهم زيرى بن مناد الصنهاجي والد بلكين وكانت له جهود عظيمة فى دفع الخطر عن الدولة الفاطمية ومناصرتهم وظل على ولائه لهم حتى مات عام ٣٦٠ هـ فى قتاله لقبيلة مغراوة من زناتة وهكذا أحسن المعز لدين الله اختيار بلكين بدلا من جعفر بن حمدون الزناتى وفوض إليه أمور البلاد ما خلا (فيما عدا) صقلية وطرابلس وبرقة فقد كانت ولايات مستقلة عن أفريقية وتتبع حكم مصر مباشرة .

وهكذا قبل بلكين الحكم على أن يبقى تابعا للفاطميين فى أفريقية والمغرب ولكنه استعظم المهمة وقال للمعز لدين الله قتلتنى يامولاى بغير سيف أو رمح وفى حقيقة الأمر فان بلكين بن زيرى قال للمعز يامولانا أنت وأبناؤك الائمة من ولد رسول الله ﷺ ما صفا لكم المغرب فكيف يصفو لى وأنا صنهاجى بربرى قتلتنى يامولانا بلا سيف أو رمح ، ويريد بذلك أنه ينوء تحت حمل المسئولية التى عهد إليه المعز لدين الله بها .

وبعد ذلك أصدر المعز له عهدا بولاية افريقية وسماه يوسف ولقبه أبا الفتوح . وكان اسناد المعز لدين الله الفاطمى امارة افريقية والمغرب عامة إلى الأمير بلكين بن زيرى له وقع الأثر فى نفوس الشعب المغربى إذ أن بلكين كان من قبيلة ذات شوكة وعصبية قوية فهى التى أيدت ملك الفاطميين وشدت أزر المعز وأخلصت له فى الولاء والدفاع عن كيان الدولة فى وقت الشدة والخطر .

وبتولى هذا الأمير الصنهاجى حكم افريقية والمغرب انتقلت السلطة رسميا من العنصر العربى إلى العنصر البربرى ، أما فى العهد الفاطمى فقد كانت السلطة ممتزجة بين العنصرين معا .

وقد أوصاه المعز لدين الله وصية قال له فيها إذا نسيت شيئا معا أوصيتك فلا تنسى ثلاثة أشياء (ألا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر

ولا تولى أحد من أخوتك أو أبناء عمك فانهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك واستوصى بالحضر خيرا) .

وكان الأمير أبو الفتوح يوسف بلكين بن زيرى قد سار مشيعا المعز لدين الله لما رحل ودخل قابس فى ٨ ربيع الأول عام ٣٦٢ هـ . ووصل يوسف مشيعا إلى أبار الخشب ثم أمره المعز بالرجوع إلى افريقية وأوصاه بهذه الوصية وعندما نحلل هذه الروايات ندرك أن دولة الفاطميين فى المغرب قامت على أكتاف كتامة وصنهاجة فلما يعرض المعز الولاية على زعيم زناتي هو جعفر بن على بن حمدون الزناتي هو عدو للصنهاجيين ونقول لعل السياسة التى سلكها الفاطميون من قبل فى ايثار قبيلة على أخرى وضرب قبيلة بأخرى وفى اصطناع زعماء وترك آخرين كانت الدافع لهدف المعز لدين الله إذ أنهم أحبوا الصراعات القبلية فى المغرب وتركوا آل زيرى غارقين فى الصراع القبلى وثارات القبيلة مما جعل المعز يضمن بقاء المغرب تابعا له وهو يحكم مصر إذ أن اختيار زعيم زناتة كان سيدخله فى صراع عنيف مع صنهاجة بعد أن صحب معه معظم قبيلة كتامة إلى مصر .

كذلك فان وصية المعز الثانية لابى الفتوح يوسف بلكين بألا يرفع السيف عن البربر (وقد يكون المقصود بها البربر البتر سكان الصحراء من زناتة وليس البربر البرانس سكان الحضر من زناتة) . لكن مهما يكن فليس من المعقول أن يستخدم أبو الفتوح يوسف السيف ضد رعيته التى كان معظمها فى ذلك الوقت من البربر ولم يكن بها إلا قليل من عرب الفتح . أما ألا يرفع الجباية عن أهل البادية فهم بربر زناتة وهؤلاء ناصبوا الدولة العداء منذ أول لحظة وخرجوا عليها وتعاونوا مع أعدائها الأمويين فى الأندلس فقد يكون القصد من وراء ذلك أثقالهم بالجباية حتى يظلوا دائما فى فقر وأن يتركوا أماكن اقامتهم هربا منها ولايفكروا فى القيام بالثورة ضد أبى الفتوح يوسف نائب الفاطميين بالمغرب .

كما أن ما جاء بالرواية عن المعز لدين الله فى وصية أبى الفتوح يوسف بالعناية بالحضر ، والحضر كما هو مفهوم لدى الجميع هم سكان المدن الكبرى ولقد كان سكان المدن الكبرى فى افريقية والمغرب هم من الأسباب الأساسية فى رحيل الفاطميين إذ كان سكانها من أهل السنة أصحاب المذهب المالكى الذين كادوا للمذهب الشيعى ووقفوا له بالمرصاد فى كل مكان ووقف سكان المدن وراء علماء المذهب المالكى يشدون أزرهم فى محاربة بدع الشيعة فكيف يوصى بهم المعز خيرا .

لكن بعض الروايات تذكر أن المعز لدين الله الفاطمى أوصى نائبه على افريقية والمغرب أبا الفتوح يوسف بأن يواصل حملاته العسكرية على المغرب الأوسط والأقصى للقضاء على النفوذ الزناتى والأموى وقد تكون هذه الوصية هى الأقرب للقبول لأن الفاطميين طوال وجودهم بالمغرب كانوا أعداء للأمويين فى الأندلس وعاملين على وقف امتداد نفوذهم إلى المغرب .

(أ) دولة بنى زيرى فى ظل النفوذ الفاطمى
أبو الفتوح يوسف بلكين بن زيرى بن مناد بن منقوش الصنهاجى
(٣٦٢ – ٣٧٣ هـ – ٩٧٢ – ٩٨٣ م)

يتولى أبو الفتوح يوسف (بلكين) بن زيرى بن مناد الصنهاجى واليا أو أميرا شبه مستقل لكل بلاد أفريقية وأقسامها بلاد الزاب وأفريقية (المغرب الأدنى)وما يفتحه من بلاد المغرب الأوسط والأقصى فقد أصبح لأول مرة فى تاريخ المغرب الإسلامية يتولى الحكم رجل من صميم قبائل البربر أهل المغرب وهو أول حاكم لدولة إسلامية فى بلاده لها اعتراف من قبل الخلافة الفاطمية فقد انتقلت السلطة الفعلية رسميا إلى العنصر البربرى الإسلامى .

وقد كان هذا الأمير شجاعا حازما ، بعيد النظر مظفرا فى حروبه مع زناته وغيرها. وقد سادت العلاقات الودية بين الدولة الفاطمية فى مصر والدولة الزيرية الصنهاجية فى أفريقية طوال امارة أبى الفتوح يوسف بن بلكين بن زيرى روح الود والصداقة . وتكاد تكون فترة حكم أبى الفتوح إحد عشر عاما ميلاديا كانت استمرارا لحكم الدولة الفاطمية فقد نجح بلكين فى القضاء على محاولات زناتة الاستقلال بالمغرب الاقصى بقيادة زيرى بن عطية المغراوى لتكوين دولة فى فاس وما وحولها تكون تابعة للأمويين فى الأندلس كما تمكن من الاستيلاء على فاس وسجلماسة وطرد عمال بنى أمية وتمكن بلكين من طرد أمراء زناتة من المغرب الأوسط بالأندلس ولكن جهود بلكين لم تستطع أن تستأصل الخطر الزناتى من المغرب الأقصى تماما ، فلم يكد يعود أدراجه إلى افريقية حتى علم أن بنى خزرون قد استولوا على سجلماسة واستمرت مغراوة تحكم المغرب الأقصى حتى سقطت على يد المرابطين عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٨م وبقيام دولة زناتة المغراوية تكون حاجز يفصل بين صنهاجة التى تظهر الولاء للفاطميين فى المغربين الأدنى والأوسط وبين الأمويين فى الأندلس . وذلك لان الفاطميين اقتنعوا منذ الاستيلاء على مصر أن مسرح دورهم الكبير الطامعين إلى القيام به هو الشرق وليس فى أى مكان آخر ، حيث الصراعات العقائدية والاجتماعية على أشدها تطوق خلافة بغداد فتزيدها عزلة واضطرابا .

وكان الفاطميون قد عانوا كثيرا من متاعب علاقاتهم مع البربر الذين لم يلتزموا بالولاء لهم وكانت قبيلتا صنهاجة وزناتة الأكثر نفوذا وسطوة والمنافسة بينهما على أشدها إذ نجد أن صنهاجة قد سارت على الخط الفاطمى وتأييده وعين زعيمها (زيرى بن مناد الصنهاجى) حاكما عللى المغرب الأقصى واتجهت زناتة إلى الدولة الأموية فى الأندلس وتحالفت معها ضد صنهاجة وكانت هذه نقطة الضعف فى السيادة الفاطمية على المغرب التى استقلها حاكم الاندلس (الحكم المستنصر) باعطاء زناتة الدعم الكافى للوقوف فى وجه الفاطميين وصنهاجة والاحتفاظ بالمغرب الأقصى تحت

سيطرة الأمويين لاسيما على ساحل المغرب مثل طنجة وسبتة ومليلة واضعاف الحكم الفاطمى فى هذه المنطقة وجعل التوازن السياسى والعسكرى فى المغرب الأقصى لصالح الأمويين.

وما لبث الصراع فى المغرب أن اتخذ بعدا محليا مع غياب الحكم الفاطمى المباشر وانتقاله إلى مصر فأخذت القوى السياسية فى المغرب الأقصى والأوسط تتصارع على النفوذ وملء الفراغ والذى كان على بلكين أن يسد الصراع والخلل من أثر رحيل الزعامة الفاطمية .

ومن ذلك بقايا أسرة الادارسة بزعامة الحسن بن كنون آخر أمراء الادارسة قبل أن يقضى الفاطميين عليهم فتحالف الزعيم الأدريسى مع الأسرة الأموية فى الأندلس للوقوف فى وجه الحكم الزيرى بقيادة أبى الفتوح يوسف بن بلكين الزيرى ممثل الفاطميين الشيعة ، كما أن زناتة حليفة الأمويين حاولت أن تجد لها دورا وسط هذا الصراع على النفوذ فقوى شأن هذه القبيلة بتحالف زعمائها مع الأندلسيين وكان هذا الحلف ضد الفاطميين وممثليهم بنى زيرى الذين دفعوا ثمن هذا التحالف بقتل زعيمهم ممثل الخلافة الفاطمية ٣٦١ هـ / ٩٧١ م .

وكانت هذه الحادثة ضربة لنفوذ صنهاجة وانتصارا للسيادة الأموية التى استعادت مركزها فى المغرب الأقصى . لكن النفوذ الأموى لم يدم طويلا بعد سحق النفوذ الشيعي والقضاء على السيادة الفاطمية ممثلة فى بنى زيرى فى هذا الاقليم حيث ظهر الادارسة للسيطرة على المواقع الاستراتيجية فى المنطقة مثل طنجة وتطوان وأصيلة وسبتة التي كانت إحدى ركائزهم العسكرية الأولى فى المنطقة مسقط التحالف بين الادارسة والأمويين وعودة هذه المدن للنفوذ الأموى ، غير أن هذه المعارك والحشود الأموية زادت من توتر العلاقة بين الأمويين وبنى زيرى وعودتهما إلى المجابهة والقتال مرة أخرى وكان على بنى زيرى أن يواجهوا هذا الموقف بقيادة بلكين الزيرى .

وكان آل زيرى قد قاموا ببناء عاصمة لهم أثناء حكم الفاطميين للمغرب فى أشير وكانت قرية صغيرة لم تلبث أن اتسعت بفضل موقعها الممتاز إذ كانت على مشارف منطقة التل الغنية بمزارعها وتشرف على جبال منطقة القبائل الشرقية فى المغرب الأوسط وتتحكم فى الطريق الساحلى كما تشرف على البدو الرعاة القاطنين على مشارف الهضبة ويؤكد البكرى أنه لم تكن هناك مدينة أخرى تضارعها فى مناعتها وعاونهم الخليفة الفاطمى المستنصر فى بنائها بأن أرسل لهم الصناع والمهندسين بل كثيرا من المواد المستخدمة فى البناء حتى إذا اكتملت أشير نقل إليها بنو زيرى السكان من أكثر من قرية وكان أكثرهم من أعداء الدولة حتى يسهل مراقبتهم وأسس آل زيرى إلى جانب عاصمتهم ثلاث مدن أخرى هى الجزائر وميديا ومليانة ونقلوا إليها دواوين الحكومة وكبرت هذه المدن بدورها . حتى تقاطر إليها التجار فأصبحت مراكز تجارية هامة بين منطقتى التل والهضبة كما أصبحت مراكز علمية ثقافية بمن اجتمع فيها من العلماء ورجال الدين والقضاة والمشرعين .

وأصبحت أشير مركز قوة صنهاجة حتى إذا ترك الخليفة المعز المغرب إلى مصر مستخلفا بلكين بن زيرى لم ينتقلوا من عاصمتهم أشير إلى المنصورية إلا اسفين على ترك مدينتهم الأولى فى المغرب وكانت انتقال أبى الفتوح ويوسف إلى المهدية (المنصورة) يعنى أنه لابد من استكمال عناصر هذه الدولة وأن يقيم الحكم على النظام والقوة . وبذلك كانت تجربة الدولة الزيرية هى بداية الحكم الإسلامى البربرى فى المغرب فى دور الاستقلال والبناء الجديد دون النظر إلى حكم الأغالبة والادارسة وبنى رستم وحكم العرب الفاتحين الموالين للدولة العباسية ثم العرب بقوة الفاطميين كل هذه الدويلات تختلف فى شكل الحكم والقيادة عن دولة بنى زيرى الصنهاجة ذلك لان بنى زيرى كانوا بيتا بربريا أصيلا استعرب لسانا ودخل فى الكيان الإسلامى الكبير وفى البناء العربى الإسلامى للدولة العربية الكبرى .

ويرى ابن خلدون وهو كثيرا ما يخطئ فى الحكم والقول مستندا إلى الأصل البربرى الذى انتقلت إليه السلطة فى المغرب بعد انتقال الفاطميين إلى مصر أن انتقال السيادة والسلطان فى المغرب من العرب إلى زعماء البربر ورؤساء قبائلهم الذين شقوا عصا الطاعة عن الدولة العباسية واستعصى على الدولة حكمهم ، ومن ثم تمزقوا إلى دويلات قبل قدوم الفواطم إلى المغرب وانقسموا أيضا إلى دويلات وقبائل وتبعيات بعد خروج الفاطميين ، أنهم قد انفردوا بالسلطان فى بلادهم وأن افريقية والمغرب استقلتا عن بلاد المشرق وهل مصر والقاهرة إلا بلاد المشرق . أن اختيار الخليفة المعز كان لقبيلة قوية وكثيرة العدد وهذا شأن صنهاجة ولم تكن فى ذلك الوقت قوة عربية قادرة على السيطرة على حكم المغرب لاسيما بعد أن صار الجميع مسلمين لا فرق بين عربى وبربرى الكل يستظل براية الإسلام ويعمل تحت لواء الإسلام فلم يكن إذن معنى لذكر ابن خلدون ومحاولة السير وراء العصبية العربية أو البربرية .

لكن ما جاء على لسان ابن خلدون تلقفه أعداء الإسلام والعرب وغمزوا له فى كتاباتهم وهذا ما نجده فى أقوال الفرنسيين الذين عملوا ما وسعهم العمل للتفرقة بين ما هو عربى وبربرى ناسين أن الإسلام قد وحد وجمع هذه العناصر فأقوال جورج مارسيا-Macais, G. فى كتابه البربر والشرق الإسلامى وفورنال هنرى Fournel, H. فى كتابه البربر المجلد الأول المطبوع فى باريس عام ١٨٧٥ م ينطلقان من فكر خاطئ قامت عليه السياسة الاستعمارية وهى فرق تسد فيقولان أن انتقال السيادة إلى بربر صنهاجة كان تحقيقا لأمل البربر القديم فى الاستقلال عن العرب ودولتهم . وهما قد نسيا أن مفهوم العرب والبربر لم يظهر إلا من خلال كتاباتهم المغرضة فقد كان يطلق على كل منهم مسلم وأصبح الإسلام عنصر الربط والوحدة فى العصور الوسطى ولم يكن مفهوم القوميات قد عرف وكان طابع الدين هو الغالب وكان الإسلام يجمع الأجناس ويوحدها . ومن هنا فما وقع فيه ابن خلدون من خطأ سار عليه أصحاب الأهداف الخفية . وليس المجال هنا للتوسع فى ذلك العنصر من عناصر بناء دولة بنى

زيرى لكن المهم اننا تجاه أسرة مسلمة ذات طابع إسلامى أصيل وأصول عرقية بربرية تتولى شئون الحكم والسيادة على أرض أفريقية وتتطلع للسيطرة على المغربين الأوسط والأقصى ، لم يكن طابعها النزوع إلى الاستقلال أو بناء كيان مستقل ذو طابع قوى لكن أسس بناء الدولة كان قد تم فى عصر الفاطميين ولم يغب على شكل الحكم إلا الخليفة وجهازه الحاكم ولا شك أن بلكين كان ضمن هذا الجهاز وقد درب الكثيرين من اتباعه قبل رحيل المعز لمصر فقد كانت أمور الحكم تسير كالمعتاد وبعد أن وضع العرب قواعد بناء نظم الدولة وسنذكر ذلك فى فصل لاحق فى ثنايا تلك الدراسة .

وهكذا نرى أن وصول الحكم إلى بيت آل زيرى من صنهاجة المؤيد بقوات وقبائل صنهاجة الكبرى القوية جعل نار العداوة تشتعل بين صنهاجة وزناتة وكان خروج العرب من ميدان الصراع نظرا لقلة عرب الفتح أو ما أطلق عليه عرب المغرب البلدين الذين ولدوا بعد الفتح ونشأوا وصاروا مغاربة قد خرجوا من ميدان الصراع على السلطة وصار الصراع طويلا بين صنهاجة وزناتة على السيادة وحكم بلاد المغرب .

ويبدو أن تعيين الفاطميين ليوسف الصنهاجى على إمارة افريقية قد أثار غضب منافسه جعفر بن على بن حمدون الزناتى إذ نراه يترك البلاد هاربا إلى الاندلس حيث كانت أول مظاهر هذا الصراع هو شعور جعفر الزناتى كبير زناتة افريقية وشرق المغرب الأوسط بأنه لم يعد آمنا فى بلاده فبارح افريقيا لاجئا إلى المستنصر فى الاندلس ودخل فى خدمته حيث استقبله الخليفة هو وأخاه يحيى ورحب بهما الخليفة الأموى وعقد لهما على بلاد المغرب الأقصى إذ كان عدو الفاطميين وعقب ذلك ثار الزناتيون وانتقض الزناتيون فى تاهرت ، وكان نجاح بلكين بن زيرى فى القضاء على قوة بنى حمدون بالزاب دافعا لان يهرب جعفر الزناتى وأخوه يحيى إلى الاندلس وصارا من موالى بنى أمية وكانا يحكمان منطقة طنجة وسبتة ، لكن بلكين دخل تاهرت وخربها ، ثم عاد دون أن يندفع وراء زناتة فى المغرب الأقصى لأن المعز كان قد نصحه بألا

يوغل فى غزو المغرب .

وفى عام ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م أضاف المعز لدين الله الفاطمى إلى ولاية أبى الفتوح يوسف بن زيرى ولايات طرابلس وصرت واجدانية وهكذا اتسعت ولاية بلكين فى الشرق حت صارت عند حدود برقة .

وإزاء ذلك التوسع وهذه الانتصارات فإننا نجد الخلفاء الأمويين فى قرطبة وأنصارهم من بنى زناتة قد تمكنوا من اثارة المتاعب فى وجه بنى زيرى ، ذلك لان زناتة لم تسكت على غزو المغرب الأوسط وتخريب مدينة تاهرت فحشد أحد زعماء زناتة وهو خزرون بن خزر الزناتى قواته وسار نحو سجلماسة عام ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م وكانت تحت حكم أنصار بنى زيرى وقتل أميرها محمد المعز بالله من أولاد الشاكر لله المدرارى وهكذا فتحت زناتة جبهة أخرى جنوبا أمام بنى زيرى التابعين للفاطميين فى مصر ، لكن إزاء هذه السياسة الأندلسية وأعوانها من زناتة واثارة المتاعب أمام الدولة الزيرية الفتية يتقدم أبو الفتوح يوسف بن زيرى نحو المغرب الأقصى ويدخل فاس ويقتحم أصيلا وشالة على ساحل المحيط الأطلسى . وكان الفاطميون بعد نجاحهم السياسى والعسكرى فى المشرق قد عادوا إلى الاهتمام بالمغرب الأقصى وبقية بلاد المغرب نواة دولتهم الكبرى ففى عام ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م كان حلفاؤهم الصنهاجيون من بنى زيرى ممثلوهم فى حكم المغرب الأقصى يقومون بثورات ذات طابع شيعى لاسترداد زعامتهم من الأمويين خلفاء الأندلس وكان على رأسهم بلكين بن زيرى الصنهاجى الذى بدأ تحركه من مدينة فاس وانطلق منها للقضاء على السيادة الأموية فى المغرب ومطاردة بقايا الأمويين وترسيخ النفوذ الفاطمى هناك .

ولقد حاول ابن زيرى توحيد المغرب فعجز عن ذلك لمنافسة قبائل زناتة له وقد كانت القبائل تدين له بالطاعة لكن المغرب الأقصى الذى غمرته القبائل الزناتية كان منشقا على الدوام ومعترفا بسيادة الأمويين بالأندلس ولعل السياسة التى سلكها

الفاطميون من قبل فى ابثار قبيلة على أخرى وفى اصطناع زعماء وترك آخرين وتوصيتهم بلكين باتباع سياسة التفريق كان له تأثير على انشقاق الوحدة القومية فى المغرب الإسلامى وتوجيهها نحو التعصب للروح القبلية على ما فيها من عيوب وخلل .

وكان بلكين هذا أول من أشتهر من بنى زيرى بعد أن فتح الزاب وأوغل حتى سجلماسة ثم استولى عليها وخرب تاهرت ونقل سكانها إلى أشير وما أن تقدم إلى طنجة حتى أعلنت ولائها للأمير بلكين تاركه جانب الأمويين وكان سيف الدولة أبو الفتوح قد نجح فى إخضاع قبائل زناتة بعض الشئ تسانده صنهاجة ويبدو أن بلكين كان قاسيا حقا كما أوصاه المعز إذ هرب كثيرون من البربر إلى الاندلس . وسكنوا الجبل الأصفر وأقام بلكين على أجزاء الدولة أبناءه وأخوته يحكمون معترفين له بالسلطة ومعترفا لهم بدوره بسلطان الفاطميين على أفريقية والمغرب الأوسط وكل شبر يتم فتحه وإضافته للدولة .

وعندما تولى العزيز بالله أبو منصور حكم مصر فى ربيع الآخر عام ٣٦٥ هـ أقر أبو الفتوح يوسف بن بلكين على المغرب وأضاف إليه ولاية طرابلس .

وتوفى أبو الفتوح يوسف بن زيرى عام ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م . وذلك قبل أن ينجح فى رد زناتة على أعقابهم ومات وهو فى طريق عودته من المعارك عائدا إلى افريقية . وقد حكم اثنى عشر عاما هجريا استطاع فى خلالها أن يدعم وجود الدولة وأن يفرض هيبتها وسلطانها على الانحاء التى كانت تخضع للنفوذ الفاطمى وعارك زناتة واستطاع أن يضع اللبنة نحو انشاء دولة بربرية فى أفريقية والمغرب الأوسط .

وهكذا نرى كيف أظهر هذا الأمير نشاطا واسعا وعملا دؤوبا وقد قام بالمهمة التى أوكلها له الفاطميون على خير قيام ولقد كان بلكين على درجة عالية من الذكاء وبعد النظر عندما قبل تولية الفاطميين له إذ أنه كان يدرك أن هذه البلاد سوف تكون ارثا له ولذريته من بعده ومن هنا فان كل ما قام به من نشاطات وحروب لم يكن ليخدم

الخلافة الفاطمية فقط بقدر ما كان سعيا منه لكى يثبت أركان دولته ويمهد الطريق لاستقلاله وأسرته بالمغرب الإسلامى ، لكنه لم يحاول أن يكسب ود زناتة أو يهادنها بل استخدم القوة والعنف والشدة معها مما دفعها إلى الاستعانة بالأمويين ومن هنا خرج المغرب الأقصى عن سيادة بنى زيرى ودخل بنو أمية ميدان الصراع فى المغرب .

أبو الفتوح المنصور بن بلكين بن زيرى الصنهاجى
(٣٧٤ – ٣٨٦ هـ – ٩٨٤ – ٩٩٦ م)

كان أبو الفتوح المنصور بن أبى الفتوح يوسف بن زيرى قبل أن يتولى مقاليد الحكم وتؤخذ له البيعة من أشياخ بنى زيرى كان فى عهد أبيه يتولى حكم اقليم الزاب التى افتتحه أبوه بعد أن ترك المعز افريقية وكان نائبا عن أبيه فى حكمه وقد بويع بالإمارة فى مسجد القيروان وكان فارسا مقداما وقسم ولايات الدولة بين أعمامه وأخوته فعين عمه أبا البهار بن زيرى بن مناد عاملا من قبله على المغرب الأوسط وجعل مركز حكمه وعاصمة الاقليم مدينة تاهرت وعين فى نفس الوقت أخاه بطوف بن يوسف بن زيرى واليا فى عاصمتهم القديمة أشير التى بناها جدهما زيرى فى المغرب الأوسذ وأوصاهما بالتعاون معا على حماية المغرب الأوسط والعمل على صد أى عدوان تقوم به قبائل زناتة .

وكان المنصور بن أبى عامر المستبد بحكم الاندلس باسم خليفته هشام المؤيد من الحكم المستنصر قد أيد زعيم زناتة زيرى بن عطية المغراوى وأعانه على بسط سلطانه على المغرب الأقصى وجعل عاصمته فاس . وقد استطاع المنصور بن أبى عامر بعد وفاة بلكين أن يتحلل من الاتفاق الذى كان قد أبرم بينهما وأصبحت الدولة الأموية مطلقة اليد فى شئون المغرب الأقصى وأصبح ميدان المغرب الأقصى هو الميدان الذى يستطيع المنصور فيه أن يبدى نشاطه ويظهر مقدرته ويعمل على تأييد حلفائه من زناتة وقد استطاعت مغراوة أن تجمع شملها وأن تستولى على فاس ، كما حاول المنصور بن

بلكين بن زيرى أن يدفع مغراوة عما أرادته بفاس وسجلماسة ولكنه ارتد على أعقابه مهزوما وتأكدت سيطرة المغراويين بفاس . وعملت زناتة عن طريق زعيم مغراوى زيرى بن عطية على بسط سلطانها على المغرب الأقصى دون منازع من صنهاجة . وهكذا فانه فى عهد محمد بن أبى عامر المنصور ازدادت الأوضاع السياسية فى المغرب تعقيدا وكانت لها أبعاد خطيرة على مستقبل النظام الزيرى بصورة خاصة وبذلك ارتفع عن المغرب الأقصى الكابوس الفاطمى لتنصرف البلاد إلى معالجة مشاكلها الداخلية التقليدية وتتحول أبصار بنى زيرى بعيدا عن المغرب الأقصى نهائيا .

وكان المنصور الزيرى قد أرسل عام ٣٧٤ هـ الجيوش لاسترجاع المغرب الأقصى من أيدى زناتة ولكنها لم تحقق الهدف المنشود من وراء تلك الحملات ، وتولى حماد ابن بلكين قيادة الجيوش ولكن حماد لم يتمكن من القضاء على قوة زناتة نهائيا .

لكن أبا الفتوح المنصور بن يوسف بن زيرى لم يجد بدا من مواصلة الحرب ضد زناتة سادة المغرب الأقصى فأرسل أخاه بطوقت فى جيش كبير نحو فاس واحتلها لكن زيرى بن عطية المغراوى الملقب بالقرطاس تصدى له وأخرجه من فاس وهزمه فى معركة قتل فيها ألوف الصنهاجيين وكانت هذه آخر محاولة قام بها بنو زيرى الصنهاجيين للتدخل فى شئون المغرب الأقصى فأصبح المغرب الأقصى تحت سيطرة زناتة مؤيدة من قبل الأمويين بالأندلس .

وقد وقعت بين أبى الفتوح المنصور وبين أعمامه حروب من أجل تولية العرش ليثبت فيها بما لديه من قدرة وكفاية قتالية عالية حتى انهزم أعمامه والتحق بعضهم بالأندلس وأسسوا هناك إمارة غرناطة وجهز هدية قيمة للخليفة الفاطمى بمصر العزيز بالله أبى منصور نزار ، فأتاه من قبله سجل وهدية بها فيلة وزرافات وكانت سياسته لا تختلف عن سياسة الداعى ابن عبد الله الشيعى أو عن سياسة عبيد الله المهدى فقد كان عامل القيروان فى عهد المنصور بن بلكين يعقد فى دار الإمارة مجلسا يحضره

الدعاة المتضلعون فى عقيدة المذهب الاسماعيلى الشيعى ويدعو إليه علماء السنة ليناظروهم فإذا أخذ السنى المالكى بمذهبهم أغدقت عليه الأموال وإذا أبى نكل به وعوقب .

وعندما حدث انقسام فى صفوف زناتة بالمغرب الأقصى حيث خرجت جماعة منهم على زعيم مغراوة زيرى بن عطية وقدمت إلى ابى الفتوح المنصور بن زيرى وشجعته على غزو المغرب الأقصى ، لكنه لم يستجب لرغبة هؤلاء القوم بل اكتفى بأن يقيم زعيم هؤلاء الجماعة حاكما على اقليم طبنة بالزاب .

وفى فترة حكمه التى امتدت اثنى عشر عاما حدثت عام ٣٧٦ هـ / ٩٨٦ م ثورة شيعية قام بها داعى من غلاة الشيعة يدعى أبا الفهم الخراسانى وضم إليه العديد من الأنصار والعامة لكنه لم يكن يرى فى نهج حكم أبى الفتوح المنصور تمشيا مع المذهب الاسماعيلى لكنه استطاع أن يتغلب عليه ويتم قتله وهو قائم بالمسجد .

ومن الواضح أن دولة بنى زيرى ما كان لها أن تستطيع بسط نفوذها وسيادتها فى ظل التبعية للخلافة الفاطمية الشيعية الاسماعيلية على سكان المغرب الذين ينفرون من المذهب الشيعى ويتعصبون لمذهب السنة وتجذبهم نحو رسول الله ﷺ روح خفية ومن هناك كان تمسكهم بالكتاب والسنة وهما الأساس فى المذهب المالكى ولذا كانت التبعية الزيرية للقاهرة تضعف من وزنهم السياسى وثقلهم فى حكم انحاء المغرب فلم يكن فى غير المعقول فى ظل هذه الأمور أن يبسطوا سلطانهم وسيادتهم على افريقية من حدود مصر غربا إلى وادى شلف والمغرب الأوسط حتى نهر المولوية وكذلك المغرب الأقصى الذى خرج عن طاعتهم نهائيا ، لانهم كانوا رجال دولة صغيرة محدودة القوى والامكانيات ، إضافة إلى ارسالهم الأموال سنويا إلى الخلافة الفاطمية فى القاهرة ويبدو أن هذه الأموال التى كانت ترسل سنويا كانت كبيرة حتى ليتكرم الخلفاء الفاطميين جزء منها إضافة إلى الهدايا التى يتم تبادلها سنويا .

إضافة إلى أن هذا الكيان لم يكن على صلة قوية بمركز الخلافة بالقاهرة إذ نجد أن الخلفاء الفاطميين قد عملوا متتابعين على منع اتصال المصريين بأهالى برقة وطرابلس وما جاورها غربا من بلاد بنى زيرى فلم يكن يؤذن بهجرة المصريين إليها وربما كان سبب ذلك أن لا يتعلم المصريون الذين تعلموا الخضوع للحاكم ويشاهدوا ما ينعم به البربر من حرية واستقلال فى ظل دولتهم بنى زيرى وما تعيش فيه القبائل فى كنف رؤسائها وزعمائها .

وقد ظل هذا الجزء خاضعا للخلافة الفاطمية تتوارثه أسرة بنى زيرى وتعترف بسلطان الفاطميين عليهم .

وكانت القيروان مقر حكم بنى زيرى وكان أمير البلاد يتمتع بلقب يميزه عن غيره من ولاة الأجزاء الأخرى من الدولة وكان هذا اللقب هو شرف الدولة ثم أضاف إليه الحاكم بأمر الله شرف الدولة وعضدها وكان حلفاؤهم فى المغرب من بنى زيرى يستقبلون هدايا الخلفاء الفاطميين بكل احترام وتبجيل فيدعون زعماء القبائل ورؤساء المدن والأقاليم وعليه القوم إلى استقبال الوفد القادم من القاهرة .

وبوفاة المنصور الزيرى زال خطر صنهاجة على المغرب الأقصى أو كاد يزول وانشغل بنى زيرى بمشاكلهم الخاصة وانصرفوا عن استعادة سيادتهم على المغرب الأقصى .

وكان أبو الفتوح المنصور قد أبدى اثناء توليه الحكم ميلا صريحا إلى الانفصال الروحي والسياسى عن الخلافة الفاطمية بالقاهرة ولكن الخليفة الفاطمى العزيز بالله اصطنع معه سياسة الملاطفة وبذلك ظلت العلاقات الودية فى الظاهر سائدة بين مصر وافريقية ولكنها كانت فى الحقيقة قناعا زائفا يخفى وراءه ما كان قائما بالفعل بين الخليفة الفاطمى وبين المنصور من تغاير .

ولقد بدأت ظاهرة الانفصال الروحي والسياسى عن الخلافة الفاطمية فى وقت

مبكر إذ نجد أن الجيل الثانى بعد بلكين يفكر فى الانفصال والاستقلال وهذا إن دل فإنما يدل على الفكرة فى الاستقلال وبناء الدولة الزيرية المستقلة التى كانت فكرة فى رأس مؤسس الدولة بلكين ولكن الظروف السياسية المحيطة به لم تكن تساعده على ذلك وأنه كان يواجه صعابا كثيرة وفى حاجة إلى غطاء يتخذ منه القوة فلم يكن يفكر جديا فى إعلان ذلك لكن عندما توطدت دعائم الدولة وقوة بنائها وارتكزت على مقومات قوية فان ابنه المنصور قد أعلن ذلك الشعور علانية وأنه ربما لم تساعده الظروف أيضا لكن حسن سياسة العزيز بالله الفاطمى وأسلوب المهادنة قد جعل المنصور بن بلكين لايفكر جديا فى إعلان الاستقلال لكن على العموم فان ما يمكن قوله ان المنصور قد إستفاد من دروس سابقة ولم يفكر جديا فى إعلان الاستقلال ربما لانه لم يكن قد أخذ للأمر عدته أو جاء فى وقت متأخر حيث أنه توفى وهو فى سن الشباب ولم تدم فترة حكمه إلا اثنى عشر عاما هجرية إضافة إلى أن العزيز بالله الفاطمى وضع العراقيل من ناحية أخرى أمام المنصور لكى لايجعله يتجه نحو الاستقلال واتبع معه سياسة ماهرة تضمن له مظاهر التبعية ولا تتعارض مع ما كان بنو زيرى يطمعون إليه من الاستقلال الحقيقى والرغبة فى بناء دولتهم المستقلة ذات السيادة وعدم التبعية للخلافة الفاطمية فى مصر لكن فكرة الاستقلال كانت قد تدارست فى أروقة القصر الزيرى فى القيروان وتعلمها الصغار من الكبار بأنه لابد من كيان سياسى مستقل بعيدا عن التبعية الفاطمية فى القاهرة .

* * * *

نصير الدولة باديس بن أبى الفتح المنصور بن بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى (٣٨٦ - ٤٠٦ هـ / ٩٩٦ - ١٠١٥ م)

توفى الأمير المنصور فى سن الشباب وكان شيوخ القوم من أسرة بنى زيرى وكبار رجال الدعوة بناء على ولاية العهد قد رشحوا أبا مناد باديس لتولى شئون الحكم فى أفريقية خلفا لوالده الذى مات فى شعبان ٣٧٦ هـ وكانت سنه وقت توليه أمور الحكم لم يزيد عن اثنى عشر عاما ومن هنا فقد تكون مجلس من الأوصياء على العرش من كبار شيوخ العائلة ومنهم بطوفت بن بلكين بن زيرى عم باديس وكذلك عمه أيضا حماد بن بلكين الذى كان يتولى أمر حكم مدينة أشير فى المغرب الأوسط من قبل والده المنصور .

وقد ترسم خطى أسلافه فى إعلان الولاء للفاطميين ، وجاءه التقليد الفاطمى بتولية الحكم من قبل الخلافة الفاطمية فى القاهرة فى عام ٣٨٧ هـ فى عهد الحاكم بأمر الله أبو على منصور وكان وصول التقليد الفاطمى يوما مشهودا فى البلاد إذ احتفل به الأمير باديس احتفالا عظيما استعرض فيه الجنود وسفن الاسطول الزيرى البحرية ورمى النفاطون بالنار الرومية وجرت ألعاب بين الأمير باديس بالزرافات والفيلة التى كان يتم إرسالها من القاهرة ووزعت الصدقات على الفقراء والمساكين .

ومن هنا فقد ظلت العلاقات بين القاهرة والقيروان فى عصر نصير الدولة باديس ابن المنصور ظاهرة الود والصداقة ولكنها كانت تخفى ما يسودها من تغاير قائم بالفعل بين الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله وبين الأمير باديس .

وثارت عليه قبيلة زناتة بالمغرب الأوسط ورفضت الطاعة للأمير الصغير نظرا لحداثة سنه وصغره وعدم مقدرته على تسيير أمور البلاد ومن ثم كان كبار الأسرة

الزناتية يدركون مدى رفض طاعة زناتة فى المغرب الأوسط فقامت حروب طويلة بين الصنهاجين أصحاب أفريقية والمغرب الأوسط وكان باديس قد سير إليهم جيشا كثيفا بقيادة حماد بن بلكين عام ٣٨٨ هـ وبعد ما يقترب من ثلاث سنوات من الحروب الدامية استقر الأمر بعض الشئ لباديس بن المنصور فى أفريقية عام ٣٩١ هـ/١١٠١م. أما المغرب الأوسط فقد تولى أمره حماد بن بلكين الزيرى وهو عم باديس .

ولم تستطع الجيوش التى أرسلها باديس لحرب زناتة القضاء على قوة مغراوة وكان الخلاف بين بنى زيرى هو الذى مكن لزناتة أن تقيم ملكها فى المغرب الأقصى ، لكن حمادا خاض حروبا طويلة مع زعيم مغراوة زيرى بن عطية شيخ زناتة المغرب الأقصى وكان النصر فى النهاية لحماد بن بلكين على زيرى بن عطية الزناتى ثم انتصر أيضا على أبنه ماكسن بن زيرى وفى عام ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م ووجدت زناتة أنها لاتستطيع مقاومة صنهاجة إلى ما لانهاية بعد أن قتلت صنهاجة زعيمها ماكسن بن زيرى الذى خلف أباه زيرى بن عطية وكذلك قتل ولديه محسن وباديس فى معركة دامية ، فاضطر زاوى بن ماكسن بن زيرى آخر أولاد ماكسن إلى الهجرة إلى الأندلس مع أخويه حباسة وحيوس ودخلوا فى خدمة سلطان الأندلس .

وكان باديس لما أراد أن يوجه عمه حماد لقتال زناتة أن استغل حماد حاجة الدولة إليه فاشترط على باديس عدة شروط كثيرة ومنها أن يجعل له كل ما يفتحه من بلاد وأن يتملكها وتكون خارج نطاق الدولة الزيرية وفى بلاد زناتة وعلى أن لايستدعى باديس عمه حماد مرة ثانية إلى أفريقية وأن يختار مكان عاصمته وبذلك أصبح هذا العهد السياسى الذى قطعه باديس لعمه حماد هو الوثيقة الشرعية والاعتراف الضمنى لظهور وقيام دولة بنى حماد فى الجزائر كدولة مستقلة ومعترف بها من قبل السلطات الزيرية فى القيروان إضافة إلى كل الأراضى التى يتم فتحها فى المغرب الأقصى وفى هذه الفترة كان حماد حاكما سابقا على أشير والمغرب الأوسط .

وخرج حماد إلى الثائرين فقاتلهم وهزمهم وأنشأ على مقربة من البرج قلعته الحصينة التى نسبت إليه قلعة بنى حماد واتخذها مقرا لحكومته وملكه الذى استقل به فيما بعد .

وكان لانتصار حماد بن بلكين بن زيرى على زناتة فى المغرب الأوسط وتأمينه حدود الدولة الصنهاجة من ناحية المغرب الأقصى ، أكبر الأثر فى تثبيت سلطانه وبينه الذى سوف يحكم المغرب الأوسط فيما بعد وعلى الرغم من أنه لم يعلن استقلاله وانفصاله عن بنى عمومته آل زيرى أصحاب افريقية إلا أنه بات من الواضح أنه سائر نحو الاستقلال التام والانفصال النهائى بالمغرب الأوسط عن بلاد أفريقية التى يحكمها ابن أخيه باديس بن المنصور .

وقد امتد سلطان بنى زيرى حتى شمل الساحل الأفريقى كله ولقد اهتم باديس بسحق الثورات فى طرابلس ولكن باديس بن المنصور كان قد ندم على ما وافق عليه عمه حماد فطلب منه أن يتنازل عن قسنطينة وغيرها من المدن الأخرى ليولى عليها ابنه المعز وكاتبه فى ذلك وطلب منه أن يستقيل ويرفع يده على ما تحت يديه من أراضى وما حازه من الجهات الواسعة عام ٤٠٥ هـ لكن حمادا أبى وأظهر الخلاف وتأكد لدى باديس رغبة حماد عمه فى الانفصال فزحف إليه وهزمه عند وادى شلف ففر حماد إلى القلعة عام ٤٠٦ هـ وتحصن بها وساءت العلاقات بينهما وثارت بينهما حروب مبيدة لكن حمادا تحصن بالقلعة وطارده باديس حتى أسوار القلعة وسيطر على منطقة وادى شلف وكاد أن يظفر بعمه بعد حصار طويل .

وهكذا انقسم الصنهاجيون على أنفسهم فى عهد باديس بن المنصور واستقل حماد بن بلكين بالمغرب الأوسط وأمن المغرب الأقصى عاديه وعدوان بنى زيرى الصنهاجيين واستطاعت زناتة فى ظل الانقسام أن تمكن لنفسها وتفرض سيادتها على المغرب الأقصى كيفما طاب لها ذلك . وأصبح المغرب الأقصى حقلا وسيادة لها .

ومات الأمير باديس بن المنصور فى ٣٠ ذى القعدة عام ٤٠٦ هـ . فى مدينة المحمدية (السلمية) وبموته استراح حماد من حروبه وتم له ما أراد من تأسيس دولة فتية بالمغرب الأوسط (الجزائر) وانقسمت بذلك الدولة الزيرية الصنهاجية إلى دولتين إحداهما شرقية فى أفريقية وطرابلس وعاصمتها القيروان ثم فيما بعد المهدية والأخرى غربية فى المغرب الأوسط واتخذت لها قاعدة هى قلعة بنى حماد ثم بعد ذلك انتقل الحكم إلى بجاية .

وقد دامت فترة حكم باديس عشرين عاما هجرية قضاها فى تأمين الدولة والدفاع عن حدودها وبسط نفوذها فى المغرب الأوسط لكن ثقته فى عمه حماد واعطاءه المواثيق لم تكن فى محلها مما جعلته يندم على فعلته ويدخل فى حروب طويلة معه ولولا أن عاجلته المنية لما استطاع حماد أن ينفرد بحكم المغرب الأوسط ولتغير سير حركة التاريخ فى المغرب وأفريقية نظرا لان باديس منذ توليه شئون الحكم قد حرص على تدعيم قواته الحربية والبحرية وحشد الجنود وبناء الحصون والقلاع وتحصين السواحل ، فقد شهدت له أعوام ٣٨٦ هـ . ٣٨٧ هـ قيامه تفقد قواته البحرية على سواحل المدن الأفريقية فزار المهدية وسوسة وسردانية للاطمئنان على هذه القوات وحصن المدن الساحلية وبنى القلاع والأسوار لكى تحافظ على وجودها فى وجه أى عدوان تتعرض له .

ويعتبر باديس امتدادا لجده بلكين ووالده المنصور فى الولاء للفاطميين وإن كانت نية الانفصال قد بدأت تظهر على سطح الأحداث لكن انشغال باديس بثورات بنى زناتة وعصيان عمه حماد وخروجه على شرعية الدولة قد جعل فكرة الانفصال عن القاهرة لاتخرج إلى حيز التنفيذ ، لكن شيوخ بنى زيرى وعلية القوم فى الجهاز الحاكم كانوا يرون ثقل الأموال التى يتم إرسالها سنويا إلى القاهرة وأنها تشكل عبئا على الرعية والحكومة وتعوق حركة الاهتمام بالبناء الداخلى وتقوية الجيش والأسطول

والعمل على مواجهة تحديات الصراع الداخلى والأخطار التى يتعرض لها المسلمون فى جزيرة صقلية .

وكان باديس من الشخصيات القوية التى حكمت افريقية والذى وقع عليه عبء الدفاع عن النظام الزيرى والتمكين للدولة وأنه لولا حرصه على تدعيم الوجود الحشنهاجي الزناتي لما كتب لعمه حمشاشد المواثيق ووافق على مطالبه بشأن الحكم في المغرب الأوسط ، إذ أن باديس كان يرى ان إبعاد الخطر الزناتي واخضاعه لنفوذ صنهاجة من أهم المهام التى يجب أن تنفذها الدولة حماية للدولة ونظامها الداخلى وعدم الضعف أمام خطر زناته ، لكن باديس لم يكن يخطر له وهو الذى عينه والده المنصور ليكون خلفا له وزكاه الشياخ ورؤساء بنى زيرى أن تأتى الطعنات من عمه حماد . فلو أنه أدرك أن عمه حماد تتوق نفسه للاستقلال بالمغرب الأوسط وتكوين دولة لكان قد اتخذ قرارا بعزله منذ أول يوم تولى فيه مقاليد الحكم . لكن المنصور والده كان أكثر فهما لطبيعة أخيه حماد فان المنصور لم يقدم على تعيين حماد فى أى من الوظائف القيادية فنجد المنصور يعين أخاه بطوقت بن بلكين واليا على أشير ويعين أبا البهار بن زيدى والياً على المغرب الأوسط ويجعل عاصمته تاهرت .

لكن حمادا واستقلاله عن القيادة المركزية فى القيروان عام ٤٠٦ هـ وقبل قدوم الغزو الهلالى بأكثر من ثمانية وعشرين عاما كان بداية نهاية الأسرة الزيرية ولم تكن المسيرة الهلالية سببا فى الانقسام فى بلاد المغرب بل المسيرة الهلالية جعلت حماد بن بلكين ينفصل بالمغرب الأوسط وبنى مغراوة من زناتة ينفصلون بالمغرب الأقصى أم هى كناية بالعرب وبكل ما هو عربى . وهكذا قضى باديس عمره القصير فى محاربة عمه حماد وفى حروب متصلة مع زناتة .

* * * *

الفصل الثاني

السيادة الزيرية والانفصال عن الفاطميين
المغرب الأدنى والأوسط دولة مستقلة
المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن مناد
ابن منقوش الصنهاجي
(٤٠٦ – ٤٥٤ هـ – ١٠١٥ – ١٠٦٢ م)

لما مات باديس بن المنصور وهو يحاصر حماد في القلعة كتمت خاصته من رجال البلاط وأشياخ القبيلة الخبر وتفاوضوا فيمن يخلفه في حكم البلاد وبعد مداولات ومشاورات اتفق الجميع على اختيار ابنه الصغير المعز لكي يخلف أباه تحت كفالة عمته أم بلال وكانت سنه وقت توليه الحكم عام ٤٠٦ م لم تصل إلى ثماني سنوات فقام بالأمر دونه أعمامه ورجال دولته وذلك لصغر سنه وعجزه عن القيام بأعباء الملك لكن اختيارهم جاء لما تفرسوا فيه من نجابة وفطانة .

وقد كان المعز بن باديس رابع أمراء دولة بني زيري الذين تولوا الحكم في البلاد خضوعا للخلافة الفاطمية في مصر .

ولما كبر أخذ يباشر أمور الحكم بنفسه وقد أبدى مهارة كبيرة في إدارة شئون الحكم وكان ذلك في فترة شبابه وبالتحديد في عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ عندما كانت سنه قد تخطت الثامنة عشرة من العمر بدأ يحكم منفردا لكن بمشورة أعمامه ورجال دولته . وقد علا صيته وذاعت شهرته في مختلف الأنحاء . وكان رجلا واسع الذكاء متجدد النشاط ذا فكر سياسي ناضج ومستقل وقال عنه ابن خلدون كان أميرا هماما حازما سيء الطالع فلم يوفق إلى كثير وهو يعتبر من أكبر أمراء المسلمين خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي وقد أثنى عليه كثيرا معظم

المؤرخين القدامى وخاصة ابن خلدون ، لكن الظروف التى أحاطت بالمغرب الإسلامى كله أثناء فترة حكمه الطويل قد حالت بينه وبين التوفيق الكامل فى كل ما كان يرتجيه لدولته وشعبه العربى المسلم فى افريقية والمغرب .

وكانت له منزلة سامية بين ملوك وأمراء عصره وعظمته بالغة فهادنة الملوك وقصدته الوفود ، وأتاه التقليد الفاطمى من مصر بتوليه عرش البلاد وقد لقب بشرف الدولة . وقد خاض حروبا طويلة مع أعداء الدولة فى الداخل وخارج حدودها .

ولما كان والده باديس قد توفى وهو يحاصر قلعة بنى حماد فانه كان على المعز أن يواجه ما كان يواجهه والده وهى الحركة الانفصالية التى يقودها حماد بن بلكين ، وسارت قوات المعز عام ٤٠٨ هـ إلى حماد وكان حماد يحاصر « باغاية » فلما علم بقدوم قوات المعز بن باديس أفرج عنها وقاتلته قوات المعز وانهزم حماد وأسر أخوه ابراهيم بن بلكين ونجا حماد بأعجوبة بعد أن أصيب بجراح بالغة . لكن حمادا سعى للصلح بينه وبين المعز وتم توقيع هدنة عام ٤٠٨ هـ أقر فيها من وقع الصلح نيابة عن المعز بانفراد حماد بحكم (المسيلة ، طبنة ، الزاب ، أشير ، تاهرت وكل ما يفتح من بلاد المغرب الأقصى . وبهذه الاتفاقية بين الطرفين وعقد الصلح الذى وقع عام ٤٠٨ هـ . يعتبر نهاية دولة بنى زيرى الموحدة فى افريقية والمغرب الأوسط فقد انقسمت دولة صنهاجة الزيرية إلى دولة بنى باديس فى القيروان ودولة بنى حماد فى القلعة .

والواقع أن بنى باديس قد حلوا محل بنى زيرى فى حكم المغرب الأدنى وظلت دولتهم أقوى دولة بربرية فى المغرب ولقد كانت الأمور دائما فى صالح حماد فها هو الصلح يتم ليحقق له أهدافه فى الاستقلال ، ثم كانت قبل ذلك وفاة باديس والد المعز وهو يحاصر القلعة وكانت وفاته فرصة لحماد قلما تتاح لكثير من الطامحين إلى الاستقلال فقد فك جيش باديس حصار القلعة وانسحبت العساكر إلى مدينة المحمدية

ثم رحلوا إلى المهدية ثم منها إلى القيروان حيث كان المعز بن باديس مقيما بها وتمت بيعته فى ذى الحجة عام ٤٠٦ هـ وسنه ثمانى سنين وتسعة أشهر فقد ولد عام ٣٩٨ هـ وكان الجند قد ولوا عمه (كرمة بن المنصور) شقيق باديس قيادة الجند حتى لاتحدث فتنة فى صفوف الجيش لاسيما وأنهم فى حالة قتال وحرب لحين العودة إلى القيروان وقد قام كرمة بن المنصور بتدبير الملك نيابة عن المعز حتى باشر ملكه بنفسه ، وكان يحكم مصر فى ذلك الوقت الحاكم بأمر الله ولما علم باستقرار الأمور بيد المعز بن باديس وقيامه بالحكم أرسل إليه التقاليد ولقبه بشرف الدولة وأرسل إليه مع التقليد هدية وبذلك أعطى لحكمه صفة الشرعية التى كان يشترط الحصول عليها من قبل حكام مصر الفاطميين فى ذلك الوقت . وبعد أن باشر المعز بن باديس الحكم بنفسه كان عليه أن يدفع خطر بنى حماد الذى كان يهدد الدولة وكان جده (عم أبيه) حماد بن بلكين قد أعلن استقلاله عن الدولة الزيرية عام ٣٩٥ هـ أيام حكم والده باديس واختط مدينة القلعة عام ٣٩٨ هـ ونقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة ونقل قبيلة جراوة من المغرب وأنزلهم بها وتم بناؤها وتمصيرها على رأس المائة الرابعة ولم يزل حماد أيام باديس أميرا على الزاب والمغرب والأوسط وقام حماد بقتل الشيعة وأظهر السنة وخلع طاعة الفاطميين وأعلن طاعة العباسيين منذ عام ٤٠٥ هـ وكان حماد قد انتصر على كرامة بن منصور عم المعز فما كان من المعز إلا أن قاد المعركة بنفسه فتوجه إلى حماد عام ٤٠٨ هـ وكانت سنه أحد عشر عاما والتقى فى ربيع أول ٤٠٨ هـ واقتتلوا قتالا شديدا وهزم حماد وأصحابه وأمام الانتصار طلب حماد الصلح وأرسل حماد ابنه قائد لتوقيع الصلح وانصرف قائد بن حماد فى رمضان ٤٠٨ هـ وكتب له المعز منشورا بولاية المسيلة وطبنة وزوارة وغيرها من البلاد وظلت شروط الصلح سارية طوال عصر حماد حتى وفاته عام ٤١٢ هـ .

لكن حدث خلاف بين المعز وقائد بن حماد عام ٤٣٢ هـ عندما حاول قائد التمرد على بنى باديس فسار إليه المعز لكى يخضعه وحاصر القلعة عاصمة ملك

الحماديين واستمر الحصار لعامين حتى خضع قائد بن حماد لشروط المعز ، ولقد كانت دولة بنى زيرى تتحكم فى تلك الفترة إلى حد بعيد فى السياسة الخارجية لدولة بنى حماد فأخضعها المعز وأجبرها على السير فى فلك بنى باديس وكان المعز قد اضطره إلى العودة وإعلانه الطاعة والولاء لبنى باديس .

وكان على المعز بن باديس أن يواجه خطرا لا يقل عن خطر بنى حماد وهو خطر بنى زناتة فى المغرب الأقصى وهم الأعداء التقليديون لصنهاجة ولان زناتة كانت تقيم الدعوة لبنى أمية فى الاندلس وكان حكام طرابلس من زناتة يبعثون بالبيعة إلى قرطبة ونتيجة لكثرة الحروب التى خاضتها صنهاجة مع زناتة فى طرابلس اكتسبت تلك المدينة شهرة عظيمة .

وقد شهد عصر المعز بن باديس حل أكبر مشكلة كانت تواجه الدولة ورجالها وهى القضاء على نزعة الانفصال عن بنى حماد كما سبق القول وخاض المعز معهم حروبا طويلة انتصر فيها هو ورجاله وعندما تأكد لحماد وقومه أنهم لا يستطيعون الصمود والوقوف طويلا أمام المعز ورجاله تقدم حماد بطلب الصلح وقبل لحضور الصلح على أساس أن يكون تابعا للقيروان وأن يتمتع فقط باستقلال محلى فى المغرب الأوسط وتم الصلح فى صفر عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ويمكن لهذا أن نقول أن ذلك كان ميلادا لدولة مستقلة تتربع فيما بعد على عرش المغرب الأوسط .

ومع أن شروط الصلح أقرت بتبعية حماد لحكم القيروان وأن عليه ألا يتصرف بنو حماد فى أي شأن من شئون بلادهم السياسية والعسكرية إلا بالاتفاق مع المعز ورجاله أصحاب السلطة فى القيروان ، إلا أن مشاكل الدولة الداخلية وما جد عليها من قضايا والصراع مع بنى زناتة والمشاكل الكثيرة التى أحاطت برجال البلاد والسلطة والأشياخ جعلتهم عاجزين فى الواقع عن القيام بأية محاولة جدية لاجبار بنى حماد على السير فى طاعتهم والخضوع لإرادتهم .

ومن ثم اكتفوا بالطاعة الأسمية والتعاون فى دفع الأخطار التى تتعرض لها دولة بنى باديس وغير ذلك فقد سارت كل دولة من دولتى بنى زيرى كل فى طريقها الذى يحقق لها أهدافها المنشودة .

وبعد أن وضع المعز بن باديس نهاية للصراع بين أبناء أعمامه من بنى حماد فانه كان عليه أيضا أن يضع حدا لثورة زناتة ولابد أن يدافع عن دولته منهم ذلك لانه فى عام ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م أغارت زناتة على افريقية (المغرب الأدنى) وخرج إليهم عامل مدينة فاس واشترك فى قتال شديد معهم وهزمهم كما أن المعز نفسه خرج إليهم عام ٤١٤ هـ / ١٠٢٢ م فى منطقة قسنطينة ونفراوة ويواصل المعز استعداده لقتال زناتة ويجمع الجيش والأسطول نحو سوسة ثم المهدية ثم يرحل من المهدية إلى صفاقس ثم إلى قابس قاصدا طرابلس ونظرا للحشود الكبيرة التى جهزها المعز من الجيوش فلم يجد الزناتيون بدا من طلب الصلح والدخول فى طاعته وكان ذلك عام ٤١٧ هـ ، وفى عام ٤٢٠ هـ / ١٠٢٩ م أرادت جموع زناتة الهجوم على العاصمة القيروان والاستيلاء عليها لكن المعز بن باديس ، أوقع بهم هزيمة قاسية ، وفى عام ٤٢٨ هـ / ١٠٣٧ م واصلت زناتة عدوانها على البلاد فصدها المعز وأوقع بها هزيمة ساحقة أيضا وقتل كثيرا منهم . ومع كل هذه الانتصارات التى كان يحرزها المعز بن باديس على زناتة وجيشه من العبيد والمرتزقة، إلا أنها لم تسكن للهدوء والطاعة بل عادت للغزو والخروج على طاعة الدولة فخرج إليهم المعز عام ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م وفتح بعض قلاعهم فى بلاد الزاب وفتح فروس وقلعة كرووم وغيرها من البلاد الأخرى .

* * * *

بني زيرى والانفصال عن الفاطميين بمصر

بعد انتقال المعز لدين الله الفاطمي بدولته وكبار رجال أهل بيته وقادة جنده وجنوده وكل ما هو في احتياج إليه في مصر بل ونقل رفات أجداده الذين توفوا قبله معه ، لم يعد لافريقية في تفكيره السياسي مكان كبير ، ذلك لأنه منذ أن انتقلت الخلافة الفاطمية إلى مصر أصبحت مصرية أكثر منها مغربية ولم يعد يعنيها من بلاد المغرب أكثر ما يصلها من مال أو من خطر على مصر والقيام على المذهب الشيعى والعمل على نشره ، لكن الفاطميين لم يتنازلوا قط عن تبعية هذا البلاد لهم وظلوا يتمسكون دائما بأن يظهر بنو زيرى الولاء التام والتبعية للخلافة الفاطمية في القاهرة ومذهبها الشيعى الاسماعيلى .

ولقد كانت الظروف السياسية في مصر والاتجاه نحو بلاد الشام والمشرق وما أحاط بالفاطميين من مشاكل جديدة لديهم قد حالت بينهم وبين أحكام قبضتهم على افريقية .

ولقد كانت ظروف مصر الداخلية وما يحيط بها من أخطار ورغبة الفاطميين في الاتجاه نحو الحجاز والشام ومد النفوذ الفاطمى نحو النوبة واليمن كل هذا جعل من المستحيل على الفاطميين أن يوجهوا الاهتمام الكافى نحو شئون افريقية والمغرب فغضوا الطرف عن ما يحدث في بلاد المغرب واكتفوا بإرسال التقاليد والاعتراف بالسلطان (الأمير الزيرى الجديد) وإعلان الطاعة والولاء للخلافة الفاطمية ، وفي نفس الوقت فان الأمل الذى كان يراود بني زيرى في الاستقلال بحكم افريقية وبلاد المغرب الأوسط منذ عهد بلكين بن زيرى وطموحاته نحو الاستقلال قد بدأت تتحول إلى حقيقة في عهد حفيده باديس ، لكن القدر لم يمهله إذ توفى شابا ، كذلك فان سياسة العزيز بالله الهادئة حالت دون إعلان الاستقلال والانفصال عن الخلافة في القاهرة ، لكن عجلة التاريخ قد دارت ولا يمكن أن تعود للوراء فقد شهد هذا العصر

عصر المعز بن باديس ، أنه من غير الممكن أن تظل افريقية والمغرب الأوسط تسير فى فلك التبعية والولاء للمشرق حيث الخلافة الفاطمية فى القاهرة .

وهنا نقر حقيقة لاتقبل الشك ولا الجدال وهى أن الأسباب الجوهرية التى حفزت المعز الزيرى لإعلان الاستقلال عن الخلافة الفاطمية لم تكن كراهية البربر للعرب أو محاولة ابعاد السيطرة العربية أو الميل للكيان البربرى أو عداوة البربر للعرب فتلك تحصيلات وهمية عمد إليها أعداء الإسلام أمثال جورج مرسيه أو هنرى فورنى لكن الأسباب الواضحة هى أن أهل المغرب قد ملوا المذهب الشيعى الاسماعيلى وأنه لم يعد يتلاءم مع طبيعتهم نظرا لما فيه من مخالفات للقرآن الكريم والسنة وأنه لم يجد أرضا خصبة فى بلاد المغرب ، وأن المذهب المالكى هو الحصن والدرع الذى كان يدافع عنه أهل المغرب وأن كراهية الشعب المغربى للشيعة ومحاربتهم وصمود علماء المالكية فى وجه هذا المذهب الجديد قد خلقت الأسباب الجوهرية للانفصال عن الفاطميين .

كذلك فان الأموال التى كانت ترسل سنويا من بلاد أفريقية والمغرب الأوسط للقاهرة والتى كانت تشكل عبئاً على الخزانة الزيرية وتحول دون خطط البناء والتعمير وتقوية الجيش والأسطول إضافة إلى إرهاق كاهل الشعب المغربى بجمع الأموال والزكاة والخراج والعشور والضرائب وغيرها والتى لم تكن تعود على خزينة الدولة الزيرية إلا بالنذر السىء .

إضافة إلى طموحات قادة الدولة الزيرية فى ظهور كيان دولتهم بصورة مستقلة دون التبعية الأسمية أو المظهرية لاسيما وأن دعائم الأسرة الزيرية قد توطدت لاسيما وأن الأمير المعز بن باديس كان هو الأمير الخامس فى سلسلة حكام بنى زيرى الذين حكموا افريقية والمغرب الأوسط وأن دعائم البناء السياسى قد رسخت وأن الدولة لم تعد تتهددها الأخطار ، إضافة إلى ما عرف فى تاريخ مصر الفاطمية بالشدة المستنصرية وهى أعنف وأبشع أزمة اقتصادية عرفها التاريخ الإسلامى فى مصر وحالة البؤس والشقاء التى

كان يحياها الشعب المصرى فى ظل الحكم الفاطمى والتى لم تكن تعود إلى نقص فيضان النيل سبع سنوات عجاف ، لكن الشدة المستنصرية كانت بسبب السياسة المالية الفاطمية والتى لم تكن تقدر ظروف مصر الاقتصادية والمالية وحب الفاطميين للمال وجشعهم فى جمع الأموال وكانوا يحتجزون الأموال ويقومون بها فى التجارة أو شراء العبيد حتى يعود عليهم بالنفع . هذه هى الأسباب الجوهرية التى دفعت بنى زيرى للانفصال .

أن ما ذهب إليه بعض المؤرخين الفرنسيين من أن الانفصال عن القاهرة كان بسبب نفور البربر من العرب ما هى إلا وسيلة استعمارية للتفرقة بين عنصر المغرب الواحد وبين أبناء اللغة الواحدة والعقيدة الواحدة ، فقد كان العرب يعيشون بين ظهرانى البربر فى تلك الفترة ثم ماذا يقول المؤرخ الفرنسى جورج مارسيه عن انفصال بنى حماد عن أبناء عمومتهم بالقلعة فى المغرب الأوسط وانفصال بربر زناتة عن بنى مغراوة فى المغرب الأقصى عن افريقية . هل فى ذلك كراهية للعرب أو هى نزعات تسود بعض الحقب التاريخية ، أن الجميع مسلمون وليسوا عربا وبربر ولم يعد للبربر كيان وللعرب كيان فالكل أخوة ابناء عمومة وأصول عرقية وتاريخية وعقائدية واحدة فهل فى ذلك جدال .

ولقد كان ظهور الشخصية الاقليمية واكتمال مظاهر الحكم ونمو الوعى القبلى المحلى والاحساس بكيان القبيلة وتعميق مفاهيم الإسلام ونظام الشورى والاستعراب وانتشار اللغة العربية الإسلامية من عوامل الاتجاه نحو الاستقلال ، واحساس الحكام بالقدرة على الاعتماد على ذاتهم وكيانهم فى توجيه أمورها السياسية .

وكما قلت ان انفصال المغرب الأوسط عن المغرب الأدنى وقيام دولة بنى حماد المستقلة على أيدى حماد بن بلكين شقيق المنصور واتخاذهم القلعة ثم بجاية فيما بعد عاصمة لم يكن ذلك احساسا بقدرة بنى حماد وسياستهم فى بناء دولة وكيان سياسى

لهم ، بل أن ما حدث من انشقاق فى الكيان الواحد لم يكن إلا نتيجة للتطور الداخلى فى المغرب الأوسط الإسلامى ثم لماذا بنى حماد ألم يقع المغرب الأوسط سابقا تحت سيطرة بنى رستم وبنائهم لكيان سياسى كانت عاصمته مدينة تاهرت (أنظر الجزء الثانى من هذه الدراسة) ، ثم أن قيام بنى حماد فى المغرب الأوسط وقيادتهم لهذا الأقليم أعطى طابع الاستقلال للمغرب الأوسط عن أفريقية بصورته السياسية المحددة والذى سوف تظهر فيه فيما بعد دولة بنى زيان التى تتخذ من تلمسان عاصمة لها .

ثم ماذا يقول رجال التاريخ الغربيين الذين يحاولون أن ينفثوا سمومهم بين الشعوب تفرقا وانشقاقا ، لماذا بدأت عملية الاستقلال فى تاريخ المغرب الأقصى ، فى تلك الفترة وقبلها قيام دولة الادارسة ، لكن المغرب الأقصى فى فترات تاريخية لاحقة شهدها القرن الخامس الهجرى استطاع أن يكون له كيانه السياسى المستقل لا تابعا للمغرب الأدنى أو الأوسط أو الاندلس بل له شخصيته المستقلة التى تنجلى فى قيام وظهور دولة المرابطين . أن الشعور الاقليمى والامتداد الواسع للمغرب من حدود مصر شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا جعل قدرة دولة واحدة فى تلك العصور غير متكاملة فى بسط النفوذ ومن هنا ظهرت الكيانات المحلية وليس كراهية البربر للعرب أو النفور والتخلص من السيادة المهم نعود إلى سابق حديثنا عن مظاهر الانفصال والتبعية فنجد أن المعز لدين الله الفاطمى استطاع أن يضمن ولاء بلكين ثم جاء العزيز بالله فكانت سياسته مع المنصور بزاديس تسير على نفس النظام فى المحافظة على تبعية بنى زيرى ولكن المعز لدين الله الفاطمى اتبع سياسة ماهرة تضمن له التبعية ولا تتعارض مع ما كان بنو زيرى يضمرون ويطمعون له فى الاستقلال .

فلما مات المعز وخلفه ابنه العزيز بالله عام ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م رأى أن بنى زيرى يضعون صوب أنظارهم فكرة الاستقلال ومحاولة تنفيذها بصورة فعلية أيام أبى الفتوح المنصور بن زيرى ففكر فى أن يضع العراقيل فى طريقهم ويعمل على إضعاف قوة الدفع نحو الاستقلال ويعطل بصورة فعلية تنفيذها حتى يظل بنو زيرى دائما فى حاجة

إلى تأييد الفاطميين ، فأرسل خفية وبدون علم بنى زيرى داعية شيعيا يدعى أبا الفهم وأرسله وبعض الأعوان إلى قبيلة كتامة الأنصار الفعليين للفاطميين لكى تقوم القبيلة خلف هذا الداعية بثورة على الأمير المنصور بن بلكين وفعلا انضمت إليه جموع القبيلة ، لكن المنصور بعد حشده القوات استطاع الانتصار على أبى الفهم الشيعى وقبيلة كتامة وإزاء فشل سياسة العزيز بالله فى ضرب المنصور فانه اضطر إلى العدول عن سياسة التدبير السئ وراء ستار فعاد إلى مهادنة المنصور ورجال دولته فأرسل إليه عام ٣٨٨ هـ/ ١٩٨م بالتقليد والخلع وأجزل عليه بلقب شرف وعضد الدولة وأرسل الهدايا إليه وإلى علية القوم وأشياخ بنى زيرى مرضاة لهم وعملا على أن يكون ولاؤهم للدعوة الشيعية الاسماعيلية لكن الأمور أخذت طابعا آخر عندما تولى الحاكم بأمر الله ٢٩ رمضان ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م وهو ثالث الخلفاء الفاطميين فقد كان يتولى مقاليد الحكم الزيرى نصير الدولة باديس بن المنصور بن بلكين بن زيرى وهو أيضا ثالث أمراء بنى زيرى فى أفريقية والمغرب الأوسط ، فأرد الحاكم بأمر الله أن يضع باديس فى اختبار لكى يظهر مدى قوته أو خضوعه للفاطميين فأرسل الحاكم بأمر الله أوامره لوالى برقة وكانت فى ذلك الوقت تدخل تحت السيادة المصرية بل هى جزء من الوطن المصرى بأن يتجه بقواته غربا نحو حدود الدولة الزيرية وأن يستولى على طرابلس والتى كانت جزءا من ولاية المغرب الأدنى واستطاع والى برقة فى غيبة قوات باديس أن يدخل المدينة ويضمها لسيطرة برقة لكن قوات بنى زيرى بقيادة باديس استطاعت أن تهزم والى برقة وتجبره على الانسحاب شرقا وترك البلاد الزيرية ، لكن الحاكم أصدر أوامره لحاكم برقة أن يتولى حكم طرابلس قبيلة زناتة ألد أعداء صنهاجة وكان حكمها لابن سعيد المغراوى الزناتى وتمكن من دخول طرابلس وحكمها ، لكن نصير الدولة باديس تمكن من سحق قوات زناتة وهزمها وأخرجها من طرابلس وفشلت سياسة الحاكم بأمر الله قبل بنى زيرى وهو التهديد ثم الترويض فحاول استرضاء باديس وعودة العلاقات الطيبة بينهما .

المعز بن باديس والاستقلال

عندما تولى المعز بن باديس إمارة أفريقية والمغرب ساءت العلاقات بينه وبين الخليفة المستنصر بالله الفاطمي وتوترت توترا أدى فى النهاية إلى قيام المعز بإعلان انفصاله عن الخلافة الفاطمية ، لأن بنى زيرى سرعان ما برموا هذه التبعية لان المعز بن باديس هذا كان آخر من اعترف بسلطان الفاطميين ونبذهم أيام المستنصر ونادى بنفسه مستقلا عن الفاطميين وخلع طاعتهم فورث كل دولتهم فيما يلى الحدود المصرية غربا فكان ملكه أضخم ملك عرفه المغرب إذ لم تتح لدولة أخرى فى المغرب فى كل عصوره (فيما عدا الموحدين) أن امتد نفوذها على طول الساحل الأفريقى .

ولقد كان مخططى السياسة الزيرية من علية القوم وكبار رجال الدولة وأشياخها ورجال الديوان الأميرى من أعمام الأمير المعز هم وراء فكرة الانفصال وضرب النفوذ الشيعى فى البلاد ومن ذلك فان الثورة التى حدثت عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٩ م ضد الشيعة وفى أثناء حكم المعز بن باديس لم يكن الأمير وقتها قد جاوز سنه التاسعة وأربعة أشهر فمن هنا كانت خطى الدولة يسير نحو الانفصال ولم يكن وليد عصر المعز الصغير الذى لم يكم قد وصل إلى سن الشباب والذى لم يتولى السلطة الفعلية إلا عام ٤١٦ هـ / ١٠١٦ م فمن الذى خطط لضرب الشيعة وجعلها من أولى المقدمات للانفصال والاستقلال .

ولقد كان النفوذ الشيعى وسيطرة رجال المذهب الاسماعيلى على مقاليد الأمور فى البلاد من أهم المشاكل التى واجهت المعز أو قل رجال دولته ذلك لانه عندما اعتلى العرش عام ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م كان لا يزال الصراع المرير الطويل على أشده بين السنة والشيعة حيث أن المغرب كان أرض السنة ولم يكن للشيعة أو الفرق الإسلامية الأخرى موطأ قدم فيه ، وكان هم مخططى السياسة والخروج بفكرة الاستقلال عم الفاطميين فى عصر المعز مهما تكن مخاطر الاستقلال وتكوين دولة

مستقلة تكون له ولذريته من بعده وكان أهل السنة قد أفتوا بمقاومة نفوذ الشيعة ولقد شهد ذو الحجة عام ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م أميرا قويا اتجه منذ بلغ سن الرشد إلى تولى الحكم بنفسه ولم يخف نزوعه إلى الاستقلال عن الفاطميين والغاء المذهب الشيعى الاسماعيلى فى افريقية والمغرب كافة . وصدرت الأوامر فانطلقت أيدى العامة فى الشيعة قتلا وتنكيلا فى جميع مدن وقرى وأنحاء البلاد الأفريقية ، ولقد كانت ميول المعز لأهل السنة سببا فى قيام ثورة عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م ضد الشيعة ووجودهم فى البلاد . وكان المعز وهو صغير قد تربى على أيدى أكبر رجال السنة فى المغرب وهو الحسن بن الرجال والذى كان من أئمة المذهب المالكي والذى صمد وتلاميذه صمود الأبطال أمام أباطيل المذهب الشيعى ولم يكن رجال القصر أو المحيطون بالأمير من الشيعة يعلمون عن ذلك شيئا وربما كان ذلك العالم الفقيه المالكى يربى المعز عن طريق عمته أم بلال وعمه كرمة بن المنصور وفى إحدى الجلسات اثنى المعز بن باديس على الخليفة الراشد أبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب فقام الشيعة لقتله فجاءه رجاله وعبيده للدفاع عنه وانتشر فى القيروان أن الشيعة يريدون قتل الأمير فقام أهل القيروان ووضعوا السيف فى رقاب الشيعة فى كل مكان ولم يكتف المعز بن باديس باضطهاد الشيعة فى البلاد بل عمل على تصفية وجودهم فى قواته فقام نحو ٢٠٠ فارس بترك أولادهم وذويهم عام ٤٠٩ هـ فى القيروان ورحلوا إلى صقلية وترك للعامة حرية الفتك بهم وعمت الثورة ضد الشيعة كل أنحاء البلاد فقد حدث فى عام ٤٠٩ هـ أن اجتمع عدد من الفارين الشيعة يريدون الرحيل إلى صقلية وخرجوا من المهدية وفى طريقهم عند قرية كامل باتوا فيها ليلتهم فقام أهالى القرية ليلا وفتكوا بهم وقتلوهم وقد أطلق على هذه الثورة التى عمت سائر أفريقية (المغرب الأدنى) للتخلص من الشيعة حركة تطهير البلاد من الشيعة والانتصار لمذهب السنة المالكى .

وقد كانت هذه الثورة التى خطط لها رجال الدولة بمشورة المعز الصغير ورجال الدين الرسلامى أصحاب المذهب المالكى بداية الاستقلال عن الخلافة الفاطمية فى

القاهرة ، ولقد كانت مقدمة القضاء على الشيعة فى أوائل فترة حكم المعز هى محاولة تحقيق فكرة الاستقلال دون أدنى مقاومة من الشيعة ورفع أيديهم عن مرافق الدولة بما فيها الجيش والأسطول والقضاء على كل ما هو شيعى فى البلاد وحرق أعلام الفاطميين وكانت تلك الثورة المبكرة فى عهد المعز تعتبر تحولا سياسيا ودينيا خطيرا فى خط مسار الحكم مما نتج عنه نتائج فعالة فى مستقبل المغرب الإسلامى وكان سبب ذلك هو تنكره للشيعة ومناصرته لأهل السنة وتساهله مع رعاياه فى الثورة عليهم والتنكيل بهم كرد فعل لما عاناه أهل السنة من قبل منهم على عهد الفاطميين ولقد كانت كوامن العقول وما شهد من أحداث مأساوية من قبل الشيعة نحو أهل السنة هى رد فعل العامة ودافع الأهالى للثورة نتيجة ما عانوه من اضطهاد وقتل وحرق أثناء حكم الشيعة لافريقية واستخدام كل الوسائل المتاحة فى ذلك العصر لقمع ثورات أهل السنة بمنتهى القسوة والعنف والبطش مما حرك فى نفوس العامة الكراهية الشديدة لكل ما هو شيعى ولذلك اعتبرت العامة كل من قتله الشيعة من شهداء الإسلام . وعندما اتيحت الفرصة للعامة ووجد أن الأمير الزيرى لايميل إلى الشيعة ثاروا عليهم .

وهكذا قدر لعلم مذهب مالك أن يرتفع وأن يطفو المالكية وأن تعلو كلمتهم فى عهد المعز بن باديس الصنهاجى حين قتل الشيعة بالقيروان وافريقية وقتلوا أينما وجدوا فى المغرب الأوسط أو فى المغرب الأقصى فأنمحت دعوة الاسماعيلية الشيعية من أرض المغرب وتغلب مذهب مالك نهائيا على ما سواه من المذاهب والنحل ، وأوغل فى قلوب المغاربة فأقبلوا عليه اقبالا عظيما بسبب تحريض علماء المالكية وفقهائها للعامة وحثهم على الفتك بالشيعة فى كل مكان ، بل أنهم هم الذين أوعزوا للمعز بن باديس عن طريق مؤدبه (الحسن بن الرجال) الذى علمه مذهب السنة والجماعة ومذهب مالك وحرضه على الشيعة وحرض فقهاء المالكية فى كل مدينة وقرية وفى كل تجمع سكانى فى البادية والوديان حرض أهله على من فيها من الشيعة وخرج الأمر من القيروان إلى المهدية وسائر المدن والبلاد الافريقية (المغرب الأدنى) .

لكن المعز بن باديس وقد رأى انه وصل إلى مرحلة الهدف الذى يبغى الوصول إليه فى تلك الفترة المبكرة من حكمه وفى تقليم أظافر المذهب الشيعى ، بل أنه أدرك بأن هذا المذهب لن تقوم له قائمة فى بلاد المغرب ولن تكون له الغلبة مستقبلا فانه عمل من جانبه على حماية الشيعة ورجال الدين الشيعى الذين لم تصل إليهم يد العامة بعد ، لانه ربما رأى أن فى القضاء النهائى على كل ما هو شيعى قد يجر عليه، وخيم العواقب وأن ذلك سوف يغضب الفاطميين وحلفاءهم فى القاهرة فقبض على الشيخ أبى الحسن الرجال زعيم المالكية ونكل به وسجنه وأرسل إلى الخليفة المستنصر بالله الفاطمى بالقاهرة يوضح له حقيقة ما جرى وأن ذلك تم من العامة وأظهر ولاءه للفاطميين لكنه من الناحية الأخرى كان يخطط للانفصال وانه مع السنة ويحاول أن يكسب ودهم وتأييدهم له فى المرحلة القادمة لانهم سوف يكونون الدرع الواقى له منخطر الشيعة أو الخارج عند إعلانه الاستقلال .

وإزاء الأحداث السابقة وإدراك حكام القاهرة بخطورة الأحداث التى جرت فى القيروان وافريقية فانهم عملوا من جانبهم على استمالة المعز بن باديس ورجال دولته وكبار أشياخ الدولة فأرسلوا الرسل والوفود والهدايا منذ عام ٤٠٧ هـ / ١٠١٧ م وبعد مضى بضعة شهور على ثورة العامة على الشيعة وذبح أكثر من ثلاثة آلاف منهم وهروب أعداد تصل إلى أكثر من هذا الرقم أو يزيد إلى صقلية وغيرها من البلاد . وكل هذه الوفود والرسل كانت تصل فى عهد الحاكم بأمر الله الفاطمى وابنه الظاهر لاعزاز دين الله أبى الحسن على الذى تولى الحكم فى ذى الحجة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م . وذلك تعبيرا منها عن الرغبة فى تحسين العلاقات بين مصر وافريقية بعد أن تأثرت بأعمال العنف التى ارتكبها العامة فى البلاد ضد الشيعة وضد الولاة المشارقة من قبل الفاطميين فى مصر والذين كانوا على المذهب الشيعى ولكن هيهات فقد وصل مخططو سياسة الحكم الزيرى الى منتصف طريق الاستقلال وزال خطر الشيعة وأهلها ولم يعد آمالهم إلا الإعلان رسميا عن الاستقلال .

انتصار أهل السنة (مذهب مالك)

كان المعز بن باديس وأسلافه من بني زيرى يسيرون على المذهب الشيعى منذ عهد الفاطميين فى المغرب ومصر وظلت المغرب بعد عام ٣٦١ هـ وقت رحيل الفاطميين إلى مصر بتولى بنى زيرى نشر المذهب الاسماعيلى وسار حكام بنى زيرى على هذا العهد حتى وصل الأمر إلى المعز بن باديس وكانت مدرسة القيروان المالكية من أقوى مذاهب الفقه مما جعل أهل افريقية يتمسكون بالكتاب والسنة ويبتعدون عما سواهما وانتشر المذهب الحنفى أيام الأغالبة فى افريقية لانه مذهب الخلفاء العباسيين فى بغداد وقاوم علماء المالكية الفاطميين وساندوا كل ثورة ضدهم ومن هنا ندرك تمسك أهل افريقية والمغرب بمذهب الإمام مالك .

ولقد ناصب الفاطميون مذهب مالك العداء من أول الأمر وأعلنوا حربا لا هوادة فيها على فقهاء المالكية لأن المالكية يفضلون الصحابة على على بن ابى طالب وحرم الفاطميون الافتاء بمذهب مالك والحيلولة بين فقهاء المذهب وبين القضاء والفتيا وتوسل الفاطميون بكل وسيلة لمصارعة خصومهم ورفع لواء مذهبهم وجلبوا ائمة المذهب المالكى الى القيروان وأخذوا يقارعونهم بالرأى فما أزداد فقهاء المالكية إلا تمسكا برأيهم وعمد الفاطميون إلى اغداق الأموال والجاه والمناصب فلم يجد ذلك إلى قلوب المالكية سبيلا ، ومن ثم بدأ التنكيل والتعذيب وأباح الشيعة دم المالكية وضربوا الفقهاء بالسياط وضربوا الرقاب وقطعوا الالسنة وصلبوا بعض الفقهاء أحياء وصادروا الأموال وأخذوا أموال الأحباس وأخذوا يبطحون الناس على ظهورهم ثم يأمرون العبيد السودان أن يدوسوهم بالأقدام حتى تزهق أرواحهم وبثوا العيون على الناس فى صلاتهم وأخذوا الناس بالشدة وعملوا بكل وسيلة على التنكيل بالفقهاء المالكيين .

لكن وقف المالكيون أمام المذهب الشيعى الاسماعيلى وقفه رجل واحد وأفتوا بكفر الشيعة ولا تخطب لهم جمعة وكل من خطب لهم على منابر يعتبر كافرا

(لاحظ شدة الصراع رغم أن الكتاب واحد والقرآن الكريم والسنة واحدة) واعتبر المالكية الفاطميين زنادقة لما أظهروه من خلاف الشريعة ونادوا بقتل الشيعة حيثما وجدوا كما بقتل الزنادقة ونادوا بالمقاطعة السلبية لهم ومنعوا الناس من حضور صلاة الجماعة وقاطعوا الجنائز واقفرت المساجد من المصلين وقاطع الناس قضاة الشيعة وعمالهم ورفضوا دفع الأموال .

وانتشر تيار المقاومة المالكية فى المغرب كله وشق قضاتها عصا الطاعة ضد الفاطميين فى كل مكان وأقبلوا على الاستشهاد بنفس راضية مطمئنة . وأظهروا تمسكا بالكتاب والسنة والالتزام بنصوص القرآن الكريم وهذ التقاليد القويمة والسنة المحمدية الحميدة قد تردد صداها فى المغرب كله وأن فى الاستمساك بمذهب مالك نجاة إن شاء الله .

وهكذا كان المالكية أشد الناس حربا على الشيعة وأكثرهم عنفا فى مقاومتهم وامتحنوا فى سبيل ذلك طوال ثمانين عاما فصبروا على الايذاء وتمسكوا بالكتاب والسنة حتى كتب الله لهم الظفر وأعز الله بهم الإسلام ورفع كتابه وسنته .

وهكذا صارت المالكية جزءا من قوميتهم وبقيت قوية وحصنا من حصون الإسلام فى افريقية حتى قدم المعز بن باديس وكان قراره بحمل الناس على مذهب مالك وترك ما سواه فنقل المالكية من صفوف المعارضة إلى مقاعد الحكم والسلطان والقضاء والفتيا وتغير وجه الحياة فى ظل المذهب المالكى وانتشرت تعالميه فى النصف الغربى من العالم الإسلامى . وأصبح هذا المذهب للمغاربة وطنية وعقيدة وكانت المالكية المعقل الذى عصم أهل المغرب من شرور الفتنة فى عصر كادت ريح الشر تقصف بالمجتمع إذ صمدت المالكية وحفظت للمجتمع المغربى وحدته وقوته وسلمته للأجيال التالية وفى ذلك يقول الرحالة ابن جبير أنه لاإسلام إلا ببلاد المغرب لانهم على جادة واضحة.

وهكذا وجدت دعوة المالكية فى نفوسهم صدى محببا يرتاحون إليه كما أن

فقهاء المالكية ارتفعوا فى نفوس المغاربة إلى مرتبة الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء والمغلوبين ويعارضون الحكام فى سبيل إعلاء كلمة الحق كما أن مقاطعة المالكية للسلطان وعزوفهم عن السير فى ركابه بل معارضتهم له فى كثير من الأحيان واستشهادهم فى سبيل عقيدتهم ومذهبهم وأخذهم بالبأس والشدة صار نغمة محببة إلى قلوب أهل المغرب طوال تاريخهم المشهود له بالنزعة الاستقلالية ، فاقتدوا بزعامتهم الدينية وارتبط فى آذهانهم معنى الدفاع عن الحق وحماية الرعية من عدوان الحكام .

وأقبل الناس على اتخاذ المذهب المالكى مذهبا لهم ونبذ المذهب الشيعى الاسماعيلى وتم الغاء المذهب الشيعى رسميا فى عهد المعز بن باديس وأحل محله المذهب المالكى وذلك نازعا إلى الاستقلال السياسى والمذهبى عن الفاطميين تحقيقا لأهل المغرب الأدنى مذهبهم ورسما لسياسة الانفصال عن حكام القاهرة وتحقيق القومية المغربية التى تتجلى فى التمسك بالمذهب المالكى .

وهكذا شهدت نهاية القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى فى عهد المعز بن باديس الصنهاجى انتصارا للمذهب المالكى وقتلا للشيعة فى القيروان وافريقية وسائر بلاد المغرب الإسلامى ، وهكذا لم يجد المعز بن باديس وهو الساعى للاستقلال عن الفاطميين من مفر إلا النزول على رأى المالكية ، ذلك لان مذهب مالك هو أشد المذاهب التزاما بكتاب الله وسنة رسوله وسنة الصحابة والتابعين وقد كان مالك يقول يجب على أهل العلم والفقه أن يدخل إلى ذى سلطان يأمره بالمعروف وينهاه عن الشر حتى يتبين دخول العلم على غيره لان العالم إنما يدخل على السلطان لذلك .

وهكذا أعلن المعز بن باديس فى القيروان عودته إلى المذهب السنى المالكى ورحب شعب القيروان بذلك ترحيبا شديدا حتى قامت عام ٤٣٥ هـ ثورة أخرى على

كل من كان فى القيروان من الشيعة .

وعلى أثر ذلك بعث المعز إلى الخليفة العباسى القائم بأمر الله يطلب منه عهدا بتوليته حكم افريقية والمغرب وفى ذلك كان تحولا من الدعوة للفاطميين إلى الدعوة للعباسيين بعد ذلك بقليل حيث دعا للقائم ثم العباس عام ٤٣٩ هـ أو ٤٤٠ هـ على رواية ابن الاثير .

ولم يكن المعز أول من فكر فى الاستقلال لكن كانت الفكرة فى رأس من سبقوه لكنه كان أول من اتخذ خطوة تنفيذية وذلك لانه حدث خلاف بين المعز والى المهدية خطيب مسجد المهدية بأن يسب آل عبيد الفاطميين ويلعنهم المستنصر الفاطمى عام ٤١٢ هـ. ولقد كان الضعف والاضطراب اللذان سادا مصر أيام المستنصر من جراء المجاعة التى حدثت واستمرت لسبع سنوات سببا من الأسباب القوية التى دعت المعز ابن باديس الى الاستقلال بالمغرب وقطع صلته بالفاطميين وحذف اسم الخليفة من الخطبة ووضع مكانه الخليفة العباسى ونادى بنفسه تابعا للخلافة العباسية ودعا لخليفتهم فى الخطبة كما أمر بحذف لعن الخلفاء الراشديين من الخطبة وأمر بلعن الفاطميين .

ولقد كانت الدعوة السرية التى يقوم بها العباسيون فى ربوع المغرب الإسلامى ذات أثر كبير فى نفوس العامة التى بطبيعتها تميل إلى مذهب السنة إضافة إلى انشغال الخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر بالأحداث الداخلية فى مصر حتى إذ كان يوم عيد أمر المعز بن باديس الخطباء بلعن الخلفاء الفاطميين وخلعهم وكان ذلك يوم عيد الأضحى عندما أمر تميم بن المعز والى المهدية خطيب مسجد المهدية بأن يسب آل عبيد الفاطميين ويلعنهم وهكذا أسقطت خطبهم كما أمر المعز نفسه خطيب القيروان أن يسب العبيديين والفاطميين بأشنع السباب ويختلف المؤرخون القدامى فى أى وقت كان إعلان الانفصال الرسمى عن الخلافة الفاطمية بالقاهرة هل كان عام ٤٣٥ هـ

عند الثورة العامة ضد الشيعة أم كان عام ٣٣٨ هـ أم كان عام ٤٤٠ هـ أو ٤٤١ هـ أو ٤٤٣ هـ ولكن يتفق كثير من المؤرخين على أن وزارة البازورى كانت عام ٤٤٢هـ ومن ثم يكون الانفصال عام ٤٤٣ هـ وساءت العلاقات بين مصر والمغرب الأدنى إلا أن الخليفة المستنصر رغم الأحداث لم يكن يرغب فى أن تتم القطيعة على يديه لان انتقام الخليفة الفاطمى سوف يكون شديدا .

لكن الهوة ازدادت اتساعا وعمقا مما أدى فى النهاية إلى القطيعة والانفصال وكان المستنصر مشغولا بأحداث الحجاز والشام ومصر الداخلية ، ولما بلغ الخليفة الفاطمى رغم مشاكله ما فعله المعز بن باديس وأهل السنة بأنصاره من الشيعة الروافض وما تحققه من انحرافه السياسى افزعه ذلك كثيرا واستشار وزيره البازورى . ذلك لان إعلان الانفصال والاستقلال عن الفاطميين وإقامة الدعوة لبنى العباس وقطع الطاعة الفاطمية تعتبر ضربة قاصمة لنفوذ الفاطميين فى المغرب ولطمة على وجه الخليفة فى القاهرة ومن هنا لابد من التفكير فى رد فعل عنيف للمعز بن باديس الذى قضى على ملكه بالمغرب ولقد قوبل إعلان الانفصال عن الفاطميين فى بغداد بالبشرى والسرور ورحلت رسل بغداد إلى المغرب الأدنى (افريقية) بل لم يقف الاثر على حدود الفاطميين والعباسيين والمعز بل تعداه إلى أشراف طرابلس فحرض أهل البلد على الشيعة وقطع من الآذان حى على خير العمل واذن للسنة وحذا أهل برقة حذو أهل طرابلس وقطعت الدعوة للفاطميين وكتبت هذه البلاد للمعز بن باديس بالبيعة والطاعة وهكذا انتقل أتثير المعز عن افريقية كلها ضد التشيع وقضى على كل أثر شيعى فى المغرب كله .

ولما كان المعز بن باديس يريد أن يمحو كل أثر للفاطميين على وجه افريقية بعد أن اتخذ السواد لباس العباسيين حرق أعلام الفاطميين وخطب للخليفة العباسى القائم عام ٤٣٩ هـ . ولعنهم على المنابر وطهر القيادة والوظائف من الشيعة واتخذ المذهب

المالكى مذهبا رسميا للدولة وأحرق كتب الشيعة وصادرها من المكتبات وألغى تدريس المذهب الشيعى من المدارس والمساجد وصال أصحاب المذهب المالكى فى أرجاء الدولة يدعون لمذهب الكتاب والسنة ، فانه لم يعد أمامه إلا السكة وهى العملة التى يتداولها العامة والشعب فى أيديهم ومن هنا فلابد من طمس معالم الفاطميين من وجه السكة المغربية وكان الخلفاء السابقين فى حكم بنى زيرى وهم بلكين بن زيرى والمنصور بن بلكين ، باديس بن المنصور لم يفكر أى منهم فى تغيير العملة الفاطمية التى كانت تسود فى أيدى الناس للتعامل بها منذ رحيل الفاطميين إلى القاهرة ، حتى جاء المعز بن باديس الذى قطع الخطبة لهم ودعا للعباسيين لكنه ظل فترة طويلة من حكمه يتعامل بالنقود التى تسك فى دار السكة بالقيروان باسم الخليفة الفاطمى بالرغم من الحاح بعض كبار علماء المذهب المالكى بالقيروان عليه بضرورة تغيير العملة وكان المعز بن باديس والذى تخرج قافلة كبيرة من بلاده كل عام قاصدة الأراضى الحجازية لأداء فريضة الحج مرورا بالأراضى المصرية والأراضى التى سيطر عليها الفاطميون كان يخشى على حجاج المغرب أن يتعرضوا لأى أذى أو يصيبهم مكروه عند مرورهم بالقاهرة ومعهم العملة المعزية الزيرية قاصدين أراضى الحجاز ويرفض سكان هذه البلاد وتجارها بما فيهم أهل الحجاز التعامل معهم بسكتهم التى لاتحمل شعار الفاطميين ولا أسماء خلفائهم .

لكن المعز بن باديس فى عام ٤٤١ هـ اتخذ الخطوة النهائية للقضاء على أدنى أثر للفاطميين فى المغرب وأمر بالغاء التعامل بالسكة الفاطمية التى كانت تحمل أسماء الفاطميين ومحا أسماءهم من الطرز والرايات بعد أن استمرت مائة وخمسة وأربعين عاما ولا شك أن تغيير العملة كان آخر عمل هام قام به ابن باديس من قطع الأواصر السياسية والدينية التى كانت تربطه بالفاطميين فى مصر بعد أن تردد المعز كثيرا قبل أن يقوم بتغيير العملة خشية ألا يتعامل بالعملة الزيرية خارج أراضى دولته لاسيما فى موسم الحج حيث لايتمكن أبناء المغاربة من التصرف بالبيع والشراء فيما

لديهم من أموال لاتحمل أسماء الفاطميين ويرفض كل التجار والباعة التعامل بسكتهم، لكن شهر شعبان عام ٤٤١ هـ شهد تغير الدنانير الفاطمية وأمر بجمع ما لدى العامة من عملة فاطمية وصدرت سكة زيرية تحمل شعار الدولة والخلافة العباسية وبهذا الإجراء يكون ابن باديس قد نجح فى إعلان الاستقلال النهائى عن الفاطميين بعد أن كانت بدايته التقرب للعامة والثورة على الشيعة وتمسكه بالمذهب المالكى ونهايته تغير السكة واسدل الستار النهائى على كل ما كان يربطه بالفاطميين فى مصر .

لكن بعض المراجع تذكر أن تغيير السكة فى التعامل بها كان عام ٤٣١ هـ وليس عام ٤٤١ هـ ويذكر حسن حسنى عبد الوهاب المؤرخ التونسى أن تغيير العملة كان عام ٤٣٩ هـ بدليل أن الاستقلال قد تم فى هذا العام ولم يكتف المعز بذلك بل أمر بتغيير الإعلام ولون ثيابهم ولباسهم واستبدل به السواد وهو شعار العباسيين وطلب من الخليفة العباسى أن يرسل له الخلع والألوية السوداء فاستجاب الخليفة العباسى القائم بأمر الله لرغبته وأرسل له رسولا يدعى « أبا غالب الشيرازى » بالعهد والولاء ، فقبض عليه امبراطور الروم وهو فى طريقه إلى القيروان عاصمة المعز بن باديس فأرسله إلى القاهرة حيث أمر الخليفة المستنصر الفاطمى باحراق العهد واللواء والهدية فقام المعز بالاعتماد على المصادر المحلية فى صناعة الثياب والإعلام والألوية وتم له ما أراد من قطع الصلة نهائيا مع الفاطميين .

ولقد نجح المعز بن باديس نجاحا كبيرا فى الاستقلال السياسى بالقضاء على النفوذ الشيعى وقضى على معارضة قبائل زناتة فى طرابلس وفى بلاد المغرب الأوسط حيث تنازل عنه محليا لعمه حماد بن بلكين وبذلك استطاع أن يبعد الخطر عن ملكه ودولته ، بل أنه نجح فى القضاء على زعيم المذهب المالكى « الحسن الرجال » .

وقد بذل المعز بن باديس كل ما فى وسعه لكى يكون ملكه له لايعارضه شيعى

ولا سنى ولازناتة ولا أبناء عمومته فى القلعة الذين اعترفوا بالتبعية والسيادة له بعد أن انتصر عليهم وطلبوا الصلح بأنفسهم وأملى المعز بن باديس شروط هذا الصلح بما يتلاءم مع متطلبات الواقع السياسى وتنازل لحماد بن بلكين عن المغرب الأوسط دراً لخطر زناتة وأصبح الملك خالصا له حتى لو استدعى الأمر التضحية ببعض رجال الدين والسياسة الذين قد يؤثرون على رسم سياسة الدولة وسير الأحداث بها وتطيع لهم العامة.

* * * *

الفصل الثالث

زحف بني هلال الى افريقية (المغرب الأدنى)

عندما أعلن المعز بن باديس استقلاله عن الفاطميين وعودته للمذهب السنى (المالكى) ودخوله فى طاعة الخليفة العباسى فان الدولة الفاطمية كانت عاجزة عن اتخاذ أى إجراء عملى وعسكرى ضده ، ومن هنا فقد خطرت ببال الوزير الفاطمى أبى محمد الحسن بن على اليازورى فكرة اخضاع بنى هلال وبنى سليم بلاد افريقية والمغرب ونقلهم إليهاً وذلك لان القضاء على دولة بنى زيرى يكون خيرا للدولة الفاطمية وان قضى بنو زيرى على بنى هلال كان هذا خلاصا من بنى هلال دون أن تخسر الدولة شيئتا . وهكذا قام الوزير اليازورى باغراء القبائل العربية المقيمة على حدود مصر الشرقية بالوجه القبلى مثل بنى هلال وبنى سليم وعلى حدودها الغربية بالوجه البحرى مثل رباح ورغبة بالسير إلى القيروان بعد أن أمدهم بالمال والسلاح .

وهكذا انتقل بنو هلال هؤلاء بجموعهم إلى المغرب واتجهوا نحو برقة وكان الخليفة المستنصر بالله الفاطمى قد أقطعهم ملك المعز بن باديس الصنهاجى كوسيلة تنكيل به . ويقول ابن الاثير فى كتابه الكامل فى التاريخ انه فى عام ٤٤٢ هـ دخلت العرب إلى افريقية وسبب ذلك أن المعز بن باديس كان يخطب للقائم بأمر الله الخليفة العباسى وقطع خطبة المستنصر العلوى ، فأرسل إليه يتهدده فأغلط له المعز فى الجواب وكان قد استوزر الحسن بن على اليازورى ولم يكن من أهل الوزارة الأكفاء فكاتبه المعز وخاطبه بما لم يخاطب به من قبل فعظم ذلك عليه وعاتبه فلم يرجع ابن باديس إلى ما يجب ، فأكثر الوقيعة فى المعز وأغرى به المستنصر فوافقه ثم أصلحوا بين زغبة ورباح وكانت بينهم حروب وحقود وأعطوهم مالا وشرعوا فى إرسال جموعهم إلى افريقية وملوكهم كل ما يفتحون ووعدوهم بالمدد وحفزوهم لمحاربة بنى باديس الخارجين عن سلطان الدولة وردهم إلى حظيرتها واقتنع الخليفة بهذه الوسيلة السهلة التى

لاتكلف الدولة خسائر كبيرة (تفاصيل هذا الموضوع بالتوسع والتحليل فى الباب القادم من تلك الدراسة عن مسيرة بنى هلال وأثرها فى بلاد المغرب ودورهم الحضارى) .

ولما رحل بنو هلال إلى افريقية كتبوا إلى اخوانهم الذين يعيشون فى الصعيد المصرى يرغبونهم فى البلاد وسرعان ما تسرب هؤلاء الاعراب إلى أرض برقة فوجدوها بلادا خالية طيبة المرعى كانت عمارتها زناتة فأبادهم المعز بن باديس فأقاموا بها واستوطنوها . وكانت جموع العرب ببرقة والمعز ترد اليه أخبارهم ولم يكن يتوقع منهم شرا على ملكه . وكان العرب لما دخلوا برقة وجدوها خالية من السكان تقريبا بسبب الحروب الطويلة التى كانت بين أهلها من زناتة وقوات بين زيرى الصنهاجية (وجد العرب برقة خالية ولم يدمروا أو يقتلوا ويكونوا كالجراد) كما صور بعض المؤرخين وقد قال النويرى وغيره أن برقة كانت خالية كما ذكر ذلك بعض المؤرخين وأين كان التدمير والقتل) فاستقر فيها نفر من بنى سليم فى برقة وانطلقت بقية بنى هلال إلى طرابلس وافريقية فاستقروا فيها دون تخريب أو قتل أو سفك للدماء ودون أن يلقوا أدنى مقاومة وأرسلوا إلى بقية أبناء عمومتهم فى صعيد مصر يستدعونهم فلحقت بهم جماعات كبيرة من بنى هلال وبنى سليم وتولى قيادة الجميع يحيى الرباحى شيخ رباح أحد بطون بى هلال ثم زحفوا إلى قابس وامتلكوها دون مقاومة وانساب العرب فى بلاد المغرب الأدنى .

وتذكر المصادر التاريخية أن المعز بن باديس طلب من يحيى الرباحى قدوم العرب من طرابلس وافريقية لكى يستعين بهم بنو باديس على أبناء عمومتهم الصنهاجيين فى القلعة ، لكن مؤنس بن يحيى الرباحى زعم المعز بن باديس بأن العرب لا يجتمعون على الكلمة ولا ينقادون للطاعة فألح عليه المعز فى قدومهم ولما قدموا أخذوا الاغارة على الأطراف وسير لهم المعز بن باديس بعض جيوشه فهزموها وعزموا على الرحيل إلى

القيروان ، لكن زعيم رباح طلب منهم الاستيلاء على مدن افريقية وقراها واحدة بعد الأخرى حتى لم يبق إلا القيروان فقدموا إليها وبذلك يسهل أمرها ويتمكنون من الاستيلاء عليها ، وكانوا لما قدموا إلى قرية قالوا هذه القيروان ونهبوها فعظم ذلك على المعز بن باديس فقبض على أسرة الرباحى واقتحم عليه داره ، فعز ذلك على بنى هلال فأرادوا الانتقام فأرسل إليهم المعز حسب رواية ابن عذارى المراكشى ، الفقهاء ومعهم مكاتبات وشروط ووصايا وأعلموهم أن السلطان المعز قد دفع إليهم عملاءهم كأسرة مؤنس الرباحى ومن معه وأخذ عليهم العهود والمواثيق على الرجوع للطاعة فقبلوا وأرسلوا شيوخا منهم ثم انقلبوا على المعز ، لكن المعز استكثر من الجنود حتى بلغ عددهم نحو ثلاثين ألفا ليدفع بهم هجمات الأعراب ، ساءت أموال أعمال القيروان بمضايقات العرب ومحاصرة الأطراف وقلت حركة المسافرين واضطر المعز أن يفكر فى مدافعة هؤلاء الاعراب وكان على المعز أن يواجه هذا الخطر بعد أن فشلت محاولته فى ضمهم لخدمته والعيش بسلام فى أنحاء البلاد .

معركة حيدران الفاصلة

لقد دخل بنو هلال بلاد افريقية ولن يستطيع المعز وقومه انقاذها منهم واستنجد المعز بن باديس بابن عمه قائد بن حماد صاحب القلعة فأمده بألف فارس واستصرخ زناتة فأقبل إليه المستنصر بن خزرون بألف فارس من زناتة وجمع هو جنده وانضم إليه عرب الفتح ولكن هؤلاء تخلوا عنه وانضموا إلى الهلالية عندما دارت المعركة وكان المعز قد عزم على القتال لصرف خطر العرب عن القيروان وسار حتى أتى حيدران وكان ذلك ثانى يوم عيد الاضحى وذلك لان السلطان المعز تحرك إلى قرية تعرف ببنى هلال حتى إذا كان نصف النهار أتته الأخبار بأن القوم قربوا منه فأمر بالنزول فى أودية وعرة

ولم يتم النزول لهذا الجيش الضخم الذى كان يتكون من ثلاثين ألف فارس ومثلها رجاله وفى رواية ابن عذارى ثمانين ألفا وقد يكون فى العددين مبالغة وكان جبل حيدران بينه وبين القيروان مسيرة ثلاثة أيام وكانت عدة العرب ثلاثة آلاف فارس وعند ابن عذارى ثلاثون ألفا وهو الأقرب للصواب ودارت المعركة بين أهل افريقية يتزعمهم المعز بن باديس والعرب الهلالية فى هذا المكان المسمى حيدران قرب قابس فى ذى الحجة ٤٤٣ هـ / أبريل ١٠٥١ م وكان المتوقع أن ينتصر المعز نظرا لضخامة جيشه وجودة سلاحه وكثرة خيله وكانت غالبية الهلالية فى هذه المعركة من بنى رباح وعددا من بطون الهلالية ولكن انفصال عرب الفتح عن جيش المعز أضعف صفوفه وجر عليه الهزيمة فقضى الهلاليون على جيشه تماما وحاقت الهزيمة بالمعز على الرغم من كثرة جيوشه وقلة أعدائه وكان من نتيجة هذا الانتصار الذى أحرزه العرب فى حيدران أن تقدمت العرب نواحي القيروان وتفرق جند المعز وأصبح الناس لا حامى لهم إلا الله ويذكر ابن عذارى المراكشى أن عبيد المعز وعسكر صنهاجة لما دخلوا مدينة صبرة بعد الهزيمة أساءوا استخدام مبانيها وخربوا عمائرها العظيمة (ولم يخربها العرب) شهادة أخرى بجانب شهادة النويرى فهل بعد هذا دليل) وتراجع المعز بن باديس وتحصن فى القيروان وأقبل العرب يحاصرونهم فيها . وكان أهل القيروان يتتبعون نتائج هذه المعركة وجاءهم الفارون بخبر الهزيمة فحزنوا كثيرا ثم لحق السلطان وفلول جنده بالقيروان وأقام العرب على باب القيروان محاصرين لها .

وأمام الخطر الذى يحيط بالقيروان استعد المعز بن باديس لقتالهم فأعاد ترتيب جيوشه وعاد إلى القيروان يرتب شئونها وخرج إليهم المعز بنفسه فانهزم بعد قتال عنيف ثبت فيه المعز ثم عاد إلى المنصورية فاقتتلت العرب حتى نزلت على القيروان ووقعت الحرب هناك فقتل بين رمادة والمنصورية خلق كثير ، واستمرت مناوشات العرب للمدينة لكن المعز فى عام ٤٤٤ هـ أباح لهم دخول القيروان لما يحتاجون إليه من بيع وشراء واقتسم العرب بعض المدن فكانت طرابلس لزغبة وباجة لمرداس بن رباح ثم

قسموا هذه البلاد فكان لبنى هلال من تونس إلى الغرب وهم رباح وزغبة والمعقل وجشم وقرة والاشبج والملط وسفيان واشتدت الأزمة بالنسبة للمعز وتغلب العرب على سوسة وتونس وهكذا بدأت بوادر الضعف فى الدولة الزيرية .

وكان المعز قد أقام بالمنصورية مع من بقى من عسكره وولى ابنه تميما مدينة المهدية وعقد صلحا مع الهلاليين فى عام ٤٤٥ هـ لكن لم يأت عام ٤٤٦ هـ حتى نقضت العرب الصلح وحاصرت القيروان وهدمت الحصون وضيقت المنافذ على سكان القيروان مما اضطر المعز أن يلحق بالمهدية ويقيم فيها مع ابنه تميم وجعلها عاصمة بنى زيرى الجديدة بدلا من القيروان وخــرج الناس إلى المهدية وهجـروا القـيروان وخرج هو من المنصـورية إلى المهـدية فى عـام ٤٤٩ هـ (لاحظ ست سنوات ٤٤٣ هـ – ٤٤٩ هـ) ولم يستطع العرب دخــول القيروان فلماذا التحايل على العرب وكل ما هو عربى) .

ولما علمت العرب بوصول السلطان المعز بن باديس إلى المهدية دخلت القيروان . بعد أن ترك المعز وأهل المدينة خاوية على عروشها بعد أن حملوا ما خف حمله وغلا ثمنه ولم يتركوها إلا خاوية صعصعا من كل شئ ودخلها العرب واستولوا على ما كان قد بقى فى قصور المعز ابن باديس والتى كان المعز قد حمل كا ما فيها ولم يجدوا إلا بقايا خيام وبعض الآلات الحربية كالسيوف والدروع القديمة وأسرجة الخيل التى لايمكن استخدامها وخضع من بقى فى المدينة لسطوة العرب وخضوعا لحكمهم لان العرب كانوا يثيرون المتاعب ولم يتمكنوا من حكم المدينة وكان أهل القيروان قد رحل معظمهم مع السلطان إلى المهدية وبعضهم تفرق فى القرى والمدن الأخرى .

ولم تكن هزيمة المعز فى معركة حيدران أمام العرب ودخولهم القيروان نهاية الدولة فقد انتقل المعز إلى المهدية ومنها حكم هو وأبناؤه وأحفاده وجعلوها ملكهم وقام أهل أفريقية للدفاع عن بلادهم ووقعت بينهم وبين العرب حروب طاحنة وحاربتهم زناتة وصنهاجة وهوارة ولقد كانت مقاومة هذه القبائل البربرية للعرب شديدة ورغم ذلك

فانه فى عام ٤٥٣ هـ شهدت مدينة نقيوس مقتل أكثر من مائتين وخمسين رجلا من العرب بسبب خلاف نشب بين أعرابى ورجل من أهل المدينة .

وكان الاعرابى قد سب المعز وتصدى أهل المدينة للعرب وقتل منهم العدد المذكور ، وهكذا تصدع ملك المعز بن باديس وأقام بالمهدية بعد أن تمكن العرب الذين أرسلهم المستنصر الفاطمى ووزيره اليازورى وحققوا ما كانوا يحلمون به وأصاب القيروان حاضرة العلم والثقافة والحضارة ما أصابها .

وبعد انتقال المعز إلى المهدية أصيبت دولة بنى زيرى بالانهيار وزاحمها العرب فى كل مكان وأخذت كل قبيلة منهم تنشئ لها إمارة صغيرة فى جهة من جهات افريقية وهكذا انتشر العرب فى أنحاء افريقية ثم أخذ مشايخها وقادتها يفكرون فى التسرب إلى المغرب الأوسط (الجزائر) ويرجع المؤرخون أن أهم أسباب هزيمة المعز فى مدافعة العرب ترجع إلى شجاعة العرب الفائقة ومهارتهم الحربية الكبيرة وتخاذل الصنهاجيين وزناتة وخيانتهم للمعز بن باديس فى كل معاركه وتشبهه بالنعيم والجاه وتشبع روحهم بالحياة المعزية المرفهة ، وايثار المعز بن باديس عبيده على جنوده من صنهاجة وكانت هذه العوامل وغيرها ذات أثر بالغ فى هزيمة المعز وهزائمه المتكررة أمام هجمات بنى هلال وبنى سليم .

ولقد حاول المعز أن يصدهم لكنه لم يقدر ، بل ذهب إلى حد أن صاهر ثلاثة من امرائهم لكن ذلك دون جدوى ولقد كانت الأحوال السياسية فى افريقية تمهد لنجاح بنى هلال فقد انقسمت القبائل البربرية الافريقية صاحبة الأمر فى البلاد بعد أن غرقت فى الترف ففقدت روحها العسكرية وما كاد بنو هلال يصلون إلى أراضى افريقية حتى انتصروا على جيوش المعز بن باديس وهجرت مدينة القيروان التى كانت مركز الثقافة وكعبة العلم والحضارة وهاجرت أعداد كبيرة من السكان على رأسهم العلماء إلى المغرب الأقصى فأصبح المغرب الأوسط والأدنى يعيش فى صراع فكرى وعلمى من

جراء هجرة العلماء وأنشأ الهلاليون على أنقاض دولة بنى باديس امارات صغيرة يقاتل بعضها البعض وقضى المعز بن باديس السنوات الأخيرة من حكمه سجينا فى المهدية وشريط من الأراضى الضيقة حولها حتى توفى عام ٤٥٣ هـ / ١٠٦٢ م بعد أن رأى بعينه بوادر انهيار ملكه الواسع العريض من جراء هجوم العرب على افريقية وما جره إليه من وبال استقلاله عن الفاطميين فى مصر .

ويفسر بعض المؤرخين أن المسيرة الهلالية قد وضعت نهاية لدولة بنى زيرى فى افريقية رغم أن تميم بن المعز ظل يحتفظ بالساحة الباقية من أرض افريقية ، أما الباقى فقد تقاسمه الهلاليون وبعض زعماء زناتة وصنهاجة وانقسمت البلاد إلى اقطاعيات صغيرة وضاعت وحدة البلاد الكلية . لكن تميم عمل على جمع شمل البلاد ومحاربة المدن والبلاد التى خرجت عن طاعة الحكومة المركزية فى المهدية .

وقد خرجت بعض البلاد عن طاعة الدولة بمجرد علمهم بهزيمة حيدران ومغادرة القيروان إلى المهدية وكانت سوس أول هذه المدن فامتنعوا عن إرسال الأموال والجباية وجعل حكم المدينة شورى بينهم وأنشأ حكما ديمقراطيا بعد أن كونوا مجلسا استشاريا يدير شئون المدينة لكن المعز رغم الهزيمة أرسل إليهم عام ٤٤٥ هـ أسطولا حاصر المدينة ولكن أهل المدينة لم يستسلموا ودافعوا عن استقلالهم ولكن المعز أرسل أسطولا وجيشا ضيق الخناق على المدينة حتى استسلمت .

وفى ذلك يقول حسن حسنى عبد الوهاب فى كتابه ورقات عن الحضارة التونسية « أنه لأول مرة فى تاريخ تونس الإسلامية نرى مدينة تعلن استقلالها وتتخذ لنفسها حكومة استشارية لا دخل للحكم الاستبدادى والوراثى المطلق بينها ولم يكن له أدنى سلطة فى توجيه أمور البلاد بل هو نظام حكم يرتكز على الشورى وحكم الجماعة الذى تكون من اثنى عشر شخصا كونوا مجلسا استشاريا والذى كان يتم فيه اختيار أفراده من أبناء الشعب لإدارة شئون البلد والذود عن حياضه بما يوافق رغبة

الناس ومن ذلك نجد أنه عندما حاصرت قوات المعز البرية والبحرية مدينة سوسة فإن المجلس رأى الاستيلاء على أموال أهل القيروان المقيمين فى سوسة نظير ما تعرضوا له من أضرار نتيجة هجوم أسطول المعز عليهم وكان ذلك يتلاءم مع رغباتهم . وهذه هى أصول الحكم الجمهورى الشورى الديمقراطى فى العصور الإسلامية السابقة فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وهذا هو منهج الحكم الإسلامى الذى اختارته مدينة سوسة منذ ما يقرب من ألف عام والحق يقال أن أهل سوسة قد استفادوا من الصعاب التى مرت بها دولة بنى زيرى فى تلك الفترة الزمنية التى أعلنوا فيها استقلالهم، لكن المعز عمل ما وسعه العمل على عدم السماح بتقسيم دولته والحفاظ على وحدتها ، ولقد شهدت عدة مدن افريقية حركات استقلالية وخروجا عن طاعة وقوة الحكومة المركزية فى المهدية ومنها قابس ، تونس ، فقصة، وسوسة .

وقد ظل المعز بن باديس أربع سنوات يعيش فى كنف ابنه تميم وان كانت السلطة صورية فى يد المعز لكن تميما كان يدير شئون الدولة ويعمل على استتاب الأمن وعدم الخروج على شرعية الدولة .

قضى المعز أربع سنوات فى كنف ابنه تميم قضاها حزينا مكلوما وهو يرى الملك الذى شاده بنفسه يتمزق أمامه وتتقطع أوصال دولة كل يحاول الاستقلال بمدينة أو اقليم حتى قضى نحبه فى عام ٤٥٣ هـ / ١٠٦٢ م .

وقد كان المعز أعظم ملوك بنى زيرى وملكه أضخم ملك عرفه البربر وكان عادلا مستقيم السيرة ، كريما محبا للعلماء وفى عهده نزح الأديب الجزائرى الكبير ابن رشيق الميلى من مسقط رأسه إلى القيروان ، كما قصده الأدباء والشعراء وكان شاعرا مجيدا ، عارفا بعدة صناعات ، وقد آتته بعثة من قيصر الروم فى القسطنطينية عام ٤٢٦ هـ / ١٠٣١ م تحمل هدايا ثمينة فقبلها المعز وكافأ عليها بما يلائم الملوك .

ولم يكن المعز بن باديس يحسب أن أقدامه على استقلاله عن الدولة الفاطمية فى مصر سوف يجر على دولته كل هذا الويال والخسائر ولم يكن يدرك أن قدوم العرب الذين استعان بهم فى بادئ الأمر وينظر إليهم نظرة بعض العرب من الوافدين إلى دياره من شظف العيش وبحثا وراء المرعى والكلا ولكنهم قلبوا ظهر المجن واستباحوا كثير من المحظورات فى افريقية وكانت فعلة اليازورى وزير المستنصر هى سبب كل هذا البلاء الذى أصاب دولته .

* * * *

بنى زيرى بعد دخول بنى هلال المغرب
تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بـن زيرى
(٤٥٣ - ٥٠١ هـ - ١٠٦٢ - ١١٠٧ م)

ورث تميم بن المعز عن أبيه ارثا مثقلا فقد انفرط عقد الدولة أواخر أيام المعز وخرجت المدن السابق الإشارة إليها عن طاعة الدولة واستخلف المعز بن باديس ابنه تميما لحكم البلاد وتغلب العرب على أبيه وكان السلطان الجديد قد تولى الحكم وهو داخل أسوار المهدية ولم يكن تحت نفوذه إلا ساحل البحر من سوسة إلى قابس لا غير، كما ذكر ابن خلدون ، بل أن ابن خلدون ذكر أقوالا أبعد من ذلك فقال أنه لم يكن له إلا ماضمته السور لكن تميما كان شجاعا وتربى فى كنف القوة وحكم المهدية واليا من قبل أبيه وهو الذى فضله أبوه على كثير من أخوته لصفات رآه فيها مبكرة ، كان عليه أن يقابل كل هذه الحركات الاستقلالية فى مدينة سوسة وقابس وتونس وقفصة بكل حزم وشدة وجهز الجيوش والأساطيل وأخذ أهبته واستعداداته لاسترداد هذه المدن ووجه تميم همه الأول نحو سوسة فاستردها عام ٤٧٥ هـ وفتحها وأعادها إلى حظيرة الدولة وظلت سوسة خاضعة لنفوذ بنى زيرى وسيطرة تميم ، لكن الاعراب أغاروا على المدينة لكن تميما لم يمكنهم منها وطردهم بعد فترة قصيرة وخرج زعيم العرب ورجاله هائمين هاربين فى الصحراء بعد أن لقنه تميم درسا فى القتال وصيانة حرمة الديار وعدم الاعتداء على المدن الآمنة ، وبهذا الحزم استعاد تميم سوسة وكانت الحرب سجالا بين العرب وبنى زيرى من شأن سوسة وظلت المدينة بين هؤلا وهؤلاء إلى أن قدم الموحدون بعد أن رحل شيوخ المدينة إلى عبد المؤمن بن على وطلبوا منه دخول المدينة والدخول فى طاعته .

واستطاع تميم بن المعز أن يسترد مدينة طرابلس فى شرق البلاد عام ٤٨٨ هـ حيث استطاع القبض على واليها وهو من الاتراك الهاربين من مصر (شاه ملك)

وخربت طرابلس وقبض عليه وأخذه معه ورجاله من الاتراك أسرى إلى المهدية ولكن إذا كان تميم قد استرد طرابلس فان خلفاءه من بعده لم يستطيعوا المحافظة على الوجود الزيرى فى شرق البلاد واستقل أهل طرابلس بأنفسهم تحت قيادة بنى مطروح وقطعوا الطاعة لبنى زيرى .

وحاول تميم اخضاع قابس كما أخضع سوسة وطرابلس حيث كان منهجه أن يعيد سطوة الدولة ونفوذها وأن يخضع حكام المدن وكانت قابس قد تحالفت مع العرب من رياح وخلعت طاعة بنى زيرى أثناء حكم المعز لكن تميما حاصرها عام ٤٧٤ هـ ولكنها استعصت عليه فجهز حملة قوية عام ٤٧٩ هـ وحاصرها ومعها صفاقس فى وقت واحد وشدد عليها الحصار لكن العرب ساعدوا أهلها مما مكنهم من صد غارات تميم لكنه فى عام ٤٨٦ هـ حاصرها وشدد على اسقاطها حتى خضعت المدينة لنفوذ تميم وأعاد عليها الكرة مرة أخرى فى عام ٤٨٩ هـ حتى يقضى على كل أثر للفوضى والمتاعب التى كانت تقف فى وجه الوالى الزيرى .

ولقد شهدت السنوات الأخيرة من حكم تميم نشاطا حربيا وعسكريا مكثفا شهدت به غزواته للمدن والقدرة على اخضاعها وعمل على التفرقة بين القبائل العربية وتسليط بعضها على بعض نكالا للجميع واستمالة لبعضهم واتخاذهم أصهارا وأعوانا له على غيرهم من البطون العربية الأخرى ولم يكف لحظة على العمل على استتاب الأنور والقضاء على كل أثر من آثار الخروج على الحكومة المركزية فى المهدية فكما استرد سوسة وقابس وطرابلس كان عليه أن يستكمل مسيرة الجهاد فى اخضاع البلاد فاستطاع عام ٤٩٣ هـ بالتعاون مع قبيلة زغبة ورياح العربيتين وتعاونهم أن يسترد صفاقس وأن يهزم حاكم المدينة البراغوطى ومن معه وأرسل تميم ابنه وولى عهده يحى فى عدة حملات إلى صفاقس لتأديب العصاه والخارجين على سلطة الدولة وهكذا لم يأت عام ٤٩٣ هـ إلا وكان تميم قد استطاع أن يخضع كل المدن التى خرجت على

حكم أبيه واستطاع أيضا أن يسترد جزيرة جربة وأن تخضع لحكم تميم عام ٤٩١ هـ بعد أن كان قد جهز لهم أسطولا كبيرا ، بقيادة أبي الحسن الفهرى لكن الجزيرة قامت بالثورة عام ٤٩٩ هـ وحشدت أسطولها ولذا لم يتمكن الجيش والأسطول الزيرى من دخول الجزيرة وظلت الجزيرة خارج السيطرة الزيرية حتى حكم السلطان على بن يحيى حفيد تميم .

تونس والصراع مع بنى حماد :

كان العرب بعد معركة حيدران قد استحوذوا على كثير من الحواضر الافريقية مثل بجاية والأريس وما يليها وكان بنو حماد أبناء عمومة بنى باديس قد طمعوا فى ملك افريقية (المغرب الأدنى) وصارت القيروان فى أيديهم بعد أن خلع حاكمها طاعة الزيريين وقدم إلى ابن حماد لكن تونس أيضا رأت الأمور لاتسير وفق ما يتطلبه النظام والاستقرار فقدم أشياخ المدينة وكبار علية القوم والتجار إلى الناصر بن علناس الحمادى بالقلعة عاصمة بنى حماد يطلبون الدخول فى طاعته فولى عليهم فردا منهم هو عبد العزيز خراسان ، لكن بعد أن تولى تميم الحكم واجهه الخطر الذى كان زمن أبيه فنجد أنه فى عام ٤٥٨ هـ يقود حملة إلى تونس ويحاصرها أربعة عشر شهرا حتى استردها من ابن خراسان الذى أعلن خضوعه وطاعته وبيعته لتميم بن المعز وفك تميم الحصار عن المدينة ، لكن المدينة خرجت عن طاعته مما استدعاه أن يجهز أسطولا لتأديب تونس وبعض الجزر المخالفة مثل جربة وقرطبة ففى عام ٤٩١ هـ جهز أسطولا وأخضع هذه البلاد .

وكان على تميم بن المعز أن يكبح من جماح العرب ويرد أطماعهم فى بلاده بعد أن فكر العرب فى الاستيلاء على المهدية عام ٤٤٩ هـ وهو العام الذى انتقل فيه المعز إلى المهدية وكان الناس ينتقلون إليها أيضا لكنهم فشلوا لكن السلطان تميم بن المعز أحبط خطته وأفشلها ورجع مالك بن علوى للعهد ، وفى عام ٤٧٦ هـ توجه

زعيم العرب مالك بن علوى إلى المهدية يريد فتحها لكن السلطان تميم بن المعز أحبط خطته وأفشلها ورجع مالك بن علوى عن المهدية خائبا لكنه سار إلى القيروان واستولى عليها لكن تميم زحف إليه بجيوشه واضطره إلى الهرب إلى الصحراء وترك القيروان واستولى عليها جيش تميما وعادت إلى ملكه وتم لتميم طرد العرب من سوسة وكانت أعمالهم فى هذه المدن وقتية واغارات وليس استقرارا دائما ونظام حكم .

وكان كثير من أهل افريقية قد رحلوا إلى بلاد بنى حماد فى المغرب الأوسط بعد دخول العرب فعمرت بلاد الحماديين وصلحت أحوالها ووجد بنو حماد فى غارات الهلاليين فرصتهم ليتخلصوا من سيادة بنى باديس ويتصدروا زعامة المغرب ومن هنا تحالف الحماديون مع العرب ضد بنى زيرى واشتبك معهم تميم بن المعز فى معارك كثيرة ووقف ضد محاولة ابن عمه الناصر ابن علناس الحمادى وقضى على المحاولة التى قام بها الناصر عام ٤٥٧ هـ بمساعدة قبائل زناتة والعرب من الاشيج وعدى ، لكن تميما استطاع بمعاونة القبائل العربية من زغبة ورباح وبنى سليم أن يهزمه ولاحظ هنا صداقة تميم للعرب والتعاون وليس للتخريب ، وهزم الناصر وقتل من جيشه أعداد كبيرة وقتل أخوه القاسم بن علناس فى موقعة سبيبة وتمكن تميم بن المعز بتحالفه مع القبائل العربية من صد غارات المعتدين على دياره وساعدوه فى حفظ وفرض سلطان الدولة ونفوذها على ولاة الأقاليم وحكام المدن .

وتمكن تميم بمحالفة العرب من صد غارات الناصر الحمادى ومنعه من غزو المهدية وكانت مساعدة رباح والمعز بن زيرى الزناتى لتميم واتفاقهم معه سببا فى الانتصار على الناصر فى سبيبة ، لكن الناصر عاود الهجوم على القيروان عام ٤٦٠ هـ ولكن تميما وجموع العرب المتحالفة معه أجبرته على الخروج منها عام ٤٦١ هـ وتم الصلح والاتفاق بين تميم والناصر وكانت رغبة الناصر قوية فى السيطرة على بجاية ولكن الصلح لم يحقق له رغبته لكنه إذا كان تميم قد تمكن من القضاء على

المفسدين من الوزراء والحجاب وكان بمقتضى الصلح والمعاهدة أن زوج تميم بن المعز ابن عمه الناصر بن علناس بابنته « بلارة » التى بنى لها قصرا باسمها ، لكن الصلح لم يكن ليدوم فى المستقبل وأن هذا الصلح الذى تم فى عام ٤٦١ هـ قد استمر حتى عام ٥٢٩ هـ عندما انهار هذا الصلح وبدأت تلك الفترة تشهد كثرا من المنازعات بين الطرفين مما استدعى الأمر إلى الاحتكام للسلاح والقوة لحسم بعض الأمور المعلقة .

وفى عهد السلطان تميم استولى النورمان على صقلية عام ٤٨٤ هـ بعد أن لبثت تحت حكم المسلمين نحو مائتين وسبع وسبعين سنة واستقر معظم سكانها تحت حماية النورمان وهكذا سقطت صقلية فى يد روجر الأول النورماندى بعد حرب قصيرة بدأت عام ٤٤٤ هـ / ١٠٥٢ م وانتهت فعلا عام ٤٦٤ هـ / ١٠٧١ م بعد أن خرج أحد المدافعين عنها وهو ابن حواس بأهله وماله إلى افريقية وقد ظلت مدينة قصربانه تدافع عن نفسها ثلاث سنوات بعد ذلك ثم استسلمت وفى عام ٤٨٤ هـ / ١٠٩٢ م سقطت عاصمة الجزيرة بالرمو ، وانتهى أمر المسلمين فى صقلية من الناحية السياسية .

وفى عام ٤٨٠ هـ هاجم السواحل التونسية أسطول جنوى مكون من ثلاثمائة سفينة وتمكنوا من النزول بجانب قاعدة ملكه المهدية ، فأحرقوا الغلال وسبوا النساء ، فصالحهم تميم على مال أخذوه منه وانصرفوا وبقى تميم يدير أمور سلطنته الحقيقية بعد أن نجح فى استرداد المدن التى خرجت عن طاعته وأخضعها فيما عدا مدينة أو اثنتين واستطاع خلفاؤه من بعده استعادتها إلى حظيرة الدولة .

وقد طالت الحرب بين تميم بن المعز والنورمان فى البر والبحر وتقلبت علاقته معهم بين صلح وحرب وبعد وفاة تميم عام ٥٠١ هـ / ١٠٩٥ م لم تتوقف هجمات النورمان على سواحل البلاد الافريقية .

يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور ابن بلكين الزيرى
(٥٠١ - ٥٠٩ هـ - ١١٠٧ - ١١١٦ م)

توفى السلطان تميم بن المعز عام ٥٠١ هـ / ١٠٩٥ م وكان قد أخذ البيعة فى حياته لابنه يحيى وقد طالت فترة حكم تميم التى كانت ما يقرب من ثمانية وأربعين عاما استطاع أن يمكن للدولة ويسترد سيطرتها على المدن الخارجة وكذلك تحالف مع العرب لكنه ترك عرش البلاد وهى أحسن ما كانت فى عهد سلفه المعز وأخذ البيعة لابنه يحيى من أشياخ بنى باديس وعلية القوم رغم أن هذه البيعة كانت سببا فى مشاكل كثيرة مع أخوته وأبناء العائلة وأحسن تميم سيرته مع الرعية وقمع الثائرين فى البلاد فنجد أنه أعاد بعض المدن التى كانت قد استعصت على أبيه تميم ومن ذلك نجد أنه أعاد بعض المدن التى كانت قد استعصت قبله وحاصرها حصارا طويلا حتى فتحها وكان ذلك بعد تولية الحكم بعام واحد .

واستطاع أن يكون له دور فى سياسة حوض البحر المتوسط الغربى إذ أنشأ أسطولا بحريا قويا غزا به بلاد الروم وصقلية وسردانية وجنوه وداهمت قوته البحرية تلك البلاد وصالحه الأوربيين على مال يدفعونه له سنويا .

وكانت الظروف قد أرغمت بنى باديس فى المهدية على انشاء أسطول قوى واتباع سياسة بحرية قوية للحفاظ على سواحل بلادهم وأملاكهم فى الداخل وقد ساعد سقوط صقلية فى عهد السلطان تميم على نزوح كثيرا من مسلمى صقلية إلى دولة بنى زيرى والانضمام إلى الأسطول الزيرى وكانوا يغيرون على السواحل الايطالية وعلى جزر سردانية وصقلية مما دفع هذه الدول للقيام بحملات بحرية ضد بنى زيرى أصحاب المهدية فتحالف أهل جنوا مع أهل بيزا الايطاليين واستطاعوا فى عام ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧ م احتلال المهدية والاستقرار بها بعض الوقت وقد بارك ذلك رجال

الدين المسيحى الزوربيين وعلى رأسهم البابا فكتور الثالث الذى شجع على تكوين فريق من السفن الجنوية والبيزية للإغارة على سواحل افريقية وتحركت قوات من ثلاثمائة سفينة وثلاثين ألف مقاتل وألف فارس واشتركوا جميعا فى الاستيلاء على المهدية وزويلة وسبوا أهلها وقتلوا وأحرقوا بالنار وعاثوا فسادا فى هاتين المدنيتين ولكن صلحا كان قد تم بينهم وبين تميم على أن يدفع لهم مائة ألف دينار وكان نجاح هذه الحملة أن المسلمين قد خدعوا بها ولم يعدوا للأمر عدته وكانت هذه الحملة الايطالية تستهدف وقف غارة سفن بنى زيرى وتعرضها للملاحة الايطالية ووقف الاغارة على السواحل الايطالية لكن الصلح لم يدم طويلا إذ شهد عام ٤٩٨ هـ قيام أهل جنوه بيزا بمهاجمة المهدية ومعهم ثمانية وعشرون سفينة لكن هذه المرة كان أسطول بنى زيرى على أهبة الاستعداد ويعلم بالتحركات مقدما فخرج إليهم أسطول المهدية وهزمهم وقتل كثيرا منهم ولاذ الباقون بالفرار ويرجع أسباب هذا النصر إلى تدارك السلطان تميم للأخطاء السابقة .

والواقع أن بنى زيرى قد وجهوا جل اهتمامهم بالأسطول البحرى فنجد فى عهد يحيى بن تميم هذا يقوم بتجديد سفن الأسطول والإكثار من بناء السفن والاستعداد للغزو وقام عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م بمهاجمة السواحل الايطالية وقد كانت هذه الغارات نوعا من الجهاد الإسلامى ضد النصارى حيث واصل السلطان يحيى بن تميم سياسة أبيه تميم وقام بدور كبير فى الغارات البحرية حيث بنى أسطولا كبيرا وضخما غزا به جنوه وسردانية وصقلية وحرص على أن يقوم أهلها بدفع الجزية سنويا وتعددت غزواته البحرية ففى عام ٥٠٣ هـ / ١١٠٩ م جرد يحيى بن تميم أسطولا كبيرا مكونا من خمسة عشر غرابا (والغراب هو سفينة حربية كبيرة وقد سميت بهذا الاسم لان مقدمة هيكلها كانت على شكل غراب) وذلك للغزو فى بلاد الروم وقد أصيب منها ست وعاد الباقى إلى المهدية ، وفى عام ٥٠٧ هـ / ١١١١ م أغار أسطول المهدية على بلاد الروم وعاد بسبى كثير فى شهر ربيع الآخرة من نفس العام .

ونشطت حركة الجهاد الإسلامى فى عهد يحيى بن تميم وساعده فى ذلك حسن استعداده البحرى فقد صرف يحيى جل همه ووقته القصير فى إعداد الجيوش وتجهيز الأساطيل والإكثار منها والواقع أن هذه الغزوات البحرية التى قام بها تميم بن المعز وابنه يحيى بن تميم لبلاد النصارى قد حققت أهدافها المؤقتة ،لكنها كانت كناقوس خطر نبه نصارى هذه البلاد إلى أهمية الأسطول وخطورة هجمات أسطول المهدية على بلادهم مما جعلهم يهتمون بالبحرية .

ولكن السلطان يحيى بن تميم لم يحكم سوى ثمانية أعوام وذلك لسوء حظه وشؤم طالع دولته إذ فتك به بعض أخوته ولقد كانت ولاية العهد سببا مباشرا فى نهاية حكم يحيى بن تميم فقد ثار عليه أخوته الذين كان قد أبعدهم عن البلاد لكنهم احتالوا عليه ودخلوا عليه على انهم غرباء عن البلد وأن لهم معرفة جيدة بعلم الكيمياء الذى كان السلطان يحيى مولعا به وشغوفا إلى معركة كل جديد فى هذا العلم لكنهم اشترطوا عليه أن يشرحوا له سر اختراعهم فى تحويل المعادن الأخرى كالنحاس والرصاص إلى ذهب أن يكون وحيدا وكان هو قد نفى اخوته إلى بلاد المغرب فجاءوا إليه متنكرين فى زى مغاربة فهاجموا الوزير والحاجب وقتلوهما وهجموا عليه وأثخنوه جراحا يخرج منها آلام مريرة مدة طويلة ومازالت تعاديه وتراوحه حتى مات عام ٥٠٩هـ / ١١١٥ م . وكانت ولاية العهد سببا فى اثارة كثير من الاضطرابات والمشاكل وأشاعت الفتن بين أبناء الأسرة الحاكمة .

وقد أعاد يحيى بن تميم الخضوع للفاطميين فوصلته هدايا كثيرة منهم وعاد اسمهم إلى الخطبة لكن هذا الاعتراف لم يغير من الحالة شيئا وظل بنو زيرى يتوارثون الإمارة دون تدخل من الخليفة الفاطمى وأصبحت التبعية اسمية ومظهرية تظهر فى وفد يرسله كل أمير جديد إلى مصر يبلغ الخليفة الفاطمى بالقاهرة نبأ تعيينه ويحمل بعض الهدايا التى يرد عليها الخليفة الفاطمى بهدايا مماثلة .

ولم تكن قوة الخلفاء الفاطميين فى القاهرة لتسمح له بأكثر من ذلك بعد أن أصبحت سلطتهم على درجة كبيرة من الضعف وعجزوا عن السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد التى تحت أيديهم وخرجت الشام والحجاز عن سلطانهم وغلبهم على الأمر فى مصر الوزراء الذين أصبحوا يتوارثون هذا المنصب وأصبح منصب الوزير مركز الثقل فى مصر .

وهكذا نرى العلاقات بين الفاطميين فى مصر وبنى زيرى فى المهدية قد عادت علاقات ودية وحل الوئام محل القطيعة بعد أن كان تميم بن المعز بن باديس قد سار على نهج أبيه فى قطع العلاقات واستمر فى قطع الخطبة مما سبب له كثيرا من المشاكل مع الاعراب الموالين للدولة الفاطمية . وقد قبل يحيى بن تميم الصلح والولاء حتى لا تتعرض مملكته لمثل ما تعرضت له أيام جده المعز بن باديس وأبيه تميم . وفى عام ٥٠٥ هـ / ١١١٢ م وصل رسول صاحب مصر الفاطمى بهدية إلى أمير افريقية يحيى بن تميم .

على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس

(٥٠٩ - ٥١٥ هـ / ١١١٦ - ١١٢١ م)

تولى على بن يحيى إدارة شئون البلاد في المهدية بعد وفاة أبيه الذى كان قد أخذ البيعة له أثناء مرضه بعد أن طعنه اخوته وأصيب بجراح ظل يشكو منها فترة ، وتوترت العلاقات بينه وبين روجار الثانى ملك صقلية النورمانى بعد أن بدأ من الواضح أن النورمان سيتمكنون في القريب العاجل من الاستيلاء على المهدية بعد أن أختل التوازن العسكرى في غرب البحر المتوسط وانتقل إلى أيدى النورمان بعد أن كان الضعف قد امتد إلى معظم نواحى الحياة في دولة بنى زيرى ووصل النورمان وغزوهم وغاراتهم للسواحل المغربية ليعرقلوا حركة الجهاد الإسلامى ضد بلادهم وقابل بنو زيرى الغارات النورمانية بأعداد الأساطيل لكن غزو بنى زيرى لسواحل صقلية وجنوب ايطاليا كان عديم الأثر ذلك لانه منذ عام ٥٠٧ هـ / ١١٤ م كان البحر المتوسط بحيرة تورماندية وصارت السيادة فيه للقوى البحرية الأوربية وعربدت فيه أساطيل صقلية ونزل النورمان على سواحل المغرب وتدخلوا فى الصراع الدائر بين أمراء افريقية وساعدوا بعض حكام المدن الافريقية ضد البعض الآخر وأرسل روجار الأساطيل لحماية حكام قفصة ، لكن الأمير على بن يحيى وكان قد تخوف من التدخل فى شئون بلاده واستعد للطوارئ واستنجد بالأمير يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين ليساعده على مدافعة العزو النورمانى واستعان بالأسطول المرابطى لصد الهجوم الأوربى وتدخل روجار الثانى فى الشئون الافريقية وتزداد العلاقات سوءا بين روجار الثانى والأمير على لكن روجار الثانى عندما علم بنية المرابطين وتعاونهم مع بنى زيرى فى دفع الخطر النورمانى فى صقلية والذى كان يهدد بنى زيرى فى المهدية ، فقد مدت دولة المرابطين يدها للأمير على بن يحيى فى دفع خطر صقلية بعد أن علمت بنية روجار بغزو السلطان على بن يحيى فى عقر داره فى المهدية والاستيلاء عليها وراسل السلطان على بن يحيى

السلطان يوسف بن تاشفين فى طلب المساعدة والإعداد لحملة بحرية لغزو جزيرة صقلية فلما علم روجار الثانى بذلك أسرع بإرسال رسول وطلب الصلح من على بن يحيى بن تميم الذى استجاب للصلح والذى كان يرى فى هذا الصلح مجرد فرصة وقتية للإعداد القوى والتعاون مع المرابطين فى إرسال حملة بحرية إلى صقلية لكن المنية عاجلته وتوفى في ريعان شبابه ولم تتجاوز فترة حكمه ست سنوات إذ توفى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م . وقبل وفاته كان قد أرسل إلى روجار الثانى مهددا له بالاستيلاء على صقلية وكان الأمير على بن يحيى بن تميم قد أعد عام ٥١٠ هـ أسطولا للاستيلاء على جزيرة جربة واسترجعها للسيادة الزيرية بعد أن ظلت خارج السيطرة الزيرية حتى حكم السلطان على بن يحيى بن تميم الذى حشد لها أسطولا كبيرا حاصر الجزيرة وظل مقيما على حصارها حتى أقر أهلها بالطاعة وتعهد أشياخ الجزيرة بالخضوع وعدم قطع الطريق الذى يسلكه التجار والمسافرون إلى المهدية وهكذا أخضع على بن يحيى جزيرة جربة للسيطرة الزيرية بعد أن ظلت خارجة عن سيادة الدولة فترة طويلة منذ معركة حيدران بين المعز بن باديس وعرب بنى هلال بالتعاون مع المرابطين واسترداد صقلية من أيديهم مما جعل روجار يستخدم الحيلة والخداع ويطلب صلحا مع الأمير على وظل يتحين الفرص للاستيلاء على المهدية .

الحسن بن على بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس

(٥١٥ - ٥٤٣ هـ - ١١٢١ - ١١٤٨ م)

تولى الحسن بن على حكم البلاد بعد وفاة أبيه وكان عهده يكاد يكون أحسن عهود دولة بنى زيرى لولا ما صادفه من عقبات ومشكلات كان لها أثرها فى نهاية حياة الحسن بل ونهاية الدولة وهو آخر أمير صنهاجى زيرى يحكم فى المهدية وكانت الدولة فى رمقها الأخير والنورمان فى صقلية ينتظرون الفرصة للانقضاض على الدولة وتنكروا للحسن بعد أن كان والده على قد عقد صلحا معهم وأنذروه بمهاجمة دولته بعد أن كانت دولة المرابطين قد مدت يد العون لبنى زيرى حيث استعان بهم الحسن بن على وقام على بن يوسف بن تاشفين فى مواجهة خطر روجار وازدياد نفوذه وتحرشه الدائم بالمهدية بأن قام أسطول المرابطين بالإغارة على صقلية وتم فتح بعض المدن وخضوعها للسيادة الإسلامية ومنها مدينة تقوطرة عام ٥١٦ هـ / ١١٢٢ م وكذلك اقليم شلش لكن روجار الثانى ظن أن المحرك لذلك العدوان هو الحسن بن على صاحب المهدية ولذلك كان روجار كلما وصل أسطول إسلامى من المغرب يجاهد فى الأراضى الأوربية أو الصقلية نسبه إلى الحسن بن على .

فقام أسطول صقلية بمهاجمة الأراضى الزيرية عام ٥١٧ هـ / ١١٢٣ م ونزلت جنودهم بجزيرة الديماس ، لكن رجال الحسن قاتلوهم قتالا عظيما واستماتوا فى الدفاع عن وطنهم حتى قهروهم وطردوهم إلى البحر مهزومين وكانت هذه الحملة قد هزمت هزيمة نكراء بعد أن قاتل الأهالى الفرنجة وحاصروهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا وهرب الجنود إلى السفن وطلبوا الأمان من السلطان الحسن بن على فخرجوا من البلاد فى جمادى الآخر عام ٥١٧ هـ ودخل المسلمون جزيرة الديماس فاستولوا على الخيول والأسلحة والآلات والأموال .

وكان رجوع الفرنجة بهذه المنازلة له أثر سئ على روجار والشعب ، لكن روجار صمم على غزو المهدية . وتم الخداع مرة ثانية إذ تم الصلح بين الحسن بن على ورجار الثانى عن طريق الفاطميين بالقاهرة عام ٥١٧ هـ . ويذكر صاحب كتاب المؤنس أن الحسن بن على أرسل هدية إلى روجار وقبل الشروط التى اشترطها عليه صاحب صقلية .

وظل روجار يوالى هجومه على المهدية واستولى على قافلة من سفن البحرية الزيرية ليضعف بذلك قوة الحسن بن على مثلما فعل مع صاحب بجاية من بنى حماد ويقضى على روح المقاومة لدى أهل المهدية ويضعف الروح المعنوية عند جند الحسن بن على ففى عام ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م استولى على سفن كان الحسن يعدها لإرسالها إلى مصر وظل روجار يتحين الفرص ويتحرش بالحسن ويواصل الغزو والإغارة على المهدية بقيادة جرجس بن ميخائيل الاطاكى لمعرفته بالمهدية ويهون بذلك قوة الحسن وكانت لديه رغبة شديدة فى الاستيلاء على المهدية حتى تم له السيطرة على افريقية كلها ويحركه فى ذلك حب الانتقام لما أصاب جنده من هزيمة قاسية فى جزيرة الديماس عام ٥١٧ هـ حتى تمكن من الاستيلاء على المهدية عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م وبذلك طويت صفحة من صفحات تاريخ بنى زيرى فى افريقية وخضعت البلاد للحكم الأوربى حتى قيض الله للبلاد عبد المؤمن بن على أمير الموحدين فأعاد المهدية للسيادة الإسلامية عام ٥٥٥ هـ .

الفصل الرابع

المظاهر الحضارية والحياتية فى الدولة

ورث أمراء بنى زيرى الصنهاجيين الحكم فى افريقية بعد رحيل الفاطميين إلى مصر وهو فى صورة متكاملة من حيث التقسيم الإدارى ونظام الإدارة والقضاء والتنظيم ومختلف أنماط الحياة اليومية حيث كان النظام الأساسى للدولة يقوم على نشر المذهب الشيعى الاسماعيلى وإعلاء شأنه ونشره بين القوم فى المغرب والعمل على كبح جماح بنى زناتة والأمويين ومن هنا عمل امراء صنهاجة من بنى زيرى على حمل لواء الدعوة الاسماعيلية نيابة عن الفاطميين ، وكان امراء صنهاجة يساعدون الدعاة ويسهلون مهامهم ويسخرون لهم الجند والشرطة لاداء مهامهم ، بل أن الولاه كانوا يحضرون مجالس الدعاة لكن هذا الأمر انتهى بوفاة باديس بن المنصور بن بلكين.

ولما جاء المعز ابنه ورغب فى الاستقلال وأتاح الفرصة أمام أنصار المذهب السنى للعمل على استرداد فقه الإمام مالك بن أنس مذهب أهل المغرب وأطلق للعامة يدهم فى الشيعة وطردهم خارج البلاد وأعلن المعز قطع كل صلة له بالمذهب الشيعى نهائيا منذ عام ٤٤١ هـ . وبعد أن كان الولاة من بنى زيرى يحكمون فى القيروان باسم الفاطميين ونيابة عنهم ، فقد ألغى المعز كل ذلك فصار الحكم فى البلاد بدون موافقة خلفاء الفاطميين فى القاهرة بل انه لم يعد الولاة ملزمين بنشر المذهب الشيعى بعد أن ألغاه المعز نهائيا وتمسك نظام الحكم فى القيروان والمهدية بالمذهب المالكى وتغيرت ألقاب الأمراء والسلاطين الذين حكموا البلاد بعد المعز فبعد أن كانوا يقتصرون على الألقاب التى يمنحها لهم الفاطميون (شرف الدولة ، نصير الدولة ، عضد الدولة) تغير كل ذلك كلية واتخذ امراء بنى زيرى لقب السلطان منذ عهد المعز بن باديس ونهاية إلى الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م .

وكان نظام الحكم فى سلطنة بنى زيرى يتولاه السلطان بعد أن يتم ترشيحه من قبل أشياخ الأسرة الحاكمة من بنى زيرى وعلية القوم بها سواء كانوا رجالا أم نساء ، بل أن النساء لعبن دورا كبيرا فى الحكم مثلما حدث فى تولية المعز بن باديس نفسه حيث قامت عمته « أم بلال » بأخذ البيعة له وكفلته حتى كبر وكذلك عمه كرمة ابن المنصور حيث كانت تتم ولاية العهد من قبل السلطان وبإجماع الأسرة ، وكان المتبع قبل عصر المعز بن باديس أن يكتب حاكم القيروان بما يريد أن يخلفه فى العرش ويأخذ ولاية العهد له . إلى الخليفة الفاطمى بالقاهرة يطلب منه الموافقة على من يرشحه الأمير والأسرة الحاكمة لولاية العهد وكان وصول هذه الموافقة شرطا أساسيا فى تعيين ولى العهد . وحتى ولاية المعز نفسه وصلته موافقة الحاكم بأمر الله الفاطمى ولقبه شرف الدولة .

لكن بعد استقلال المعز بالأمور فى افريقية لم يعد لكل هذه مكان فى نظام الحكم الزيرى فقد أخذ البيعة لابنه تميم عام ٤٤٣ هـ وأمر الخطيب بالدعاء له فى الخطبة فى مساجد القيروان والمهدية وكل مساجد البلاد ولقب أبا الظاهر تميم واستمر نظام ولاية العهد معمولا به حتى نهاية الدولة فى عهد آخر سلاطينهم الحسن بن على .

وكان ولى العهد يتخذ لقب أمير كما تبين من عقد البيعة الذى كان يعقده السلطان لولى العهد ومن الألقاب المنقوشة على السكة كما كان يدعو للأمير ولى العهد على التأييد بعد أبيه (تميم بن المعز) كما يختص بالولاية على المهدية أو المدن الكبرى إذا مات أبوه ينقل إلى القيروان أو المهدية .

وكان منصب الوزير يلى ولى العهد فى الحكم من حيث الأهمية والمهام الملقاة على عاتقه وكانت مهمة الوزير مساعدة السلطان ومشاركته فى تسيير أمور الدولة وتحمل مسئولية بعض الأمور فى الحكم لان السلطان لايستطيع أن يتولى بمفرده إدارة كل شئ وإن كانت المعاونة لاتعدو أن تكون لها صفة الاستقلالية عن إطلاع السلطان

على كل شئ يتم تنفيذه وكان الوزير يختار من علية القوم والأسر العروفة وربما من الأسرة الحاكمة (فرع السلطان بنى زيرى ، بنى باديس) وكانت مهمة الوزير تلقى أوامر السلطان وإبلاغها إلى الولاه فى الأقاليم والمدن بما يجب أن يتم تنفيذه .

وقد عرفت دولة بنى زيرى وزارة التنفيذ والتفويض وكان لبعض الوزراء سلطة عامة وشاملة فى أمور تدبير الدولة وإدارة دفة الأمور ولهم حرية التصرف فى المفاوضات وتوقيع المعاهدات والصلح بين السلطنة والدول الأخرى .

ومن أشهر الوزراء الذين لعبوا دورا هاما فى حياة الدولة الزيرية الوزير (المولى صندل) وهو الذى تكفل بأمن الدولة وإدارة شئونها فى عهد السلطان الحسن بن على حينما كان هذا صغيرا وإدار دفة الأمور على خير وجه حتى تمكن الحسن من تسلم مقاليد الأمور بنفسه .

ويبدو أن الوزارة فى دولة بنى زيرى قد تغيرت معاير أدائها لدورها فعندما تكون شخصية الوزير قوية ومستمسكا بمقاليد الأمور تكون الوزارة وزارة تفويض مثلما كان الوزير الذى قتله المعز بن باديس نظرا لإصراره على ممارسة مهامه التى تتعارض مع دور السلطان فى الحكم وحين يضعف مركز الوزير يكون الوزير وزير تنفيذ فقط وكان السلطان يفوض وزيره فى تدبير شئون الحكم فتعلو بذلك منزلة الوزير مثلما فعل المعز بن باديس عام ٤١٣ هـ حين عهد بالنظر فى جميع شئون افريقية إلى وزيره القاسم ابن محمد بن أبى العرب . وعندما تضطرب الدولة يجمع السلطان كل مقاليد السلطة والحكم فى يديه وتكون مهمة الوزير استشارية كما هو الحال فى عهد تميم بن المعز الذى جمع السلطة فى يديه حتى يحفظ الدولة من الأخطار التى تتهددها من جراء وجود العرب واستقلال المدن عن الدولة وقد كفلت له هذه السياسة كبح جماح بنى هلال واستمالة القبائل القوية منهم وعودة جميع المدن الخارجة عن طاعة الدولة إلى نفوذ المهدية .

ولعل جمع السلطان لجميع السلطات راجع إلى طمع بعض الوزراء وتطلعهم إلى السلطة كما حدث فى عهد المعز بن باديس إذ نجد أن وزيره محمد بن الحسن استقل بالأمور وجبى الأموال وأرسل الهدايا للخلفاء بالقاهرة ووصل إليه سجل من الخلافة الفاطمية وحاول المعز أن يعزله ويعفيه من الوزارة فرفض فقتل عام ٤١٣ هـ وكان بنى زيرى يثقون فى وزرائهم ثقة كبيرة ويطلقون أيديهم فى الشئون المالية والإدارية واحتل الوزير فى نظم الحكم مكانا ممتازا ومحلا رفيعا .

وقد كان نظام الحكم الزيرى يجعل للفقهاء والقضاء فى الدولة عملا رفيعا . فقد كان فقهاء المالكية (الحسن بن الرجال) هم الذين مهدوا الطريق للمعز بن باديس عام ٤٠٦ هـ بالاستقلال عن الخلافة الفاطمية بالقاهرة وثورة العامة على الشيعة وقتلهم وطردهم من البلاد ، فقد كان لدورهم فى الصمود أن حببوا الشعب فيهم ، فلما كان تأييد الفقهاء والقضاه للنظام الجديد الذى سار عليه بن باديس ، كان الفقهاء هم المدافعين عن حقوق الناس .

وكان النظام القضائى فى الدولة الزيرية هو للفصل بين الناس فى الخصومات وحسم النزاع بين الأفراد وعرف عصر بنى زيرى منصب القضاه بالعدل والنزاهة وسرعة اصدار الأحكام وتحرى الدقة فى فصل المنازعات وكان القضاء فى الدولة الزيرية يسير وفق النظام الشيعى الاسماعيلى ، لكن عندما حل المعز بن باديس عام ٤٠٦ هـ حمل جميع أهل افريقية على التمسك بالمذهب المالكى ونبذ ما عداه من المذاهب وبهذا الاجراء الذى اتخذه المعز بن باديس تركزت سلطة القضاء فى يد المالكية وأصبحت جميع الأحكام التى تصدر فى كل البلاد خاصعة للمذهب المالكى ووفق فقه الإمام مالك بن أنس وكانت سلطة القاضى واسعة النطاق وكان قاضى القيروان بمثابة شيخ الإسلام لعموم البلاد والأقطار المغربية ومقره القيروان ثم المهدية وكانت دار القضاه قبل الغزوة الهلالية ملاصقة لجامع عقبة بن نافع الفهرى ، وكانت عدالة القاضى ونزاهته

شرطا أساسيا لبقائه فى هذا المنصب حيث كان للرأى العام فى البلاد دور فى عزل القضاه وتولية بدلا منهم عندما يحيد القاضى عن جادة الطريق ولا يلتزم بحكم الشرع والدين وفق المذهب المالكى .

وقد جعل المعز بن باديس من القضاه أصحاب الرأى فى البلاد وقادة الشعب وحكامه القائمين على تطبيق الشريعة الإسلامية التى أصبحت دستورهم الأول لاسيما بعد تعديل الحكم من المذهب الشيعى الاسماعيلى إلى المذهب المالكى فقد كان القضاه هم حفظة الشريعة لانه لن يصدر حكم إلا إذا أقروه فيه بأنه لايخالف الشريعة الإسلامية ولايناقض أحكامها وأنه صادر وفق المذهب المالكى .

وقد رتب السلاطين للقضاه والفقهاء والعلماء الاعطيات من بيت المال وأجروا عليهم الأرزاق ، وأصبح القضاه الذين اشتهروا بالعدل والنزاهة وحسن السمعة والسيرة هم الملاذ الذى يلجأ إليه الناس كلما تعرضوا لخطر أو وقع عليهم ظلم أو أصابهم مكروه ، وقد روى النويرى أن المعز بن باديس رد أحكام البلاد إلى قضاة المذهب المالكى وأسقط الأحكام التى كانت على المذهب الشيعى الاسماعيلى واعتبر ذلك غير شرعى وأسقط ما دون ذلك من الأحكام ، وهكذا أصبح القضاه فى عهد دولة بنى زيرى مشهودا له بالعدل والنزاهة والسمعة الطيبة للذين تولوا القضاء فى البلاد .

وكان قاضى الجماعة أو قاضى القضاه فى بلاد الشرق يقيم بالعاصمة القيروان ثم المهدية فيما بعد وأن الدولة الزيرية قد شهرت مراتب للقضاه أو درجات فهناك قاضى الأقاليم ثم قاضى المدينة ثم القرية الصغيرة ولقد كان لكل أقاليم الدولة الكبرى قاضيا يبسط سلطانه على قضاة المدن الواقعة فى اقليمه .

ولقد كان قاضى الجماعة فى القيروان ثم المهدية بمثابة وزير العدل فى النظم القضائية المعاصرة وكانت سلطات القاضى متعددة ومتنوعة .

وكانت هناك وظائف كثيرة تخضع للقاضى ويشرف عليها والتى منها وظيفة

صاحب المظالم وكان القاضى يولى عليها فقيها وكانت من الرتب التابعة للقضاء وكان صاحب المظالم يجلس للناس وينظر فى مظالمهم ويحكم فيهم ويفض المنازعات التى طالما كانت تنشب بين العوام والسوقة والتى كان القاضى يفضل أن يتولى أمرها بنفسه وكان ينيب عنه صاحب الأحكام وكان صاحب المظالم له الحق فى النظر فى أحكام الأسواق والفصل فى الأمور الصغيرة وكان صاحب المظالم لاينظر فى رفات الأموال ولا حكم له على الايتام ولا فيما فيه أمرها أمور السلطان والعمال .

وكان القاضى يشرف على الفتيا والافتاء من المناصب العامة التى لها صلة بالقضاء وكانت الفتيا من المهام الكبيرة التى تتطلب فيمن يتولاها أن يكون واسع العلم والمعرفة متفقها ومتعمقا فى أمور الدين وعالما بتفاصيل أمور المذهب المالكى وله دراية واسعة وكاملة بقوانين الأحكام وكان هذا المنصب لايتولاه إلا شخص تتفق الآراء عليه من بعد فى قياس الأمور وله دراية بالتدقيق والتحقيق ويكون أجرأ الناس على اصدار الفتيا فى القضايا التى تهم الحكم والسلطان والرعية ولذلك كان بعض الفقهاء حين يتولى منصب القضاء يطلب شخصا معينا للفتيا كما حدث من القاضى (أبو الفضل شعلان) قاضى المهدية فى عهد السلطان تميم بن المعز بن باديس إذ عين شخصا معينا للفتيا فى الدولة الزيرية وقد كانت منزلة متولى الفتيا منزلة عالية .

وكان القاضى يولى أحد معاونيه أحكام الصرف أو الحسبة وهى وظيفة تخول لصاحبها حق مقاومة الفكر وكان المحتسب يستعين بطائفة من الشرطة يطلق عليهم الاعوان ، وكانت وظيفة المحتسب لايتولاها إلا رجل من وجهاء المسلمين وكان يعين نوابا عنه فى سائر البلاد لينفذوا أوامره وكانوا يعرفون بالأمناء ثم كانت وظيفة العدول وهى وظيفة تابعة للقضاء وكان للعدول فى القيروان والمهدية دكاكين ومصاطب معلومة يقصدها المتنازعون لإقامة حججهم وتقديم الوثائق والبيانات .

تلك هى بعض الوظائف التى كانت تتبع القاضى والتى كان يتولاها رجال

تابعون له يؤدون وظائفهم على أحسن وجه أما المهام الكبيرة التى يتطلب الفصل فيها جرأة وشجاعة وعدلا لا يعرف فى الله لومه لائم فكانت تترك للقاضى نفسه لينفذ أحكام الشرع الإسلامى على جميع الناس سواء أكانوا حكاما أو عمالا أو قوادا أو من كبار الأسرة الحاكمة من بنى زيرى أو بنى باديس أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد وكان هؤلاء لايعترضون على قاضى القضاه فى القضاء بقضية .

وكان القضاه يتخذون كتابا لهم يتولون كتابة الأحكام ونسخها وقد يكون هؤلاء الكتاب أصحاب خبرة ودراية بأحكام الشرع والدين وحسن الخط وبعض المؤهلات التى تؤهلهم لتولى هذا المنصب وقد كان لقاضى القضاه أكثر من كاتب يقوم بكتابة المهام القضائية الصادر بها أحكام .

وكان القاضى يتدخل فى كل صغيرة وكبيرة ، حتى فى شئون أرباب الحرف و،الصناعات فكان القاضى يولى على كل حرفة رجلا من أهلها يفصل فيما يشب بينهم من خلافات أو منازعات وهو غالبا يكون من الفقهاء لكنه صاحب أو عالم بأسرار هذه الحرفة أو المهنة وكان إذا وقع خلاف فلا يبلغ به حاكم الأقليم أو المدينة بل يظل الأمر بيد القاضى ليفصل فيه فيجب الرجوع إليه والأخذ بحكمه ورأيه .

وكان قاضى القضاه يتولى سلطانه بناء على عقد تولية من السلطان الزيرى الذى كان يعقد له كتاب تولية ويبعث به إليه فيصبح بذلك نصا على القاضى يتبع ما جاء فى كتاب التولية ويعمل بموجبه ومن ذلك ظل القضاء فى دولة بنى زيرى عادلا منصفا للحق رادعا للظالم آخذا بحق المظلوم ولكن القاضى لم يكن عليه سلطان غير شرع الله وحكم قرآنه الكريم وسنة الرسول الكريم يحكم وفق ما جاء بالكتاب والسنة ومن هنا استقامت الأمور وعم البلاد العدل واختفى الظلم والجور وساد البلاد الأمن والأمان فى ظل حكم الشرع والدين ومذهب الإمام مالك بن أنس .

وإلى جانب القضاه كانت وظيفة الكتابة أو كبير الكتاب وكان الكاتب على عهد بنى زيرى من أكبر أعوان السلطان وكانت رتبة الكاتب تلى رتبة الوزارة بل كادت تساويها فى بعض الأحيان ونظرا لأهمية هذه الوظيفة كانت لاتسند إلا لمن عهد فيه الكفاية والقدرة والكياسة والفطانة فى معالجة الأمور وكان الكاتب يختار من أشهر الناس سعة فى الإطلاع والأدب والقدرة فى فن الإنشاء ومن ذوى المعرفة بالعلم والآداب السلطانية وقد كثر عدد الكتاب وتنوعت مهنتهم فمنهم من كان كاتب رسائل أو كاتب خراج إلى كاتب جند إلى غير ذلك وقد امتلأت بهم الدواوين حتى أن ديوان الرسائل كان به أكثر من مائة كاتب وكان ديوان الرسائل فى عهد المعز بن باديس يرأسه الشيخ أبو الحسن بن أبى الرجال الشيبانى مربى المعز بن باديس وكاتم سره والذى كان على درجة عالية من العلم والمعرفة بالآداب وصناعة الشعر وهو الذى لقن المعز وحببه مذهب أهل السنة والجماعة ودله على المذهب المالكى وكان ورعا زاهدا .

وكان لسلاطين بنى زيرى علامات مميزة فى الكتابة تعطى الأوراق الصفة الرسمية ويلاحظ أن وظيفة الكتابة والحسبة والقضاء وجباية الأموال والبريد لم تكن وقفا على قبيلة صنهاجة بل كانت لغيرهم .

واشتهر العديد من الكتاب فى صنعة الكتابة والانشاء خصوصا لان الدولة كانت تقيم العديد من العلاقات الدبلوماسية مع جيرانها من أمراء المغرب ومع الخلفاء وأمراء الشرق (نلاحظ ذلك فى باب العلاقات الخارجية) ومع الدول الأوربية وعقد المعاهدات ، فكان سلاطين بنى زيرى فى حاجة إلى طائفة تجيد فن القول ويعرفون لغات النصارى ويستطيعون أن يتفاهموا معهم وأن يقوموا بالترجمة عنهم (معاهدات ومراسلات بين بنى زيرى وملوك صقلية وايطاليا وجنوب أوربا) وهكذا رسمت وظيفة الكتابة وديوان الانشاء فى دولة بنى زيرى .

كما عرف عهد بنى زيرى نظام الحجابة ومن ذلك كما ذكر أن يحيى بن تميم قد قتله أخواه هو وحاجبه فى المؤامرة التى دبرت لقتلهما . وقد تولى هذا المنصب الحاجب عبد الوهاب بن حسن بن جعفر حاجب الدولة فى عهد المنصور بن بلكين وكذلك فى عهد المعز بن باديس خلفه ابن بعلى وكانت وظيفة الحاجب تشبه إلى حد كبير وظيفة كبير الأمناء فى عصرنا الحديث وكانت مهمته تقوم على أساس ادخال الناس والوفود ورسل الملوك ورجال البعثات إلى السلطان مع مراعاة مناصبهم وأهمية أعمالهم وأدوارهم فى تلك المقابلات .

هذا هو النظام القيادى الذى كان معمولا به فى دولة بنى زيرى السلطان ثم ولى العهد والوزير وقاضى القضاه والقضاه ثم الوظائف التابعة كصاحب المظالم وصاحب الفتيا والحسبة والعدل والكاتب والحاجب وما يلى ذلك من وظائف أخرى .

ثم بعد ذلك يأتى النظام الإدارى الذى كانت تسير عليه الدولة وهو تقسيم البلاد إلى ولايات عدة القيروان والمهدية وتونس وصفاقس وسوسة ، وقفصة ، وقابس ، وطرابلس وكانت الولايات تقسم إلى مدن وأقسام رئيسية وكانت رياسة المدن والقرى تخضع للوالى وقد كان هذا النظام قائما حتى وقت خضوع صنهاجة الزيريين للفاطميين وكان الخليفة الفاطمى فى القاهرة ، يعين الوالى نفسه ويعين إلى جانبه عامل الخراج والقاضى وصاحب الشرطة . ولكن بعد أن استقل المعز بن باديس بامر افريقية أصبح السلطان المعز بن باديس هو الذى يقوم بتعيين الجهاز الإدارى للدولة وهو الذى يساعده فى إدارة شئون الحكم وسار خلفاؤه من بنى زيرى على هذا النهج والطريقة فى الحكم من بعده وكانت القيروان ثم المهدية مقر الحكومة المركزية وذلك منذ عام ٤٤٩ هـ عندما ترك المعز بن باديس القيروان بعد صراعه مع عرب بنى هلال .

وكان يتم تعيين الولاة بالمدن الافريقية والمغربية من قبل خلفاء المعز لاسيما بعد أن قام تميم بإعادة المدن الخارجة عن طاعة الدولة وكان يعين عليها ولاة من قبله ، لكن بعد الغزوة الهلالية فان الأمور لم تكن تسير وفق رغبات السلطان ولم تنعم بعض المدن بالهدوء والاستقرار نظرا لكثرة الحروب والثورات التى واجهت بنى زيرى بعد استقلالهم عن الفاطميين بالقاهرة وما كان له أثر من جراء دخول العرب لافريقية وقد شجع ذلك على قيام الثورات واستقلال المدن فاستقلت العديد من المدن ، صفاقس ، تونس ، فاس ، قفصة وبنو حماد .

وكانت المدن الافريقية مسرحا كبيرا للصراع بين العرب والسلاطين الذين نجحوا فى اعادتها إلى حظيرة الدولة .

الحالة الاقتصادية في البلاد

كان مجتمع المغرب الأدنى (افريقية) أواخر القرن الرابع والخامس الهجرى / العاشر والحادى عشر الميلادى مجتمعا زراعيا وإن كانت البداوة هى السائدة فى أرجائه ولقد كانت الزراعة جزءا من العملية الاقتصادية تتفاعل مع الصناعة لتقوم الحركة التجارية وهى العناصر الثلاث التى تشكل عصب الحياة الاقتصادية والتى بدورها تدفع إلى التطور الحضارى والثقافى فالمتغيرات الثقافية والحضارى لا تتم إلا بناء على تطور اقتصادى يعتمد على الزراعة والتجارة . فالتقدم الحضارى لا يتم إلا بناء على تطور وتقدم اقتصادى يدفع بالعملية الحضارية إلى الإزدهار والرقى ، كما أن التركيب البشرى للسكان فى المغرب هو المحرك الأول للتطور الاقتصادى والحضارية ، كما أنه من الواجب القول أن الظروف السياسية التى سادت عصر أسرة بنى زيرى لعبت دورا فى الحالة الاقتصادية والحضارية .

ولقد ورث بنو زيرى نظام الإدارة فى الزراعة والصناعة والتجارة من الفاطميين قبل رحيلهم إلى مصر وعملت حكومة بنى زيرى على الاهتمام بالأراضى الزراعية والزراعة وزيادة الإنتاج ومضاعفة دخل الزراعة والعمل على شيوع الاستقرار والطمأنينة بين الناس وقد عملت الدولة على تثبيت دعائم الاستقرار فى المغرب الأدنى ، لكن قدوم القبائل العربية من بنى هلال وبنى سليم لاسيما منذ أعوام ٤٤٢هـ حتى عام ٤٦٠ هـ هى الفترة التى سادها الاضطراب أما بعد ذلك التاريخ فقد نجح تميم بن المعز فى ادماج العرب مع سكان البلاد الاصليين وصاروا عونا للحكام من تميم بن المعز حتى سقوط الدولة فى عهد الحسن بن على . وقد دونهم السلاطين فى الجيش وأجزلوا لهم العطايا والهبات مما كان عاملا فى النمو الاقتصادى وكف عدوانه على القوافل التجارية .

ولقد كان انهيار الزراعة فى دولة بنى زيرى الصنهاجة وما ترتب على نزوح الناس

إلى المدن الساحلية أو المدن الداخلية الحصينة لم يترك أمام صنهاجة الزيرية غير الاعتماد على التجارة كمصدر أساسى للدخل وللاقتصاد القومى وأضعف بنى زيرى على الرغم من الجهود التى بذلها تميم بن المعز وابنه يحيى ومن جاء بعدهما فى تأمين الطرق البرية ومن ثم فكروا فى البحر وما وراءه وحاولوا تأمين الطرق البحرية فى سواحل دولتهم واحتكار النقل البحرى والاستفادة من خبرة أهل مصر وبلاد المشرق فى ذلك لكن ضعف بلاد بنى زيرى اقتصاديا اضطرهم إلى العمل فى التجارة الخارجية ولما كانت علاقتهم بفاطمى مصر وحمادى بجاية متوترة ، لم يجد بنى زيرى حليفا لهم سوى النورمان فى صقلية وقد كان للنورمان مصالح فى التجارة مع بلاد الشرق فلم يشركوا فى غزوات المدن الايطالية لها ، بل انهم نقشوا آيات قرآنية فى سكتهم (عملتهم) حتى تجد قبولا فى أسواق العالم الإسلامى غير أن محاولة بنى زيرى احتكار النقل البحرى أو اخفاقهم فى حماية سفن النورمان كثيرا ما كانت تؤدى إلى توتر العلاقات بين الفريقين .

وقد بلغت نقمة النورمان ذروتها يوم حاول بنو زيرى التحالف مع المرابطين لضرب صقلية (مصدر أوربى) فشرع النورمان فى احتلال موانئ بلاد بنى زيرى فى منتصف القرن السادس الهجرى حتى كانت الموانئ من طرابلس إلى بونة تحت الاحتلال النورمانى فتقلصت تجارتها وقضى على المهدية كمركز أساسى للتجارة البحرية .

هذا عن النشاط التجارى الذى كان يعتمد على الزراعة والتى ازدادت عناية الدولة بها لتنشيط الفلاحة وحفر القنوات والترع للرى وتنوعت المحاصيل الزراعية وانتشرت زراعة الحبوب والزيتون والحنطة والفواكه واشتهر جنوب البلاد بالنخيل التى تنتج التمور وكانت هذه المحاصيل المختلفة ترد إلى العاصمة المهدية من الولايات المختلفة ثم تقوم العاصمة بتصدير ما لاتحتاج إليه وقد وضع بنو زيرى الخراج على الأراضى

الزراعية بحسب انتاجها وهو نظام معمول به فى كل البلاد الإسلامية والخراج هو خراج الأرض والرؤوس وكان هذا النظام معمولا به تحت الحكم الفاطمى ولم يكن يستدعى تغييره إلا بما يتلاءم مع المذهب المالكى .

وكانت الصناعة بجانب الزراعة تساهم بدورها فى موارد الدولة وتنوعت الحرف والصناعات فى الدولة الزيرية ونشطت صناعة البسط والمنسوجات الصوفية والحريرية والكتانية وأشهر منها الملابس المطرزة واشتهرت بعض المدن بصناعة الزجاج والبلور ومنها القيروان وكذلك صناعة الخزف وصناعة الجلود ودباغتها وغيرها من الصناعات الأخرى ومع هذا يمكن القول بأنه لم تكن لبنى زيرى سياسة مشجعة على الصناعة والتصنيع وذلك لضعف الإنتاج الزراعى وتوقف التعدين وقلة الصناعات المعدنية والأيدى العاملة الماهرة التى هاجرت من البلاد بسبب الغزو الهلال للمناطق الداخلية والهجوم النورمانى على جهات الساحل التى كانت الدولة تصدر الفائض منها إلى الدول التى تبادلها النشاط التجارى .

لكن مع سابق القول بأن بنى زيرى اهتموا بالتجارة البحرية إلا أن ذلك لايعدم القول بأنه كانت هناك تجارة برية لانه بفضل الموارد الزراعية والصناعية الزائدة عن حاجة السوق المحلية والزائدة عن استهلاك السكان فقد نشطت التجارة ونشطت عمليات التصدير والاستيراد وكانت تجارة بنى زيرى مع الشرق عن طريق مصر عن ثغر الاسكندرية قبل عهد المعز بن باديس ثم بعد عهد ابنه تميم فقد أعاد ابنه يحيى العلاقات مع الفاطميين وكذلك كانت علاقتهم مع المغرب وأوربا عن طريق الاندلس وصقلية وكذلك مع بلاد السودان وقدمت تجارة السودان إلى المهدية تمهيدا لنقلها إلى أوربا عن طريق صقلية إذ أصبح بمقدور سفن صقلية وايطاليا المجئ إلى الموانئ الزيرية وأن تحمل من تجارة المغرب الشرقى والسودان ما تحتاج إليه وأصبحت بلاد السودان تجد فى المهدية والموانى المغربية سوقا تجارية عظيمة تمد الأسواق فى بلاد الساحل

الافريقى بكثير من السلع الهامة مثل الذهب والعاج الذى كان يتهافت عليه الأوربيون والرقيق الذى كان يستخدمه بنو زيرى كجنود ، وتجار بنى زيرى مع مصر وبلاد سوريا والعراق بعد تحسين العلاقات مع الفاطميين فى عهد يحيى بن تميم ونشطت التجارة وزاد النشاط التجارى البحرى مع بلاد المدن الايطالية .

ونشطت المهدية لكى تكون لها حق السبق فى التجارة البحرية على سائر أسواق المغرب فى ميدان التجارة الدولية فقصدتها سفن التجارة من الاسكندرية وبلاد الشام . حيث ازدهرت فيها كثير من الصناعات والحرف .

ومن ذلك نجد أن السلطان على بن يحيى بن تميم أبدى عناية فائقة بالسفن التجارية ومنع غيره من حكام المدن الزيرية من الانفراد ببناء أسطول بحرى وقاتلهم من أجل ذلك لكى لاينافسون فى الحركة التجارية .

ومن هنا فان هذه الموارد الثلاث (الزراعة - الصناعة - التجارة) كانت من أهم المصادر الرئيسية وقد احتكرت التجارة التى تجلب مصادر النقد لبنى زيرى بما يضاف إليها من الزكاة والصدقة وأعشار السفن التجارية التى كانت تمر بموانى افريقية يضاف إلى ذلك ما كان يرد إلى بيت المال من أموال كبار رجال الدولة وموظفيها بعد مصادرتها بناء على حكم قضائى أو بأوامر من السلطان .

وقد قدر حسن عبد الوهاب فى كتابه البساط أن دخل الدولة فى عهد المعز بن باديس كان حوال ثلاثة ألف ألف دينار أى نحو خمسة وأربعون مليون فرنك ، فى حين أن بعض المصادر قدرت سكة الدولة فى عهد المعز بنحو ٤٠٠ ألف دينار وبنمو الثروة والاهتمام بالفلاحة حسنت الزراعة وازدادت الفراسة وأحيى موات الأرض وارتفعت الصناعات الأهلية فى عموم المدن فزهت صناعة الزرابى والمنسوجات الصوفية والحريرية والقطنية وشملت الرفاهية نواحى البلاد واستتب الأمن والاستقرار بعد احتواء الغزوة الهلالية ونشطت حركة الفكر والعلم والثقافة .

وكانت (السكة) عملة البلاد الرسمية الدينار الفاطمى والذى قام المعز بن باديس بتغييره عام ٤٤١ هـ ونقش على إحدى وجهتيه (ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) وفى الوجه الآخر لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وكان دار الضرب فى القيروان ثم المهدية تسك العملة وقد أطلق على الدينار اسم الدينار المغربى وكان العمال الذين يعملون فى دار سك العملة يسمون السكاكين .

وكانت موارد الدولة قبل المعز بن باديس يرسل منها للقاهرة النسبة العظمى ، لكن المعز أبطل ذلك ومن هنا كانت الموارد ينفق منها الرواتب التى تعطى لرجال كبار الدولة كالوزراء والقضاه والكاتب والحاجب والولاه وكبار رجال الشرطة والبريد والحسبة والأسطول والجيش وقد كانت الرواتب كبيرة قبل الغزو الهلالى عام ٤٤٣ هـ لكن بعد ذلك زادت نفقات الجيش والأسطول وقد استدعى الانفاق العسكرى فى شراء الأسلحة وبناء السفن والتدريب والمهمات وشراء الجند من السودان الذى زاد عددهم على أكثر من ثلاثين ألف من العبيد وكان السلاطين يغدقون الأموال على رجال الدفاع والفرسان وأدخل تميم بن المعز العرب فى الجند ومنحهم من الديوان السلطانى الهبات والاعطيات . وكان الانفاق الحربى فى دولة بنى زيرى له الأولوية فى مصاريف الدولة .

وتلك هى لمحة مختصرة وموجزة عن الحالة الاقتصادية فى عهد بنى زيرى منذ تسلمهم مقاليد الحكم فى عام ٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م حتى سقوط الدولة فى عهد الحسن بن على فى عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م وهى صورة مبسطة وعلى من يرغب فى التوسع الرجوع إلى فاتحة المصادر ليجد بها كل عون فى هذا المجال .

المظاهر الحضارية والثقافية

عاش المغرب الادنى فى ظل حكم أسرة آل زيرى عيشة رغدة وشهد انتعاشا كبيرا فى المظاهر الحضارية واليومية وأخذت مدنهم وأسواقهم تستقبل آلاف الجمال والسفن المحملة بالبضائع والمنتجات الزراعية والصناعية من المشرق والمغرب حاملة أنواع التجارة كما كانت تخرج منها آلاف السفن والجمال لتحمل محاصيل البلاد إلى حيث تجد التجارة فى انتظارها .

ولقد عاش سلاطين بنى زيرى فى أبهة عظيمة من الجاه والسلطان والترف والنعيم، مما كان سببا فى نهضة فنية هائلة فى هذا الجزء من افريقيا فى حياة القصور التى أقاموها أو الاحتفالات التى اهتموا بها أو الشعراء الذين شجعوهم حتى لقد قيل أن المعز بن باديس صرف فى جهاز ابنته أكثر من عشرة ملايين دينار وحين ماتت أمه أرسل فى طلب خشب لقبرها من الهند وجعل له قفلا من الذهب .

وقد ساعد على ذلك الجو من الرفاهية ما بذله الامراء والاغالبة والخلفاء الفاطميون من جهود مشكورة فى تحسين أحوال البلاد وترفيه بيت العلوم والمعارف ونشر اللغة العربية بين جميع الطبقات محاكاة لما كان يقوم به خلفاء بنى العباس فى بغداد ولما جاء سلاطين بنى زيرى كانت آثار تلك النهضة قد بدأت تتضح وأن تؤتى ثمارها المرجوة، وآن الاوان لاكتمالها ولقد بلغت افريقية فى عهدهم شأوا مرموقا فى الحضارة والتمدين. واشتغل كثير من العلماء والادباء بالتدوين والتعليم والتأليف وازدهرت أسواق الادب وظهرت حركة فكرية لم تعرفها افريقية من قبل .

ولقد كان من أسباب التقدم والازدهار الحضارى فى البلاد هو ذلك التشجيع الذى أولاه السلاطين والامراء فقد خلص القطر التونسى ولاسيما أيام باديس وابنه المعز

وتميم بأوفر نصيب من التمدن الاسلامى .

بل اننا نجد كثيرا من السلاطين كان لهم باع طويل فى الادب والشعر وعلوم الدين والفقه ومن ذلك المعز بن باديس فقد تهل من مختلف فروع العلم والمعرفة وتفقه فى المذهب المالكى على يد معلمه ومؤدبه على بن الحسن بن الرجال وكذلك فان الحسن بن على آخر خلفاء بنى زيرى فى المهدية كان أديبا فصيحا عالى الهمة يحسن الادب والشعر ومن هنا سمت العلوم والفنون فى عهدهم .

ولقد شهد عصر بنى زيرى ظهور القيروان وجامع الزيتونة والجامع الاعظم بها كجامعة لها شأن كبير فى الحياة الثقافية والفكرية فى بلاد المغرب هذه الجامعة الفريدة فى بلاد المغرب شد الرحال اليها المغاربة والمشارقة ونهلوا من علومها ما طاب لهم طوال حكم باديس وحتى عام ٤٤٩هـ تاريخ رحيل المعز إلى المهدية فقد ظلت تغذى الحياة الثقافية فى العالم الاسلامى طيلة أربعة قرون، لكن الغزوة الهلالية كان لها أثرها على الحياة العلمية والثقافية فى البلاد فقد رحل منها العلماء بعد أن تركها المعز بن باديس واقفرت الحياة العلمية والفكرية والثقافية بها حيث أنهم لم يكونوا قادرين على أداء رسالتهم فى ظل الظروف التى تعيش فيها البلاد وجو الصراع بين السلطة الشرعية والقبائل العربية .

وقد سبق القول بأنه كيف استطاع عرب بنى هلال أن ينالوا من دولة بنى زيرى ويهزموا صنهاجة بقيادة المعز بن باديس وأن يدكوا صرح القيروان (أقوال ابن خلدون) وأن يغيروا على المدن االزاهرة وكان استقرار العرب فى افريقية سببا فى تفرقة علماء افريقية إلى شتى أنحاء البلاد إلى المهدية وفاس وسبتة وتلمسان فكانت نكسة القيروان قد ساعدت على ازدهار الحضارة فى مختلف أنحاء المغرب الاوسط والاقصى ولقد استغل بنو زيرى موارد البلاد خير استغلال فعظمت ثروة البلاد وأقبل هؤلاء الامراء

على الترف والرفاهية وكونوا لانفسهم بلاطا يشبه البلاط الفاطمى فى القاهرة والعباسى فى بغداد فى حياته واتجاهاته ويذكر المؤرخون كيف أن مساجد القيروان قد شهدت حلقات للتدريس فى جامع الزيتونه والجامع الاعظم وجامع المهدية وأنشأوا المدارس الجامعة واستقدموا لها الاساتذة والعلماء من الشرق والاندلس .

وقد أنشئت المدارس الجامعة المتخصصة ومن ذلك قيام السلطان يحيى بن تميم (٥٠١- ٥٠٩هـ) بانشاء معهد لعلم الكيمياء الذى كان مغرما به أشد الغرام واستقدم له الاساتذة وشجع الطلاب على دراسه علم الكيمياء وكثرت المدارس فى العهد الزيرى وفى ظل الفوضى التى سببتها الغزوة الهلالية كانت المدارس تؤدى دورها فى الدرس والبحث لرفع شأن اللغة العربية ونشر لسان الاسلام وثقافته بين أبناء سلطنة بنى زيرى وكيف عمل السلطان تميم بن المعز ومن جاء بعده من سلاطين بنى زيرى على ايجاد نوع من التعاون بين السكان لاسيما مع العرب الذين شجعهم على الولاء له وأجزل لهم العطايا وكان جند العرب سندا لهم وكيف أن التعاون بين طوائف المجتمع قد أثمر انتصارا كبيرا للثقافة العربية الاسلامية وتشجيع الابناء والصبيان على حفظ القرآن الكريم ودراسة علوم اللغة العربية وتعلم النطق الصحيح للعربية فى البادية لدى قبائل بنى هلال .

وكيف أن المساجد مارست دورها فى الفقه والتشريع وكيف نمت علوم اللغة العربية كالنحو والبلاغة والادب والشعر وكيف أن المعز بن باديس منذ عام ٤٠٦هـ واتجاه الدولة للمذهب المالكى وانتشاره فى البلاد والقضاء على كل أثر للمذهب الاسماعيلى الشيعى وكيف كان عصر المعز انتصارا نهائيا لهذا المذهب وسرعة انتشاره فى بلاد المغرب وكيف أن العرب وهم من سكان الحجاز مصدر المذهب المالكى (المدينه المنورة مالك بن أنس) قد تناسوا ولاءهم للفاطميين واندمجوا فى الحياة الجديدة

وساهموا بنشر اللسان العربى وعلوم العروبة والاسلام .

وكيف نحجت هذه القبائل فى نشر اللغة العربية والعلوم الاسلامية فى جميع أنحاء المغرب لاتفاق أساليب حياتهم مع الحياة البربرية فى السهول والجبال .

وهكذا اكتمل انتصار المالكية فى افريقية حين أعلن المعز بن باديس عام ٤٤٣هـ رسميا انفصال المغرب عن الخلافة الفاطمية وتغلب مذهب مالك نهائيا وطبع الثقافة العربية فى المغرب بطابعه الذى لازال سائدا حتى اليوم حدث هذا فى القرن الخامس والسادس الهجريين وتوطنت الثقافة العربية نهائيا بتفشى اللغة العربية وتغلغل ثقافة الاسلام وعلومه المختلفة والمتفرعة منها فى نفوس الناس وظهور جيل من مثقفى البربر أنفسهم والعديد من الفقهاء والقضاه والعلماء ورجال التعليم والادارة والذين طبعوا الحياة بطابع الثقافة العربية الاسلامية وساعدهم على ذلك قطع كل صلة بالفاطميين وقيام الاسرات البربرية بنو زيرى فى تونس وبنو حماد فى الجزائر .

وكان العصر الزيرى فى واقع الامر هو بداية الثقافة العربية الاسلامية المغربية ذات الطابع المميز عن الطابع الشرقى فى كل ناحية من نواحى الحياة الثقافية والفكرية ففى الخط ظهر الخط المغربى والذى له طبع ورسم وشكل خاص وفى الفن الاسلامى ظهر طابع خاص. وفى ذلك يقول (جورج مارسى) لقد تنوعت الآثار الاسلامية فى عصر بنى باديس والتى منها آثار دينية مثل المساجد وآثار مدنية مثل القصور وآثار حربية مثل الحصون ومرافق عامة مثل خزانات المياه التى انتشرت فى تونس فى عهدهم والتى شق منها المعز بن باديس قناة فى الجبل لتصل المياه إلى القيروان .

وفى الثقافة الدينية والفكرية المالكية والتقاليد الدينية التى تتلائم مع طبيعة المجتمع المغربى. ويكاد النشاط الادبى فى ذلك العهد يكون قاصرا على العديد من العلماء والفقهاء والقضاه والشعراء التى تمتلئ بهم كتب الطبقات والذين ساهموا بدور

كبير فى مختلف نواحى الحياة العلمية والادبية والثقافية والحضارية والمعمارية وكان لهم باعهم الطويل فى كل مجال. حتى لقد كان لهؤلاء العلماء تفوق فى مجال التأليف فى مختلف العلوم وذاع صيتهم فى بلاد المغرب والمشرق والاندلس مثل ابن الصلت وابن رقيق العبد وابن الزنغ والحسن بن الرجال والقيروانى والكثيرين الذين يحتاج الامر للحديث عنهم إلى دراسة مستقلة. لكن ما يمكن قوله أن عصر بنى زيرى رغم صدمة الغزوة الهلالية فان حركة الثقافة والعلوم والفكر والادب والتعليم والبحث قد تأثرت لبعض الوقت الا انتاج العلماء والادباء والفقهاء والشراء فقد كان كثيرا لدرجة انه عندما مات المعز بن باديس رثاه أكثر من ثلاثمائة شاعر من بينهم ابن رشيق الحنبلى وغيره من الشعراء وهذا خير دليل على تقدم العلم والعلوم والفن والعمارة والحضارة الاسلامية بمختلف فروعها .

الاسطول والجيش والشرطة

سعى الامير بلكين بن زيرى أول حكام بنى زيرى فى افريقية إلى أن يعيد للبحرية التونسية مكانتها التى فقدتها برحيل الاسطول الفاطمى إلى مصر فيما عدا قليل من السفن التى تركها خلفاء بنى الفواطم لمعاونة ابن زيرى فى حماية أملاكه من الخطر الاموى فى الاندلس فلم يمض على توليه السلطه الا عامات فقط أو ثلاثه ٣٦٥هـ حتى أمر ببناء أسطول قوى بالمهدية وأن يزود بالرجال والعدة والسلاح وأصبح للمهدية فى أقل من عام واحد أسطول .

وجاء بعد ابن زيرى ابنه المنصور الذى حرص على الاهتمام بالبحرية نظرا لاهمية الاسطول فى حماية السواحل الافريقية فى أعوام٣٨٦هـ/ ٣٨٧هـ كالمهدية وسوسة وغيرها وعندما وصل إلى المهدية فى هذه المرحلة لعبت المراكب بين يديه ورحى النفاطون بالنفط .

ولقد أرغمت الظروف بنى زيرى فى المهدية على انشاء أسطول قوى وممارسة سياسة بحرية قوية للحفاظ على أملاكهم فى الداخل. وعندما تولى المعز بن باديس انقطعت العلاقات مع الفاطميين وسير القبائل الهلالية وزير الخليفة الفاطمى وانتقل المعز إلى المهدية واتخذها مقرا له واقتصر ملك تميم بن المعز بن باديس على شريط ساحلى ضيق ونتج عن انحسار سلطان بنى زيرى فى افريقية إلى الساحل بسبب ضغط القبائل العربية على المدن الداخلية إلى ازدياد عناية الصنهاجيين بشئون البحر ولقد كان من نتائج غزو العرب لافريقية انحسار ملك بنى زيرى فى الساحل مما دفعهم إلى الاهتمام بالصناعة البحرية فأسس تميم بن المعز أسطولا ضخما بدار الصناعات بالمهدية واتجهت همته إلى المدن الساحلية فأخضع بنى خراسان فى تونس واستولى على فاس وصفاقس. ووجه الصنهاجيون أنظارهم إلى صقلية وجنوب ايطاليا وعاود التونسيون نشاطهم البحرى منذ أن أصبحت المهدية عاصمتهم الجديدة وهكذا أخذ بنو زيرى يتطلعون إلى البحر بعد أن مضى زمن طويل لم يبرحوا فيه أرض افريقية وقد ظل بنو زيرى يشتغلون بالغزو البحرى منذ أيام المعز بن باديس حتى نهاية عهد الدولة الزيرية فى عهد الحسن بن على .

وكان المعز بن باديس قد أمر فى عام ٤١٤هـ بحشد رجال البحر والاسطول والتعجل باصلاح السفن وعمارة دار الصناعة بالمهدية وأخذ فى انشاء العدد البحرية فأسس فى أمد قصير أسطولا ضخما بلغ عدد قطعه فى عام ٤١٦هـ أربعمائه قطعة بذلك يكون المعز بن باديس أول من بنى أسطولا ضخما لحماية شواطئه من أساطيل الروم والفرنجة وقد حظيت البحرية بعنايته وقد كان المعز يهدف من انشاء هذا الاسطول إلى مواجهة منافسيه فى طرابلس الذى أصبح له قوة بحرية يخشى بأسها وكذلك مواجهة الحملة البيزنطية التى سيرها ميشيل الثانى امبراطول الروم عام ٤١٦هـ. إلى

صقلية وفلورية وحاصر هذا الاسطول بالرم عاصمة صقلية، فاستنصر أهلها المعز بن باديس الذى لم يتردد فى نصرتهم بعد أن تخلت عنهم الخلافة الفاطمية فى مصر، وأرسل المعز أسطولا كبيرا إلى صقلية لمعاونة أهلها ضد غزو النورمان وكان هذا الحشد البحرى يتكون من أربعمائة سفينة، وشجع المعز بن باديس رجال البحر على القيام بغارات متعددة على السواحل الايطالية ولكن أسطول ابن باديس تعرض لانواء عاتية بالقرب من قوصرة فغرقت سفنه ولم يصل إلى صقلية منها الا عدد قليل. وأنقذ موت باسيل الثانى أهل صقلية من الغزو وقام خليفته قسطنطين الثانى بعقد صلح مع الخلافة الفاطمية عام ٤١٨هـ .

ولقد كان غرق الاسطول الزيرى ضربة لآمال المعز بن باديس فى المحافظة على الوجود الاسلامى لجزيرة صقلية وعاقت الغزوة الهلالية المعز عن نجدة سكان صقلية ومع هذا لم ينقطع أمراء بنى زيرى عن نصرة اخوانهم فى العقيدة .

ولما تعرضت صقلية لغارات النورمان حاول تميم بن المعز الذى خلف أباه أن يتدارك الامر فى الجزيرة فأرسل أسطولا بقيادة ولديه أيوب وعلى فى عام ٤٥٧هـ لايقاف الزحف النورمانى على جزيرة صقلية وقد بقيت قواته بالجزيرة أربع سنوات (العلاقات مع صقلية) لكنها كانت السبب فى قيام فتنة فى الجزيرة حيث قام عبيد ابن باديس بالصراع مع أهالى الجزيرة فاضطر أيواب وعلى إلى العودة إلى المهدية عام ٤٦١هـ تاركين صقلية تواجه خطر النورمان وانتهز النورمان هذه الفرصة وأخذوا يعملون على الاستيلاء على جميع بلاد الجزيرة كلها واستطاع النورمان الاستيلاء على بعض منها عام ٤٦٤هـ وعلى البقية عام ٤٨٩هـ وسقطت صقلية تحت حكم النورمان .

وبدخول صقلية تحت حكم النورمان اشتد الصراع بينهم وبين بنى زيرى الذين

حاولوا استرداد صقلية لكن الضعف كان قد بسط نفوذه على دولة بنى زيرى فاختل التوازن وانتقل إلى أيدى النورمان الذين وأصلوا غاراتهم على السواحل المغربية. وقابل بنو زيرى الغارات النورمانية باعداد أسطول كبير والاكثار من بناء السفن لغزو النصارى لاسيما أيام يحيى بن تميم اذ أرسل عام ٥٠٧هـ أسطولا إلى صقلية لكنه لم يستطع تثبيت أقدام المسلمين بل كانت غارة عادت بسيئ كثير ويبدو أن هذه الغارة ضد صقلية وبلاد جنوب ايطاليا كانت محدودة الاثر .

وقد دفعت هذه الغارة أوربا إلى ارسال ٣٠٠ ثلاثمائة سفينة لمحاصرة المهدية ولم يرفعوا الحصار الا بعد أن يدفع لهم تميم بن المعز مائه ألف دينار ووعد بعدم التعرض لسفنهم، على أن هذه الحملة لم توقف الاعمال البحرية ضد نصارى أوربا، ولما جاء يحيى بن تميم إلى الحكم زاد من نشاطه البحرى وشجع البحارة والمجاهدين فى سبيل الدعوة الاسلامية لغزو بلاد النصارى وتنوعت قطع الاساطيل فكان منها ما يسمى بالشوانى ومنها ما يسمى الحراريف ومنها الشلندرى والاغربة وكان هناك أمير للبحر أو قائد للاسطول وهو المسئول عن ادارة المعركة البحرية وسلامة الجند، بل أن بنى زيرى لم يكتفوا بالسفن البحرية بل شبوا المحاريس وقاموا الحصون على الثغور وكان يقيم بهذه الحصون رجال ذوو خبرة بشئونها وكان يطلق على هذه الحصون اسم الرباط وقد حظيت البحرية بعناية فائقة فى عهد بنى زيرى .

كما أن اضافة للقول فان عهد يحيى بن تميم قد شهد نشاط حركة الجهاد الاسلامى وساعد على ذلك حسن استعداده البحرى فقد صرف يحيى جل همه فى اعداد الجنود وتجهيز الاساطيل والاكثار منها والواقع أن هذه الغزوات البحرية التى قام بها تميم بن المعز وابنه يحيى لبلاد النصارى قد حققت أهدافها المؤقتة ولكنها كانت كناقوس خطر وجه النصارى إلى أهمية الاسطول وإلى خطورة هجمات أسطول المهدية

على بلادهم مما جعلهم يهتمون بالبحرية اهتماما فائقا فأكثروا من الاساطيل وقاموا بتوجيه ضرباتهم المتلاحفه على معظم بلاد السواحل الافريقية بما فيها المهدية حتى حققوا أهدافهم فى اسقاط الدولة الزيرية .

وهكذا كانت صقلية هى المركز الاول الذى بدأ منه النورمان يتطلعون إلى افريقية وينتهى الامر بتدمير القوات البحرية الزيرية ويتم الاستيلاء على المواقع الساحلية من البلاد التونسية ولم يأت عام ٥٤٣هـ الا وكانت المهدية عاصمة البلاد قد سقطت فى ايديهم .

وكما اهتم بنو زيرى اهتماما زائدا بالاسطول فقد وجهوا اهتمامهم بالجيش باعتبار انها قوى الدفاع عن الوطن وكان للجيش عناية خاصة لان فلسفة الحكم الزيرى ودخولها فى صراع زناتة والقبائل المناوئة ثم العرب استدعت ضرورة اعداد جيش قوى يكون هو السند الاول فى وقت الحرب وحامى الديار من خطر الهجوم الداخلى والخارجى لاسيما وان الاخطار كانت تحيط بالوطن الافريقى الزيرى. وكان هذا الجيش يتكون من القواد وطوائف الجند وكان القواد من أمراء صنهاجة أو الاسرة الزيرية الحاكمة وذوى النفوذ والمكانة فى الدولة ويذكر المؤرخون أن الجيش كان له نظام خاص من حيث الرتب وكان الجند يتكون من المتطوعة والمرتزقة وعبيد السلطان والاسرة الحاكمة وهم طوائف عدة ومنهم الجند البربرى، العرب الذين استمالهم تميم ابن المعز وأجزل لهم فى العطاء وضمهم لجيشه وكانوا عدته وسنده فى استرجاع المدن الثائرة وفى الغزو والجهاد وكذلك السودان الذين استكثر منهم المعز بن باديس حتى انه يذكر أن عددهم قد بلغ لديه نحو ثلاثين ألف مملوك منهم وذلك ليدفع بهم هجمات الاعراب وقد أكثر تميم بن المعز من شراء العبيد وجندهم فى قواته اضافة إلى تجنيد الاعراب من رباح والاشيج وعدى . وقد أبلى العبيد بلاء حسنا فى معركة حيدران

ويذكر ابن الاثير فى كتابه الكامل لقد انهزمت صنهاجة وثبت العبيد مع سيدهم المعز فكثر القتلى فيهم، قتل منهم خلق كثير وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتا عظيما .

لكن خلفاء المعز بن باديس استفادوا من وجود العرب فى دولتهم فكونوا جيشا من العرب الهلاليه وكانوا يستعينوه بهم فى حروبهم وكان الجيش موزعا إلى فرق كان أهمها فرقة الفرسان التى كان يعتمد عليها فى القتال بالاضافة إلى أصحاب الدروع، وفرق السودان وكانت هذه الفرق بمثابة فرق الفدائيين فى الوقت الحاضر كان أفرادها يسلحون بأسلحة خفيفة وانهم كانوا يدخلون المعركة فى آخر لحظة لانتزاع النصر من الاعداء انتزاعا اذ كانوا ينقضون كالصاعقة على العدو المهزوم فيدخلون الرعب فى قلبه وأشار بعض المؤرخين إلى أن بنى زيرى استخدموا بعض الجند الصقالية والمرتزقة الاوربيين واعتمدوا عليهم اعتمادا كبيرا ويشير دى ماسى لاترى De Mastafrie إلى أن هؤلاء الجند كانوا من المتطوعة المرتزقة طلاب المغامرات أو ربما يكونون من الاسرى، الذين لم يكن أمام سلاطين بنو زيرى بدا من تجنيدهم فى الجيش والاستفادة منهم لتحقيق أغراضهم ويبدو أن القيادة كانت فى رجل منهم، بل أن ظروف الهجوم المتكرر على السواحل دفعت بنى زيرى إلى الاستعانة بجميع طوائف المجتمع لادارة دفة الحرب فالى جانب هذه الطرق النظامية استعان بنى زيرى بطائفة كبيرة من المتطوعين من أهل البلاد الذين كان يدفعهم حب الجهاد فى سبيل الله طلبا للشهادة فى سبيل الله والدفاع عن الوطن وكانت أعداد المتطوعين تعد بالآلاف وان طائفة من عرب بنى هلال قد اشتركت فى حركة الجهاد فى عهد تميم ومن جاء بعده .

ولقد كانت تقاليد بنى زيرى وصنهاجة فى القتال هو أن يثبت القائد والفارس فى موقعه لا يتقهقر وكان فن حصار المدن قد أصبح المعروف فى قتال بنى زيرى، اذ أن الذى يطالع الاحداث فى عهد السلاطين والحروب يلاحظ طوال مدة الحصار للمدن

والقلاع وبناء الاسوار وذلك ما اتبعه تميم بن المعز فى اعادة المدن الخارجة عن طاعة الدولة إلى سابق عهدها فى عهد سلفة المعز بن باديس .

أما الشرطة فكانت هى الدرع الواقى للوطن وحامية الامن والامان وهى التى تشرف على حفظ النظام واستتباب الامن والقبض على الجناة والمفسدين وكان صاحب الشرطة فى عهد دولة بنى زيرى من المناصب الهامة والرفيعة فى الدولة وهى وظيفة تتبع صاحب السيف وكانت الشرطة أيام المعز بن باديس تضم أعدادا كبيرة وأعوانا كثيرين وكانت القيروان عاصمة البلاد ثم المهدية تخضع لحراسة شديدة من جانب رجال الشرطة الذين كانوا يقومون باغلاق أبواب المدينة والسهر على حماية الابواب والابراج والحراسة ليلا وهذا يدل على حسن استعداد الشرطة ووفرة عددها كما يدل على استتباب الامن .

وهكذا نرى كيف أن بنى زيرى طوال فترة حكمهم التى لم تدم الا مائه واحدى وثمانين سنة قد أبدوا اهتماما كبيرا ومتزايدا بالنشاطات البحرية والحربية والشرطة وذلك لامعرفتهم أن الجيش والاسطول والشرطة هما عماد البناء للدولة فالدولة القوية والآمنة تستطيع أن تسير فيها أمور الحياة سيرا طبيعيا دون النظر لادنى مخاطر خارجية أو داخلية، لكن مهما يكن من تلك السمة البارزة لهذا العصر كانت الجلاء الواسع عن الاوطان الاصلية اما نتيجة أخطار خارجية تمثلت فى الغزوة الهلالية وآثارها وغزوات النورمان للمدن الساحلية والعاصمة المهدية والضغط المستمر لقوى النصارى فى جنوب ايطاليا وصقلية ونتيجة لنزاع القبائل العربية مع بعضها البعض أو نزاع صنهاجة مع زناتة.

لكن كل الشواهد التاريخية تذكر أن بنى زيرى قاموا بدورهم خير قيام وكانوا يطمعون فى بناء دولة قوية تسيطر على المغرب بأقسامه المختلفة الادنى والاوسط

والاقصى وهى السياسة التى كان قد نبتاها مؤسس الدولة بلكين بن زيرى لكن الظروف كانت أقوى منهم فاقتسم بنو حماد معهم المغرب الاوسط وانفردت مغراوة بالمغرب الاقصى وجاء الهلاليون وبنو سليم ليضيفوا عبئا جديدا على كاهل الدولة التى مهما بذلت واهتمت واعتنت بالاسطول والجيش والشرطة فان الاقدار كانت أقوى من الاعمال التى خططوا لها ولم تكن الظروف لتسهل لهم بناء الدولة القوية التى كانت قصيرة العمر بالنظر إلى الدول التى ظهرت فى تلك البقعة من المغرب العربى قياسا للاغالبة أو الحفصيين .

الفصل الخامس

العلاقات الخارجية مع دول العالم

ليس هناك شك فى أن سلطنة بنى زيرى فى عهد سلاطينها المختلفين كانت لها علاقاتها المباشرة أو غير المباشرة مع العديد من الاقطار المجاورة أو غير المجاورة وكذلك مع الاقطار الاوربية المعاصرة لها، وان تلك العلاقات كانت تتسم بروح المودة والاخوة فى بعض الاحيان وفى أحيان أخرى كان ينتابها نوع من الفتور فى بعض المراحل التاريخية لكن حكام القيروان ثم المهدية فيما بعد. قد سعوا منذ اقامة دولتهم إلى اقامة علاقات من الود والصفاء مع البلاد المجاروة وإلى اقامة علاقات وإلى الاتصال بالقوى الاسلامية المعاصرة لها تحقيقا لروح الاخوة الاسلامية وقد اتصل وأقام علاقات حكام هذه الدولة المجاورة والتى منها مصر ومنها المغرب الاوسط والاقصى وبلاد السودان وصقلية والدول الاوربية الغربية وانهم كانوا يبعثون. بالوفود والسفراء والمبعوثين ومعهم الهدايا إلى حكام وسلاطين هذه البلاد .

ولقد كانت العلاقات تعكس حالة المودة والصفاء بين البلدين أو يحاول السفراء أو المبعوثين تحسين العلاقات وعقد معاهدات صلح ومنها كانت علاقة بنى زيرى مع :

(١) العلاقات مع الخلافة الفاطمية بمصر

ظلت العلاقة بين مصر وبنى زيرى بالقيروان علاقة تبعية وخضوع للخليفة الفاطمى بالقاهرة طوال حكم الاسرة الصنهاجية (بلكين بن زيرى، المنصور بن بلكين، باديس بن المنصور) إلى أن جاء المعز بن باديس فأعلن الانفصال والاستقلال بافريقية، وبذل الامراء الصنهاجيون طوال تلك الفترة جهدهم لنشر المذهب الشيعى الاسماعيلى

وارسالهم الخراج إلى مصر وضرب السكة بأسماء الخلفاء الفاطميين والتى كانت تضرب بأسمائهم من عام ٢٩٦هـ إلى عام ٤٤١هـ. وهو العام الذى أبطل فيه المعز بن باديس ضرب السكة باسم الفاطميين .

وساءت العلاقات بين الطرفين منذ انهاء المذهب الشيعى وقطع الخطبة والدعاء على المنابر للعباسيين وأرسلت الخلافة الفاطمية قوات لكن المعز ابن باديس هزم كل القوات التى أرسلها الفاطميون إلى طرابلس وعجزت عن محاربة بنى زيرى سواء فى عهد المعز أو والده باديس ورغم اثارة زناتة ضد حكام بنى زيرى الا أن قواتهم كانت تضطر للعودة إلى مصر منهزمة .

لكن الفاطميين استعانوا ببنى هلال وبنى سليم وبعد هزيمة المعز بن باديس فى معركة حيدران دخل العرب القيروان عام ٤٤٣هـ وغادرها المعز إلى المهدية عام ٤٤٩هـ. وعندما علم المستنصر بالله الفاطمى بهزيمة المعز بن باديس طرب لذلك وظهر ذلك فى رسالة أرسلها إلى صاحب اليمن على بن محمد الصليحى، وانشق المغرب الادنى عن الفاطميين نهائيا .

لكن العلاقات عادت مرة أخرى لكن بصورة مظهرية وليس صورة التبعية والولاء الكامل والتقيد بأوامر الخلافة لكنها كانت تبعية دون التدخل فى أدنى عمل من أعمال السيادة وذلك فى عهد يحيى بن تميم بعد وفاة أبيه وكان الاستقلال التام فى عهد المعز وابنه تميم (٤٠٦– ٥٠١هـ) أى خمسة وتسعون عاما هجريا هى عمر القطيعة الفعلية ورجع يحيى إلى طاعة الفاطميين وسادت العلاقات الودية وقد قبل يحيى بن تميم عودة العلاقات الوديه حتى لا تتعرض مملكته لكثير من المشاكل، وفى عام ٥٠٥هـ وصل رسول الخليفة الفاطمى بالقاهرة يحمل هدايا إلى سلطان افريقية يحيى بن تميم واستمرت تلك العلاقات الودية بين الفاطميين وبنى زيرى كذلك فى

عهد على بن يحيى بن تميم الذى نهج نهج أبيه وسلك طريقه فخطب للفاطميين على منابر بلاده وبادلهم الهدايا والمراسلات ووصله رسول الخليفة بهدية عام ٥١١هـ. وفى عهد الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى تحسنت العلاقات بصورة أحسن فخطب لهم على منابر بلاده وأدخلهم فى بعض الشئون الداخلية والسياسية وتدخل الخليفة الفاطمى فى الصلح والخلاف بين الحسن بن على وروجار الثانى حاكم صقلية، بعد أن كان الحسن بن على (٥١٥– ٥٥٤هـ) قد طلب من الخلافة الفاطمية أن تتوسط فى الصراع والصلح بينه وبين حاكم صقلية وتم الصلح بعد أن أرسل الخليفة الفاطمى الحافظ الفاطمى وتبودلت الهدايا والمكاتبات بين الطرفين وأرسل الحسن بن على هدية فخمة فى مركب عظيم سماه نصف الدنيا وشحنه بالهدايا لكن روجار الثانى ملك صقلية استولى عليه فى الطريق إلى الاسكندرية .

ثم استمرت تلك العلاقات الودية بين الفاطميين وبنى زيرى فى عهد الحسن بن على وكذلك بعد سقوط المهدية عام ٥٤٣هـ تحت الاحتلال النورمانى فيذكر أن الحسن بن على أراد أن يتوجه إلى القاهرة طالبا المساندة والمساعدة العسكرية من الخليفة الفاطمى الحافظ بالله وذلك لطرد النصارى من البلاد وقرر السفر إلى مصر لكن خطته فى الاعداد والتجهيز البحرى استطاع اختراقها العدو النورمانى وترصد جورجى ميخائيل الانطاكى اليونانى الجنسية وقائد جيش روجار الثانى فجهز سفنا سرية لاعتراض السلطان الحسن بن على والقبض عليه لكن الحسن بعد أن عرف بذلك عدل عن قرار سفره إلى مصر ولحق بابن عمه يحيى العزيز بن حماد صاحب بجاية .

وهكذا كانت السياسة بين بنى زيرى والفواطم فى القاهرة على أحسن السبل لاتقاء شر المنازعات والبعد عن اثارة القبائل العربية .

وكما كانت هناك علاقات سياسية بهذه الصورة فان العلاقات الاقتصادية وقت

السلم والمهادنة وحسن الجوار والتفاهم حيث كانت تصل بضائع المغرب إلى الاسكندرية وحركة الملاحة البحرية عادية وانتقال الحجاج واستخدامهم طريق مصر كان يتم على خير ما يرام أما فى فترة سوء العلاقة فان مصر الفاطمية كانت سيئة الظن بالمغاربة الذين اعترفوا بالعباسيين وكان حكام القاهرة يضيقون عليهم الخناق حتى انه من أراد الحج من المغاربة كان يعدل عن طريق مصر لكن فترة الصلح شهدت نموا مطردا فى حركة التجارة وظل الطريق مستعملا للتجار والحجاج ورجال الفكر والعلم والدين لكن قطع المذهب الشيعى منذ عام ٤٠٦هـ حتى ٥٣٤هـ جعل التبادل العلمى والثقافى والحضارى لا يسير وفق نظام واحد نظرا لتباعد المذهبين المالكى والشيعى مما جعل حركة العلم والعلماء والطلاب تكاد تكون شبه معدومة نظرا للتباين فى الفكر الا أن ذلك لم يمنع من رحيل بعض العلماء المغاربة وطلابها للدرس فى مدارس الشرق غير مصر مثل الرحيل إلى الحجاز وبلاد الشام والعراق قبل سقوطها فى أيدى المغول عام ٦٥٦هـ .

(ب) علاقة بنى زيرى بالمرابطين فى المغرب الاقصى

بدأت دولة المرابطين تظهر على مسرح الاحداث السياسية فى عالم المغرب فى عهد يوسف بن تاشفين (٤٦٣– ٥٠٠هـ– ١٠٧١– ١١٠٧م)وذلك لانه قام بدور أساسى فى انشاء دولة المرابطين فى المغرب الاقصى بل يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين وقد عاصر حكم تميم بن المعز الذين كانوا من أقوى سلاطين بنى زيرى والذى عمل على كبح جماح العرب وأعاد توحيد البلاد تحت النفوذ الزيرى .

وقد اتسمت العلاقات بين الجانبين بروح المودة والصفاء وحسن الجوار ذلك لان بنى زيرى كانوا أعداء لزناتة وأيضا عمل المرابطون على اخضاع القبائل الزناتية وكان

المرابطون من صنهاجة الجنوب وبنى زيرى صنهاجة الشرق وكانوا أبناء عمومة ولم تكن تتعارض المصالح بينهما مما يستدعى الخلافات، ذلك لان المرابطين لم تكن لهم أهداف فى السيطرة على المغرب الادنى (افريقية) انما بسطوا نفوذهم فى المغرب الاوسط حيث نجد انه بنى الحصون فى تلمسان الجديدة بالمغرب الاوسط وجعل قلعة منها غرس زناتة وتقف لهم بالمرصاد بعد أن دفع بنى حماد حكام القلعة وبجاية فيما بعد بالمغرب وزناتة للتحرش بالمرابطين الذين كانوا يرون أن السيطرة على المغرب الاوسط معقل بنى حماد تأمينا لظهرهم من أية مخاطر تهدد المغرب الاقصى .

وقد وقف بنو حماد بالمرصاد لمحاولات يوسف بن تاشفين السيطرة على المغرب الاوسط ودفعوا بالقبائل العربية وزناتة للتصدى لهم ولذا كانت العلاقات غير ودية بعكس الزيريين الذيين الذى رأوا فى ظهور دولة المرابطين قضاء على خطر براغوطة أعدائهم التقليديين .

وقد تم تبادل الرسائل والهدايا فى المناسبات ومن ذلك الرسالة التى بعث بها يوسف بن تاشفين إلى السلطان الزيرى تميم بن المعز عام ٤٥٧هـ أثر انتصار جند المرابطين على نصارى الاندلس فى معركة الزلاقة، ولقد أسدى المرابطون خدمة جليلة للاسلام بدخولهم الصراع فى الاندلس لان سياسة ضرب النصارى والوقوف ضدهم كانت تحقق أهداف المسلمين وتضعف من دور النورمان فى السيطرة على حوض البحر المتوسط الغربى، بل أن بعض المصادر تذكر (المؤنس بن أبى دينار) يذكر أن بنى زيرى ساعدوا يوسف بن تاشفين وابنه على بالاساطيل البحرية وقدموا اليه المؤن والعتاد فى قتاله فى الاندلس، كما أن المرابطين دفعوا عن بنى زيرى خطر زناتة التقليدى كذلك تعاون بنو زيرى والمرابطون فى دفع خطر النصارى عن صقلية وارسال الحملات البحرية لشد أزر المسلمين والذى كان يهدد بنى زيرى فى المهدية، وتعاون على بن يحيى بن

تميم مع على بن يوسف بن تاشفين عندما طلب السلطان الزيرى مع أخيه سلطان المرابطين قوات بحرية لارسال حملة إلى غزو روجار الثانى ملك صقلية وأظهر الجانب المرابطى استعداده فخاف ملك صقلية وعقد صلحا مع سلطان افريقية، واستمرت العلاقات الطيبة وتبادل الهدايا والعلاقات التجارية والثقافية تسير سيرها الطبيعى بين البلدين ورحل العلماء من القيروان إلى فاس وشارك علماء المغرب الادنى (افريقية) فى قيام النهضة العلمية والفكرية والحضارية من جميع جوانبها فى المغرب الاقصى ووجد أبناء افريقية ملاذا وحصنا آمنا فى ظل دولة المرابطين مما نشط من حركة التعليم والثقافة ويرجع الفضل الاكبر لابناء افريقية فى ازدهار الحضارة الاسلامية على أرض المغرب الاقصى .

وعندما تعرض السلطان الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى فى افريقية لخطر الزحف النورمانى على بلاده فقد أرسل سلطان المرابطين على بن يوسف بن تاشفين فى امداده بالقوات البحرية اللازمة لمواجهة خطر النورمان الزاحف على سواحل افريقية فأرسل المرابطون أسطولا للاغارة على صقلية عام ٥١٦هـ لكسر شوكة روجار الثانى ولقد كانت العلاقات طوال التاريخ الزيرى والمرابطين حسنة وطيبة ولم يحدث ما يعكر صفوها فى أى فترات من فترات حكم البلدين لعدم تعارض المصالح وتوحد الاهداف كما أن العلاقات التجارية كانت تسير وفق متطلبات الحياة واحتياج كل دولة من منتجات البلد الآخر وكانت السفن تتحرك بين موانئ البلدين حاملة الصادرات والواردات .

العلاقات مع بنى حماد

كان باديس بن المنصور بن بلكين قد منح عمه حماد بن بلكين ولاية اثير بالمغرب الاوسط نظير تعاونه معه ضد أعمامه الذين شقوا عصا الطاعة عليه وكذلك

نظير دوره فى اخضاع قبائل زناتة وطرد الثائرين من أعمامه ودفع خطرهم، لكن حمادا أراد الاستقلال بالمغرب الاوسط وذلك منذ أن بدأ فعلا عام ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م فى بناء القلعة واتخاذها عاصمة له مستقلا عن افريقية .

بل أكثر من ذلك فان حمادا استغل ظروف البلاد والاضطرابات الداخلية عام ٣٩٥هـ وعجز باديس عن حكم البلاد التى تحت يديه مما اضطره للتنازل عن الجزائر لعمه حماد بن بلكين، لكن باديس اشترط على عمه أن يكون حكمه خاضعا لسيطرة الدولة وفى اطار نظامها الداخلى وليس استقلالا كاملا. وسيطرت الدولة الزيرية على السياسة الخارجية والتجارة الدولية ولم يكن لبنى حماد أدنى صلة بالعالم الخارجى ولا بالخلافة الفاطمية فى القاهرة فقد بقيت الدولة الزيرية هى الممثل الوحيد والشرعى المعترف به للمغربين الادنى والاوسط، لكن بعد بناء القلعة بدأت بوادر الاستقلال تظهر، وتمسك باديس فى اخضاع حماد وعزله لكن حماد نبذ الطاعة ودعا للخلفاء العباسيين فى بغداد عام ٤٠٥هـ وسار اليه باديس وهزمه فى وادى شلف عام ٤٠٥هـ ومات باديس كما سبق القول عند حصاره قلعة بنى حماد. وسارت اليه قوات المعز بن باديس وهزمه عام ٤٠٨هـ لكن الحروب والعلاقات السيئة لم تدم طويلا وبذلت المساعى الحميدة رغبة فى الصلح وعقد الصلح بين المعز بن باديس وجده حماد بن بلكين عام ٤٠٨هـ وبمقتضى هذا الصلح استقل حماد بالقلعة والزاب والمسيلة وطبنة وأشير وتاهرت وغيرها من المدن الصغيرة وبذلك انقسم ملك صنهاجة الشرق إلى قسمين فى المغرب الادنى بنى باديس وفى الاوسط بنى حماد .

واستمرت العلاقات معتدلة بين الطرفين حتى عام ٤٣٢هـ عندما حدث خلاف بين المعز بن باديس وقائد بن حماد وقام المعز بن باديس بمحاصرة القلعة فترة سنين، ثم سادت العلاقات الودية بين الطرفين بعد ذلك حتى قدمت الغزوة الهلالية إلى

القيروان عام ٤٤٣هـ واستعان المعز بابن عمه قائد الذى أمده بألف جندى من الفرسان ثم اضطر المعز إلى الانتقال إلى المهدية عام ٤٤٩هـ ووجد الحماديون فى ذلك فرصة، وصمم الحماديون على توسيع نطاق دولتهم على حساب أبناء عمومتهم وتصالحوا مع بنى هلال من أجل الحصول على الاراضى .

وخضع لبنى حماد وإلى صفاقس وأهل قسنطينة والقيروان وتونس وهى بلاد تخضع للسيادة الزيرية .

لكن تميم بن المعز استطاع أن يعيد هذه البلاد للسيطرة الزيرية مرة أخرى وأن يقف بالمرصاد لبنى حماد ووقفت الطبيعة الجبلية حصنا آمنا لبنى حماد من خطر بنى هلال فعمر الحماديون البلاد وشيدوا القلاع والحصون وبسطوا نفوذهم على العصاه الخارجين على الدولة الزيرية لكن ذلك لم يدم طويلا واستفادوا من الظروف التى كانت تمر بها الدولة الزيرية، أواخر عهد المعز بن باديس وبداية حكم ابنه تميم فشجعوا حركات الانفصال عن الدولة ومات المعز عام ٤٥٤هـ بعد أن ترك لابنه مهمة احياء الدولة والضرب بيد من حديد على الانفصاليين والوقوف بحزم لبنى حماد. فأعاد تميم للدولة هيبتها وقضى على الثائرين فحالف الاعراب واتخذهم قوة له وقد نجح فى ذلك نجاحا عظيما واستغل القبائل العربية القوية وتحالف معها مثل رباح وزغبة واستعان برجالها فى قتال بنى حماد وتمكن بمساعدة العرب من احباط المؤامرات التى أعدها الناصر بن علناش الحمادى لمهاجمة المهدية كما مكنه التحالف مع بنى هلال من هزيمة بنى حماد هزيمة قاسية وقتل معظم قوات الناصر الحمادى فى معركة سبية عام ٤٥٧هـ مما جعل الناصر بن حماد بطلب الصلح، لكن رغبة الناصر فى الصلح كانت تنطوى على الغش والخداع لبنى زيرى أبناء عمومته والرغبة فى القضاء عليهم فعندما أتيحت للناصر بن علناش فرصة الاستيلاء على القيروان عام ٤٦٠هـ دخلها مع حلفائه

من العرب، لكن تميم ابن المعز حاربه واستعد له وأخرجه منها وفر الناصر أمام جموع تميم عام ٤٦١هـ .

ويبدو أن كل محاولات التقرب بين بنى زيرى وبنى حماد عن طريق المصاهرة لم تكن الا لعبة سياسية للتهدئة استغلها الحماديون لكى يحققوا أغراضهم مع أبناء عمومتهم مادام المرابطون قد أغلقوا المجال أمامهم فى التوسع غربا ومادامت العلاقات طيبة بين المرابطين وبنى زيرى .

وكانت عودة العلاقات الطيبة هدفا سعى اليه بنو حماد مع أبناء عمومتهم لكن التعاون والتقارب كنات تقضيه الظروف ولدفع الاخطار التى تحدق بالطرفين لاسيما فى مواجهة القبائل العربية وخطر النورمان والدول الاوربية (الجمهوريات الايطالية)، ولعل الصراع بين الطرفين كان لاحساس بنى حماد بأن دولة بنى زيرى هى المتصدرة للسياسة الخارجية حتى قدوم الهلاليين ولكن بعد قدوم الهلاليين وجد الحماديون فرصتهم للتخلص من أبناء عمومتهم لكى يمارسوا دورهم السياسى على مستوى العلاقات الدولية والعالمية وان يكون لهم مجالهم الخارجى مع شتى الاقطار العاصرة .

وساءت العلاقات بين الدولتين عام ٥١٥هـ فى عهد الحسن بن على بن يحيى آخر سلاطين بنى زيرى بالمهدية وبين ابن عمه يحيى بن عبد العزيز الحمادى وذلك لاعتراض الحمادى على الصلح الذى تم بين الحسن وروجار الثانى صاحب صقلية وقبول الحسن لشروط روجار القاسية وكذلك لاعتقاد يحيى الحمادى أن خطر روجار ولا شك قادم اليه وان روجار سوف يستعين بالحسن لتحقيق أهدافه فى الاستيلاء على المغرب الاوسط وعاصمته بجاية من أيدى الحماديين. وقد دفع ذلك يحيى بن العزيز الحمادى لارسال قوات برية وبحرية لحصار المهدية عاصمة الحسن بن على عام ٥٢٩هـ مما اضطر الحسن للاستعانة بالاسطول الصقلى والذى أمده بقوات بحرية مما

جعل الاسطول الحمادى ينسحب إلى بجاية (بداية انهيار الدولتين) وبعد ذلك التاريخ استمرت العلاقات الطيبة بين الحسن بن على وابن عمه يحيى بن العزيز الحمادى وذلك بالجهود التى بذلها الحسن فى تحسين العلاقات .

كذلك فان الحسن بن على عندما اضطر إلى مغادرة عاصمة بلاده عام ٥٣٤هـ وتركها للنورمان فقد اتجه فكره إلى الالتجاء السياسى عند ابن عمه صاحب بجاية واسنقر فترة فى كنف ابن عمه حتى قيض الله للبلاد عبد المؤمن بن على قائد الموحدين فطرد النورمان من السواحل الافريقية عام ٥٥٥هـ .

وفى واقع الامر والبحث عن جوانب هذه العلاقات فان بنى زيرى وأبناء عمومتهم الحماديين قد فشلوا كل الفشل فى أن يشكلوا صفا واحدا فى مواجهة الاخطار التى كانت تهدد المغربين الادنى والاوسط كالعرب والنورمان، ويرجع السبب فى ذلك إلى خطأ الحماديين واستقلالهم ومهاجمتهم المهدية عدة مرات والعمل على اضعاف أبناء عمومتهم مما أدى فى النهاية إلى سقوط المهدية فى أيدى النورمان عام ٥٣٤هـ وسقوط الحماديين فى أيدى الموحدين عام ٥٤٧هـ .

ولقد كان الموقف فى تونس وخضوع بنى خراسان للحماديين فترة تزيد عن ثمانية وستين عاما (٤٥٨- ٥٢٢هـ) وكانت تونس الخراسانية مشكلة من مشكلات الصراع بين بنى حماد وبنى زيرى طوال وجود الدولتين وكذلك لان بنى زيرى لم ينجحوا فى استتباب الامن والنظام فى تونس .

كما ان العلاقات الثقافية والحضارية والعمرانية والتجارية بين الطرفين كانت تزدهر فى ظل ظروف السلام وكان طلاب من بنى حماد يتحركون شرقا إلى القيروان والمهدية طلبا للعلم والبحث والدراسة فى مدارس بنى زيرى ومعاهد العلم التى رصدوا لها الاموال الطائلة ووقفوا عليها الهبات والمنح والعطايا للطلاب والعلماء والدارسين

كما أن الاساطيل كانت تتحرك بين الدولتين تنقل التجارة والمصنوعات والادوات التى تجد قبولا ورواجا لدى البلدين ومن هنا لم يتأثر الجو العلمى والحضارى والتجارى بحالة العداء والحروب بين أبناء الاسرة الواحدة وكان عطاء القيروان والمهدية والمدن المختلفة للمغرب الاوسط (بنى حماد) عطاء بلا حدود .

العلاقات مع دول الموحدين

فى الوقت الذى كانت فيه دولة الموحدين تحاول أن تتبوأ مكانتها على مسرح الاحداث فى المغرب الاقصى عاملة على هدم الكيان المرابطى بقيادة عبد المؤمن بن على فقد استطاعت أن تظهر على خريطة العالم الاسلامى كدولة جديدة فى عام ٥٤١هـ كان على الطرف المقابل فى بلاد المغرب الادنى دولة بنى زيرى فى الرمق الاخير من حياتها وبدأت تلفظ أنفاسها الاخيرة ومشرفة على السقوط والانهيار من مسرح الاحداث السياسية فى خريطة المغرب العربى وغرب البحر المتوسط وذلك نتيجة للاخطار التى أحدقت وأحاطت بها والتى كان أشدها ضررا وعنفا الخطر النورمانى الذى أنهى الوجود الزيرى عام ٥٤٣هـ وكذلك النزاع مع بنى حماد وقبائل بنى هلال كل هذه قد عجلت بالنهاية .

بعد أن أجاد روجار الثانى ملك صقلية لعبته السياسية وحنكة الاوربى الذى يستغل الظروف لتحقيق الاهداف فاستغل الاحداث الداخلية فى الفترة من (٥٣٧–٥٤٣) وما ساد الدولة من انحلال وضعف وما أصاب جند الحسن بن على من أسباب الانهيار والانهاك وكذلك لانشغال القوات الزيرية فى محاربة بنى خراسان فى تونس بالاضافة إلى أن خليفة المسلمين عبد المؤمن بن على الموحد الذى كان يسعى إلى تكوين خلافة اسلامية واخضاع جميع أوطان وبلاد المغرب الاسلامى. والعمل على وقف الزحف الصليبى فى المشرق حيث الحروب الصليبية فى بلاد الشام وكذلك فى

المغرب حيث سيطرة النورمان على معظم السواحل المغربية بعد أن تدهورت أحوال الخلافتين الفاطمية فى القاهرة والعباسية فى بغداد وطمع الصليبيين فى مهاجمة المسلمين فى الشام والاندلس ثم بلاد المغرب .

ففى عام ٥٤٤هـ بدأ عبد المؤمن بن على فى تنظيم حملة عسكرية لدفع خطر النصارى ضد بلاد المغرب والتقى وجها لوجه مع الحسن بن على وعملا على طرد النصارى. لذا قصد عبد المؤمن بن على بجاية واستولى عليها عام ٥٤٧هـ ودخل الجزائر ثم منها إلى المهدية عام ٥٥٥هـ. وحكم الحسن بن على المهدية مع واليها الموحدى (أبى عبد الله بن محمد بن مفرح الكومى) الذى ظل يستعين برأى الحسن ابن على وهكذا ظل الحسن بن على مقيما بالمهدية ومرتبطا بالموحدين بأوثق الصلات وأقوى الروابط مدة عشرين عاما حتى عام ٥٦٦هـ عندما طلب منه الخليفة أبو يعقوب بن عبد المؤمن الخروج إلى المغرب لكنه توفى فى الطريق فى بلده قماسينا، لكن ما كان يسعى اليه الحسن قد خاب فلم يستطع أن يعيد ملك بنى زيرى فى افريقية وأن ينفرد بالحكم وتظهر دولته مرة ثانية لكن الحسن بن على كان نائبا للوالى الموحدى الذى كانت بيده مقاليد الامور .

وعندما سقطت المهدية فى يد قوات روجار الثانى بقيادة جورج ميخائيل الانطاكى عام ٥٤٣هـ وفر منها الحسن بن على سلطانها الاخير، بعد أن لم يمد اليه يد المساندة أحد من ملوك وسلاطين الاسلام ولم نصل أدنى معونة ممن راسلهم فى طلبها حتى يتمكن من الدفاع عن المهدية حاضرة العرش الزيرى فى مواجهة النصارى بعد أن حاول الحسن بن على بكل ما أوتى من قوة وجهد وسلاح وقوات أن يمنع وقوع هذه الكارثة العظيمة ولكن الظروف التى كانت تحيط بدولته لم تمكنه من تحقيق أهدافه، وعدل الحسن عن السفر إلى مصر وأرسل أولاده الكبار على ويحيى

وتميم إلى ابن عمه صاحب بجاية الحمادى يحيى بن عبد العزيز يستأذن فى المرور فى بلاده للوصول إلى أمير الموحدين عبد المؤمن بن على بعد أن كانت مراسلات قد تمت بين الطرفين وأبدى الموحدون استعدادهم لمساعدة بني زيرى، فأذن له يحيى الحمادى بالعبور داخل أراضي دولته، فسار الحسن بن على اليه لكن يحيى الحمادى خدعه لان الحسن عندما وصل إلى بجاية عاصمة الحماديين لم يقابله يحيى الحمادى بل خدع في ابن عمه وقت الشدة وأصدر يحيى الحمادى أوامره بمنعه من اكمال المسيرة إلى المغرب الاقصى وأن يكون مكانه تحت التحفظ فى مدينة الجزائر هو وأولاده .

ولقد كان الدافع وراء تصرف يحيى الحمادى هو خوفه من الوصول إلى عبد المؤمن بن على أمير الموحدين وربما يكون وصول الحسن بن على مقدمة لاستيلاء الموحدين على بجاية ومنعه من السفر والكتابة إلى عبد المؤمن بن على بما جرى فى بلاده، كذلك كانت العداوة والتنافس والحروب واستعانة الحسن بن على على ابن عمه بروجار صديق الامس وعدو اليوم من أسباب منعه من السفر، وظل الحسن مقيما بالجزائر ومنع من الاتصال بأحد رهن الاقامة الجبرية ونصارى صقلية يعيشون فى ديار الاسلام فسادا وقتلا وتنكيلا، لكن هناك مراسلات سرية قد جرت بين الحسن وهو مقيم سجينا فى الجزائر وبين خليفة المسلمين عبد المؤمن بن على اذ قدم عبد المؤمن إلى بجاية بقوات الموحدين واستولى عليها عام ٥٤٧هـ ولم يدم بقاء النورمان بالمهدية طويلا فعندما قابل الحسن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على وأحسن اليه وضمه إلى مقدمته .

وأثناء اللقاء حث الحسن بن على عبد المؤمن بن على على فتح المهدية، بل أن بعض المؤرخين يذكرون أن الحسن بن على هو الذى دفع عبد المؤمن بن على فى مراسلات سرية بينهما على الاستيلاء على بجاية إلى أن قابله بالجزائر عام ٥٤٧هـ بعد

أن ظل مقيما بها منذ عام ٥٤٣هـ وقربه اليه، ومهما يكن من أمر فقد نجح الحسن بن علي حتى بعد أن طرد من المهدية فى العمل على تخليص بلاده من حكم النصارى واستردادها بالقوة المسلحة الموحدية وعاد إلى ملكه وملك آبائه المهدية بل أنه تمكن من اقناع عبد المؤمن بالسير شرقا إلى أبعد مما كان يخطط له الموحدون فى بداية حكمهم وتم فتح المهدية عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م وهكذا لم يحل هذا العام حتى كان عبد المؤمن قد مد حدود الدولة الموحدية إلى حدود طرابلس وطرد كل أثر مسيحى من شواطئ المغرب ومكن لسلطان الموحدين منها وبهذا تكون هذه السنة (سنة الاخماس) تاريخا فاصلا فى عهد المغرب الاسلامى كله ففى هذه السنة تحققت وحدة جميع الاراضى المغربية السياسية وتم طرد كل أثر للنصارى من فوق التراب المغربى بالدور الذى لعبه الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى وتوحدت البلاد حتى المحيط فى دولة يحكمها خليفة واحد، وبذلك كانت الخلافة الموحدية المغربية أقوى الدول الاسلامية وأوسعها سلطانا فلم يدم الاحتلال النصرانى لهذه الديار الا فترة وجيزة وذلك بفضل دور الخلافة الموحدية أما عن العلاقات الاقتصادية والثقافية فلم يشهد عصر بنى زيرى مع الموحدين الا عامين اثنين فقط اذ استولى الموحدون على مقاليد الحكم فى المغرب الاقصى عام ٥٤١هـ وسقطت المهدية عام ٥٤٣هـ وبذلك لم تقم علاقات بين الجانبين اللهم الا ذلك الدور الذى لعبه الحسن بن على فى الاستنجاد بالموحدين لنصرة الاسلام فى افريقية وقدرة الموحدين على تحرير الساحل المغربى من السيطرة الاوربية فى ذلك الوقت المبكر .

العلاقات مع الاندلس

شهدت فترة ظهور سلطنة بنى زيرى على مسرح الاحداث فى المغرب (٣٦٢- ٥٤٣هـ/ ٩٧٣- ١١٤٨م) فترة ظهور ملوك الطوائف فى الاندلس (٤٠٠-

٤٨٤هـ– ١٠٠٩– ١٠٩١م) ففى الوقت الذى كان فيه بنو زيرى يدعمون وجودهم فى البلاد كانت الخلافة الاموية تلفظ أنفاسها الاخيرة ورغم أن فترة حكم ثلاثة أمراء من بني زيرى (بلكين بن زيرى وابنه المنصور ابن بلكين وحفيده باديس بن المنصور (٣٦٢– ٤٠٦هـ/ ٩٧٣– ١٠١٥م) قد شهدت السير على نمط العداء الذى كان قائما بين الخلافة الاموية فى الاندلس والخلافة الفاطمية فى المهدية نظرا للخلافات المذهبية والعقائدية والعداء بين الخلافتين ورغبة منهما فى تدعيم نفوذ الاخرى على حساب أى منهما .

والملاحظ أن فترة تولية باديس بن المنصور قد شهدت قيام صراعات داخلية بين أفراد الاسرة لرغبة بعض أعمامه فى عدم توليه عرش القيروان وثاروا عليه فاستعان ببعض منهم (حماد بن بلكين ويطوف بن زيرى) فى مقاتلة الآخرين الذين اضطروا إلى الفرار إلى الاندلس هربا من القتل وكونوا لهم مملكة غرناطة فى جنوب الاندلس وأطلق عليها غرناطة فى عهد بنى زيرى وكان من أهم ملوك الطوائف وأقامها بنو زيرى المهاجرون من افريقية .

ولقد كان حماد بن بلكين السبب الرئيسى وراء ارغام عمه زاوى وصلالة أولادهما إلى الرحيل إلى الاندلس حيث قامت لهم هناك أيام الفتنة الطائفية (ملوك الطوائف) امارة غرناطة وقرطبة وغيرهما وكانت امارة باديس بن حيوس الصنهاجى الزيرى بغرناطة تحمى الجناح الشمالى الغربى للممالك البربرية وكانت تسيطر على هذه الامارة زهاء ثلث قرن على الثلث الجنوبى من شبه الجزيرة الاندلسية وكان حمادى عام ٣٩٠هـ/ ١٠٠٠م قد توجه لمحاربة بنى زيرى الخارجين على سلطة الدولة وانحصر زيرى هذا بجبل شبوة ناحية شرشال وطلب الصلح والاستسلام فعقد حمادى على أن يرحل إلى الاندلس ولحق ومن معه من اخوته وأبنائهم وتابعهم بها عام

٣٩١هـ/ ١٠٠١م .

لذا فان سياسة الاندلس تجاه بنى زيرى لم تكن الا سياسة الضعف والتفكك والانهيار وكانت الاندلس تواجه صراعا داخليا بين أمراء الطوائف اضافة إلى الهجوم المسيحى القادم من الشمال فلم يعنها ما يدور من أحداث فوق افريقية نظرا للبعد الجغرافى وعدم وجود مصالح مشتركة ولقد كانت العلاقة ضعيفة بين الاندلس والفاطميين بل شبه مقطوعة واستمر هذا الوضع خلال حكم ثلاثة أمراء كما سبق القول .

وكانت الاندلس غارقة فى الصراعات الداخلية فيما عدا مملكة غرناطة التى أسسها بنو زيرى فى جنوب الاندلس عام ٤٠٩هـ والتى كانت عوامل الاسرة الواحدة تربطها بافريقية وعدا ذلك فان العلاقات تكاد تكون معدومة، بل ما ربط افريقية بالاندلس فى ذلك الوقت هى علاقات ثقافية وحضارية واقتصادية أكثر منها سياسية نظرا لهجرة العديد من العلماء ورجال الفن والحضارة والتجار إلى افريقية هربا من الصراع الدائر على أرض الاندلس بين ملوك الطوائف والزحف المسيحى القادم من الشمال .

لكن لما انتهى ملوك الطوائف على أيدى المرابطين فى أواخر القرن الخامس الهجرى فمما لا شك فيه أن باديس بن المنصور وكانت علاقاته طيبة بالمرابطين قد قدم مساعدات للمرابطين فى زحفهم للاندلس وساهمت قوات بحرية زيرية فى دعم المرابطين اضافة إلى الموارد الغذائية والحبوب والمساعدات المالية التى قدمتها دولة بنى زيرى لاخوانهم مسلمى المغرب الاقصى فى نضالهم من أجل الدفاع عن قضايا المسلمين بالاندلس، اضافة إلى أن الاحداث التى ألمت بالاندلس والزحف المسيحى من الشمال قد تركت بصماتها على سياسة بنى زيرى لكن بعد تولية المعز بن باديس عام

٤٠٦هـ فقد نمت العلاقات وتطورت زيادة عما كانت عليه العلاقات بين والده باديس ابن المنصور بن بلكين وأقاربه في غرناطة. وقد شهد عصر المعز بن باديس عودة بعض الاسر الزيرية من غرناطة وحنينها إلى الوطن الام فأرسل زاوى ابن زيرى والذى فر إلى الاندلس وأسس مملكة غرناطة وكان عم المنصور، وتقدم به العمر فرأى أن يعود إلى افريقية فعاد من الاندلس عام ٤١٠هـ/ ١٠٢٠م واستقبله المعز بن باديس وأبناء عمومته والاسرة الحاكمة أحسن استقبال .

وقد ارتبطت افريقية مع الاندلس بروابط حضارية وثقافية وعلمية واقتصادية وتجارية أكثر منها سياسة نظرا لان الصلات السياسية كانت شبه مقطوعة وكان يشوبها نوع من الحذر وسوء الظن، لذا لم تكن هناك علاقات طوال تاريخ بنى زيرى مع الاندلس بالمعنى السياسى المتعارف عليه فى العصور الوسطى أو العصور الحديثة .

العلاقات مع صقلية وجنوب ايطاليا

على الرغم من مغادرة الفاطميين للمغرب نهائيا عام ٣٦٢هـ الا أن جزيرة صقلية ظلت تخضع لحكمهم فعلى الرغم من أنها كانت تتمتع بالاستقلال الداخلى الا أنها من الناحية السياسية والدينية تعتبر أقاليما من الاقاليم التابعة للخلافة الفاطمية بمصر. وعندما هاجم النورمان الجزيرة استنجد أهل الجزيرة بالمعز بن باديس وقد عرض الامير الزيرى المعز بن باديس مساعدة أهل الجزيرة الا أن المراكب التى أرسلها تحطمت بسبب عاصفة وهزم العرب تعزيزات بحرية ببزنطية للنورمان بالقرب من ريو، وفى الفترة ما بين ١٠٢٦- ١٠٣٥م قام أسطول بنى زيرى بشن غارات على الاراضى البيزنطية بما فيها مقاطعة الليرية على الساحل الشرقى للبحر الادرياتيكى وعلى بعض الجزر

اليونانية وحتى ساحل ترافية وما حل عام ١٠٣٥م حتى طلب البيزنطيون الصلح من المعز بن باديس وفى عام ١٠٣٨م أرسل المعز بن باديس حملة لمساندة الثوار فى الجزيرة وهكذا كان لبنى زيرى نفوذ كبير فى الجزيزة الا انه كانت توجد عوامل سياسية وعسكرية أخرى .

واثناء فترة حكم المعز بن باديس وقبل قدوم بنى هلال ٤٤٣هـ زاد النشاط البحرى والعسكرى من صقلية وغيرها ضد جنوب ايطاليا ولكن دون احراز أية نتيجة دائما، وكان الحسن بن على مؤسس الاسرة الكليبية فى صقلية قد حاصر ريو بمساعدة قوات قدمت من بنى زيرى فى افريقية، ولقد هددت قوات المعز بن باديس أراضى اللمبارد فى ناحيتى مالرنة وكابو .

لكنه منذ عام ٤٢٣هـ/ ١٠٣٢م أصبح مركز القوات المعزية الزيرية دفاعيا وأصبح مركز افريقية دفاعيا اذ استولى الفرنجة على عناية بالمغرب الاوسط (بنى حماد) ومع أنها باءت بالفشل الا انها كانت عملية جريئة .

وظهر النورمان فى جنوب ايطاليا فى أوائل القرن الخامس الهجرى ، الحادى عشر الميلادى وكان وجودهم قائما على اللصوصية وقطع الطرق ولم يكونوا يحترمون العجزة ولا النساء ولا الاطفال ولم يكن يعبأ بكنيسة أو دير وكان الوجود الاسلامى فى جزيرة صقلية تهديدا لممتلكاتهم الايطاليه التى استولوا عليها حديثا وتصالح معهم البابا نيكولاس الثانى وعملت الحرب الاهلية فى صقلية على أجتذاب النورمان اليها والذين استهوتهم ثروة أرضها وخصبها وساعدت الظروف على أن يصبح طريق الفتح النورمانى لصقلية ممهدا بعد الانتصارات التى حققها أهل جنوة وبيزا ضد المسلمين .

ومنذ عام ١٠٦٠م تطلع روجار لصقلية ووضع قدميه على أرض مسينا، ومن ثم

فقد صرف روجار كل اهتمامه للاستيلاء على صقلية وفى هذا الاثناء وبعد وقت قصير من الوجود النورمانى لجأ بعض مسلمى صقلية إلى افريقية ونقلوا إلى المعز بن باديس أخبار الوضع السيئ للمسلمين فى الجزيرة، فأرسل المعز قوة بحرية إلى صقلية الا أنها تبددت بفعل عاصفة قرب جزيرة قوصرة .

وقرر تميم بن المعز الذى خلف أباه عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م ارسال حملة عسكرية بقيادة ابنيه أيوب وعلى. ونزل أيوب إلى البر فى البر فى بلوم وأقام سيادة أبيه فى المنطقة الممتدة من مآزوالى حلفوذى. ووطد على أقدامه فى جرجنت ثم ساعد على تعزيز حامية قصر بانه ولبعض الوقت بعد عام ١٠٦٣ كان ايوب القائد العسكرى المسلم الرئيسى فى صقلية. الا أن الخلاف قد نشب بين المسلمين الصقلس وعبيد الحملة العسكرية القادمين من افريقية وتنازع ايوب وابن الحواس حاكم الجزيرة واقتتلا ولقى الاخير مصرعه وسيطر أيوب على بلرم وقصر بانة وجرجنت وفى الفترة ٤٥٧/ ١٠٦٥م، ٤٥٩هـ/ ١٠٦٧م لم تقع معركة كبرى بين المسلمين والنورمان، الا أن روجار عام ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م أوقع هزيمة بأيوب فى مدينة نزل الامير مما أوهن الروح المعنوية للجماعة الزيرية القادمة من افريقية وأضعف من هيبتها فأنسحبت مع أيوب إلى افريقية تاركه مسلمى صقلية وقد اعترى تنظيمهم خلل كبير .

وفى عام ٤٦٤هـ/ ١٠٧٢م استسلمت بلرم وأدى سقوط بلرم إلى سقوط العديد من المدن فى أيدى النورمان وفى هذه المرحلة ثار الجزء الاسلامى من الجزيرة بأسره على النورمان واستصرخ الاهالى الامير الزيرى تميم ابن المعز الذى أرسل عام ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م أسطولا صغيرا أغار على نقوطرة فى مقاطعة فلورية وقام فى عام ٤٦٧هـ/ ١٠٧٥م بانزال جنود إلى البر قرب مازر الا أنهم صدوا على أيدى النورمان. وفى عام ٤٨٤هـ ١٠٩١م استسلمت آخر المدن الاسلامية وتم بذلك افتتاح النورمان

لجزيرة صقلية فى خلال ثلاثين عاما (٤٥٤– ٤٨٤هـ– ١٠٦١– ١٠٩١م). وتوفى روجار الاول عام ١١٠١م وقد بلغ السبعين عاما من العمر .

لكن روجار الثانى (١١١١– ١١٥٤م) هو أشهر حكام صقلية. وقد كانت له مواجهات مع بنى زيرى والعالم الاسلامى وكانت حملاته البحرية ضد عدد من المدن الواقعة على ساحل بلاد المغرب واحتلالها آخر الامر .

وقد تولى تنظيم الاسطول النورمانى قائدان بحريان من أصل يونانى هما «جورج ميخائيل الانطاكى وكريستو دولوس» وتشير المصادر العربية اليه باسم عبد الرحمن النصرانى، وكان جورج الانطاكى قد عمل سابقا فى خدمة الامير الزيرى تميم بن المعز فتوافرت لدية معلومات طبوغرافية واضحة عن ساحل بلاد المغرب .

وقام الاسطول النورمانى بقيادة هذين الرجلين بمناهضة الدول الاسلامية فى بلاد المغرب للسيادة البحرية فى البحر المتوسط وفى عام ٤٧٩هـ/ ١١١٣م كانت قطع الاسطول الزيرى قد أغارت على نابولى وسالرنة ونتيجة لنشاط غزاة البحر المسلمين أصبح البحر المتوسط غير مأمون بالنسبة التجار والحجاج الامويين الذاهبين إلى بيت المقدس وبلاد الشام، الا أن المنازعات الداخلية بين الدول الاسلامية بنى زيرى، بنى حماد، بنى زيرى وبنى هلال (بنى زيرى وبنى خراسان فى تونس) أتاحت للنورمان الفرصة التى كانوا يتطلعون اليها .

وباءت بالفشل جميع المحاولات التى قام بها روجار الثانى ما بين عام ٤٨٥– ٤٩٤هـ/ ١١١٨– ١١٢٧م لاحراز موطئ قدم فى بلاد المغرب وفى أثناء الفوضى التى سادت بلاد افريقية على أثر قدوم بنى هلال أقيمت فى مدينة قابس امارة عربية صغيرة وهى امارة بنى جامع وقد جعل الامير الزيرى تميم بن المعز التعايش معها الا أن

حفيده عليا هاجمها فاستنجد بنو جامع بروجار الثانى الذى أرسل أسطولا لمساعدتهم نظرا للعلاقات التجارية بينهما (التدخل المباشر) وقد فشلت هذه الحملة البحرية النورمانية الاولى وكانت بداية العداء بين النورمان وبين أمراء بنى زيرى واستنجد على ابن يحيى بن تميم بالمرابطين لكنه توفى عام ١١٢١م وخلفه فى الحكم ابنه الحسن الذى كان آخر خلفاء بنى زيرى وفى عام ٥١٦هـ/ ١١٢١م قام بنو ميمون أتباع السلطان المرابطى على بن يوسف بن تاشفين بمهاجمة قوطرة فى مقاطعة قلورية وقتلوا واسترقوا كثيرا من أهلها وردا على هذا الهجوم أرسل روجار الثانى أسطولا ضد المهدية وجزيرة قصر الديماس بقيادة مقدم أسطوله جورج ميخائيل الانطاكى وهزمت الحملة ولم يعد من الثلاثمائة سفينة الا مائة سفينة فقط وتم القضاء على مائتى سفينة وأسر من فيها وغرق الباقى وفى عام ٥٢٢هـ/ ١٢٢٧م. غزا ميمون أراضى النورمان للمرة الثانية وهاجمت سفن المرابطين مدينة بطى وهددوا قطانية ونزلت قواتهم إلى البر قرب سرقوسة، وازاء خطر المرابطين تحالف روجار الثانى مع ملك برشلونة الاسبانى ريمون الثالث .

وفى هذه الاثناء ساءت أحوال سلطنة بنى زيرى وازداد ضعفها بحيث لم يعد ثمة أمل فى بقائها وفى عام ١١٣٥م سار يحيى بن عبد العزيز حاكم بجاية الحمادى إلى المهدية ولمواجهة هذا الخطر لم يكتف الامير الزيرى الحسن بن على بالاستعانة بقبائل بنى هلال بل استعان أيضا بالنورمان أعداء الامس .

وهزمت قوات الحماديين وقامت بين بنى زيرى والنورمان علاقة تتصف بكونها أكثر من هدنة، اذا انه منذ عام ١١٣٥م فصاعدا كانت سياسة روجار الثانى تقوم على ترك المهدية وشأنها مؤقتا، وأن يقوم بارسال حملات بحرية أخرى ضد مدن ساحلية بحجة تأديب غزاة البحر المسلمين حيث لم يكن للسلطان الزيرى سلطة فعلية على هذه

لجزيرة صقلية فى خلال ثلاثين عاما (٤٥٤- ٤٨٤هـ- ١٠٦١- ١٠٩١م). وتوفى روجار الاول عام ١١٠١م وقد بلغ السبعين عاما من العمر .

لكن روجار الثانى (١١١١- ١١٥٤م) هو أشهر حكام صقلية. وقد كانت له مواجهات مع بنى زيرى والعالم الاسلامى وكانت حملاته البحرية ضد عدد من المدن الواقعة على ساحل بلاد المغرب واحتلالها آخر الامر .

وقد تولى تنظيم الاسطول النورمانى قائدان بحريان من أصل يونانى هما «جورج ميخائيل الانطاكى وكريستو دولوس» وتشير المصادر العربية اليه باسم عبد الرحمن النصرانى، وكان جورج الانطاكى قد عمل سابقا فى خدمة الامير الزيرى تميم بن المعز فتوافرت لدية معلومات طبوغرافية واضحة عن ساحل بلاد المغرب .

وقام الاسطول النورمانى بقيادة هذين الرجلين بمناهضة الدول الاسلامية فى بلاد المغرب للسيادة البحرية فى البحر المتوسط وفى عام ٤٧٩هـ/ ١١١٣م كانت قطع الاسطول الزيرى قد أغارت على نابولى وسالرنة ونتيجة لنشاط غزاة البحر المسلمين أصبح البحر المتوسط غير مأمون بالنسبة التجار والحجاج الامويين الذاهبين إلى بيت المقدس وبلاد الشام، الا أن المنازعات الداخلية بين الدول الاسلامية بنى زيرى، بنى حماد، بنى زيرى وبنى هلال (بنى زيرى وبنى خراسان فى تونس) أتاحت للنورمان الفرصة التى كانوا يتطلعون اليها .

وباءت بالفشل جميع المحاولات التى قام بها روجار الثانى ما بين عام ٤٨٥- ٤٩٤هـ/ ١١١٨- ١١٢٧م لاحراز موطئ قدم فى بلاد المغرب وفى أثناء الفوضى التى سادت بلاد افريقية على أثر قدوم بنى هلال أقيمت فى مدينة قابس امارة عربية صغيرة وهى امارة بنى جامع وقد جعل الامير الزيرى تميم بن المعز التعايش معها الا أن

حفيده عليا هاجمها فاستنجد بنو جامع بروجار الثانى الذى أرسل أسطولا لمساعدتهم نظرا للعلاقات التجارية بينهما (التدخل المباشر) وقد فشلت هذه الحملة البحرية النورمانية الاولى وكانت بداية العداء بين النورمان وبين أمراء بنى زيرى واستنجد على ابن يحيى بن تميم بالمرابطين لكنه توفى عام ١١٢١م وخلفه فى الحكم ابنه الحسن الذى كان آخر خلفاء بنى زيرى وفى عام ٥١٦هـ/ ١١٢١م قام بنو ميمون أتباع السلطان المرابطى على بن يوسف بن تاشفين بمهاجمة قوطرة فى مقاطعة قلورية وقتلوا واسترقوا كثيرا من أهلها وردا على هذا الهجوم أرسل روجار الثانى أسطولا ضد المهدية وجزيرة قصر الديماس بقيادة مقدم أسطوله جورج ميخائيل الانطاكى وهزمت الحملة ولم يعد من الثلاثمائة سفينة الا مائة سفينة فقط وتم القضاء على مائتى سفينة وأسر من فيها وغرق الباقى وفى عام ٥٢٢هـ/ ١٢٢٧م. غزا ميمون أراضى النورمان للمرة الثانية وهاجمت سفن المرابطين مدينة بطى وهددوا قطانية ونزلت قواتهم إلى البر قرب سرقوسة، وازاء خطر المرابطين تحالف روجار الثانى مع ملك برشلونة الاسبانى ريمون الثالث .

وفى هذه الاثناء ساءت أحوال سلطنة بنى زيرى وازداد ضعفها بحيث لم يعد ثمة أمل فى بقائها وفى عام ١١٣٥م سار يحيى بن عبد العزيز حاكم بجاية الحمادى إلى المهدية ولمواجهة هذا الخطر لم يكتف الامير الزيرى الحسن بن على بالاستعانة بقبائل بنى هلال بل استعان أيضا بالنورمان أعداء الامس .

وهزمت قوات الحماديين وقامت بين بنى زيرى والنورمان علاقة تتصف بكونها أكثر من هدنة، اذا انه منذ عام ١١٣٥م فصاعدا كانت سياسة روجار الثانى تقوم على ترك المهدية وشأنها مؤقتا، وأن يقوم بارسال حملات بحرية أخرى ضد مدن ساحلية بحجة تأديب غزاة البحر المسلمين حيث لم يكن للسلطان الزيرى سلطة فعلية على هذه

المدن، وفى عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م احتل النورمان جزيرة جربة وملك الفرنج الجزيرة ونهبوا أموالها وسبوا نساءها وأطفالها وهلك أكثر رجالها .

ومنذ عام ٥٣٧هـ / ١١٤٣م فصاعدا تواصلت حملات النورمان على ساحل بلاد المغرب وأخضعت قوة بحرية صقلية فى محاولتها الاستيلاء على مدينة طرابلس حيث كان بنو مطروح قد أعلنوا استقلالهم عن بنى زيرى وعاثت القوة النورمانية فسادا فى طريق عودتها بمدينة جبحل التابعة لبنى حماد، وفى عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م هاجم النورمان جزيرة فرقتة ومدينة برشك، وفى عام ٥٤١هـ/ ١١٤٧م نجح النورمان فى هزيمة بنى مطروح واحتلوا مدينة طرابلس حيث سفكوا دماء أهلها وأخذوا نساءهم ومأوالهم وسكنها الروم والصقالية وسافروا اليها .

وفى عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م اغتصب شخص يدعى يوسف الحكم فى مدينة قابس فاستنجد أميرها معمر بن رشيد من أسرة بنى جامع بالامير الحسن الزيرى، بينما استنجد المغتصب للحكم بالنورمان وقام الامير الحسن باحتلال قابس واعدام مغتصبى الحكم مما أتاح الفرصة لروجار الثانى لخرق الصلح مع الامير الحسن واحتل أسطول نورمانى بقيادة مقدم الاسطول جورج ميخائيل الانطاكى مدينة المهدية عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م وكان ذلك بمثابة مشاركة رمزية من جانب روجار الثانى ملك صقلية فى الحروب الصلبية التى تدور رحاها فى بلاد الشام والاندلس وفى نفس العام احتل النورمان مدن سوسة وصفاقس وقابس، ومع أن الخائن جورج ميخائيل الانطاكى مات عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م الا أن الاحتلال النورمانى للمدن المغربية ظل مستمرا ففى عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م احتلت مدينة بونة (عنابة) وفيما عدا تونس ومدينة أو مدينتين أخريين فان جميع مدن ساحل المغرب الادنى والاوسط دفعت الجزية لروجار الثانى المسيحى. الذى أضاف إلى ألقابه لقب ملك افريقية .

وفى الوقت الذى كان فيه أسطول روجار الثانى يحتل ساحل بلاد المغرب الادنى والاوسط فان ثمة ما يبعث على الاعتقاد أنه انتهج سياسة ودية تجاه الفاطميين فى مصر الذين كانت علاقاته التجارية معهم مرضية ويبدو أن التجارة عامة وتجارة القمح خاصة بين صقلية ودول المغرب العربى استمرت خلال السنوات الطويلة من الحروب قائما بينها .

وتوفى روجار الثانى عام ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م ومع أن النورمان قاموا بالاغارة على الاراضى المصرية ممثلة فى بلدة تنيس عام ٤٥٩هـ/ ١١٥٤م الا أن هذه الاغارة كانت فى حقيقة الامر استمرارا تلقائيا للفتوحات التى تمت فى بلاد المغرب الاسلامى ولكن عندما تولى ابنه وليام الاول الذى كان والده قد اسحوذ على بلاد المغرب حدثت اضطرابات فى هذه البلاد وكان هناك رد فعل عنيف للسيطرة المسيحية ففى صفاقس ثار عمر بن الحسين الغريان فى عام ٥٥١هـ/ ١١٥٨م ضد النورمان وكللت ثورته بالنجاح وحذت جزيرة جربة وفرقته حذو صفاقس وفى عام ٥٥١هـ/ ١١٥٨م استرد بنو مطروح سلطانهم فى طرابلس وفى قابس ثار على النورمان محمد بن رشيد ونجح فى ثورته عليهم وفى عام ٥٥١هـ/ ١١٥٨م أرسل وليام الاول حاكم صقلية عشرين سفينة لاخماد ثورة زويلة وحقق بعض النجاح الا انه ما أن حل عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٩م حتى وصل السلطان الموحدى عبد المؤمن بن على من المغرب الاقصى وصفى ممتلكات النورمان فى بلاد المغرب الادنى والاوسط وفى عام ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م قطع عبد المؤمن وصول المؤن عن الحامية النورمانية فى المهدية مما اضطرها للتسليم ودخل عبد المؤن المهدية بكرة عاشوراء المحرم من خمس وخمسين وخمسمائة وسماها سنة الاخماس .

وبذلك أنهى عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين الغارة النورمانية فى المغرب

الادنى والاوسط واستردت ديار الاسلام حريتها وسيادتها وطويت صفحة الاحتلال النورمانى من المغرب ولم تطأ أقدام أوربية أرض هذه البلاد الا فى العصر الحديث عندما خضعت للاستعمار الايطالى والفرنسى الذى اضطر للرحيل كما رحل النورمان من قبله وعادت ديار الاسلام لاهل الاسلام .

الفصل السادس

سقوط الدولة ونهايتها

دامت هذه الدولة على أرض افريقية والمغرب الاوسط نحو مائه وثمانين عاما ١٨٠ (٣٦٢- ٥٤٣هـ- ٩٧٣- ١١٤٨م) منذ أن عمل مؤسسها الاول بلكين بن زيرى على توطيد دعائم الاسرة الزيرية فى بلاد المغرب الاسلامى واضعا نصب عينيه توحيد كل أجزاء المغرب مقاتلا فى المغرب الاوسط والاقصى حتى سقطت تلك السيادة الاسلامية فى أيدى قوات مسيحية جاءت من وراء البحر المتوسط فى عهد الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى لكى تسقط المهدية تحت ضربات القوى المسيحية الغازية وبذلك وضعت نهاية فصل من فصول التاريخ الاسلامى على أرض المغرب الصامد الصابر القادر على احتواء كل الصدمات ورد كل الغارات وتصير دولة بنى زيرى فى افريقية من صغار دول المغرب فقد ظلت أمدا طويلا تابعة للفاطميين بمصر حتى قام المعز بن باديس بالاستقلال عنهم .

ولقد حاولت هذه الدولة أن توحد المغرب فعجزت عن ذلك لمنافسة قبائل زناتة لها وقد كانت هذه القبائل تطيعها بعض الطاعة فى عهد مؤسسها ولما ضعفت قليلا تمردت عليها وانشقت عن حكوماتها ونتج عن ذلك توزيع المغرب بين دول متعددة فكانت افريقية والمغرب الاوسط إلى أول القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى تحت حكم بنى زيرى، ثم انفصل المغرب الاوسط عنهم تحت حكم بنى حماد ٤٠٤هـ والمغرب الاقصى الذى غمرته قبائل زناتة (مغراوة) كان منشقا عنهم على الدوام ومعترفا بسيادة الامويين بالاندلس .

ولقد نشأت دولة بنى زيرى وعوامل الضعف تنخر فيها منذ الوهلة الأولى التى

تولى فيها مؤسسها بلكين بن زيرى اذ كان عليه أن يواجه خطر القبائل المناهضة لصنهاجة وهى زناتة وكتامة وغيرها من القبائل التى كانت تطمع فى حكم المغرب بعد رحيل الفاطميين، وقضى بلكين بن زيرى (٣٦٢- ٣٧٣هـ) سنوات عمره يواجه المشاكل الداخلية لكن بتولى المنصور ابنه مقاليد الامور والصراع الداخلى بين البربر يدخل طورا جديدا اذ واجهت المنصور تحديات كثيرة منها عدم القدرة على الدعوة للمذهب الشيعى الاسماعيلى وتمسك الناس بمذهب مالك اضافة إلى الانقسام الداخلى بالاسرة كل هذه العوامل أعاقت حركة التقدم والبناء فى الدولة وصرفت همها لمواجهة الاحداث والمشاكل الداخلية مما عجل بالقضاء على الدولة فلو أن الامور كانت مستقرة والاوضاع يسودها الامن والآمان وتفرغ الناس للعمل لتقدم ركب الحضارة والتطور ولسارت الدولة خطى سريعة نحو التقدم والرقى لكن طبيعة المجتمع القبلى ولتنافر والتناحر بين القبائل من أجل الحكم وتحقيق السيادة دفعت بالدولة إلى هاوية سحيقة جاءت لتعجل بوضع نهاية الدولة على أيدى قوى خارجية بعيدة على الوطن الاسلامى وكان سقوط المهدية أول حادثة من نوعها فى تاريخ العالم الاسلامى .

وجاء باديس بن المنصور ليقع فى خطأ تاريخى فادح وهو الاعتراف لعمه حماد ابن بلكين بقيام حكم محلى فى الاراضى التى يفتحها من قبائل زناتة وكان باديس يهدف إلى حماية المناطق الغربية للدولة من خطر زناتة لكنه لم يكن يحسب أن ذلك الذى فعله هو بداية الانهيار الفعلى للدولة وأن الايام فى عهد ولده وسلفه المعز بن باديس سوف تشهد ظهور دولتين زيريتين على مسرح الاحداث فى المغرب الاسلامى احداهما فى المغرب الادنى (بنى زيرى) والاخرى فى المغرب الاوسط (بنى حماد) .

ولقد شهد عهد المعز بن باديس بعدا آخر فى اضافة أم المشاكل إلى التراكمات السابقة، ذلك لان دولة بنى زيرى منذ اعلان المعز استقلاله عن الفاطميين واجهتها

عدة تحديات فى الداخل والخارج ومنها قوة زناتة العدو التقليدى لاسرة صنهاجة المنافس الوحيد لعرش بنى زيرى وقد استطاع المعز أن ينزل بهم الهزائم وكانت بينه وبين زناتة حروب ووقائع لكن المعز لم يستطع القضاء النهائى عليها. وظلوا يثيرون الخلافات والمتاعب فى وجه السلاطين مما أضعف الدولة وجعلها غير قادرة على مواجهة التحديات الخارجية مما جعلها تتهاوى أمام ضربات عرب بنى هلال القادمين من صعيد مصر. كما أن الدولة واجهت خطرا أشد يتمثل فى أن أبناء عمومتهم من بنى حماد الزيريين استقلوا بالمغرب الاوسط وبمعظم أراضى الجزائر الحالية فقد أعلن حماد بن بلكين الاستقلال بالمغرب الاوسط عام ٤٠٥هـ وساعدت الظروف بنى حماد على تحقيق الاستقلال بدخول بنى هلال افريقية عام ٤٤٣هـ وهزيمتهم للمعز فى حيدران واستقلال العديد من المدن التونسية مثل سوسة وجربة والقيروان وتونس وصفاقس وقابس وغيرها من المدن، بل ان الحمادين حاولوا الاستيلاء على المهدية وهكذا كان على بنى زيرى أن يواجهوا بنى هلال وزناتة وبنى حماد قوى ثلاث تحاربهم الدولة فى آن واحد وكان العرب قد دخلوا القيروان بل عمت افريقية والمغرب الاوسط وتقوقع بنو زيرى فى المهدية وانحسر ملكهم فى الساحل وتغلب العرب على البلاد الداخلية ولم يستطع بنو زيرى لهم دفعا غير تحالف تميم بن المعز مع أقوى القبائل العربية رياح وكلفت اعادة الاستيلاء على المدن التى خرجت عن طاعة الدولة جهدا كبيرا لقتال هؤلاء الحكام مثل بنى خراسان فى تونس والبراغوطى فى صفاقس وبنى جامع فى فاس .

كما أن عبء الدفاع عن بلادهم ضد الخطر القادم من وراء البحر المتوسط وصد عدوان القوات الفرنجية القادمة من أوربا فقد استولى النورمان على جزيرة صقلية عام ٤٨٤هـ وهددوا سواحل افريقية واستولوا على جزيرة جربة عام ٥٢٩هـ وبسطوا سلطانهم على طرابلس عام ٥٣٧هـ ثم عادوا واحتلوها عام ٥٤١هـ وزحفوا على فاس

عام ٥٤٢هـ ولقد شغلهم الصراع الداخلى مع العرب وزناتة وبنى حماد عن أن يدركوا كنة الخطر النورمانى الذى وجد له مساعدة فى أبناء الاسرة الحاكمة بسبب النزاع حول ولاية العهد بين أفراد الاسرة مما سبب كثيرا من الاضطرابات واشاعة الفتن .

كما أن العامل الاقتصادى من جراء ثورة العرب وهجومهم على المدن الداخلية وترك الناس للزراعة والصناعة اضافة إلى تعرض المدن الساحلية (الموانئ) للخطر من جانب البحر المتوسط الذى سيطر عليه النورمان وعملت أساليبهم فى القرصنة عملها على منع تجارة الدولة وعدم قدرتها على منافسة النورمان من داخل السواحل والمدن الايطالية .

وكانت الحروب الداخلية وعدم الامن والامان قد دفعا بالاهالى بالهجرة إلى المغرب الاقصى إلى فاس وتلمسان أو الاندلس أو صقلية وغيرها من البلاد الاسلامية فساءت الصناعة وأهملت الزراعة وكسدت التجارة بالاضافة إلى عوامل أخرى خفية أوصلت الدولة إلى مرحلة الانهيار ثم السقوط .

ولقد كان خطر النورمان هو الذى وضع حدا لنهاية الدولة وسقوطها ذلك لان المصادر تشير إلى أن يحيى بن تميم (٥٠١- ٥٠٩هـ) كان يوجه سفنه للاغارة على سواحل سردانية وجنوة وبروافنس وانه صرف همه إلى غزو النصارى فى الاساطيل البحرية فاستكثر منها وجاهدت سفن المسلمين فى بلاد الفرنجة وجنوه وسردانية ولكن يحيى بن تميم لم يوجه غزواته إلى صقلية اذ كان أبوه تميم مرتبطا بمعاهدة مع روجار الاول عقدت عام ٤٦٨هـ وظلت سارية المفعول فى عهد ولده يحيى ثم فى عهد حفيده على بن يحيى (٥٠٩- ٥١٥هـ) غير أن المنافسات التجارية بين صقلية والمهدية أدت فى النهاية إلى نقضها من جانب النورمان .

وحدث بين روجار وعلى بن تميم جفوة كبيرة ساءت العلاقات على أثرها

بسبب خلاف بين على بن يحيى وحاكم قابس وذلك لرغبة على بن يحيى فى احتكار التجاره البحرية وأدى ذلك إلى حصاره لقابس عام ٥١١هـ فاستعان حاكم قابس بأسطول صاحب صقلية الذى أمده بأسطول ضخم يتألف من أربع وعشرين سفينة حربية لكن أسطول على بن يحيى تمكن من هزيمة أسطول روجار فى مياه قابس وبدأ منذ ذلك الحين يقوى ويدعم أسطوله استعدادا للحرب، ولما كان يدرك تماما عدم قدرته على مواجهة قوات صقلية ومعها قوات أوربا فقد كاتب المرابطين فى مراكش وطلب من يوسف بن تاشفين الاجتماع معه على الدخول فى صقلية وكف روجار عما يعتزمه ويذكر ابن عذارى المراكشى أن روجار أرسل فى عام ٥١٢هـ رسولا إلى على بن يحيى يلتمس تجديد العقود وتأكيد العهود وطلب أموالا له بالمهديه، لكن على بن يحيى أغلظ للرسول فى القول والرد فتزايدت الهوة والعدواه بين الطرفين .

وتوفى على بن يحيى عام ٥١٥هـ وخلفه ابنه الحسن آخر سلاطين بنى زيرى وحدث أن قام أسطول المرابطين فى عهد على بن يوسف بن تاشفين بالاغارة على صقلية عام ٥١٦هـ على مدينة تقوطرة فلم يشك روجار الثانى فى أن المحرك لتلك الغارة المرابطية هو أمير افريقية الحسن بن على فصمم على الانتقام منه فاستفز أهل بلاد الروم قاطبه واجتمع له حشد لم يعهد بمثله من قبل وأعد الحسن بن على عدته وتأهب للقاء أساطيل روجار وجمع مائة ألف رجل وعشرة آلاف فارس واتخذت حملة روجار طابع الحملات البحرية الصليبية وكان الاسطول يتكون من ثلاثمائة سفينة على ظهرها ثلاثون ألف مقاتل وراءها ألف فارس يقودهم جورجى ميخائيل الانطاكى وعبد الرحمن النصرانى بن عبد العزيز وكان جورجى هذا نصرانيا شرقيا هاجر من الشام بعد أن تعلم العربية فاصطنعه تميم وجعله ناظرا على أمواله فلما توفى تميم خاف جورجى على نفسه من يحيى ورحل هو وأهله وذووه إلى صقلية وحظى فى صقلية بمحبه روجار

فسيره سفيرا إلى الخليفة الفاطمى بمصر ثم قائد الاسطول متى عزم روجار على مهاجمة المهدية أرسل عام ٥١٦هـ وانكشفت خطة روجار وتأهب الحسن بن على لاستقباله واستعان بقبائل العرب ونزل الاسطول عام ٥١٧هـ ثم زحفوا إلى مصر الديماس واجتمع المسلمون عليهم وأبيدوا عن آخرهم وأدرك روجار أن الوقت بعد هذه الهزيمة لم يحن لفتح المهدية .

وكان فى امكان الحسن بن على أن يكون ندا قويا وعنيدا لروجار الثانى لولا انه اصطدم بأطماع ابن عمه يحيى بن عبد العزيز الحمادى صاحب بجاية فاضطر إلى مداراة روجار ووقع معه هدنة عام ٥٢٩هـ. وثار أهل المهدية بذلك وكاتبوا يحيى بن عبد العزيز الحمادى ووعدوه بتسليم المهدية له وأرسل قوات بحرية وبرية لذلك فأرسل روجار ٢٠ سفينة لمساندة الحسن .

وكان روجار قد أدرك ضعف قوة الحسن البحرية فعزم على الاستيلاء على المهدية وغيرها من مدن الساحل واستطاع أن يستولى عليها واغتنم روجار فرصة اشتداد المجاعة بافريقية عام ٥٤٣ هـ وهجرة عدد كبير من سكنها وجهز أسطولا من ثلاثمائة سفينة مشحونة بالرجال والسلاح ووصل إلى المهدية فى ٢ صفر وخادع أهلها بدون مقاومة وظفر النورمان بكل المدينة سالمة كما هى .

وكان الحسن سلطانها فانه لما رأى ما يعجزه عن مقاومة قوات روجار خرج منها وهو يقول سلامة المسلمين من القتل والاسر خير لى من الملك والقصر وخرج بحاشيته إلى قسنطينة ثم منها إلى الجزائر. حيث أقام إلى أن افتتحها عبد المؤمن بن على ٥٤٧هـ فأكرمه واشترك الحسن بن على فى تحرير المهدية فى العاشر من محرم عام ٥٥٥هـ .

ولقد ارتكب الفرنجة الكثير من الفظائع والجرائم فى زويلة فقتلوا النساء والاطفال

وهتكوا الاعراض وأسالوا الدماء ونهبوا الاموال وسبو النساء وفعلوا ما لا يخطر على عقل بشر من أعمال لم يسبق أن حدثت فى تاريخ الحروب. لعل هذه الاعمال التى قام بها الفرنجة ضد أهالى زويلة كانت السبب المباشر والقوى وراء تحرك عبد المؤمن بن على للقضاء على آخر معقل للنصارى فى افريقية وهى المهدية حيث نجح فى اعادتها إلى حوزة الاسلام والمسلمين وبذلك طويت صفحة من صفحات التاريخ لدولة من دول المغرب الاسلامى كانت بربرية صنهاجية بل أول دولة مغربية خالصة يقيمها البربر ثم استعرابهم وأصبحوا عنصرا أساسيا فى العالم الاسلامى العربى وقد رأينا كيف استنفذوا قواهم فى حروب عقيمة مع القبائل على مدى عمرها القصير ونصروا بقسوتهم هذه القبائل كذلك كان صراعهم مع أبناء عمومتهم أسوأ بكثير من أى عمل من أعمال القتال والصراع وتغير بنو زيرى من أفضل حكام العالم الاسلامى فى القرنين الخامس والسادس الهجريين فقد كانوا أكثر حكام المسلمين حرصا على رعاية مصالح بلادهم ورعاياهم وانهم ان كانوا لم يوفقوا فى الوصول ببلادهم إلى أحسن ما كانوا يرغبون نظرا لكثرة المشاكل الداخلية والخارجية فقد بذلوا أقصى ما فى قدرتهم، ولما وصلت الدولة إلى الاستقرار المنشود نجد أن حكام بنى زيرى قد نجحوا فى اقامة نوع من التعاون الوثيق بين السهول والهضاب ومكنوا للحضارة الاسلامية والثقافة العربية واللسان العربى من أن يزكوا نبتها وتؤتى ثمارها المرجوة فلما أغار عرب بنى هلال على هذه البلاد انقلبت الحياة الاقتصادية رأسا على عقب .

وكانت الغزوة الهلالية أيام المعز بن باديس وما تحمله ابنه تميم بن المعز من جراء هذا الهجوم ولقد كان بنو زيرى أحرص ما يكونون على التمسك بالكتاب والسنة والدين القويم واحترام رعاياهم وقد نهج بنو زيرى سياسة مغربية خالصة فلم يكن لهم أدنى اهتمام بما يجرى فى بلاد المشرق الاسلامى اللهم الا أداء فريضة الحج والحركة

الثقافية والعلمية والتجارية والاقتصادية .

ولا شك أن المعز بن باديس وابنه تميم يعتبران من أعاظم سلاطين العالم الاسلامى فى عصرهما وقد ساعدت سياستهما على اظهار شخصية المغرب الاسلامى واعطائها ملامحها المميزة مع بقية بلاد العالم الاسلامى فى ذلك الوقت .

وتلك هى صفحة مضيئة من صفحات التاريخ الاسلامى فى القرن الرابع والخامس والسادس الهجرى حديث أحداثها فى بلاد المغرب الادنى والاوسط وساهمت بقدر ظروفها وامكاناتها بدور فعال ومؤثر فى اثراء الحركة الثقافية والفكرية والعلمية والحضارية على ذلك الجزء من العالم الاسلامى الممتد من حدود الصين شرقا إلى حدود الاندلس غربا .

حكام بنى زيرى فى القيروان والمهدية

١ - بلكين بن زيرى بن مناد بن منقوش الصنهاجى

٣٦٢- ٣٧٤هـ- ٩٧٣- ٩٨٤م

٢ - المنصور بن بلكين بن زيرى

٣٧٤- ٣٨٦هـ- ٩٨٤- ٩٩٦م

٣ - باديس بن المنصور بن بلكين

٣٨٦- ٤٠٦هـ- ٩٩٦- ١٠١٥م

٤ - المعز بن باديس بن المنصور

٤٠٦- ٤٥٣هـ- ١٠١٥- ١٠٦٢م

٥ - تميم بن تميم بن المعز

٤٥٣- ٥٠١هـ- ١٠٦٢- ١١٠٧م

٦ - يحيى بن تميم بن المعز

٥٠١- ٥٠٩هـ- ١١٠٧- ١١١٦م

٧ - على بن يحيى بن تميم

٥٠٩- ٥١٥هـ- ١١١٦- ١١٢١م

٨ - الحسن بن على بن يحيى

٥١٥- ٥٤٣هـ- ١١٢١- ١١٤٨م

الباب الثاني

الغزوة الهلالية لبلاد المغرب

على الرغم من أن الغزوة الهلالية قد بسطت لواء نفوذها على كل أنحاء المغرب الاسلامى امتدادا من حدود مصر غربا مرورا بكل الاقاليم المغربية وصولا إلى المحيط الأطلسى الا انها رغم كل ذلك الانتشار الواسع والتأثير البالغ من النواحى السكانية والحضارية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية والبنية الاساسية للمغرب الا انها لم تستطع أن تؤسس ملكا أو تشيد دولة أو يكون لها كيان سياسى كبير مستقل معترف به من الاطراف المغربية أو العالمية المعاصرة ولكنهم اقتصروا على سكنى السهول والوديان واقامة الامارات الصغيرة اضافة إلى أنهم لعبوا دورا متميزا فى أوجه الحياة المختلفة وكان وجودهم على أرض المغرب الاسلامى انطلاقا من منتصف القرن الخامس الهجرى حتى العصر الحديث عبارة عن صفحة مضيئة من تاريخ المغرب السياسى والاجتماعى والحضارى على الرغم من الحملات المزعومة التى حاولت أن تشوه هذا الوجه الباسم المشرق بالعروبة والاسلام والذى لولا الدور الهلالى فى حياة المغرب لتغير مسار تاريخ الاسلام والعروبة فى تلك البقعة من العالم الاسلامى .

لقد حفظت الغزوة الهلالية وجه المغرب العربى الاسلامى وصانته من كل محاولات الدس والوقيعة ورفعت رأسه عاليا رغم كل المحن والشدائد ليقول لكل الذين حاولوا طمس معالم حضارته وعروبته وثقافته ها هو المغرب عربيا اسلاميا شرقيا ذا طابع حضارى عربى متميز فالفخر كل الفخر للذين زحفرا فى منتصف القرن الخامس الهجرى ليضعوا اللمسات الخالدة فى تاريخ هذا الوطن الذى عدلت الهجرة الهلالية البنية الجنسية فيه وطبع البلاد طابع العروبة .

الفصل الأول

بنى هلال قبل الرحيل إلى المغرب

ينتمى بنو هلال إلى هلال بن عامر بن صعصعه بن معاوية بن بكر بن هوزان بن منصور بن عكرمه بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن سعد بن عدنان وبنو سليم أبناء عمومتهم منهم من ولد سليم بن منصور بن عكرمة بن خصعه بن قيس بن عيلان وكان نزول بنى سليم بمصر وعدة قبائل من قيس عام مائة وتسع (١٠٩هـ) فى امارة الوليد بن رفاعة بن خلد بن ثابت الفهمى أما بنو هلال فهم بطن من عامر وكانوا أهل بلاد الصعيد كلها إلى عيذاب .

وكان لحركة القرامطة التى اتخذت مسرحها شرقى شبه الجزيرة العربية أثرها فى زعزعة القيم والافكار إلى حد بعيد اذ أدخلت أفكارا غربية إلى المجتمعات الاسلامية. وقد انضم بنو هلال وبنو سليم إلى القرامطة ولم يكن لانضمام هؤلاء العرب البدو إلى هذه الحركة أدنى أثر فى تغيير عقائدهم اللهم الا رغبة فى العصيان وخروج على النظام فى الدولة العباسية، والفاطمية وكانت جماعة منهم تنتشر فى طريق الحج المؤدى إلى مكة المكرمة .

وحدث أن تغلب بنو الاصفر على البحريين فى عام ٣٧٨هـ باسم العباسيين وطردوا منها بنى سليم الذين كانوا أعوانا للقرامطة ورأى الفاطميون أن يستعينوا بهؤلاء الاعراب الاشداء فشجعوهم على الهجرة إلى مصر ويقول ابن خلدون، لما تطلب شيعة ابن عبيدا المبدى على مصر والشام وكان القرامطة قد تغلبوا على أمصار الشام فانتزعها العزيز منهم وغلبهم عليها وردهم على أعقابهم إلى البحرين، نقل أشياعهم من عرب هلال وسليم فأنزلتهم بالصعيد وفى البر الشرقى من نهر النيل فأقاموا هناك .

كانت هذه الموجات أعدادا هائلة من هلال وسليم تحولوا جميعا إلى مصر حتى لم يبق لهم عدد ولا بقية بالحجاز أو الشام أو البحرين وملأت جموعهم الجهات الشرقية من الصحراء الشرقية المصرية حتى بلغوا الصعيد الاعلى ولبثوا فى مصر زمنا وانضمت اليهم جماعات شتى من القبائل العربية الاخرى لكن اسم بنى هلال صار علما عاما على هذه الجماعات المتنوعة المتحالفة ولعل السبب فى هذه التسمية ما كان لهلال في ذلك الحين من نصيب فى زعامة هذه الجماعات .

وكما ذكر المقريزى أهل هذه الجموع تملأ فضاء الجانب الشرقى من مصر عشرات السنين وكانوا اذن كما وصفهم المقريزى أهل بلاد الصعيد حتى عيذاب وكانوا قد شغبوا وأثاروا القلاقل فى هذه المنطقة لذا فقد كانت الهلاليه أخلاطا من القبائل العربية بينهم سليم أقوى عناصر الهلاليه وأعرقها وأغناها وجماعات شتى من القيسية والسبئية مثل فزارة من القيسية والمعقل من اليمنية وبطون أخرى من القيسية وهلال هذا الذى غلب اسمه على مجموع هذه القبائل والبطون فيما بعد ربما كان لسهولة الاسم ودورانه على الالسنة دخل فى ذلك .

وقد كانوا كسائر العدنانية يكرهون القحطانية وكانت العداوة بينهم وبين الازد مشهورة لمجاورتهم اياهم فى نجد حيث تكاثر هلال وسليم على مر الايام ولعبوا دورا هز الدول الاسلامية فيما بعد وغير من أوضاعها وقوض بعض نظمها وتقاليدها فقد تحيزوا كما سبق القول للقرامطة وقدموا معهم إلى بلاد الشام فى أيام المعز لدين الله الفاطمى ولما انهزم القرامطة فى عهد العزيز انسحبوا من الشام ونقل العزيز من كان معهم بين عرب بنى هلال وسليم إلى مصر وأنزلهم بالجانب الشرقى من بلاد الصعيد .

وقبل كل هذه التطورات التاريخية والاحداث التى مرت بعرب بنى هلال وبنى سليم كان بنو هلال يعيشون حول الطائف والمدينة المنورة قبل نزوحهم من شبه الجزيرة

العربية وقد عاشوا عند جبل عنزوان بالطائف ونزل بنو سليم ما يلى المدينة وهلال وسليم من القبائل كثيرة البطون وغلب عليها البداوة وقاموا بالاغارة على نواحي الشام والعراق مما أزعج سلطات العباسية ببغداد ولا سيما بعد أن اغار بنو سليم على الحجاج والزائرين بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، لكن حقيقة يمكن القول أن بنى هلال وبنى سليم رغم مناصرتهم لدعوة القرامطة الا انهم لم يتأثروا بالافكار الخاصة التى حاول القرامطة نشرها بين سكان البلاد التى سيطروا علها .

ولما كانت الدولة الفاطمية تتقرب إلى القبائل العربية تمشيا مع انتسابها لقريش ومحاولة اعتزازها بالعرب فقد أنزلوا بنى هلال وسليم مصر فى أعداد كبيرة وموجات متتالية وكانت حقيقة الاستقدام هو التقرب اليهم لان الفاطميين كانوا يعتزون بالانتساب إلى قريش ويعملون على الاعتماد على العناصر العربية والاستعانة بهم فى حروبهم وفى تدعيم قوتهم وفى استغلال العصبية فيهم أحيانا واكتظت بهم أنحاء مصر الشرقية بل انه لم يكد عهد الفاطميين يقبل على مصر حتى تدفقت على مصر جماعات من بيوت قريش من الحجاز وغيره ورجب الفاطميون بهم وقريش كما قلنا أقرب اليهم نسبا وهيأوا لهم سبل الاستقرار فى ديار مصر سواء من كان منهم على مذهب الفاطميين أو على مذهبهم وصلت إلى مصر طوائف كثيرة من قريش ومن هنا لم يكن ترحيل بنى هلال وبنى سليم من بلاد الشام الا كما رحل إلى مصر العمر من سلالة عمر بن الخطاب وبنى عدى وبنى كتانة وغيرهم من قريش وكذلك جماعة جعفر الصادق أقارب الفاطميين .

ولكن هذه القبائل كانت تختلف فى طبيعتها وأخلاقها عن أجدادهم هوزان بن منصور، الذين كانوا من أعظم قبائل العرب وأقواها وأبعدها أثرا فى الفتوح الاسلامية أيام الخلفاء الراشيدين ثم الامويين (لاحظ هنا أن نذكر أقوال كل المؤرخين عن هذه

القبائل وسوف نفرد فصلا خاصا ندحض به كل هذه الاقوال .

ويطلق ابن خلدون على هذه الهجرة أو تلك الجماعات التى تحركت إلى المغرب عرب الجيل الرابع أو ما يغالى فيه ابن خلدون ارضاء لبعض الاهداف المملوكية والطبقة الحاكمة فى مصر فى ذلك الوقت وهم من العبيد المماليك المشهود لهم بالكراهية الشديدة للعرب، الذين فقدوا خلق العرب الاول ولم يعد لهم من القوة والقدرة وسلامة العنصر ما يمكنهم من منافسة المتغلبين على الدولة من الفرس والبوهيين والترك والسلاجقة والغز ومن جاء بعدهم وكانت بيده مقاليد الامور فى الدولة العباسية، لذا فقد انسحبت بقاياهم إلى شبه الجزيرة ووسطها وهناك عاشوا على هامش مناطق الحضر والاستقرار ودون أن يؤذن لهم فى دخولها أو سكناها .

ولاحظ هنا كراهية هذه العناصر الدخيلة فى الدولة الاسلامية لكل ماهو عربى، وقست عليهم الدول فانحصروا فى الصحراء وهناك وسط الجزيرة العربية اشتد بهم الفقر واعتمدوا فى معاشهم على الغارات يشنونها (أقوال مؤرخين معادين لكل ما هو عربى ومسايرة حكام ذلك العصر) حتى ساءت سمعتهم وهبط قدرهم وأصبحوا كما يقول ابن خلدون (خولا وأتباعا للدول وشرا وويلا على الحضر) إلى جانب ذلك (لاحظ التجنى الشديد) حيث ان الصحراء مصدر اللغة العربية السليمة، فقد أولئك العرب فصاحة العرب وسلامة اللغة وسط الجزيرة العربية بالقرب من الطائف ومكة والمدينة وهل كان يسكن هذه المناطق قوم من أندونسيا أو ساحل أمريكا الجنوبية، والفلبين فى ذلك الوقت حتى تفسد لغتهم ان العرب لا يحبون الاختلاط فكيف فسدت لغتهم واستعجمت ألسنتهم وشابت لغتهم ألفاظ وعبارات أعجمية (من أين جاءت هذه العجمية؟) فاستعجمت السنتهم ولذا يسميهم ابن خلدون بالعرب المنعجمة (سامح الله ابن خلدون ومن سار على نهجه لانه كان فى ذلك الوقت فى ظل حكم المماليك

والذين قدم عليهم من بلاد الحفصين بالمغرب وعينوه فى بلاطهم) والعداوة مشهورة بين المماليك والعرب فى مصر فكيف لايقول أكثر من ذلك .

بل انه مما ذكره المؤرخون أن بنى هلال عندما أقاموا بصعيد مصر سببوا كثيرا من الايذاء للفلاحين العاملين فى تلك المناطق أما بنو سليم فقد اندمج الكثير منهم فى كتلة السكان فى الصعيد. ويذكر أن بنى هلال قد وطنوا الديار المصرية منذ أمد بعيد مع بداية الفتح الاسلامى لمصر فى عهد الخلفاء الراشدين (١١- ٤٠هـ) أخذت تتسرب بعض من هذه القبائل من بوادى الحجاز وتتسرب إلى الناحية الشرقية بوادى النيل ولما انتقلت الدولة الفاطمية إلى مصر عام ٣٦٢هـ. ورأت أضرارهم وشغبهم فى هذه المنطقة القريبة من القاهرة تضايقت منهم ونقلتهم إلى الصعيد وأسكنتهم الضفة الشرقية من النيل واشترطت عليهم ألا يعبروا إلى الضفة الغربية وكان هدفهم من ذلك عدم تحركهم غربا للانضمام إلى أعداء الفاطميين فى المغرب من بنى زيرى وزناتة وغيرهم وأقام على هذا المنوال من انتقل من بنى هلال وبنى سليم فى الصعيد الاعلى بمصر .

بنى هلال والدولة الفاطمية

قلنا انه لما استقر المعز لدين الله الفاطمى وابنه العزيز بالله بحكم مصر نقلوا أشياعهم من عرب بنى هلال وبنى سليم إلى مصر وأنزلوهم العدوة الشرقية من النيل فاستقروا فى صعيد مصر. وعندما نقض المعز بن باديس أمير افريقية والمغرب الاوسط (أنظر الجزء الاول من تلك الدراسة) طاعة الفاطميين وحولها إلى بنى العباس وكانت الخلافات بين الفاطميين وبنى زيرى قد ظهرت حيث بنى زيرى يسيرون فى الطريق نحو الغاء طاعه الفاطميين السياسية والمذهبية واعلان الاستقلال بأمر افريقية .

ففى خلافة المستنصر بالله الفاطمى (٤٢٧- ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥- ١٠٩٤م)

تطورت علاقات الدولة الفاطمية فى مصر بالدولة الزيرية فى افريقية والمغرب الاوسط ففى عام ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م انفصل المعز بن باديس نهائيا عن الدولة الفاطمية. ورأى الفاطميون الفرصة سانحة لاستغلال قوة بني هلال الكبيرة فى محاربة دولة بنى زيرى فى القيروان من بلاد المغرب بعد أن أعلن المعز بن باديس انفصاله عن الفاطميين وخلع طاعتهم، لاسيما أن عهد الخليفة المستنصر هذا قد شهد وقوع الحروب بين هذه القبائل العربية الهلالية بعضها وبعض وعم ضررهم وأحرق البلاد والدولة شرورهم كما يقول ابن خلدون وأصبحوا مشكلة كبرى للحكم الفاطمى فى مصر. ومع ان العرب الذين دخلوا مصر واستقروا بها كانت غالبيتهم من بنى سليم الا ان اسم بنى هلال قد غلب عليهم جميعا لانهم كانوا أوغل فى البداوة وأعنف من بنى سليم فى معاملة الناس وانزال الضرر بهم فأصبح الكل ينتسبون إلى بنى هلال بن عامر صعصعه وسموا هلاليين أو هلالية .

بل أن هناك من يشير إلى أن العلاقات توترت فيما يقرب من عام ٤٤٠هـ بين المعز بن باديس صاحب امارة افريقية وبين المستنصر بالله الخليفة الفاطمى بالقاهرة. وهنا يجئ دور وزير الخليفة المستنصر أبو محمد الحسن على اليازورى الذى أشار على خليفته بضرورة اغراء القبائل العربية المقيمة على حدود مصر الشرقية بالوجه القبلى مثل بنى هلال وبنى سليم وعلى حدودها الغربية بالرجه البحرى مثل زغبة ورباح بالسير إلى القيروان وتقدم اليازورى لمشايخهم وطلب منهم أن يتولوا أعمال افريقية نيابة عن الفاطميين ودفعهم إلى محاربة بنى زيرى فاذا انتصروا أصبحوا أعوانا للدولة وعمالا لها بتلك البلاد وان هزموا فانه يكون بذلك قد تخلص من عنصر من عناصر العرب القوية فى مصر دون أن يكلفه أدنى مشقة وكان يريد الانتقام من بنى زيرى فحضر الوزير اليازورى مكين الدولة أبا على الحسن بن على بن سليم من أبناء العقيلى أمير أمراء

الدولة الفاطمية وكان مشهورا ومعروفا بالكياسة وحسن الحديث والرأى وسيره إلى زغبة ورباح من بطون هلال المقيمة بالوجه البحرى فحمل معه الهدايا القيمة والجوائز والهبات السخية لامراء العرب فقضى على ما كان بينهم من خلاف وشجار وعداوة وتحملت الدولة الفاطمية ديات القتلى بين الطرفين فلما تم لليازورى ما قصده من وراء ذلك واتخاذهم وسيلة تنكيل بالمعز بن باديس جزاء ما فعله من اضطهاده وقتله الشيعة وانحرافه السياسى، ووهب للعرب المال ثم أذن لهم بعبور النيل غربا بعد أن كان محرما عليهم وأجازوا النيل فى جموع حاشدة وكان العداء قد استحكم بين المعز بن باديس والوزير الفاطمى اليازورى وبذلك انتقم البازورى من المعز بن باديس فرماه بعرب بنى هلال وبنى سليم وقال لهم الخليفة قد أعطيتهم المغرب وملك بنى باديس بن بلكين الصنهاجى. وكان اليازورى قد أرسل للمعز بن باديس يتهدده، فأغلظ له المعز فى الجواب، وكان الوزير الحسن بن على اليازورى من أهل الفلاحة والتبانة ولم يكن من أهل الوزراء الاكفاء. فكاتبه المعز بن باديس بمالم يخاطب به من قبله فعظم ذلك عليه وعاتبه فلم يرجع المعز إلى ما يجب، فأكثر الوقيعة فى المعز وأغرى به المستنصر فوافقه وكتب اليازورى إلى المعز بن باديس مهددا .

أما بعد فقد أرسلنا اليكم خيولا فحولا وحملنا عليهم رجالا كهولا، ليقضى الله أمرا كان مفعولا. ويذكر ابن عذارى المراكشى فى كتابه البيان المغرب، أن المستنصر أذن للعرب باجتياز النيل بعد أن كان ممنوعا عليهم وأعطى كل مجتاز منهم دينارا واجتاز منهم خلق عظيم من غير أن يأمرهم لعلمه انهم لا يحتاجون إلى وصية وحقق بذلك هدفين فقد تخلص من هذه القبائل التى كانت دائبه على اثارة الشغب والمتاعب فى الاراضى المصرية وانتقم بهم من الزيريين بعد أن كانت الدولة الفاطمية عاجزة عن اتخاذ أى اجراء ضدهم وكان القضاء على دولة بنى زيرى خيرا للدولة الفاطمية فان

استقلال بنى زيرى وتنكرهم للشيعة ومناصرتهم لاهل السنة وعودتهم إلى مذهب الامام مالك كان يؤرق بال الخليفة الفاطمى ورجاله، واذ حدث العكس وقضى بنو زيرى على بنى هلال كان هذا خلاصا من هؤلاء العرب الهلالية دون أن تخسر الدولة أموالا وسلاحا وجندا لم تكن لتقدر عليه فى ظل الظروف والحالة السيئة والشدة المستنصرية فى البلاد ولم يكن الوزير الفاطمى اليازورى يفكر فيما يمكن أن يلحقه بنو هلال من الضرر بأفريقية وأهلها انما كان ما يبتغيه هو رد اعتباره وكرامته والتى أغلظ له فى القول المعز بن باديس وعامله بما لم يعامل به وزيرا سابقا من وزراء الدولة الفاطمية والعمل على ارضاء الخليفة المستنصر بعد أن خلع الدعوة الشيعية الفاطمية الاسماعيلية وتحول للدعوة للخليفة العباسى القائم بأمر الله فى بغداد .

وكان الخليفة الفاطمى قد أقطعهم افريقية والمغرب وأعطاهم ما سماه ملك المعز بن بلكين الصنهاجى العبد الايق فلا تفتقروا بعد ذلك. ولقد كان دافع الفاطميين إلى ارسال هذه الحشود العربية هو خشيتهم من أن يمتد خطر الاستقلال ونبذ طاعة الفاطميين إلى حدود مصر الغربية ومن هنا كانوا قد أعدوا لذلك خطتهم المزدوجة فدفعوا بالقبائل العربية الهلالية بالزحف إلى افريقية والمغرب للتخلص من نفوذهم وسوء معاملتهم وعدم خضوعهم لطاعة الدولة وحركات العصيان والاقتتال فيما بينهم ولمناوأة بنى زيرى من ناحية أخرى وتعكير صفو حياتهم فى المغرب من ناحية ثالثه وبهذه الطريقة يكون الفاطميون قد نجحوا فى أن يستخدموا أسلوبا يمكن أن نسميه بالهجوم الدفاعى .

ومن ناحية أخرى قبل العرب الهلالية ومن سار معهم من قبائل العرب الاخرى دعوة الخلافة الفاطمية بالسير إلى افريقية وبلاد المغرب لانهم باجتيازهم نهر النيل والزحف من البر الغربى باتجاه بلاد المغرب فانهم هم أنفسهم يحققون عدة مكاسب

تعود عليهم بالفوائد الكثيرة والتى كانوا يطمعون فى تحقيقها من وراء ذلك التحرك الواسع والكثيف والواسع الانتشار والذى لم يستغرق فترة طويلة للاعداد له فقد سار على قدم وساق وفى فترة زمنية قصيرة ومن أولى هذه المكاسب انهم عندما يذهبون إلى بلاد جديدة فى المغرب فانهم سوف يكونون أحرار بعيدا عن سلطة الدولة الفاطمية وقيودها عليهم وعدم الخضوع لسلطة تفرض سلطاتها عليهم، كما انهم فى بلاد المغرب سوف يجدون أنفسهم يعيشون فى بيئة تشبه موطنهم الاصلى بالحجاز ومن هنا كان استعدادهم للعبور والانطلاق إلى بلاد المغرب أكثر رغبة من الدولة الفاطمية والا لماذا رضوا بهذا العرض وقابلوه بالترحاب وحاولت السلطة الفاطمية أن تغرى الهلالية فأعطتهم المغرب وملك بنى زيرى وقدمت لهم المعونات ولهذا انطلقت الموجة الاولى متجهة إلى افريقية ويهمنا هنا فى هذا المقام أن نقرر أن هذه الجموع الهلالية لم ترحل كلها إلى بلاد المغرب فقد آثر بعضها البقاء فى مصر والاقامة فى الحوض الشرقى شمالا وبالصعيد الاعلى فى أقصى الجنوب وسكنوا أيضا الصعيد الادنى والاوسط ولعل اختيارهم لمنطقة الصعيد الاعلى يرجع إلى غنى وثروة هذه المنطقة فى ذلك الوقت وهذا دعاهم إلى الاقامة والاستقرار والتطور وان احتفظوا بآثار من الفروسية تبدو فى اجادتهم ركوب الخيل .

الفصل الثانى

بنى هلال فى افريقية (المغرب الادنى)

وصل بنو هلال إلى برقة (بنى غازى حاليا) عام ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م فوجدوها خالية من السكان بسبب الحروب الطويلة التى كانت بين أهلها من قبائل زناتة الشرقيين وبين قوات المعز بن باديس بن زيرى الصنهاجى (لاحظ هنا أن بنى هلال لم يدمروا مدنا أو يهلكوا حرثا أو يقلعوا زرعا أو يقتلوا نسلا) وكانوا لما وصلوا إلى افريقية قد كتبوا إلى اخوانهم الذين يعيشون فى الصعيد يرغبونهم فى البلاد ويذكرون لهم محاسن تلك الديار فسرعان ما تسرب هؤلاء الاعراب إلى أرض برقة فوجدوها بلادا خالية طبية المرعى كانت عمارتها قبائل زناتة فأبادهم المعز بن باديس وفروا منها وأقام فيها بنو هلال واستوطنوها كما ذكر ذلك النويرى فى كتابه نهاية الارب. وهنا يدرك القارئ حسن مقصد بنى هلال ودخولهم سلما وعدم اشتراكهم فى قتال .

وهكذا سارت جموع العرب حتى دخلوا برقة وما والاها من بلاد فوجدوها بلادا كثيرة المرعى خالية من الاهل فأقامت العرب بها واستوطنتها وعاشت فى أطراف البلاد وبلغ ذلك المعز فلم يعرهم أدنى اعتبار.

لكن ابن الاثير فى كتابه الكامل يذكر أن العرب دخلت إلى افريقية عام ٤٤٢هـ. وهكذا وصلت هذه الجموع الهلالية إلى ديار المعز بن باديس ومن ثم بدأت تستعد لقتاله تنفيذا لما عاهدوا عليه الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ووزيره اليازورى واستقر نفر من بنى سليم فى برقة. ولما طاب لهم المقام ووجدوا ما سمعوا به صدقا وما أقره عليهم الخليفة الفاطمى حقا وتحقق لهم صدق ما وجدوه أرسل بنى هلال إلى اخوانهم يطلبون منهم سرعة القدوم فانطلقت الموجات الاخرى من بنو هلال تجاه

افريقية وسارت القبائل إلى هدفها المنشود تؤازر اخواتها الذين سبقوا فى الغزو نحو برقة. وأقامت فترة من الوقت تستجمع قواها وتحشد عتادها وتنتظر الموجات الاخرى القادمة من الديار المصرية لينطلقوا بعد ذلك إلى افريقية غربا .

وقدر عدد الموجات الاولى من الزحف بحوالى أربعمائة ألف رجل (٤٠٠ ألف) وذلك غير من انضم اليهم من الموجات الاخرى التى استمرت فى المدد والزحف بعد ذلك حتى قدرها الميلى فى كتابه الجزائر أن عدد الموجات العربية التى وطئت ديار المغرب أثر هذه الموجة الهلالية الزاحفة بحوالى مليون نسمة لكن مؤلف كتاب خلاصة تاريخ تونس ذكر أن عدد الموجة الاولى بما فيهم النساء والاطفال تبلغ حوالى أربعمائة ألف نسمة وان هذه القبائل كانت تشكل وحدة واحدة متعاونةأثناء تحركهم قبل المغرب الاسلامى .

وقد استطاع بنو هلال الانتشار فى افريقية والسيطرة على أجزاء كبيرة منها فى زمن قصير وكانت العلاقة بين القبائل العربية المنتقلة إلى افريقية والدولة الفاطمية فى مصر متصلة إلى حد ما، ذلك لان العرب عندما بدأوا صراعهم العسكرى نادوا بشعار الخليفة المستنصر .

وهكذا انطلقت بقية بنى هلال إلى طرابلس وافريقية فاستقروا فيها دون أن يلقوا معاونة (لاحظ هنا ان العرب حتى تحركهم غربا بعد طرابلس لم يذكر عنهم أن دمروا أو أحرقوا أو أبادوا، ومن ثم كلما اتجهوا غربا كانت رسائلهم إلى بقية بنى عمومتهم فى الصعيد تتوالى وتتوالى أيضا الجماعات العربية من بنى هلال وبنى سليم فى اللحاق بالذين سبقوا وخبروا الحال فى افريقية .

وتولى قيادة الجميع يحيى الرباحى شيخ بن رباح أحد فروع بنى هلال وكان زعيما بدويا شجاعا مغمرا وكان له سلطان وسطوة كبيرة على جموع قبيلته ورجالها

مطاعا ومسموعا فيهم، فلما استقر القوم فى طرابلس أصبح هو سيد هذا الاقاليم وصاحب السمع والطاعة والولاء فيه، وانعقدت له الزعامة والسيادة والرياسة على بنى هلال وبنى سليم بعد انتقالهم إلى افريقية وتوغلهم فى أراضى بنى زيرى الصنهاجيين .

واذ كنا قد ذكرنا أن بعض المؤرخين أشار إلى أن عدد الذين دخلوا بلاد المغرب كان يترواح بين أربعين ألف نسمة ومليون نسمة الا أن بعض المصادر الاخرى تذكر أنه يصعب تقدير العدد الاجمالى للزاحفين إلى افريقية لكن مصادر أخرى تقدر أن الكتلة الاولى من المسيرة االهلالية كانت حوالى ٥٠ ألف نسمة ثم تلاحقت بعد ذلك جماعات أخرى على أمد طويل ومن ثم يكون رقم المليون نسمة ليس فيه أدنى مغالاة فى التقدير ويقدر عدد الذين زحفوا فيما بعد إلى بلاد المغرب الاوسط والاقصى منهم بمائة ألف بمن فيهم النساء والاطفال وهكذا ثبت الوجود الهلالى فى أرض المغرب حتى تلك اللحظة من وجودهم فى المساحة الشاسعة من الاراضى المغربية من حدود مصر غربا إلى طرابلس دون أدنى قتال أو اشتباك مع أية قوة ولم تحدث فى البلاد التى دخلوها أو استولوا عليها ما يشير إلى وجود خراب أو دمار .

وكانت رئاسة بنى هلال ومن اجتمع معها من القبائل الاخرى وقت دخول الزحف العربى لافريقيه فى قبيلة الاثبج وانضم اليهم رباح وزغبة وقرة وبنو عدى وربيعة، ثم عدة قبائل أخرى منها فزارة وأشجع وجشم وسلول بن قرة، وعمر بن أسد والمعقل، أما بنو سليم فهم بطوان كثيرة منها هبب، عوف، زعب، ذباب وهكذا كان نزول بنى هلال وسليم إلى المغرب فى أعداد وبطون وقبائل كبيرة وموجات متوالية ومتلاحقة .

ويذكر ابن خلدون أن بنى هلال استقروا فى برقة وخربوا مدنها مثل المدينة الحمراء (برقة) واجدابية واستمر أذاهم إلى طرابلس وفزان وانتهى الامر بأن سادوا معظم

مناطق هذه النواحي واختلطوا بأهلها (وهنا ندرك معنى الاختلاط والامتزاج) وليس البعد والتقوقع، ومن ذلك فقد سارت جموعهم كما يذكر ابن خلدون أيضا (كالجراد المنتشر لايمرون على شئ الا أتوا عليه) .

ويغالى ابن خلدون ويسرف اسرافا شديدا فى التجنى على بنى هلال وقبائلهم وينعتهم بنعوت هم بعيدون عنها كل البعد ووصفهم بأوصاف لم تكن لتقبل عقليا من رجال عاشوا حياتهم بالقرب من المدينة المنورة ومكة المكرمة الارض الاسلامية المقدسة ثم رحلوا إلى مصر حيث جنة الله فى أرضه فى ذلك الوقت، ولم يتصرفون بكل هذه البداوة والقسوة والشدة مع اخوة لهم من بنى جلدتهم وعقيدتهم، ليس التخريب والتدمير طبيعة العربى الذى يرى فى الحضارة والعمران مبهرة له فكيف يدمر انسان شيئا يبهره ويرى فيه الحسن والذوق والجمال. لكن مهما يكن فلنمض مع ابن خلدون واصفا لنا تفاصيل ما أنزله الهلالية فى افريقية والمغرب من خراب ودمار .

ونحن هنا نأخذ الاقوال على علاتها لان ذلك سوف ندققه فى فصل لاحق، ويقول ابن خلدون أن بنى هلال ومن دخل معهم من العرب يختلفون كل الاختلاف عن عرب العصر الاول الخلفاء الراشدين (١١- ٤٠هـ) والتى قامت بالفتوح الاسلامية المجيدة ذلك لان بنى هلال وأشياعهم من القبائل الاخرى لم يكونوا جيوشا نظامية تعمل لهدف أسمى وهو تحرير الانسان من رق العبودية والدخول فى عبادة الله ولم يكن لهم هدف دينى أو قومى أو معنوى وأضح. ونحن نخالفه هنا لان تحركهم كان يهدف إلى تأسيس ملك لهم على أنقاض سلطان بنى زيرى كما ذكر لهم المستنصر ووزيره البازورى قائلا «لقد وهبت لكم ملك بنى زيرى فى افريقية» اذن كان هدفهم اقامة وطن ودولة والتحرر من سيطرة الدولة الفاطمية وهنا يتغاضى ابن خلدون عما ذكره غيره من المؤرخين (ابن الاثير وابن عذارى المراكشى). حين ملكهم الخليفة

الفاطمى كل ما يفتحوله ووعدهم بالمدد بالاموال واتاحة الفرصة للقبائل ومساعدتها للحاق بهم .

يضيف ابن خلدون أن بنى هلال كانوا بدوا وظلوا طوال تاريخهم بدوا والصفحات اللاحقة فى تلك الدراسة تنفى كل هذه الاقوال عندما نذكر أثرهم فى المغرب، وانهم لم يغيروا من طبعهم البدوى لان طوال اقامتهم فى البوادى (هل كانت السكنى بالقرب من الطائف والمدينة ومكة ونهر النيل فى مصر بوادى) وان الدولة كانت تفرض قوتها عليهم وتمنعهم من كل نطاق حضارى وجعلتهم بدوا، كما انهم يتحركون ويتصرفون جماعيا ويطيعون رئيس القبيلة ولا يعرفون رئيسا غيره، ولا يرون فى العمران الا مجالا للغارة والنهب وهم يغيرون على االمزارع والمنشآت دون أن يقيموا وزنا لاهميتها وقيمتها، بل يسعدون بأن يصيبوا منها ما يقدرون عليه ويعيثون فيها فسادا يقتلعون الابواب ويستعملون أخشابها وقودا للنار ويطلقون قطعانهم فى المزارع تأكل الحاصلات دون تفكير ولا يعتزون الا بشئ واحد هو العصبية فهم يتعصبون لقبائلهم أكثر مما يتعصبون لاى شئ آخر .

هكذا وصم ابن خلدون القبائل العربية الهلالية الاصيلة ذات التاريخ الحضارى المجيد فى المغرب بهذه الاوصاف متناسيا أن الذى ربما يكون قد حدث فى بلاد افريقية والمغرب من جراء الغزوة الهلالية أقل بقليل مما قام به كسيلة والكاهنة من أعمال ضد الوجود الاسلامى وأقل بكثير مما يحدث فى أقل معركة من معارك العصور الوسطى فلما رمى ابن خلدون بنى هلال بكل هذه الرجمات النارية التى اعتمد عليها كتاب الغرب ومن ساروا وراءهم من كتاب العرب غير مدققين أو محللين للاحداث وربط العناصر ليمحص كل هذه التهم .

وقد نزلت منهم بطون كثيرة إلى افريقية والمغرب حيث كان أكبر هذه البطون

(جشم والاثيج وزغبة ورباح وربيعة وعدى والزواودة وبنو قرة) وينقسم الاثيج إلى عدة فروع هم كرفة، دريد، العاصم، مقدم، الضحاك، عياض والعمور، وقد وقعت بين هذه الفروع والابطن مشاكل ومنافسات عند الاستقرار بالمغرب وصلت إلى حد القتال وقد أدت هذه الفتن والحروب فى وقتها المبكر إلى ضعف الاثيج مما أدى إلى سطوة واعتزاز رباح عليهم على الرغم من أن الاثيج كانت لهم الزعامة وقت دخول بنى هلال إلى افريقية والمغرب للسيطرة على ملك بنى زيرى وقتال المعز بن باديس الذى خلع طاعة الفاطميين نهائيا عام ٤٤٠هـ .

ويلاحظ أن العاصم ومقدم والضحاك أبناء لشرف ابن الاثيج وأن لطيفا حفيد له ونلاحظ هنا أن العاصم ومقدم انتقلا إلى المغرب فيما بعد فى عهد المنصور الموحدى، كما انتقلت مجموعة من الضحاك إلى المغرب الاقصى كذلك أوائل عهد الموحدين فى عهد عبد المؤمن بن على، وقبائل العمور لم يتأكد نسبهم إلى هلال ويتكون العمور من فرعين هما قرة وعبد الله .

وثانى بطون هلال رباح ونسبهم ينتهى إلى رباح بن أبى ربيعة بن تهيك بن هلال بن عامر وكانوا أكثر بطون هلال عددا وعزة وقد ورث رباح زعامة هلال بعد أن استطاعوا الفوز بها من الاثيج ويتكون رباح من عدة أفرع هم مرداس ومنهم الزواودة ومن أبناء مرداس داود وهم بنو عسكر ولاد ومحمد ومسعود واولاد سباع بن يحيى ويعتبر الزواودة أشهر فروع رباح وفيهم الرياسة على رباح عامة وكما انضم إلى رباح عدد آخر من البطون مثل سعيد وعلى وعامر ويتفرع من عامر فرع يسمى الاخضر تمكنوا من التغلب على مدينة باجة وملوكها قبل موت تميم بن المعز عام ٥٠١هـ .

ويلاحظ أن الزواودة أشهر فروع رباح الذين نالوا الحظ الاوفر من المصادر والمؤرخين لنشاطهم وزغبة هم البطن الثالث من بنى هلال ويصل نسبهم إلى عبد الله

من أبناء هلال وكان زغبة وقت دخولهم افريقية كثيرى العدد ذوى عزة ومنعة وكانوا يتكون من خمسة فروع، يزيد، حصين، مالك، عامر ومروة، وكان يزيد أكبر فروع زغبة من حيث العدد وينقسم إلى ثلاثة عشر فرعا. ثم حصين، مالك ويشتمل مالك هذا فروعا ثلاثة هى سعيد والملطاف والديالم ويمكن اضافة فرع رابع هو غريب بن حارث وتعتبر سويدا أعظم فروع مالك من حيث العدد والقوة .

أما بنو عامر فيتكون من يعقوب، بنى حمير، بنى شافع وكانت لهم علاقة فيما بعد بالدولة الزيانية ومنهم عروة وهم خامس فروع زغبة وينقسمون إلى فرعين هما النضر وقيس، وبنى قرة وهو البطن الاخير من هلال وهم بطن متسع من الهلاليين لكنهم تفرقوا فى القبائل بأعداد صغيرة وأهم فروع بنى قرة ابن عبد الله وينقسمون إلى ماضى ومحمد .

والجدير بالذكر ان بنى قرة لم يكونوا مشتركين فى زحف بنى هلال عندما انطلقوا من صعيد مصر إلى بلاد المغرب، بل انهم انضموا إلى اخوانهم العرب الهلاليين عندما وصل الزحف الهلالى إلى برقة حيث كانوا يقطنون تلك المناطق منذ أن أقطعها لهم الحاكم بأمر الله الفاطمى .

ونلاحظ أن معظم البطون التى دخلت افريقية كانت من الفرع العدنانى الا بطونا قليلة كانت من الفرع القحطانى وكانت المسيرة الهلالية تتكون من أكثر من موجة .

أما القبائل التى لحقت هلالا وصارت معهم فى القتال وتحت لواء القبيلة فهم قبيلة المعقل وقد اختلفت بنو سليم معهم فى افريقية واضطروا بعد ذلك إلى اللجوء إلى مواطن بنى هلال بالمغرب وهناك زاد عددهم وتغلبوا على صحارى المغرب وقد اجتمع اليهم عدد كبير من قبائل فزازة وأشجع، بل اجتمع اليهم عدد آخر من قبائل عياض

والحصن واجتمع اليهم عدد من سليم، وكان عرب المعقل عامة بعد دخول الهلاليين إلى افريقية والمغرب حلفاء زناتة ثم بنى مرين خاصة، أما من بقى من المعقل فى تلك الديار الشرقية فقد كان قليلا واندرجوا تحت لواء حملة ابن كعب بن سليم .

والمعقل هؤلاء ينسبون أنفسهم إلى (جعفر بن أبى طالب الطبار) لان الطالبيين والهاشميين لم يكونوا أهل بادية ويكون الجعافرة قد انتقلوا إلى افريقية فى أعدادهم القليلة ومن هنا يصح النسب الطالبى للمعقل وينقسم المعقل إلى عدة بطون منهم صغير وهم عبد الله وفرج ومحمد ومنه المختار والرقيطات والثعالبة فرع صغير إلى ثعلب، وثانية القبائل الملحقة ببنى هلال بعد المعقل هى جشم وجشم بن معاوية بن بكر من هوزان وينقسم جشم هوزان إلى عدة بطون هى الخلط، سفيان بنى جابر والخلط ينسبون إلى بنى عامر بن عقيل بن كعب ورحل الخليط إلى مصر مع بنى هلال وبنى سليم بعد تغلب العباسيين على منطقة البحرين حيث كانوا يعيشون شيعة للقرامطة .

وكان لسفيان الرياسة والشوكة على العرب الداخلين للمغرب الاقصى وكان لسفيان دور كبير فى الاحداث التى وقعت فى الدولة الموحدية فى العقد الثالث من القرن التاسع الهجرى .

وأما بنو جابر فهم البطن الثالث من جشم وقد انتقلوا من افريقية إلى المغرب ومن الذين دخلوا مع الزحف الهلالى وانضموا تحت لواء الحركة الهلالية واستظلوا بظل بنى هلال عطفان وقيس وعيلان وربيعة وهوزان وبطون من قطحان ومن عطفان، أشجع، خزارة، فزارة، وبطون قبس بن عيلان هى عدوان وكان معظمهم بالطائف ثم أخرجتهم منها ثقيف إلى تهامه وانتقل عدد كبير منهم إلى افريقية يعيشون مع سليم تارة ومع رباح تارة أخرى ثم بنو عنزة وبنو سلول وطرود .

وكذلك بنو عقبة وهم من جذام وكانوا يقومون بحراسة الحجيج ثم انتقل عدد

كبير منهم إلى افريقية مع بنى هلال فى الزحف التاريخى المشهور وهم يعيشون فى نواحي طرابلس وان كانوا يخضعون لسليم .

هذه بعض تقاسيم البطون الهلالية ومن انضم اليها فى الزحف إلى افريقية أما سليم فقد انقسمت إلى خمسة بطون كبيرة شاركت فى الزحف وهى زغب، عوف، لبيد، ذياب، هبيب ومنها تفرعت بطون أخرى .

وهذه نظرة سريعة وموجزة عن فروع بنى هلال وبنى سليم ومن سار معهم إلى افريقية أردنا من سردها أن نبين للقارئ كيف أن هذه الفروع والبطون والقبائل قد لعبت أدوارا مختلفة على مسرح الاحداث فى بلاد المغرب مع حركة التاريخ وكيف ساهمت بكل جهدها فى تطوير المغرب اقتصاديا واجتماعيا وسكانيا وشخصية وعمرانا وحضاريا وثقافيا وكان لها باع طويل لا ينكر فى كل الاحداث التى جرت طوال تاريخ المغرب الطويل وكيف شاركت منذ منتصف القرن الخامس الهجرى حتى القرن الحادى عشر الهجرى فى كل الاحداث التى تعرض لها المغرب وكانت مشاركتها صورة مشرفة لكل عربى ومغربى، لا كما حاول البعض أن يشوه صورتها بأنها كانت تشترى بالمال، والهبات أو العطايا وان دورها كان عربيا ملتزما بالشهامة والكرم والشجاعة والجود بل أن وجود مليون نسمة فى القرن الخامس الهجرى هو الذى صبغ الحياة بالوجه العربى وحفظ تاريخا سجله أبناء بنى هلال بالدماء الغالبة الذكية وليس بالاموال والاحتواء .

اننا سوف نرى فى هذا العرض كيف أنه لم يمض على دخولهم المغرب عشر سنوات وبالتحديد عام ٤٥٣هـ وكان دخولهم المغرب عام ٤٤٣هـ حتى شاركوا تميم ابن المعز غزواته ووقفوا معه يساندونه ويشدون من أزره وتحالفوا معه وصاهروه وانضموا إلى الجند الزيرى وشاركوا فى حفظ تراث الامة وتولوا المناصب وكان دورهم مشرفا

وليس كما صور ذلك ابن خلدون ومن سار على نهجه ألم تذكر كل كتب التاريخ ابن الاثير، ابن عذارى المراكشى وغيرهم من المؤرخين انهم ساهموا فى بناء دولة بنى زيرى وانهم كانوا سندا وحصنا منذ عام ٤٥٣هـ وانهم لم يدخلوا القيروان التى قامت الدينا من أجلها الا عام ٤٤٩هـ وسوف نتحدث عن ذلك بالتفصيل فى فصول لاحقة من هذه الدراسة .

أن تاريخ المغرب العربى الاسلامى يذكر بالفخر والفخار الزحف الهلالى الواسع النطاق للمغرب تلك الصورة المضيئة الوضاءة فى كل صفحة من صفحات الامجاد والتى قلبت موازين الحياة رأسا على عقب أن الجذور العميقة فى التربة المغربية التى زرعها أبناء بنى هلال ودووها بدمائهم وفضائلهم وصفاتهم الحميدة لابد أن تقابل بالجحود والنكران من الذين تنكروا لكل دور عربى اسلامى ناجح، أن مسيرة بنى هلال مهما تطاول عليها أعداؤهم فستظل خالدة فى نفوس المغاربة الاشداء الشوامخ ذوى البنية العربية الباسلة والعريقة التى لا تلين مهما ذكر ابن خلدون فليته كان حيا ليشهد الدور الناجح والصفحة البيضاء النقية للمسيرة الهلالية .

صراع بنى هلال مع المعز بن باديس

زحفت بنو هلال إلى طرابلس وقابس وامتلكوها وانساب العرب فى أرض افريقية وطردوا القبائل البربر منها وكانت جموع بنى هلال فى تزايد ولكن المعز لم يكن يتوقع منهم شرا على مملكته بعد أن تجمعت على مشارف افريقية وتمكنت من أخذ طرابلس وما حولها وعدة مدن أخرى ومنها انطلقت إلى داخل البلاد وسيطر بنو سليم على الاجزاء الشرقيه من افريقية وبنو هلال ومن يلحق بهم سيطروا على الاجزاء الغربية من هذا الاقليم وقد استقر بنو سليم فى مواطنهم هذه لم يغادروها إلى داخل المغرب الا فى القليل النادر، أما بنو سليم فلم يكتفوا بالنواحى الشرقية من افريقية بل أغراهم موطنهم

هذا بالامتداد غربا فاتجهوا إلى مناطق يستطيعون فيها فرض نفوذهم على أكبر قدر من الاراضى ومن هنا كان احتكاكهم بالمعز بن باديس .

وفى ذلك يقول ابن عذارى المراكشى وقرب المعز اليه مؤنس وكان المعز كارها لاخوانه من صنهاجة محبا للاستبدال بهم حاقدا عليهم ولم يكن يظهر ذلك لهم ولطف له مكانته مؤنس هذا لديه وكان سيدا فى قومه شجاعا عاقلا، فشاوره المعز فى اتخاذ بنى قومه من رباح وهلال جندا له فأشار عليه مؤنس بأن لا يعقل ذلك وعرفه بأن العرب لا يجتمعون على كلمة وعدم انقيادهم إلى الطاعة، لكن المعز ألح فى استدعاء بنى هلال من طرابلس وحدود افريقية ليستعين بهم على بنى أعمامه الصنهاجيين فى القلعة ولما رفض مؤنس الرباحى قال له المعز (تريد انفرادك حسدا منك لقومك) فعزم مؤنس على الخروج اليهم بعدما قدم العذر وأشهد بعض رجال السلطان ثم رحل متوجها نحوهم فنادى فى القوم وحشدهم ووعدهم ووصف لهم كرامة السلطان والاحسان اليهم، ثم قدم فى ركب منهم لم يعهدوا نعمه ولا طالعوا حاضره فلما انتهوا إلى قرية فنادوا هذه القيروان ونهبوها عن مواردها، فلما ورد الخبر على القيروان عظم الامر على المعز بن باديس وقال انما فعل مؤنس هذا ليصحح قوله ويظهر نصحه فقبض المعز على عياله وختم على داره، فلما بلغ مؤنسا ما فعله باهله وولده اشتدت نكايته وعظم بلاؤه وقال قدمت النصيحة فحاق بى الاذى ونسبت إلى الخطيئة فكان أشد اضرارا من القوم وقد علم بعورات القيروان .

هذا هو خبر اتصال بنى هلال بالمعز بن باديس كما رواها ابن عذارى المراكشى ، ثم يرد قائلا، ان المعز أرسل إلى بنى هلال بعض الفقهاء ومعهم مكاتبات وشروطا ووصايا فأعلموهم أن السلطان قد دفع اليهم عيالهم كأسرة مؤنس الرباحى ومن كان معه وأخذ عليهم العهود والمواثيق على الرجوع للطاعة فقبلوا وأرسلوا شيوخا منهم ثم

انقلبوا على المعز بن باديس وشرعوا بالعبث باقليم القيروان حوالى عام ٤٤٣هـ .

وقد غاب عن فكر المعز بن باديس الذى تصور انه يستطيع الاستعانة بالهلالية على بعض خصومه من الصنهاجيين وتصور انه يستطيع اتخاذهم جندا له ليستغنى عن الكتاميين والعبيد وغيرهم ولهذا كان ترحيبه بمؤنس بن يحيى الرباحى ودعاه إلى الوفود عليه بقومه فكان فى ذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار، ذلك أن مؤنسا وقومه عندما دخلوا افريقية أفزعوا المعز بن باديس فزعا شديدا اذ رآهم يخربون ويحرقون وينسفون المزارع دون أدنى تفكير فسارع إلى القبض على مؤنس الرباحى، وكان يقيم فى القيروان وطلب اليه أن يخرج وقومه من بلاده ولكن الاوان كان قد فات. لقد دخل بنو هلال بلاد افريقية ونشبوا أظافرهم فيها ولن يستطيع هو أو قومه انقاذها منهم .

وفى هذه الأثناء استكثر المعز من العبيد حتى بلغ عددهم لديه نحو ثلاثين ألف جندى مملوك منهم ليدفع بهم هجمات بنى هلال، وكان هؤلاء قد أخذت قبائل من رباح والاثيج وبنى عدى وغيرهم يزحفون إلى أعمال القيروان ويقطعون السبل ويعيشون فى الاراضى فسادا، وأرادوا أن يتقدموا لمحاصرة القيروان فقال مؤنس الغاضب على المعز، ليست المبادرة عندى برأى فقالوا كيف تحب أن تصنع، فأخذ بساطا فبسطه ثم قال لهم من يدخل إلى وسط البساط من غير أن يمشى عليه قالوا لا نقدر على ذلك قال: فهكذا تأخذ القيروان، حذو شيئا فشيئا حتى لايبقى الا القيروان فخذوها فحينئذ قالوا انك لشيخ العرب وأميرها هذا ما رواه ابن الاثير عن مقدمات الصراع بين بنى هلال والمعز بن باديس وهكذا كانت خطة مؤنس بن يحيى الرباحى فى الاستيلاء على مدن افريقية وقراها واحدة بعد الاخرى حتى اذ لم يبق الا القيروان فانهم يستطيعون التقدم اليها وأخذها وبذلك يسهل أمرها ويتمكنون من الاستيلاء عليها .

وهكذا كان على المعز بن باديس أن يواجه هذا الخطر بعد أن فشلت محاولته فى

ضمهم لخدمته وبعد أن ساءت أحوال أقاليم القيروان بمضايقات بنى هلال وافسادهم للمزارع والثمار ومحاصرة الاطراف وانقطعت أسفار المسافرين وقلت الحركة خوفا من غارات الاعراب واضطر المعز أن يفكر فى مدافعة هؤلاء الاعراب واحتفل فى ذلك ايما احتفال فى حشد القوات والعتاد والزاد والزواد فجمع نحو ثلاثين ألف فارس ومثلها من الجند الراجل وفى رواية ابن عذارى ثمانين ألفا وقد يكون فى العددين مبالغة شديدة واستنجد المعز بجده حماد بن بلكين (عم أبيه باديس) صاحب القلعة فأمده بألف فارس من الرجال وكذلك استصرخ زناتة فأقبل عليه زعيمها المستنصر بن خزرون فى ألف فارس من القبيلة وجمع هو جنده ومن انضم اليه من غرب افريقية القدامى (عرب الفتح) .

كان العرب الهلالية فى بداية نزولهم افريقية قد بدأوا علاقتهم ببنى زيرى بداية طيبة واتصل بعض من رؤسائهم بالمعز بن باديس وأظهروا له لونا من المهادنة انخدع بها المعز وفطن أن أمر هذه القبائل الوافدة سهل ميسور وانه سرعان ما يسعى لضمها ويؤثر فيها وانها سرعان ما تنتهى علاقتها بالسلطة الفاطمية فى مصر .

وأسرع المعز يكلف بعض رؤوساء العرب بالاعمال ويتصل ببعض منهم بالاصهار ولم يدرك خطورة أثرهم على ملكه، لكن العرب الهلالية لم يكونوا غافلين عن المهمة التى جاءوا من مصر لاجلها فأخذوا يتطلعون إلى معرفة أسرار المعز العسكرية حتى اكتشفوا الأمور جيدا. ومن ثم بدأوا يقومون بالدور الذى أرسلتهم الخلافة الفاطمية فى مصر من أجله وجاهر العرب بالخلاف بعد حوالى عام من اقامتهم بافريقية ونادى العرب بشعار الخليفة الفاطمى المستنصر واستمرت المناوشات بين الفريقين، ثم صعد العرب نشاطهم العسكرى بعد فترة. وبدأوا يتطلعون إلى قاعدة السلطان والحياة بل قاعدة افريقية (القيروان) مما سهل عليهم أخذ بقية النواحى وساروا على نهج أن تأخذ

افريقية من أطرافها جزءا بعد جزء حتى لا تبقى الا قاعدة الاقليم فيتم أخذها بسهولة وتم الاتفاق على الرأى الثانى وهو رأى يدل على براعة عسكرية فهم اعتمدوا على سياسة النفس الطويل وأخذ القليل قطعة قطعة وفيها تستولى القوات المهاجرة على المناطق المطلوب السيطرة عليها على دفعات وليس دفعة واحدة ونفذ العرب خطتهم وصعدوا من درجة الصراع العسكرى ولما أحس المعز بن باديس انه لا رجعة لهذه القبائل، لجأ إلى وسيلة الحرب فاستعد استعدادا عسكريا كبيرا لمواجهة تقدم العرب وجمع جندا كبيرا وترك المنصورية ومنها اتجه إلى ناحية حيدران حيث تجمع العرب على مسيرة ثلاثة أيام من القيروان وعزم على القتال وانتهى إلى جبل حيدران ويقع بينه وبين القيروان مسيرة نحو خمسين ميلا وكانت عدته ثلاثين ألف رجل وعدة العرب ثلاثة آلاف فارس وعند ابن عذارى ان عدة العرب كانت ثلاثين ألف وهو رقم أقرب إلى الصواب فالقوات متقاربة من حيث العدد .

ودارت الحرب وكانت معركة شديدة بين الفريقين واشتد القتال ووصل إلى حد الضراوة والشراسة ويقول ابن عزارى المراكشى فى كتابة البيان المغرب، لما كان ثانى يوم عيد الاضحى كانت الداهية العظمى والمصيبة الكبرى وذلك ان السلطان المعز عيد يوم الاثنين ومشى صباح هذا اليوم إلى ناحية قرية تعرف ببنى هلال، فلما كان نصف النهار اتته الاخبار أن القوم قد قربوا منها بأجمعهم فأمر بالنزول فى أوعار وأوديه فلم يتم النزول بالقوات والعدد والعتاد ولم يتم انشاء المعسكر بل كانت القوات فى طريقها إلى مكان غير حيدران واستغل العرب حالة الارتباك وانهماك الجند فى خط الرحال وحمل العرب الهلالية عليهم حملة رجل واحد فانهزم جند المعز. وصبر المعز صبرا عظيما إلى أن وصلت رماح العرب اليه ومات من العبيد حوله وبين يديه خلق عظيم قدوة بأنفسهم، وأما بنو زيرى وجميع صنهاجة وزناتة وغيرهم من القبائل العربية وغيرها

فانهم تركوا ميدان المعركة والمعز يقاتل وعبيده وانتصر العرب وحاقت الهزيمة بالمعز على الرغم من كثرة جيوشه وقلة أعدائه وكان من نتيجة هذا الانتصار الذى احرزه العرب أن انتهب العرب مضارب المعز ودخل العرب الهلالية معسكر المعز فحازوه وفيه من الذهب والفضة والامتعة والاثاث واللوازم الاخرى مالا يعد ولا يحصى وكان فيه من الاخبية ما يتجاوز عشرة آلاف ومن الجمال خمسة عشر ألفا ومن البغال ما لا يحصيه قول، وهلك أكثر جند المعز وهلك الجبل المعروف بحيدران فافترقوا فيه .

وهكذا انتهت المعركة بين اهل افريقية يتزعمهم المعز بن باديس والعرب الهلالية فى حيدران قرب قابس فى ذى الحجة ٤٤٣هـ/ ابريل ١٠٥١م. وكان المتوقع أن ينتصر المعز نظرا لضخامة جيشه وجودة سلاحه وكثرة خيله وعتاده وكانت غالبية الهلالية فى هذه المعركة من بنى رباح وعدى من بطون الهلالية ولكن انفصال من كان معه من الجند (فيما عدا العبيد) والقبائل أضعف صفوفه وجر علية وبال الهزيمة فقضى الهلاليون على معظم جيشه وتراجع المعز وكان أهل القيروان يتتبعون نتائج هذه المعركة وجاءهم الفارون بخبر الهزيمة فحزنوا كثيرا ثم لحق السكان وفلول جيشه المهزوم بالقيروان وكان قد تراجع اليها وتحصن بها وأقبل العرب يحاصرونه فيها وهكذا تمكن العرب من احراز أول انتصار لهم على جيوش ابن باديس .

وقال ابن الاثير فى الكامل أن العرب الهلالية لما رأت عساكر صنهاجة والعبيد مع المعز هالهم ذلك وعظم عليهم فقال لهم مؤنس الرباحى. هذا يوم فرار فقالوا أين نطعن هؤلاء، وقد لبسوا الكذاغندات وهو نوع من السلاح حماية للجسم، والمغافر فقال مؤنس فى أعينهم فسمى ذلك اليوم (يوم العيون) والتحم القتال واشتدت الحرب فاتفقت صنهاجة على الهزيمة وترك المعز مع عبيده حتى يرى فعلهم ويقتل أكثرهم فعند ذلك يرجعون على العرب فانهزمت صنهاجة وثبت العبيد مع المعز فكثر القتل

فيهم، قتل منهم خلق كثير. وارادت صنهاجة الرجوع على العرب فلم يمكنهم ذلك واستمرت الهزيمة وقتل من صنهاجة أمة عظيمة ودخل المعز القيروان مهزوما على كثرة من معه وأخذت العرب الخيل والخيام وما فيها من مال وغيره .

وتعتبر معركة حيدران أول صدام عسكرى بين الفريقين وانها جعلت المعز يحس بالخطورة الحقيقية للقبائل العربية الوافدة وقد أقلقت نتائج المعركة وما تبعها من أحداث أهل افريقية وشجع ذلك العرب انهم انتصروا فى معركة وظهر العرب بهذه النتيجة الباهرة فى صورة القوى وتجرأ العرب بعد حيدران ونازلوا أهل افريقية ولاسيما القيروان

ولما كان لم يمض ثلاثة شهور على المعركة جمع المعز سبعة وعشرين ألف فارس وسار بهم إلى العرب (المقصود بعد المعركة) وكان خبره قد وصلهم وهجم عليهم وهم فى خيامهم وركب العرب خيولهم وحملوا على جيوشه فهزموها وقتلوا من الصنهاجيين كثيرا. ثم جمع المعز جمعا آخر من صنهاجة وزناتة وخرج اليهم بنفسه ولما أشرف على مضارب العرب ناشبهم القتال فانهزمت جيوشه من صنهاجة وزناتة وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتا عظيما، ثم انهزم وعاد إلى المنصورية وأحصى من قتل من صنهاجة فى هذا اليوم فبلغ ثلاثة آلاف وزيادة، وتجرا العرب بعد ذلك على الزحف إلى القيروان، وساروا اليها ونازلتهم جيوش المعز فانهزمت ، وامتدت أيدى الهلالية إلى المنصورية ورقادة وقتلوا فيها عددا كبيرا من الناس وتفوق جند المعز وأصبح الناس لا حامى لهم. ويذكر ابن عذارى المركشى، أن عبيد المعز وعسكر صنهاجة لما دخلوا مدينة صبرة أساءوا استخدام مبانيها وضربوا عمائرها العظيمة (وليس العرب الهلالية الذين خربوا المدن والعمائر. جند المعز وأهله) وأقام العرب على باب تونس بالقيروان محاصرين لها وخرج الناس من باب تونس ودارت معركة استخدم فيها العرب

السيوف في رقاب الناس وماتت منهم أعداد كبيرة .

وازاء هذا الخطر الذى يحيط بالقيروان استعد المعز لقتالهم فأعاد ترتيب جيوشه وعاد إلى القيروان يرتب شئونها وخرج اليهم المعز بنفسه فانهزم بعد قتال عنيف ثبت فيه المعز ثم عاد إلى المنصورية فاقتتلت العرب حتى نزلت على القيروان ودفعت الحرب الناس إلى الهرب حتى قتل من رقادة والمنصورية خلق كثير. وقد اضطر المعز ازاء ذلك إلى بناء سور جديد أمام كل من القيروان وزويلة وتحصن هو وجنده فى المنصورية وفكر المعز فى الانتقام من العرب الهلالية الوافدين وانتهز فرصة عيد الاضحى وهجم على العرب وهم فى صلاة العيد لكن العرب امتصوا الصدمة وهزموا بنى زيرى، كما لقى المعز هزيمة أخرى على الرغم من أجناده واستعانته بزناتة إلى جانب قواته من صنهاجة وأحاط العرب بالقيروان من كل جانب ولجأ المعز إلى سلاح المهادنة، لانه لما رأى نتائج كل هذه المعارك فقد أباح للعرب الهلالية أن يدخلوا القيروان للبيع والشراء (حركة تبادل تجارى) ودخلوا فاستطالت عليهم العامة ووقعت بينهم حروب وفى عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م بنى المعز سور زويلة والقيروان تحصنا من العرب، وفى عام ٤٤٦هـ حاصرت العرب القيروان وملك زعيمها مؤنس بن يحيى الرباحى مدينة باجة. وكانت اباحة دخول القيروان يقصد منها اقامة لون من ألوان التعاون الاقتصادى وذلك لكى يتم التخفيف من آثار الصدمة العسكرية لكن العرب لم يلبثوا أن قاموا ببعض المناوشات ضد أهل القيروان وفقد المعز قدرته على حماية الاهالى بعد أن نقض العرب الصلح وحاصرت القيروان وهدموا الحصون وضيقوا الخناق على سكان القيروان .

وفى هذه الاثناء أخذ المعز يشير على رعاياه بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من عدوان العرب الهلالية وأخذ هؤلاء يهدمون القصور والقلاع والحصون ويقطعون الثمار ويخربون الانهار كما يقول ذلك ابن خلدون وابن الاثير وأقام المعز

بالقيروان والناس ينتقلون إلى المهدية بعد أن كان بعض من قوات المعز قد سار اليها نظرا لان ابنه تميما كان يتولى حكم المهدية من قبل أبيه المعز، واضطر المعز فى النهاية أن يلحق بالمهدية ويقيم فيها مع ابنه تميم وجعلها حاضرة ملكه الجديد وخرج معظم سكان القيروان الا القليل النادر إلى المهدية وخرج هو من المنصورية إلى المهدية عام ١٠٥٧/٤٤٩م، بعد أن ترك المعز وأهل القيروان المدينة وتركوها خاوية بعد أن حملوا ما خف وزنه وغلا ثمنه ولم يتركوها الا خاوية على عروشها ودخلها العرب واستولوا على ما كان قد بقى فى قصور بنى زيرى والتى كان المعز قد حمل كل ما فيهاولم يجدوا الا بقايا خيام قديمة وبعض الآلات القتالية التى علاها الصدأ ولم تصلح للاستعمال والاسلحة القديمة التى لا يمكن استخدامها وخضع من بقى فى تلك المدينة لسيطرة العرب لا حكمهم لان المعز قد عين عليها واليا من قبله قبل تركها وتفرق بعض من أهلها فى الامصار .

ولنا هنا وقفة نقول فيها ان ابن خلدون قد تجنى على العرب، وسار على نهجة الكتاب والمؤرخون المعاصرون وفى ذلك يقول الدكتور حسين مؤنس. ان المعز حاول جاهدا أن يصدهم عن المدينة، بل ذهب إلى حد أن صاهر ثلاثة من أمراء بنى هلال ولكن دون جدوى وأخيرا اضطر إلى الانسحاب بجنده وعتاده وذخائره وأمواله وكل ما يملكه فى القيروان إلى المهدية وهى القلعة التى كان الفاطميون قد بنوها على الساحل فى طرف لسان بارز فى البحر المتوسط إلى الشمال من سوسة، وفى رمضان ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م دخل الهلاليون القيروان وخربوها تماما كما خربوا قبل ذلك كل ما مروا به من مدن طرابلس وافريقية وجعلوها حطاما وقتلوا من أهلها عددا كبيرا وتفرق الباقون فعم الخراب (أقوال حسين مؤنس) .

ويذكر بعض المؤرخين انهم لما أخذوا القيروان أرسلوا إلى الخليفة المستنصر

السيوف في رقاب الناس وماتت منهم أعداد كبيرة .

وازاء هذا الخطر الذى يحيط بالقيروان استعد المعز لقتالهم فأعاد ترتيب جيوشه وعاد إلى القيروان يرتب شئونها وخرج اليهم المعز بنفسه فانهزم بعد قتال عنيف ثبت فيه المعز ثم عاد إلى المنصورية فاقتتلت العرب حتى نزلت على القيروان ودفعت الحرب الناس إلى الهرب حتى قتل من رقادة والمنصورية خلق كثير. وقد اضطر المعز ازاء ذلك إلى بناء سور جديد أمام كل من القيروان وزويلة وتحصن هو وجنده فى المنصورية وفكر المعز فى الانتقام من العرب الهلالية الوافدين وانتهز فرصة عيد الاضحى وهجم على العرب وهم فى صلاة العيد لكن العرب امتصوا الصدمة وهزموا بنى زيرى، كما لقى المعز هزيمة أخرى على الرغم من أجناده واستعانته بزناتة إلى جانب قواته من صنهاجة وأحاط العرب بالقيروان من كل جانب ولجأ المعز إلى سلاح المهادنة، لانه لما رأى نتائج كل هذه المعارك فقد أباح للعرب الهلالية أن يدخلوا القيروان للبيع والشراء (حركة تبادل تجارى) ودخلوا فاستطالت عليهم العامة ووقعت بينهم حروب وفى عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م بنى المعز سور زويلة والقيروان تحصنا من العرب، وفى عام ٤٤٦هـ حاصرت العرب القيروان وملك زعيمها مؤنس بن يحيى الرباحى مدينة باجة. وكانت اباحة دخول القيروان يقصد منها افامة لون من ألوان التعاون الاقتصادى وذلك لكى يتم التخفيف من آثار الصدمة العسكرية لكن العرب لم يلبثوا أن قاموا ببعض المناوشات ضد أهل القيروان وفقد المعز قدرته على حماية الاهالى بعد أن نقض العرب الصلح وحاصرت القيروان وهدموا الحصون وضيقوا الخناق على سكان القيروان .

وفى هذه الاثناء أخذ المعز يشير على رعاياه بالانتقال إلى المهدية لعجزه عن حمايتهم من عدوان العرب الهلالية وأخذ هؤلاء يهدمون القصور والقلاع والحصون ويقطعون الثمار ويخربون الانهار كما يقول ذلك ابن خلدون وابن الاثير وأقام المعز

بالقيروان والناس ينتقلون إلى المهدية بعد أن كان بعض من قوات المعز قد سار اليها نظرا لان ابنه تميما كان يتولى حكم المهدية من قبل أبيه المعز، واضطر المعز فى النهاية أن يلحق بالمهدية ويقيم فيها مع ابنه تميم وجعلها حاضرة ملكه الجديد وخرج معظم سكان القيروان الا القليل النادر إلى المهدية وخرج هو من المنصورية إلى المهدية عام ١٠٥٧/٤٤٩م، بعد أن ترك المعز وأهل القيروان المدينة وتركوها خاوية بعد أن حملوا ما خف وزنه وغلا ثمنه ولم يتركوها الا خاوية على عروشها ودخلها العرب واستولوا على ما كان قد بقى فى قصور بنى زيرى والتى كان المعز قد حمل كل ما فيهاولم يجدوا الا بقايا خيام قديمة وبعض الآلات القتالية التى علاها الصدأ ولم تصلح للاستعمال والاسلحة القديمة التى لا يمكن استخدامها وخضع من بقى فى تلك المدينة لسيطرة العرب لا حكمهم لان المعز قد عين عليها واليا من قبله قبل تركها وتفرق بعض من أهلها فى الامصار .

ولنا هنا وقفة نقول فيها ان ابن خلدون قد تجنى على العرب، وسار على نهجة الكتاب والمؤرخون المعاصرون وفى ذلك يقول الدكتور حسين مؤنس. ان المعز حاول جاهدا أن يصدهم عن المدينة، بل ذهب إلى حد أن صاهر ثلاثة من أمراء بنى هلال ولكن دون جدوى وأخيرا اضطر إلى الانسحاب بجنده وعتاده وذخائره وأمواله وكل ما يملكه فى القيروان إلى المهدية وهى القلعة التى كان الفاطميون قد بنوها على الساحل فى طرف لسان بارز فى البحر المتوسط إلى الشمال من سوسة، وفى رمضان ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م دخل الهلاليون القيروان وخربوها تماما كما خربوا قبل ذلك كل ما مروا به من مدن طرابلس وافريقية وجعلوها حطاما وقتلوا من أهلها عددا كبيرا وتفرق الباقون فعم الخراب (أقوال حسين مؤنس) .

ويذكر بعض المؤرخين انهم لما أخذوا القيروان أرسلوا إلى الخليفة المستنصر

بالقاهرة بعضا مما غنموه من نفاش قصور بنى زيرى ومعه الهدايا القيمة .

وهكذا انتهى أمر المعز من القيروان بهزيمة المعز واستيلاء العرب الهلالية عليها وتخريبها .

وقد كان ظهور بنى هلال فى افريقية والمغرب فى وقت كانت الاحوال السياسية تمهد لنجاحهم وتوفيقهم، ذلك لان القبائل الافريقية البربرية صاحبه الدولة (بنى زيرى) والامر والنهى فى البلاد كانت قد أغرقت فى الترف واستمرأت نعيم الحياة المرفهة والحضارة وفقدت روحها العسكرية والقتالية ومقوتها الحربية واستعانت بالعبيد السودان ليكونوا أقوام جيشها ولم يكن من المعقول أن تصمد أمام هذه القبائل العربية البدوية الميالة إلى القوة والنزاعة إلى العنف والقتال، كما ان امارة بنى زيرى التونسية قد انقسمت على نفسها بنى زيرى فى القيروان وبنى حماد فى القلعة ولم تستطع أن توحد صفوفها وتجمع كلمتها فى هذا الوقت العصيب لذلك انتصر العرب الهلاليون وهزمت الدولة الزيرية هزيمة ساحقة .

ولقد كان ذلك بداية الانحدار فى تاريخ الثقافة العربية الاسلامية فى افريقية على يد هؤلاء العرب الهلاليين وكانت هذه الهزيمة عظيمة الاثر فى تاريخ المغرب، ذلك لان عرب بنى هلال عرب القرن الخامس الهجرى كانوا يختلفون عن عرب القرن الاول أصحاب الرسالة الخالدة والدعوة والاصلاح، كان عرب عرب الهلالية فى منتصف القرن الخامس الهجرى يغلب عليهم العنف والشراسة والميل للقتال والتمرد على السلطة السياسية وعدم الخضوع لاى سلطان سياسى. فما كادوا ينتصرون فى حيدران عام ٤٤٣هـ ويدخلون القيروان حتى عاثوا فسادا، أفسدوا المزارع واقتلعوا أشجار الزيتون ونهبوا المدن وأحرقوها وأفسدوا الحقول المحيطة بها وحاصروا مدينة القيروان حاضرة الثقافة وكعبة الحضارة فدخلوها عنوة وأعملوا فيها الدمار والخراب ثم أخذوا يزحفون

غربا يهددون مدن افريقية والمغرب (أقوال دكتور حسن محمود نقلا عن مارسى Mar-cais) وكيف تأثر تأثيرا بالغا بأقوال الغربيين ولم يحاول أن ينقدها ويرد عليها ويبطل ما يقال عن كل ما هو عربى والصاق التهم بهذه الغزوة الهلالية (سنرد على ذلك فى فصل مستقل فى تلك الدراسة) .

ويتمادى الدكتور حسن محمود فى القول فيذكر أن بعض الباحثين يشبه الغزوة الهلالية بغارات الجرمان على الدولة الرومانية فى القرنين الخامس والسادس الميلادى وهذا التشابه فى النتائج التى ترتبت على كلا الغارتين قوض الهلاليون صرح الامارة التونسية وأنشأوا امارات عربية صغرى يقاتل بعضها بعضا وتحيل البلادإلى أتون ملتهب من الاضطراب والفوضى ومن حيث أثر هؤلاء الاعراب الفاتحين فى حضارة البلاد. وفقد رأينا كيف ان ازدهار الثقافة العربية فى البلاد كان يستمد وجوده من عنصرين هامين هما الاستقرار والطمأنينة السياسة والاقتصادية ثم من الرخاء والترف وثراء الامراء واغداقهم على أهل العلم والادب والفكر والعلوم وتشجيهم على المضى فى طريق الابداع والابتكار والتأليف والبحث وقد انهار العنصران عدم الاسقرار السياسى والاقصادى والاجتماعى وتفرق شمل البلاد ونكبت افريقية نكبة اقتصادية كانت بعيدة الاثر فى تاريخها السياسى والاقتصادى والاجتماعى (أقوال تعتمد على مصادر غربية وابن خلدون) .

فقد أصبحت القيروان ومدن افريقية خرابا تلتهمها النيران وتحصد أهلها سيوف السفاحين من الغزاة وفجع العلماء فى أمنهم واستقرارهم فخرجوا يبحثون عن ملاذ لهم من هذه الفتنة ولم يكن أمامهم الا المغرب الاقصى فى ذلك الوقت فقد استقرت أموره السياسية .

بل ان بعض أهل افريقية من المشتغلين بالعلم لجأ إلى صقلية، وكانت لهذه

الاحداث نتيجة واضحة كل الوضوح فى احتلال افريقية (تونس) ثقافيا ومن الغريب أن افريقية لم تفق من هذه الصدمة التى ظلت آثارها ماثلة فى البلاد طيلة العصور الوسطى وفى مطلع العصر الحديث (أقوال مؤرخين محدثين) .

وكأن الاحداث قد اصطلحت على أن تنال من افريقية ومن ثقافتها العربية إلى حد بعيد (كذب هذه الادعاءات) تونس الحالية زهرة العلم والثقافة العربية واللسان العربى البليغ الفصيح .

وأصبح هؤلاء الاعراب فى البلاد قوة لا يمكن التغلب عليها والدمار الذى خلفوه فى الحياة الاقتصادية لم يمكن اصلاحه والسبب فى ذلك أن جروح البلاد من الهلالية كانت لاتزال دامية وكانت موجات عظيمة من هؤلاء البدو تتدفق باستمرار على البلاد ويشهد بذلك الرحالة والجغرافيون الذين زاروا البلاد فى ذلك العصر والذين يذكرون انه لم يبق من مدن افريقية المأهولة الا الدمار والخراب (الزيارة بعد احتلال النورمان لهذه البلاد وتحررها على أيدى الموحدين عام ٥٥٥هـ) وهكذا كانت الغزوة الهلالية لبلاد المغرب الادنى وانتصارها على المعز بن باديس والسيطرة على القيروان عام ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م حدثا من الاحداث الهامة فى القرن الخامس الهجرى، بل انها تركت بصماتها القوية على مدى قرون طويلة فى حركة تاريخها الحضارى والسياسى والثقافى والاجتماعى فقد غيرت من مجرى الاحداث بجميع أطرها المختلفة وكانت الغزوة الهلالية عامل خير وفلاح واصلاح وليس عامل خراب وتدمير كما صورها ابن خلدون والتقط منه هذا الخيط كتاب (الغرب) فأعطوا الموضوع جانب السلبية ولم يذكروا الجانب الايجابى المضئ .

الفصل الثالث

ماذا بعد القيروان

بعد انتقال المعز بن باديس إلى المهدية، أصيبت دولة بني زيرى بالانهيار وزاحمها الاعراب فى كل مكان وأخذت كل قبيلة منهم تنشئ امارة صغيرة لها في جهة من جهات افريقية وعندما تولى تميم بن المعز حكم البلاد عام ٤٥٤هـ كان قد ورث حملا ثقيلا فقد انفرط عقد الدولة أواخر أيام المعز وخرجت قابس، سوسة، تونس، قفصة وجربة، وصفاقس وغيرها من المدن وتغلب العرب عليه فلم يكن له الا المهدية، لكن تميما قابل كل هذه الحركات الاستقلالية وسيطرة العرب على المدن بكل حزم وشدة وجهز الجيوش واستطاع استردادها وسار على نهجه من جاء بعده من حكام المهدية وطرد تميم كل حكام العرب من هذه المدن .

وان كان العرب قد اقتسموا فيما بينهم بلاد افريقية فاستقرت زغبه ورباح فى برقة وطرابلس، كما استقر بنو هلال وسليم فى منطقة تونس وما يليها غربا فكان لسليم الشرق ولهلال الغرب، وانحصر سلطان الدولة الزيرية المحدود جدا فى المنطقة الساحلية المحيطة بعاصمتهم المهدية، واذ كانت الدولة الزيرية الصنهاجية قد استمرت بعد ذلك ما يقرب من مائة عام فالفضل يرجع إلى مهادنتها للقبائل العربية سرا عن طريق ادماجهم فى الجيش وبذل العطايا والهبات والاقطاعيات لهم وتزوجهم من بنات العرب وتزويج بناتهم الامراء العرب أو تقربا منهم ونجح تميم بن المعز فى استعادة بعض المدن نهائيا كما تمكنوا أن يعيدوا بعضها لفترة وبعض المدن كانت نزاعا بين بنى زيرى والعرب وبنى حماد .

وكان العرب قد انقسموا أيام تميم بن المعز (٤٥٣- ٥٠١هـ/ ١٠٦٢- ١١٠٧م) إلى قسمين قسم وقف مع بنى زيرى وقسم وقف ضدهم وساعد مناوئيهم من بنى حماد، وقد رقفت رباح وزغبة فى صف بنى زيرى وكانت الانقسامات سببا فى عوامل الضعف السياسى والاقتصادى، ولقد كانت عوامل الضعف والانقسام والتفكك سائدة وبصورة واضحة قبل قدوم العرب، فالصراع بين بنى زيرى وبنى حماد وانفصال بنى حماد بالقلعة والصراع بين صنهاجة وزناتة وانفصال بنى براغوطى فى صفاقس، لكن كل هذه المشاكل والتبعيات ألقيت على كاهل العرب وتحمل العرب وحدهم تبعة هذه الانقسامات بحكم يتصف بالقسوة والجور والتعنت، وهل كان قدوم العرب وراء كل هذه الصراعات المشار اليها وهل تدخل العرب الهلالية فى تعميق مفهوم الانقسام فى المغرب الاسلامى، ثم ماذا كان سيحدث لو لم يدخل العرب افريقية، ألم تكن طرابلس فى قبضة زناتة وخربها المعز بن باديس قبل قدوم العرب، ألم يكن بنو حماد يحكمون المغرب الاوسط قبل قدوم العرب، ألم يكن المغرب الاقصى يخضع لصراع طويل بين قبائل زناتة وكتامة وصنهاجة والمصامدة وألم يكن يخضع للنفوذ الاموى فى الاندلس، ان تاريخ المغرب ماهو الا سلسلة من الضعف والانفصال والتفكك، ألم يكن المغرب مقسما قبل قدوم بنى هلال .

نعم لقد أقام العرب بعض الولايات العربية فى افريقية وانفردوا بحكمها الا انهم لم يصلوا بعد إلى اقامة كيان سياسى واحد .

نعم خضعت طرابلس لسيطرة بنى خزرون وانفصلت سوسة وتونس خضعت لحكم بنى خراسان وانفصلت تميم وقابس وصفاقس وجربة وقلعة افلبية وغيرها لكن هل حكم العرب كل هذه المقاطعات ؟

نعم لقد كون العرب امارات عربية هلالية استمرت مدة طويلة ولم ينته دورها الا بدخول الموحدين إلى افريقية وسادت بعض الاضطرابات الاقتصادية كنتيجة مباشرة لاثر الحرب وتلك ظاهرة فى كل العصور اذ أن الاضطرابات الاقتصادية والسياسية لابد أن تحدث من أثر القتال والدمار والقتل والخراب الذى يصيب الدول من جراء هذه الغزوات، بل ان كل ما حدث فى افريقية كان سيحدث بل كان سيكون أكثر ضراوة لو لم يدخل العرب افريقية، ثم انه متى انتهى الصراع بين زناتة وصنهاجة أن النظام القبلى الذى كان يسود المغرب الاسلامى وعدم تمكن العقيدة الاسلامية تمكنا عميقا فى النفوس وبقايا الوثنية كانت تسوده .

ولقد حفظ بنو هلال لبنى زيرى دولتهم من الضياع والانهيار أمام الغزو الحمادى عام ٤٥٧هـ بذلك فقد اتجه العرب إلى المغرب الاوسط فى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى بعد استيلاءهم على القيروان بفترة بسيطة .

وقد دخل العرب الهلالية الجزائر من ثلاثه جهات من جهة الساحل والهضاب والصحراء ومن خلال هذه المداخل الثلاث انتشروا فى نواحى متعددة من المغرب الاوسط مثل عنابة وقسنطينة وجنوب الاوراس والزاب حتى وصلوا إلى جبل راش ولم ينتشر العرب فى المغرب الاوسط بالطريقة التى انتشروا بها فى المغرب الادنى بل كانوا أكثر ميلا إلى الهدوء والمسالمة (أين التخريب والتدمير يا ابن خلدون) ولقد وقف الهلالية موقف الشرف والبطولة والتضحية والشهامة مع سلطان البلاد الجديد تميم بن المعز بعد أن أحسن معاملتهم وذلك فى صد الهجوم الحمادى فى موقعة سبيبة عام ٤٥٧هـ عندما حاول الناصر بن علناش الحمادى التعدى على أملاك بنى زيرى فى افريقية ومحاصرة المهدية لاسقاط الحكم بها فقد استعان تميم بن المعز بعرب من سليم ومن رباح وزغبة من بنى هلال وقبل أن يحكم الناصر الحمادى حصارة للاستيلاء

على المهدية فان العرب التابعين لتميم تمكنوا من الاتصال باخوانهم الذين كانوا يسكنون المغرب الاوسط مثل عدى والاثيج واتفقوا معهم على المحافظة على كيان بنى زيرى الذين يعيشون معهم فى دولتهم ودارت المعركة وانهزم الناصر الحمادى وقتل عدد كبير من جيشه وأخذ العرب المغانم بعد أن تنازل عنها تميم بن المعز لهم .

وكانت سياسة الاحتواء التى اتبعها تميم بن المعز سببا فى سيادة الامن والامان فى عهده مع العرب وكان عدد هذه القبائل كبيرا جدا بحيث يذكر ابن الاثير أن بطن رياح وحدها كانت قرب القيروان فى زهاء ثمانين ألف بيت وهى من القبائل التى وقفت مع تميم بن المعز وقد سيطرت بنو هلال وسليم على المنطقة الواقعة من الاسكندرية شرقا إلى مشارف قلعة بنى حماد فحالت حصانة كثير من مدن بنى حماد والسياسة التى اتبعوها بالتحالف مع العرب الهلالية دون سقوط دولتهم. ولقد تعاونت زناتة مع العرب الهلالية ومن ذلك نجد قبائل نوحين يكونون حلفا مع بنى عدى، كما دخلت مغراوة وغمرة فى حلف مع الاثيج وأقطع الحماديون بعض العرب اقطاعات كثيرة مثلما فعلوا مع الاثيج وزغبة فى الزاب وغيرها .

وقد استعصت الجبال الشاهقة على العرب الهلالية، لكنهم بسطوا نفوذهم على السهول وبسائط المدن الجبلية فاستقرت العرب الغازية فى الساحل التونسى وبلاد الجريد وبسائط تل الاطلس الشرقى بين قسنطينة والتل وفى باجة وميلة وباغانى ومجانة ويلاحظ أن بنى سليم قد سكنوا فيما يقرب من الساحل بينما عمر بنو هلال المناطق الداخلية .

ويذكر المؤرخون المعادون للعرب فى أقوالهم أن سكان افريقية جأروا بالشكوى من تملك العرب للديار لاسيما بعد أن خرب العرب القيروان واضطر بنو زيرى لاتخاذ

المهدية عاصمة جديدة لهم وعاثت القبائل العربية الغازية فى المنطقة الشرقية من البلاد خرابا ودمارا فتعطلت الزراعة وكسدت التجارة ومما ضاعف من مشكلة الا من أن النزاع لم يكن بين أهالى البلاد الشرقية والعرب فحسب بل كان بين العرب أنفسهم ولم تستطيع المدن الحصينة والساحلية الحفاظ على وجودها على الرغم من ظهور زعامات محلية مثل بنى خراسان فى تونس، كما أن النورمان عملوا على الاحتفاظ بما احتلوا من مدن الساحل ذلك لان العرب كانوا دائما يغيرون عليهم وينصبون الكمائن لقواتهم للايقاع بها ومحاولة طردهم لانهم كانوا يرون فى ذلك عدوانا على الديار والدين، وشيدت بعض المدن أسوارا عالية حفظا لوجودها .

ولقد سيطر تميم بن المعز على معظم البلاد فظل تميم فى المهدية وما جاورها من بلاد وخضعت صفاقس وقابس وجربة وغيرها لسلطانه، أما بعض النواحي الاخرى فقد تقاسمها العرب الهلاليون لبعض الوقت وكذلك خضعت بعض المدن لزعماء زناتة وصنهاجة وانقسمت البلاد إلى اقطاعيات صغيرة وضاعت وحدتها، وكان العرب لما وصلوا إلى المغرب الاوسط قد تغيرت نفسيتهم وسلوكهم فقد كان عدد الداخلين إلى المغرب الاوسط أقل منه فى المغرب الادنى وكان حكام المغرب أكثر حرصا ودرايه فى معاملة هذه القبائل مما قلل من خسائر المغرب الاوسط. ولقد نجح العرب فى المهمة التى أرسلوا اليها نجاحا كبيرا فقد استطاعوا الانتصار على بنى زيرى وأخذوا منهم بعض المدن وثبتوا أقدامهم على أرض المغرب بحيث لم تنجح أية قوة فى البلاد فى اعادتهم من حيث جاءوا، بل انهم كونوا بعض الامارات الا انهم لم يتمكنوا من القضاء على الدولة الزيرية أو العمل على اعادتها إلى طاعة الفاطميين بعد أن تمكنوا من الانتصار فى افريقية والانتشار فى المغرب الاوسط الا انهم لم يصلوا إلى المغرب الاقصى ولم يدخلوا أرضه الا حين استقدمهم الموحدون فيما بعد. كذلك فان الحضارة الاسلامية

قد تسربت غربا وبدأت تتألق بعد أن سيطر الهلاليون على تراث القيروان فظهرت أهمية مدن المغرب الاقصى كفاس واغمات وسبتة وغيرها .

وقد تمكنت القبائل الهلالية بفضل الحضارة الاسلامية العربية والتى أصابت منها بعض الشئ وبفضل هذا التنوع فى الحياة الاجتماعية وهذه الرابطة الاسرية الوثيقة من أن تكتب لنفسها فى المغرب تاريخا مجيدا فقد استطاعت هذه القبائل بعد تحالفها مع بنى زيرى وبنى حماد وزناتة أن ترفع لواء الاسلام والعروبة فى صحراء المغرب وسواحله وأن تعمل على حمل لواء الاسلام واحياء الدين فى كل بقاع رحل ووصل فيها بنى هلال وبنى سليم، لكن رغم ما قامت به من نشر الاسلام وما أصاب افريقية على يديها وانتهاء القيروان كحاضرة سياسية وثقافية للمغرب وأصيبت دولة بنى زيرى بنكسة خطيرة وليس اسقاط نظام حكمها، الا أن هذه القبائل لم تنجح فى اقامة دولة واحدة قوية تأخذ من الحضارة الاسلامية بالسهم الوافر والعطاء المتواصل، كذلك فان قبائل زناتة تتحمل الوزر الاكبر فى تاريخ المغرب بما عرفت من هذا اللون فى الحياة غير المستقرة فلم نؤسس دولة ناجحة مستقره فى القرن الخامس الهجرى بل عرفوا بالجفوة والغلظة والشدة وكراهية الاستقرار (اذن فلم ينسب كل شئ للعرب الهلالية) وكانت ذات طابع بدوى معروف واذن فهى تشارك بنو هلال فيما أصاب المغرب. بل ان الولايات والامارات التى أقامتها زناتة فى ظل الظروف السائدة فى المغرب تفوق عددا عن التى أقامها العرب الهلالية فلم يتحمل العرب ما قيل انه حدث من خراب أصاب افريقية على يديها، ألم يكن بنو خزرون وبنو مغاوة وبنو يقرن قبائل بربرية زناتية أم كانوا قبائل عربية يا أعداء العرب والعروبة؟ ألم تكن قبائل المغرب متفرقة الكلمة مبعثرة السلطان حتى قدر لها أن تتحد فيما بعد القرن الخامس الهجرى وهل دخل الهلالية افريقية الا فى منتصف القرن الخامس الهجرى .

لقد كانت القبائل الهلالية دافعا لان يستعيد المغرب والبربر الملثمون وحدتهم ويشدوا مكانتهم نحو أهداف سياسية. كان العرب الهلالية عامل وحدة فتوحدت البربر فى ظل دولة المرابطين والموحدين، ألم تكن زناتة تكره الاستقرار وتمثل أكبر عقبة فى سبيل اقامة نوع من الحكومة المنظمة فهم فى هذه الناحية أكثر تشبها بعرب بنى هلال الذين قوضوا بناء الدولة الزيرية الصنهاجية وأخفقوا فى اقامة نوع من الوحدة بل أقاموا امارات متنازعة متنافرة ولم يستطع الهلاليون اذن أن يوجدوا نوعا من الوحدة بين سكان السهول أهل الاستقرار والبدو أصحاب المناطق الوعرة انما أفلحوا فى اقامة امارات تتسم بالعنف والقسوة وهذا عكس ما حدث فى افريقية فى عهد بنى زيرى الذين أفلحوا فى اقامة نوع من التعاون الوثيق بين السهول والهضاب ومكنوا للحضارة الاسلامية أن تؤتى ثمارها ويرعرع نباتها، فلما أغار العرب الهلالية على هذه البلاد انقلبت الحياة الاقتصادية رأسا على عقب وشاع الاضطراب فى الحياة الاقتصادية فى افريقية ونقصت التجارة بين افريقية وبلاد السودان وكان من نتيجة ذلك أن اشتد الغلاء فى البلاد وانقطعت الموارد وكثر الخوف وتبدل الرخاء بالشدة فاتصل الجوع والغلاء وانعدمت الاقوات بعد أن قوضوا صرح الدولة الزيرية Delachapelle (أقوال غربية المؤرخ وبدأوا يطرقون أبواب المغرب الاوسط ويهددون دولة بنى حماد لان هذه البلاد اذ ذاك كانت قد تمزقت وحدتها (بنى زيرى– بنى حماد) وأصيبت صنهاجة بسبب غزو بنى هلال بأضرار جسيمة بل ان كاتبا غربيا آخر (مارى ميخائيل، المكتبة الصقلية) يحمل العرب وزر سقوط صقلية فيقول ان ظهور النورمان فى جنوب ايطاليا قد دفعهم إلى التشوق إلى السيطرة على صقلية وانتهاز فرصة انشغال بنى زيرى فى ذلك الوقت بما دهاهم من غارات العرب الهلاليين وبدأوا ينتزعون مدن صقلية من أيدى المسلمين ولم يجد الصقليون دولة اسلامية قوية تغيثهم من هذه المحنة الشديدة فتم للنورمان الاستيلاء على صقلية نهائيا عام ٤٨٤هـ .

قد تسربت غربا وبدأت تتألق بعد أن سيطر الهلاليون على تراث القيروان فظهرت أهمية مدن المغرب الاقصى كفاس واغمات وسبتة وغيرها .

وقد تمكنت القبائل الهلالية بفضل الحضارة الاسلامية العربية والتى أصابت منها بعض الشئ وبفضل هذا التنوع فى الحياة الاجتماعية وهذه الرابطة الاسرية الوثيقة من أن تكتب لنفسها فى المغرب تاريخا مجيدا فقد استطاعت هذه القبائل بعد تحالفها مع بنى زيرى وبنى حماد وزناتة أن ترفع لواء الاسلام والعروبة فى صحراء المغرب وسواحله وأن تعمل على حمل لواء الاسلام واحياء الدين فى كل بقاع رحل ووصل فيها بنى هلال وبنى سليم، لكن رغم ما قامت به من نشر الاسلام وما أصاب افريقية على يديها وانتهاء القيروان كحاضرة سياسية وثقافية للمغرب وأصيبت دولة بنى زيرى بنكسة خطيرة وليس اسقاط نظام حكمها، الا أن هذه القبائل لم تنجح فى اقامة دولة واحدة قوية تأخذ من الحضارة الاسلامية بالسهم الوافر والعطاء المتواصل، كذلك فان قبائل زناتة تتحمل الوزر الاكبر فى تاريخ المغرب بما عرفت من هذا اللون فى الحياة غير المستقرة فلم نؤسس دولة ناجحة مستقره فى القرن الخامس الهجرى بل عرفوا بالجفوة والغلظة والشدة وكراهية الاستقرار (اذن فلم ينسب كل شئ للعرب الهلالية) وكانت ذات طابع بدوى معروف واذن فهى تشارك بنو هلال فيما أصاب المغرب. بل ان الولايات والامارات التى أقامتها زناتة فى ظل الظروف السائدة فى المغرب تفوق عددا عن التى أقامها العرب الهلالية فلم يتحمل العرب ما قيل انه حدث من خراب أصاب افريقية على يديها، ألم يكن بنو خزرون وبنو مغاوة وبنو يقرن قبائل بربرية زناتية أم كانوا قبائل عربية يا أعداء العرب والعروبة؟ ألم تكن قبائل المغرب متفرقة الكلمة مبعثرة السلطان حتى قدر لها أن تتحد فيما بعد القرن الخامس الهجرى وهل دخل الهلالية افريقية الا فى منتصف القرن الخامس الهجرى .

لقد كانت القبائل الهلالية دافعا لان يستعيد المغرب والبربر الملثمون وحدتهم ويشدوا مكانتهم نحو أهداف سياسية. كان العرب الهلالية عامل وحدة فتوحدت البربر فى ظل دولة المرابطين والموحدين، ألم تكن زناتة تكره الاستقرار وتمثل أكبر عقبة فى سبيل اقامة نوع من الحكومة المنظمة فهم فى هذه الناحية أكثر تشبها بعرب بنى هلال الذين قوضوا بناء الدولة الزيرية الصنهاجية وأخفقوا فى اقامة نوع من الوحدة بل أقاموا امارات متنازعة متنافرة ولم يستطع الهلاليون اذن أن يوجدوا نوعا من الوحدة بين سكان السهول أهل الاستقرار والبدو أصحاب المناطق الوعرة انما أفلحوا فى اقامة امارات تتسم بالعنف والقسوة وهذا عكس ما حدث فى افريقية فى عهد بنى زيرى الذين أفلحوا فى اقامة نوع من التعاون الوثيق بين السهول والهضاب ومكنوا للحضارة الاسلامية أن تؤتى ثمارها ويرعرع نباتها، فلما أغار العرب الهلالية على هذه البلاد انقلبت الحياة الاقتصادية رأسا على عقب وشاع الاضطراب فى الحياة الاقتصادية فى افريقية ونقصت التجارة بين افريقية وبلاد السودان وكان من نتيجة ذلك أن اشتد الغلاء فى البلاد وانقطعت الموارد وكثر الخوف وتبدل الرخاء بالشدة فاتصل الجوع والغلاء وانعدمت الاقوات بعد أن قوضوا صرح الدولة الزيرية Delachapelle (أقوال غربية المؤرخ وبدأوا يطرقون أبواب المغرب الاوسط ويهددون دولة بنى حماد لان هذه البلاد اذ ذاك كانت قد تمزقت وحدتها (بنى زيرى– بنى حماد) وأصيبت صنهاجة بسبب غزو بنى هلال بأضرار جسيمة بل ان كاتبا غربيا آخر (مارى ميخائيل، المكتبة الصقلية) يحمل العرب وزر سقوط صقلية فيقول ان ظهور النورمان فى جنوب ايطاليا قد دفعهم إلى التشوق إلى السيطرة على صقلية وانتهاز فرصة انشغال بنى زيرى فى ذلك الوقت بما دهاهم من غارات العرب الهلاليين وبدأوا ينتزعون مدن صقلية من أيدى المسلمين ولم يجد الصقليون دولة اسلامية قوية تغيثهم من هذه المحنة الشديدة فتم للنورمان الاستيلاء على صقلية نهائيا عام ٤٨٤هـ .

ويواصل كتاب الغرب تجنيهم على عرب بنى هلال ومن ذلك ما ذكره مارسيه Marcais فى كتابه العرب والبربر منذ القرن الحادى عشر حتى الرابع عشر الميلادى ص ١١٦ قوله (لقد غزا عرب بنى هلال افريقية وخربوا القيروان ونالوا من الحضارة (دون ذكر اسلامية) وقوضوا ملك بنى زيرى ثم طرقوا أبواب المغرب الاوسط وهددوا الدولة الحمادية وكان من الممكن أن يتجاوزوا المغرب الاوسط إلى المغرب الاقصى فيمثلون فيه نفس الدور ويعيثون فيه فسادا، كما عاثوا فى افريقية من قبل لولا قيام دولة المرابطين وبسط نفوذها على المغرب الاوسط ووصلتها حامية قوية فى تلمسان استطاعت أن تجنب المغرب الاقصى شر بنى هلال، وقد أدى كفاح المرابطين من أجل السيادة على المغرب الاوسط وعملهم عل مدافعة بنى هلال إلى اصطدامهم ببنى حماد أصحاب القلعة لان بنى حماد لم ينظروا إلى توسع المرابطين فى المغرب الاوسط نظرة الارتياح والرضا، فاستعانوا بعرب بنى هلال وأغاروا على المغرب الاوسط لانتزاعه من المرابطين (لاحظ دور العرب فى الدفاع والمسالمة والالتحام مع حكام وسكان البلاد التى يعيشون فيها ولم تكن علاقتهم علاقات تنافر لما اتحدوا وتعاونوا مع بنى حماد ضد المرابطين لانهم كانوا يرون أن أوطانهم فى ذلك الوقت هى المغرب الادنى والاوسط ومن ثم لابد من المشاركة فى الدفاع عن حدود الدول التى يقطنون فيها .

ويذكر ابن الاثير فى الكامل ان بنى زيرى نظرا لوجود بنى هلال رغم الجهود التى بذلها تميم بن المعز وابنه يحيى فقد أخفقوا فى تأمين الطرق البرية وكان بنو حماد أصحاب القلعة فى وضع تجارى أفضل من بنى زيرى لما صالحوا العرب الهلالية عليه فى نصف غلة بلادهم Mastatrie كتاب غربى فرسى يتحدث عن عرب بنى هلال فى افريقية فى العصور الوسطى ويضيف فرية من فريات الغرب ضد بنى هلال هل من المعقول أن تتازل الدولة عن نصف خراجها لبنى هلال؟ : بل يضيف كاتب آخر أن

العرب الهلالية قد عاشوا فى الاراضى الزراعية وفى الملكيات الخاصة عباث النار فى يبس العرفج وكثر استقلال أرض الآخرين ظلما .

وهكذا كانت افريقية والمغرب الاوسط فى صراع متواصل مع عرب بنى هلال وبنى سليم حتى ظهر المرابطون فى القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الهجرى، تاركين النصف الشرقى من بلاد المغرب لاخوانهم من بنى زيرى وبنى حماد الصنهاجيين ومنافسيهم من القبائل العربية الهلالية الزاحفة وعلى هذا يمكن القول انه بعد أن تمكن عرب بنى هلال من زعزعة ملك بنى زيرى بافريقية وهددوا ملك الحماديين فقد تطلعوا إلى المغرب الاوسط لكن قيام دولة المرابطين وحاميتها القوية المستقرة في تلمسان جنب المغرب الاقصى إلى حين مصير افريقية وشر القبائل العربية (أقوال Marcais) .

لكن الغزوة الهلالية قد تركت آثارها على النواحى السياسية فى المغرب الادنى والاوسط شرق الجزائر، فلقد كان من النتائج السياسية للغزوة الهلالية لهذه الديار أن تمكن بعض هؤلاء العرب من زيادة سيطرتهم على هذا الاقليم واخضاع بعض الاراضى والمدن كما سبق القول وتحويلها إلى شكل سياسى وصل إلى حد اقامة الامارة وتكوين أسرة حاكمة وظهرت عدة امارات عربية في افريقية (المغرب الادنى) وقد اختلفت هذه الامارات العربية فى وجودها من حيث اقترابها من الشكل المتعارف عليه للدولة ونجحوا فى تنمية هذه الامارات العربية وفى تشييد العمران وضرب السكة باسم أميرها واتخاذ حواضر صغيرة لهم مزدهرة بالقصور والبساتين والعمارة .

بل انه كما سبق القول أن الزحف الهلالى قد قدم خدمة جليلة وكبرى للمغرب الاسلامى وحفظ وجوده من استمرار النزاع والصراع القبلى فقد أضعف هذا الزحف

الهلالى وجموع قوى قبائل زناتة التى كانت تحاول اثارة المشاكل والصراعات وبسط سيادتها بالعنف والقوة وتخريب المدن والاغارة المستمرة على الدول المستقرة بصورة متواصلة، ثم ان الهلاليين انتشروا فى كل ناحية من نواحى البلاد الممتدة حتى المغرب الاقصى وسكنوا السهول والوديان والجبال وقمم التلال والسواحل وبسطوا لواء العروبة فى شتى أنحاء المغرب وأقاموا لهم الدويلات الصغيرة (الامارات) .

الفصل الرابع

الامارات العربية

كان من أثر الزحف الهلالى إلى افريقية وتحرك بنى زيرى للقيروان حاضرة ملكهم وتمكن العرب من بعض المدن أن ظهرت عدة امارات عربيه مارست دورها فى الحياة التونسية ومن أشهر هذه الامارات التى لعبت دورا بارزا فى الحياة السياسية امارة بنى جامع الهلالية فى قابس فقد تمكن بنو جامع من احكام سيطرتهم على المدينة وحكموها حكما وراثيا وأنشأوا الاساطيل وظهرت لهم انجازات حضارية .

امارة قابس وبنى جامع :

تقع قابس على بعد ثلاثة أميال من البحر وهى على بعد مسيرة أربعة أيام من القيروان ويسكنها أخلاط من العرب والعجم والبربر وقد حافظ العرب الهلاليون على جمال المدينة وحسنوها وزادوا فيها (البكرى) وهذه شهادة على حضارة العرب وتعميرهم المدن وليس تخريبها، وقد كانت قابس فى زمن حكم الفاطميين تحت حكم بنى نعمان الكتاميين (نسبة إلى قبيلة كتامة البربرية) فلما وصل الفاطميون إلى مصر زالت سيطرة كتامة على المدينة وأصبح الولاء من بنى زيرى الصنهاجية وظلت قابس حتى أوائل النصف الثانى من القرن الخامس فى حوزة بنى زيرى. وكان ولاة المدينة يعينون من قبل المعز بن باديس وحدث نوع من الاهمال فى شئون القيادة العسكرية مما اضطر المعز إلى عزل أحد قواد جيشه وأخيه من رتبتهما وحبسهما وكان أخوهما الثالث هو والى قابس فأعلن حاكم المدينة الطاعة والولاء للامير العربى (مؤنس بن يحيى الرباحى الهلالى) وظلت قابس عربية يحكمها مؤنس بن يحيى الرباحى .

وكانت امارة صغيرة تحكمها أسرة جامع بنى دهمان من بنى على احدى بطون

رياح التى أقامت امارتها ونجحت فى جعلها حاضرة صغيرة مزدهرة مليئة بالقصور والبساتين والعمائر ففى عهد رافع بن مكى بن كامل بن جامع الهلالى تم اختطاط بحر العروسين. وقد ذكر التيجانى أن أهل قابس ينسبون بناء بحر العروسين لرشيد بن رافع بن جامع وقد أضاف التيجانى انه رأى على بعض أبواب القصر نقشا على الحجر نصه (أمر بعمل هذا الباب الامير الشهم رافع بن أمير الامراء مكى وفى بعض المصادر بكر بن كامل بن جامع فى رجب عام ٥٠٠هـ والمعز بن باديس ترك القيروان عام ٤٤٩هـ) والعرب يعمرون المدن عام ٥٠٠هـ فلماذا التجنى على العرب بالتخريب والتدمير، بل ان ابن خلدون يؤيد رواية التيجانى معتمدا على وجود هذا النقش حتى أيامه .

وضربت باسم أميرها الرشيد السكة (العملة) الرشيدية وقد أتاح لها موقعها الجغرافى فى أن تتمتع بمميزات المدينة البحرية والصحراوية فى آن واحد. مما سمح لبنى جامع ببناء السفن وانشاء علاقات تجارية بحرية مع جيرانهم. وقد عملت الدولة الزيرية بالحاح للقضاء على هذا النشاط التجارى نظرا لاحتكارها للتجارة الخارجية وبناء الاسطول التجارى البحرى .

ولكن هذه الامارة كانت محل هجوم بنى زيرى للاستيلاء عليها فقد حاول تميم بن المعز استردادها عام ٤٧٤هـ ولكنه فشل فعاود الهجوم عليها مرة ثانية عام ٤٧٩هـ وكانت المحاولة الثانية كالسابقة وكان أهل قابس قد ولوا عليهم عمر بن المعز بن باديس شقيق تميم وكانت ولاية العهد التى أخذها المعز لابنه تميم قد جعلت عمر بن المعز هذا يثور على أخيه ويستقل بأمر قابس وصفاقس ودخل مع تميم فى حروب كثيرة وشجع الثوار العرب على قتال الدولة. وهذا جعل تميما يعمل على الاستيلاء على قابس وقد نجح فى ذلك عام ٤٨٩هـ واستردها من أخيه عمر، لكن قابس عادت إلى

طاعة العرب مرة أخرى فحكمها مكى بن كامل بن جامع وبنوه من رياح بنى هلال واستمرت فى قبضتهم إلى أن استولى عليها الموحدون بل ان مكى بن جامع لم يكتف بحكم قابس بل قام بمهاجمة المهدية عاصمة بنى زيرى وحاول أخذها من تميم وتولى رافع بن مكى حكم المدينة بعد أبيه وذلك فى زمن تميم بن المعز وتمت المصالحة بين يحيى بن تميم ومكى الهلالى وظل الصلح ساريا حتى تولى أمور بنى زيرى السلطان على بن يحيى بن تميم وأراد ايقاف خطر رافع الهلالى والحد من تطور قوته، فأرسل على بن يحيى بن تميم الصنهاجى فى عام ٥١١هـ/ ١١٢٧م أسطوله لقطع الطريق على سفن بنى جامع التجارية والاستيلاء عليها فى البحر وهى عائدة من تجارتها مع صقلية وبلاد جنوب ايطاليا، وفى نفس الوقت أرسل أحد أمراء العرب وهو خليفة بن ميمون بن زياد الصخرى لحصار رافع بن مكى والقضاء عليه فى امارته لكن ابن زياد نجح فى التوفيق بين رافع وبنى زيرى واستمرت امارة بنى جامع فى قابس حتى دخول الموحدين افريقية .

لكن عليا بن يحيى بن تميم كان قد نجح فى تحطيم أسطول رافع. وكادت هذه الحادثة البحرية تؤدى إلى صدام بين أسطول بنى زيرى وأسطول صقلية حيث ان الاسطول الزيرى هاجم الاسطول الصقلى الموجود فى مياه قابس ودمره (التيجانى) وبعد انتصاره على أسطول صقلية عام ٥١١هـ حاصر قابس بحرا فاضطر رافع إلى ترك المدينة ولجأ إلى القيروان وكانت تحت سيطرة العرب، واتفق أبناء عمومته على تولية حكم القيروان، لكن بعد عودة على بن يحيى إلى المهدية لمحاولة السيطرة على قابس من جديد تمكن على بن يحيى من مطاردة رافع إلى القيروان حيث لجأ رافع إلى أبناء عمومته الذين ساعدوه وقدم بنو دهمان المساعدة لرافع. وبادر السلطان على بن يحيى ابن تميم بمحاصرة القيروان مما أجبر رافع إلى التسلل منها لبيلا واللجوء إلى قابس،

لكن فى النهاية تم الصلح بين رافع والسلطان على ولم يعد رافع لحكم المدينة لكن تولى حكمها حمزة عم رافع عام ٥١١هـ. ويبدو ان بنى جامع الهلاليين كانوا يخضعون للتبعية الحقيقية لبنى زيرى فيما عدا بعض الفترات كانوا يستقلون استقلالا تاما. وقد ظهرت مقاومات الاسرة الحاكمة لبنى جامع فى قابس وأصبح لهم وزراء ومستشارون وجيش وأسطول وسكة وانجازات معمارية وثقافية وظل العرب الهلاليون يحكمون قابس منذ عام ٤٧٤هـ حتى ٥٥٥هـ عندما أخذ الموحدون قابس ومما يؤخذ على رافع بن مكى انه راسل (روجار الثانى) حاكم صقلية يسأله المساندة البحرية والاعانة على السلطان على بن يحيى الذى منعه من أكمال أسطوله التجارى، ووعده روجار الثانى بأن ينصره على السلطان على بن يحيى وجاء الاسطول الصقلى إلى ميناء قابس، لكن أسطول السلطان الزيرى باغت أسطول روجار الثانى الذى لاذ بالفرار بعد أن قتل المسلمون جماعة كبيرة من جند صقلية. ولقد كان انتصار على بن يحيى من أشد الاسباب فى العداوة بين روجار وعلى بن يحيى وابنه الحسن بن على .

بل انه يذكر انه فى زمن حكم الحسن بن على وفى عام ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م اغتصب الحكم فى قابس أحد الافراد من غيرة أسرة بنى جامع فاستنجد أميرها معمر بن رشيد من أسرة بنى جامع بالامير الحسن الزيرى بينما استنجد مغتصب الحكم بالنورمان فى صقلية وقام السلطان الحسن باحتلال قابس واعدام مغتصب الحكم مما أتاح الفرصة لروجار الثانى لخرق صلحه مع الامير الحسن واحتل أسطول نورمانى بقيادة جورج ميخائيل الانطاكى مدينة المهدية عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م .

بعض الامارات العربية الصغيرة :

يذكر ابن خلدون فى كتابه العبر أن العرب من بنى الورد اللخمبون تمكنوا من اقامة امارة عربية بمدينة بنزرت تمتعت بحماية جيرانهم من عرب بنى مقدم من الاثيج

ودهمان من رباح وقد نجح أمراؤها فى تنمية موارد المدينة وتشييد العمران بها حتى قصدهم الشعراء لمدحهم وفي نفس الوقت عمل أمراء بنى حماد بالقلعة على القضاء عليهم ولكنهم تمكنوا من المقاومة والاحتفاظ بحكم بنزرت بفضل معاونة أبناء عمومتهم من عرب دهمان (جامع فرع من دهمان) حتى دخول الموحدين إلى افريقية واستمرت امارتهم تخضع لحكم الموحدين .

وكذلك أقام بنو هلال من عرب قيس امارة عربية شملت وادى مجردة وشمال تونس واتخذوا طبرقة عاصمة صغيرة لهم وأقاموا بها الحصون للسيطرة على التجارة بين الاندلس وامارتهم نظرا لاهمية موقع طبرقة البحرى والتى كانت مرسى لاهل الاندلس اليها ينتهون ومنها إلى الاندلس يبحرون بتجارتهم وقد اشتهرت طبرقة بكثرة ورود المراكب بالتجار الاندلسيين ونزولهم فيها ونافسهم فى السيطرة على هذه الامارة عرب لخم الذى تمكن بمساعدة عرب رباح من السيطرة على وادى مجردة شمال تونس والاستقلال به مما اضطر بنى هلال إلى التحالف مع جيرانهم من عرب بنى غفوش للمحافظة على كيانهم والقضاء على عرب اللخميين وقد أدى ذلك إلى اضعاف امارة بنى هلال .

وقد تمكن عرب سهل تونس من قطع الطريق على تجارتها والاغارة على مدينة تونس وفرض حمايتهم عليها واستقرار بعضهم بها حيث صاهروا أهلها واندمجوا بالمدينة.

كذلك فان العرب الهلالية سيطروا على مدينة سوسة لبعض الوقت وتقع سوسة على سفح جبل على جنوب شرقى تونس وتمتاز بكثرة خيراتها وكانت سوسة قد خرجت على حكم بنى زيرى عام ٤٤٥هـ بعد معركة حيدران الا أن تميم بن تميم بن المعز استطاع اعادتها للحكم الزيرى واخضاعها لسيطرة الدولة بعد أن كان قد

تكون بها مجلس شورى يحكمها. وبعد عشر سنوات من الاستقلال أعيدت فى عام ٤٥٥هـ ويبدو أن العرب قد تمكنوا من سوسة بعد هذا التاريخ، ذلك ان التيجانى يقول ان العرب الهلالية ملكوها وانتزعوها من أيدى صنهاجة لكنه لم يحدد التاريخ الذى أخضع فيه العرب سوسة لحكمهم، لكن مالك بن علوى أحد أمراء العرب حاول عام ٤٨٢هـ اخضاع سوسة لكن تميم بن المعز صده عنها وطرده منها وهرب إلى الصحراء. لكن بعد وفاة تميم عام ٥٠١هـ تمكن العرب الهلالية من اخضاع المدينة وظلوا يحكمونها إلى أن سقطت فى أيدى نصارى صقلية بعد أن سقطت المهدية عاصمة بنى زيرى وسائر مدن الساحل فى أيديهم وظلت كذلك إلى أن قدم الموحدون حيث رحل شيوخها إلى عبد المؤمن بن على امام الموحدين وطلبوا منه دخول المدينة واخضاعها وأعطوه عهدا بالولاء والطاعة .

ويذكر الادريسى أن العرب من لخم قد أسسوا امارة عربية فى رقطون من اقليم زغوان وكان قد أسسها حماد بن خليفة وظل أبناؤه يتوارثونها من بعده واشتهرت بالخصب وتربية المواشى والاغنام والابقار واستمرت بفضل حماية العرب لها إلى فتح الموحدين افريقية فقضوا على استقلال هذه الامارة .

العرب فى القيروان :

يظن كثير من الذين لم يتعمقوا فى دراسة تاريخ دولة بنى زيرى أن مغادرة السلطان المعز بن باديس للقيروان عام ٤٤٩هـ ومغادرتها إلى المهدية أن المدينة قد خضعت لسيطرة وحكم العرب والحقيقة التاريخية غير ذلك تماما ذلك ان المعز قبل مغادرته المدينة قد عين عليها واليا من قبله يتسم بالقسوة والقوة ويدعى (قائد بن ميمون الصنهاجى) وان المدينة كانت تحكم باسم المعز وتحت سيطرته عليها والى من قبله وان العرب قد أثاروا بعض المتاعب فقط، المصادر التاريخية تذكر أن العرب لم يكن

لهم أدنى حكم بالمدينة ولا ادارة ولا تنظيم ولا أدنى مظهر من مظاهر الحكم والسيطرة اللهم الا الانتشار فى أنحاء المدينة لكن بعد عام ٤٥٤هـ ووفاة المعز زادت سيطرة العرب وقويت شوكتهم بالمدينة. لكن تميم بن المعز وقد كان حريصا على وحدة بلاده ورأى ضرورة المحافظة على توازن القوى داخل المدينة، أسرع إلى قوات وجند كثيف وأعاد السيطرة عليها وحفظ النظام وأقام المراقبة والحراسة على أبواب وأبراج المدينة بل ان العرب كانوا يغادرون المدينة ليلا عندما يتم لهم البيع والشراء وأرسل تميم بن المعز مزيدا من العون العسكرى والعتاد وجهز جيشا ضخما بقيادة والى القيروان الصنهاجى، لكن الوالى الصنهاجى خان أمانة الحكم وغدر بسيده وفر إلى القلعة عاصمة بنى حماد ولحق بالناصر بن علناش الصنهاجى وأعلن ولاء القيروان له وهكذا ظلت القيروان لفترة من الوقت تتنازعها السلطة الزيرية والحمادية، لكن كانت تبعية اسمية لبنى حماد .

فقد كان العرب ينتشرون بها ويسيطرون عليها لكن زغبة كانت لها السيادة على القيروان منذ عام ٤٦٦هـ لكن زغبة خرجت من افريقية بعد أن اضطرتها رباح إلى ذلك لكن فى عام ٤٧٦هـ عاد العرب للسيطرة على القيروان مرة ثانية ذلك لان مالك ابن علوى عندما فشل فى أخذ المهدية اضطر للعودة إلى القيروان وتوجه اليها بمن معه من العرب ونجح فى أخذها لكن تميم بن المعز تمكن من طرده منها فى نفس العام .

وللحقيقة فان العرب لم يتمكنوا من السيطرة الكاملة على المدينة وانها تقترب من وجودهم فى سوسة ومن هنا يمكن القول بأن العرب كان لهم وجود ما على القيروان لكن لم تكن لهم السيطرة الكاملة أو الفعلية، بل كانت سيطرة وقتية سرعان ما تزول بقدوم القوات، فأين الذين خربوا ودمروا المدينة وكيف كان يحكم الوالى الصنهاجى وكيف كان الصراع يدور بين بنى زيرى وبنى حماد على حكم المدينة هل

الصراع يدور حول حكم مدينة خربة أم مدينة كاملة المرافق يا ابن خلدون .

العرب فى اقليم الزاب :

الزاب اقليم كبير عاصمته مدينة بسكرة وهو يمتد من قصر الدوسن غربا إلى قصر باديس شرقا ويشتمل على العديد من القرى. وقد عمل العرب الهلالية من بنى مزنى على اتساع اماراتهم فأصاقوا إلى امارة الزاب بلاد التل والمسيلة وجبال أوراس وور كلى .

وقد استقر بنو مزنى بقرى الزاب وما جورها من بربر زناتة وبقايا عرب الفتح حيث اتخذوا الفلاحة حرفة لهم. ويزعم بنو مزنى انهم من عرب فزارة وكانوا من أشهر القبائل العربية التى انتقلت إلى افريقية أحلافا لقبائل بنى هلال فى القرن الخامس الهجرى. لكن ابن خلدون نسبهم إلى لطيف من عرب الاثيج حيث يصل نسبهم مسلسلا إلى جدهم نعمان بن خليفة بن لطيف من عرب الاثيج وقد اعتمدوا فى استمرار امارتهم بعد سيطرتهم على بسكرة والزاب على محالفة الزواودة زعماء عرب رباح كفرسان يحمون الامارة بسيوفهم وقد ظلوا يحكمون تلك الاقاليم حتى قدوم الموحدين إلى افريقية حيث استقروا فى قرية حناس احدى قرى بسكرة ثم انتقلوا إلى المدينة لكن تم طرد بنى مزنى من المدينة حيث طردهم بنو رمان البربر فى أواخر عهد الدولة الموحدية وهكذا فقد العرب نفوذهم فى اقليم الزاب وبسكرة .

لكن هناك أقوالا تذكر ان امارة بسكرة تمكنت من المحافظة على استقلالها الذاتى عن العون الذى أمده بها عرب رباح والاثيج حتى فترة طويلة من حكم الموحدين .

عرب سليم فى قفصة :

كانت قفصة تخضع لحكم عبد الله بن محمد بن الرند من قبل المعز بن باديس لكنه عندما رأى ما حل بالدولة الزيرية فانه أعلن الاستقلال والانفصال وصالح العرب وخلع الطاعة لبنى زيرى عام ٤٤٥هـ كما خضعت له سائر أعمال توزر، نغراوة، الحامة .

لكن العرب من بنى سليم وهم بنو العابد الذين ينتسبون إلى قبيلة بلى العربية من بطون سليم وقد آلت اليه أمور قفصة بعد تحول أمر المدينة إلى نظام الشورى نظرا لان بنى العابد هؤلاء كانوا أقوى عصبية عربية بالمدينة لكن قدوم قوات الموحدين جعلت بنى العابد يفرون إلى قابس وتركوا أهل المدينة يعلنون الطاعة للموحدين بعد أن حشد عبد المؤمن بن على كافة جيش الموحدين البالغ أكثر من ثلاثين ألف جندى وفارس .

وهكذا نرى أن العرب رغم فشلهم فى تكوين حكومة مركزية موحدة واقامة كيان سياسى فى بلاد المغرب الادنى والاوسط وعدم بلوغ هدفهم فى اسقاط بنى زيرى أو القضاء على قوتهم الا انهم نجحوا فى اقامة هذه الامارات السابق الاشارة اليها والتى كانت تعمل تحت لواء الدولة الدولة الزيرية وان كان لها الحكم الذاتى الذى يسمح لها بالخضوع لسيادة الحكومة المركزية فى المهدية، الا أن بعضا من هذه الامارات كانت تحاول أن تخرج عن نطاق الحكم الذاتى المحلى لتنطلق إلى علاقات خارجية أوسع مع الاندلس أو البلاد الاوربية كصقلية وجنوب ايطاليا ومن هنا كان حكام المهدية يتصدون لها كما فعل السلطان على بن يحيى بن تميم مع رافع بن مكى من بنى جامع وحطم أسطوله وأسطول روجار الثانى صاحب صقلية فى قابس .

وعلى هذا فانه يمكن القول ان هذه الامارات لم تكن لها من النفوذ والسيطرة

الا حكام أقاليم معترف بحكمهم من قبل الدولة ولم يكن لهم حق التعامل الخارجى بل ان الدولة عندما كانت تحس منهم قوة كانت تتصدى لهم وتقاتلهم. اضافة إلى أن الحكم لم يكن مستمرا، وانهم كانوا يتوزعون بين الولاء لبنى زيرى وبنى حماد كما كان بنو خراسان يحكمون تونس من قبل بنى حماد واستقلوا بحكمها ولم تشأ التعرض لها كولاية مستقلة حيث ان حكمه لم يكن ليدوم الا بعضا من السنين .

وهكذا نرى ان العرب الهلالية اذا كانوا قد فشلوا فى تحقيق كيان سياسى كبير مستقل على انقاض دولة بنى زيرى الا انهم نجحوا كل النجاح وحققوا طفرة حضارية كبيرة بكل المقاييس على صعيد المغرب الاسلامى والحق يقال أن الغزوة الهلالية كان لها صدى حضارى وثقافى وعمرانى واجتماعى وسكانى بعيد المدى على الاصعدة المختلفة من جوانب الحياة وهذا ما سنذكره فى فصول لاحقة .

الفصل الخامس

بنى هلال والنورمان والموحدين

سيطر بنو زيرى على ساحل افريقية البحرى الممتد من سوسة إلى قابس ونازع العرب الهلالية السلطة الحكومية مناطق الداخل كتونس والقيروان والزاب وبلاد الجريد وغيرها واستقل بها أمراء صغار منهم وفى أثناء الصراع استولى النورمان على صقلية عام ٤٨٤هـ وفى هذه الاثناء ساءت أحوال سلطنة بنى زيرى وازداد ضعفها ولم يلبث النورمان أن استولوا على المهدية حاضرتهم عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م كما احتل النورمان فى نفس العام مدن سوسة وصفاقس وقابس وفى عام ٥٤٨هـ. ١١٥٣م احتلوا أيضا مدينة بونة (عنابة) .

وكان الحسن بن على عندما دخل النورمان المهدية يحارب العرب خارج المدينة وقد صادفت حامية النورمان المهدية خالية من الحامية العسكرية لانشغالهم بقتال وحرب العرب فدخلوها واستولوا عليها .

ولما كان العرب قد أحسوا ان عدوهم النورمان قد استولوا على المدن الساحلية أخذوا يهاجمون هذه المدن محاولة منهم لطرد النورمان منها لكن العرب لم يكن لديهم الاسطول البحرى الذى يستطيع الوقوف أمام النورمان الذين كانت تأتى لهم المساعدات عبر البحر من صقلية ومالطة وجنوب ايطاليا، لذا فقد شيد النورمان أسوارا عالية للاحتفاظ بما احتلوا من مدن الساحل وحاولوا أن يهادنوا العرب وأن يبذلوا لهم الاموال حماية لهم الا أن العرب كانوا دائما يغيرون على النورمان عندما تتاح لهم الفرصة مما جعلهم يعيشون دائما فى شبه استنفار دائم ولم تكن تهنأ لهم معيشة فى ظل هجمات العرب المتواصلة عليهم .

أما بالنسبة للموحدين فقد سبق القول أن عرب الزحف الهلالى قد انتشروا قبل قيام الموحدين فى افريقية وفى عدة أجزاء من المغرب الاوسط وكان نفوذهم فى افريقية أكثر منه فى المغرب الاوسط وكانوا يتطلعون إلى مد نفوذهم إلى المغرب الاوسط ليكون لهم السيطرة عليه كما فى المغرب الادنى لكن قبل تحقيق هذا الهدف ظهرت دولة الموحدين فى المغرب الاقصى وانطلقت إلى مد سلطانها إلى المغرب الاوسط والادنى ونشا صراع بين العرب والموحدين استمر فترة طويلة من الزمن، لكن قدوم الفرنجة إلى بلاد المغرب وسيطرتهم على المدن الساحلية ومدنها جعلهما يتجهان إلى عدو مشترك ضد الفرنجة الذين قدموا من صقلية ثم ان العلاقة بين العرب والموحدين تأثرت بنشاط الفرنجة ضد المسلمين، عندما أعلن الخلفاء الموحدون الجهاد ضد نصارى الاندلس وسارع العرب إلى تلبية دعوة الموحدين متحدين معهم ضد أعداء الدين والمغرب .

وكان عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين (٥٢٤- ٥٥٨هـ/ ١١٣٠-١١٦٣م) عندما تمكن من القضاء على دولة المرابطين قد سعى لضم بلاد المغرب لدولته، ذلك لان الصراع الدائر بين القبائل العربية الهلالية والدولة الزيرية بشقيها فى القيروان والقلعة قد أدى إلى انحلال الدولة وان السلطة قد غدت فى السلطنة الزيرية تكاد تكون اسمية، وتمكن النورمان من الاستيلاء على بعض الثغور مثل صفاقس وسوسة وغيرها ثم المهدية وكما استقل شيوخ القبائل العربية كل بناحية يحكمها .

ووفى عام ٥٤١هـ/ ١١٤٦م. تحركت جيوش الموحدين إلى المغرب الاوسط بقيادة عبد المؤمن فقدمت عليه وفود عرب الاثيج وجشم مبايعة له وتم الاستيلاء على بجاية عاصمة بنى حماد وطرقت جيوش الموحدين أبواب افريقية، لكن عرب افريقية الهلالية الذين كانوا يحكمون ولايات صغيرة خشوا على استقلالهم الذاتى فتعاونوا مع صنهاجة واستغلوا الخلاف الذى دب فى صفوف الموحدين وانسحاب بعض قواتهم

فهاجموها وأسروا قائدها وقتلوه وحاصروا القيروان وقام العرب بقيادة موسى بن يحيى الرباحي بمهاجمة بجاية وتم الاستيلاء عليها وطرد الحامية الموحدية منها .

بلغ ذلك عبد المؤمن بن على فحشد قواته بقيادة ابنه عبد الله ضد العرب الهلالية حتى لم يبق معه الا الخاصة وبلغ جيش الموحدين أكثر من ثلاثين ألف رجل وفارس اذ اجتمعت القبائل العربية بافريقية من الاثيج ورباح وزغبة وبنى قرة وغيرها من القبائل العربية بالقرب من بجاية وتناسوا ما بينهم من عدوان وتحالفوا لمحاربة عبد المؤمن وضرورة طرده من افريقية وجمعوا جمعهم من نساء وأموال وارتحلوا اليه فى الميدان .

وأراد روجار الثانى صاحب صقلية أن يمدهم بخمسة آلاف فارس من النصارى ولكن العرب رفضوا وأجابوه بأنهم فى غنى عن نجدته ومساعدته اذ لا يستعان بكافر على قتال مسلم .

والتقى العرب الهلالية بالموحدين بالقرب من سطيف عام ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م وتمكن الموحدون من هزيمتهم بعد قتال دام أربعة أيام بلياليها .

ولما عاد عبد المؤمن بن على إلى افريقية عام ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م بجيوش من الموحدين وقبائل العرب وزناتة والاعزاز لمحاربة بنى خراسان وحلفائهم بنى على والذين سبق لهم ايقاع الهزيمة بجيوش الموحدين بقيادة عبد الله بن عبد المؤمن حول تونس، تمكن عبد المؤمن بسهولة من دخول المدينة ثم حاصر المهدية وأرسل ابنه لتصفية الامارات العربية التى تأسست وكانت تتمتع بالحكم الذاتى فى ظل وجود الدولة الزيرية المندثرة فاستولى الامير عبد الله بن عبد المؤمن على قابس من بنى كامل بن رباح وقفصة من بنى الورد وطبرقة من مدافع بنى علال وجبل زغوان من بنى خليفة، وشقبارية من بنى الكلاعى والاريس من بنى فتاتة العربى، وبنزرت من بنى الورد اللخمى، وافتتح جميع بلاد افريقية ودخلت فى طاعته المنطة الممتدة من برقة شرقا

حتى تلمسان غربا .

ثم أقسم زعماء وأمراء العرب وأحلفهم على مصحف عثمان بن عفان على السمع والطاعة والاشترك فى الجيوش الموحدية للجهاد فى الاندلس ولكنهم خذلوه بالقرب من وهران وطلبوا العودة إلى ديارهم فقرر عبد المؤمن نقل ألف من كل قبيلة بعيالهم إلى المغرب الاقصى من عرب رباح وبنى جشم وبنى عدى وكانوا من الكثرة، هادفا بذلك ابعادهم عن افريقية واستقرارهم بقرب عاصمته مستغلا شجاعتهم وحبهم للقتال للجهاد فى الاندلس .

ويبدو أن عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين قد تمكن من كسر شوكة القبائل العربية الهلالية بافريقية وأن انتصاره عليهم كان ساحقا .

دور بنى هلال فى الاندلس

عندما اشتد الزحف المسيحى من شمال الاندلس مكتسحا أمامه القوى الضعيفة المتخاذلة المنقسمة بين ملوك الطوائف التى ظهرت على أنقاض الخلافة الاموية فان بعضا من ملوك الطوائف الذين كانوا يتوجسون خفية دعوة المرابطين والاستنجاد بهم قد رأوا الاستنجاد بعرب بنى هلال لشجاعتهم وحميتهم على الدين الاسلامى والذين كانوا قد غزوا افريقية وبدأوا يتطلعون إلى المغرب الاوسط وكانوا على قرب من الاندلس وكان ملوك الطوائف قد عقدوا مؤتمرا فى قرطبة بعد سقوط طليطلة ليتدارسوا أحوال بلادهم وكانت فكرة دعوة بنى هلال للمشاركة فى الجهاد فى الاندلس لكن المعتمد ابن عباد ومؤيديه رفضوا فكرة الدعوة لبنى هلال ومن ثم كانت دعوة المرابطين. على أن ذلك لا ينفى أن العرب الهلالية كان لهم دورهم فى الكفاح فى الاندلس .

وذكر ابن الاثير أن الاندلسيين فكروا فى استدعاء القبائل الهلالية بعد سقوط

طليطلة لكن رأى أن استدعاء المرابطين قد انتصر فى هذا الاجتماع وقد أقدم المرابطون على تنفيذ هذه الفكرة ودعوة الهلاليين للاندلس للقتال معهم فهناك اشارات إلى أن بنى هلال قد اشتركوا مع المرابطين فى موقعتى كنشرة (٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م) وموقعة اقليش (٥٠١هـ/ ١١٠٨م) وغزوة ابن الحاج على برشلونة (٥٠٨هـ/ ١١١٤م) وكذلك شاركوا على بن يوسف بن تاشفين فى غزواته عام (٥١٣هـ/ ١١١٩م) وفى جيش تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين ٥٣٠هـ/ ١١٣٦م. كما كانوا معه حين هزم فى تلمسان وسقطت دولة المرابطين ويبدوا أن المرابطين لم ينجحوا فى الاستفادة من القبائل الهلالية كما فعل الموحدون. فقد نجح عبد المؤمن بن على فى استغلال القبائل الهلالية فى حفظ التوازن القبلى فى دولته بالاستعانة ببنى هلال وانشاء هيئة أشياخ العرب إلى جانب هيئة أشياخ الموحدين والاندلسيين .

وقد شارك عرب بنى هلال فى بطاح الزلاقة فقد استعان بهم يوسف بن تاشفين لما كان يضطرم فى نفوسهم من روح الحمية الاسلامية والتحمس للدين والتسابق للاستشهاد والرغبة فى الموت فى سبيل الله وتضافر الجهود لمدافعة الفرنجة ورد عدوانهم.

ويذكر الفتح بن خاقان فى كتابه قلائد العقبان ان المرابطين استعانوا بطائفة كبيرة من عرب بنى هلال الذين كانت تدفعهم حميتهم إلى الانخراط فى سلك المجاهدين طلبا للشهادة فى سبيل الله وكانت أعداد بنى هلال تعد بالآلاف وقد أشار ابن خاقان إلى أن أعراب بنى هلال شاركوا بدور فعال ورائع فى معركة الزلاقة .

واذ كان بنو هلال قد شاركوا المرابطين جهادهم فى الاندلس الا أن دور العرب فى العمليات الحربية التى خاضها الجيش الموحدى فى الاندلس كان أكثر فاعلية خصوصا انهم كانوا يتطلعون إلى الجبهة الاندلسية التى كانت تمر بظروف عصيبة .

ومن هنا فان القبائل العربية قد أسهمت بدور ايجابى فى السياسة الجهادية لبلاد

المغرب فى الاندلس فما أن استنجدت الاندلس ببلاد المغرب لمقاومة الغزو المسيحى بقيادة مملكة قشتالة حتى لبت فرسان القبائل العربية النداء للدفاع عن الاندلس وقد أشاد المؤرخون ببلاء الفرسان العرب فى موقعة اقليش عام ٥٠١هـ/ ١١٠٨م فى العصر المرابطى وفى موقعة الارك فى عام ٥٩١هـ/ ١١٩٥م فى العصر الموحدى وحتى عندما نجح القشتاليون فى الانتقام لهزيمة الارك وتمكنوا من هزيمة الموحدين فى معركة العقاب ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م كانت القوات العربية الهلالية آخر من ترك ميدان المعركة وقام بعض فرسانها بمعاونة الخليفة الناصر على الفرار، ثم فى عصر بنى مرين ازدادت مشاركة القبائل العربية فى الاعمال الجهادية بالاندلس اذ لم يقف دورهم عند الاشتراك فى الجيوش الحربية بل كانت جموعهم تشكل الجانب الاكبر فى الامدادات التى وصلت من المغرب إلى الاندلس ولم يقتصر دورهم فى العمليات العسكرية على تنفيذ ما صدر اليهم من أوامر عسكرية بل شاركوا بمشايخهم كمستشارين فى المجلس الحربى للسلطان المرينى لابداء الرأى حول الخطط العسكرية واقفال الطرق لملاقاة العدو. وفى خلال هذه العمليات العسكرية أسند إلى القبائل العربية حماية الممتلكات بالاندلس والدفاع عنها (مصطفى أبو ضيف أحمد: أثر العرب فى تاريخ المغرب) .

وكان الموحدون قد نقلوا اعدادا كبيرة من العرب الهلالية بجوار العاصمة وضمهم إلى جند الموحدين وخصصهم لحماية رعيته واستعان بهم فى غزو الاندلس وبعد ازدياد أعداد جنده بما انضم اليه من القبائل العربية جاز إلى الاندلس ومعه أعداد كبيرة من قوات بنى هلال وأقام بها شهرين مد نفوذ الموحدين خلالها إلى غرب الاندلس وجهز عبد المؤمن عرب المغرب الذين لبوا نداء الجهاد بالخيول العربيه الواردة من افريقية واجتمع له مائة ألف رجل أغلبهم من القبائل العربية وكذلك ثمانين ألف فارس بينهم أعداد كبيرة من فرسان العرب وقد وزعت هذه القبائل العربية التى تنتمى

إلى زغبة ورباح وجشم على المدن الاندلسية لحماية أهلها توزع بعضهم على نواحى قرطبة وأشبيلية وشريش وانتشر نسل العرب الهلالية فى جنوب الاندلس حتى انه على حد قول عبد الواحد المراكشى تمكنوا فى بداية القرن السابع الهجرى من تقديم خمسة آلاف فارس بخلاف غيرهم من الرجالة للدفاع عن جنوب الاندلس .

وفى عام ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م أرسل الموحدون أربعة آلاف فارس من القبائل العربية فى مقدمتهم على بن محرز بن زياد من أعيان العرب وفرسانهم .

وقاتل فرسان العرب من بنى رباح والاثيج وزغبة قوات ابن مردنيش بالقرب من قرطبة ويكفى للدلالة على دور العرب البطولى فى هذه المعركة قتل سبعة من شيوخ العرب، وهكذا نرى كيف أن الموحدين اعتمدوا على العرب الهلالية اعتمادا كبيرا فى الجيوش المرسلة إلى الاندلس وأسندوا اليهم حماية المدن الاندلسية من أعدائها حتى ان الدولة الموحدية نوهت بدورهم الايجابى فى معركة الجهاد الاسلامى فى الاندلس وحمايته وهكذا قام الجند العربى الهلالى بمشاركة اخوانه فى حركة الجهاد ضمن الجيش الموحدى الذى قام بدور فعال مؤثر فى الجهاد فى الاندلس والاستقرار على أرضها .

وفى عام ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م عندما عزم السلطان الموحدى أبو يوسف يعقوب على الجهاد قام باستدعاء عرب افريقية فلبى عرب افريقية والزاب والمغرب الاوسط النداء مسارعين للمغرب مزودين بالخيل العتاق المدربة عندهم والبالغ عددها أربعة آلاف من افريقية وألف من تلمسان فوصلوا مراكش ووزعت عليهم الدروع والرماح والاسلحة والعلامات والرايات وبعد أن تم تجهيزهم بلغ عسكر العرب عشرة آلاف فارس وخمسة وثلاثين ألف راجل ومكثت القوات العربية بمشاركة الموحدين أربعة أعوام .

وفى معركة الارك ALercos استشار الخليفة أبو يعقوب المنصور وفرسان المنصور

الموحدى على نهج أسلافه فى ارسال العرب إلى الاندلس حماية لها من النصارى إلى جانب سياسة التوطين التى اتبعها فى بلاد المغرب الاقصى شيوخ العرب فى كيفية ادارة المعركة مع مسيحيى الاندلس وكان المجلس يضم العديد من كبار القبائل العربية وتولى العرب جناح الميسرة وتمكنت القوات العربية فى هذه المعركة من الاطاحة بقوات الفرسان الاسبانية المسيحية ووقفوا بين شقى الرحى تطحنهم القوات الاسلامية طحنا فانكسرت شوكة جيش الفونسو الثامن حيث لقى فرسانه القتل والهزيمة وحمل العرب حملة صادقة انتهت بالنصر وأسرع بعض فرسان العرب إلى المنصور يبشرونه بهزيمة العدو وهكذا تمكن العرب فى اللحظة المناسبة واندفاعهم للقتال من ناحية أخرى من احراز النصر فى موقعة الارك ويعلل المؤرخ الاسبانى هيراكو ميرندا من هزيمة القشتاليين بأيدى جيش الموحدين بأنه كان يجيد الكر والفر ويجيد الرماية بالسهام وهى خصال يتصف بها جند العرب وهى طبيعتهم فى القتال .

وفى موقعة العقاب التى تطلق عليها المصادر الاسبانية Las Nares de Tolosa التى حدثت فى ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م. حيث استطاع الفرنجة اختراق جيش الموحدين وفرت القبائل الموحدية من وجه الزحف الاسبانى فلم تبق فى ميدان المعركة الا الفرقة العربية الرابعة التى اشتبكت وتلاحمت بالسيوف مع جند قشتالة مدافعة عن الناصر رغم ذلك تمكن المسيحيون من الوصول إلى الدائرة التى تحيط به وقتلوا نحو عشرة آلاف فارس من خيرة جنده المقربين، وهنا أدركت الفرقة الرابعة العربية أن الهزيمة قد حاقت بالجيش الموحدى وأن المسيحيين قد أوشكوا على قتل الخليفة الناصر فقام بعض فرسان العرب بمعاونة الخليفة على الفرار حتى ان أحدهم تخلى عن فرسه العربى الاصيل للناصر لبدانة فرسه وثقله قائلا له : اركب هذه الحرة فانها لا ترضى بعار فلعل الله ينجيك عليها فان فى سلامتك الخير كله» فركبها الناصر تتقدمه نخبة من فرسان

العرب ويحيط به عبيده حتى تمكنوا من الفرار به .

وقد ذكر ذلك ابن أبى زرع فى كتابه الانيس المطرب، وهكذا وقف العرب مع المرابطين والموحدين صفا واحدا فى مواجهة الاحداث الدامية التى يدور رحاها على أرض الاندلس دفاعا عن شرف الاسلام والمسلمين يصدون عن اخوانهم كيد أعدائهم ويذودون بالغالى والنفيس بالدماء والاموال والسلاح والعتاد وساهموا فى حركة الجهاد الاسلامى باعتراف كل كتاب العصر وشهدوا بشجاعتهم وبسالتهم فى القتال ودورهم الرائع فى صد الغارات والهجوم وفى الكر والفر حتى فى لحظات الهزيمة لم يتخلوا عن قائدهم وخليفتهم المنصور وكانوا عونا له وساعدوه على النجاة من أتون المعركة. وهكذا بذلوا كل ما لديهم فهم أصحاب الحمية والذود عن الدين والعقيدة ولم يتخلوا أبدا عن واجبهم المقدس فى حين اننا نجد دولا مثل بنى زيرى فى القيروان والمهدية وبنى حماد أصحاب القلعة وبجاية وهى دول اسلامية فى المغرب الادنى والاوسط لم يكن لها أدنى دور يذكر فى حركة الجهاد الاسلامى ولم تشارك أدنى مشاركة فى الدفاع عن حياض الاسلام فى الاندلس. لكن العروبة والشجاعة والشهامة والنجدة والفداء صفات عربية دفعت بنى هلال للتقدم للقتال فى الاندلس ومن هنا كان دورهم فى المغرب والاندلس دورا بطوليا مشرفا ولم يكن دورا تخريبيا مدمرا كما حاول أن يصفهم بعض المؤرخين ومن سار على نهجهم من كتاب الغرب .

وهنا يتبادر لنا سؤال لماذا فكر ملوك الطوائف فى طلب العون من القبائل العربية والتى أشار اليها معظم المؤرخين أمثال ابن الاثير والمقرى أليس ذلك لثقتهم فى الدور الذى من الممكن أن يقوم به العرب الهلالية فى الزود عن ديار المسلمين فى الاندلس. ثم لماذا فكر بعض زعماء الاندلس فى دعوة الهلالية اذا كانوا أصحاب تدمير وتخريب وقتل، ان سيرتهم العطرة ودورهم فى الشجاعة والبطولة هو الذى زكاهم فى الطلب

للقتال ألم يكن زعماء الطوائف المجتمعين فى قرطبة يتدارسون الموقف العسكرى ثم كان التفكير فى الاستنجاد بالهلاليين .

ثم اذا كان الهلاليون من أصحاب التدمير والتخريب وقتل الحرث والنسل لماذا رفضوا الاستعانة بقوات مسيحية عرضها عليهم روجار الثانى ملك صقلية لتقاتل معهم ضد عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين لقد استعان سلاطين بنى زيرى ربنى حماد بقوات مسيحية لمساعدتهم فى قتال بعضهم البعض، لكن العرب الهلالية رفضوا وقالوا أن الكفرة لا تقاتل المسلم ولا يمكن الاستعانة بكافر لقتال مسلم هذا هو موقف الهلالية فى سير الاحداث فى الاندلس وفى افريقية، لقد قاتلوا النورمان فى المهدية وسوسة وصفاقس وقابس وأقلقوا راحتهم لكن فقدانهم للقوة البحرية وعدم تمكنهم من ركوب البحر لم يساعدهم فى طرد النورمان، ثم أنهم ألم يتوحدوا مع الموحدين جيشا واحدا وصف واحدا لقتال النورمان أعداء الدين .

ان الدور الهلالى فى الجهاد الاسلامى فى الاندلس ومشاركة القوى المرابطية والموحدية خير شهادة على السيرة العطرة وليس التشفى والتجنى على العرب وما جاء على لسان ابن خلدون الذى لم يأت فى كتبه كلمة واحدة عن جهاد العرب الهلالية فى الاندلس فى حين ذكر ذلك ابن صاحب العلاء، بن أبى زرع، المراكشى، والبيذق، والسلاوى، وابن عذارى وغيرهم من المؤرخين، وان اشتراكهم فى الجهاد الاسلامى ودورهم الرائع يغفر لهم ما ارتكبوه على أرض افريقية ان كانوا قد ارتكبوا أخطاء .

الفصل السادس

المآثر الحضارية للغزوة الهلالية

كان وصول بنى هلال واخوانهم من القبائل العربية الاخرى إلى بلاد المغرب العربى من الاسكندرية شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا حدثا من الاحداث العالمية الضخمة المؤثرة التى نركت مآثرها الحضارية على المغرب الاسلامى كله فاذا كانت الفتوحات الاسلامية الاولى فى القرن الهجرى الاول قد نجحت فى نشر الدين الاسلامى والحضارة الاسلامية بالمغرب الا أن الهجرات الهلالية جاءت لتضيف إلى ذلك الدم العربى وتعدل التكوين الجنسى العنصرى لسكان المغرب حتى أصبح العنصر البربرى القديم لاينتمى ولا يعيش الا فى معاقل الجبال الصعبة ذات الطبيعة الوعرة ولا يتميزالا ببعض الظواهر اللغوية البسيطة .

فالذى يتصور مليون نسمة يهاجرون من مصر بقبائلهم المختلفة وشبابهم وشيوخهم ونسائهم وأطفالهم منذ ما يقرب من عشرة قرون ٤٤١هـ حاليا ١٤١٢هـ فكيف بعد هذه الهجرة الواسعة النطاق لايحدث انقلاب كلى فى البنية الاساسية السكانية ولا تستقر طبيعة السكان فى كل نطاق المغرب بعد سيطرة هلال وسليم على هذه المناطق الواسعة، بل اننا نجد ابن الاثير نفسه يذكر انه كان لقبيلة رباح وهى بطن من بطون بنى هلال وفرع القبائل المهاجرة كانت تعيش قرب القيروان فى زهاء ثمانين ألف بيت والبيت يعنى الاسرة ولا يقل عدد سكان الاسرة العربية عن عشرة أفراد فمن هنا يمكن القول أن رباح فقط كان عدد سكانها قرب القيروان ما يقرب من ٨٠٠ ألف نسمة ومن هنا بسطت الغزوة الهلالية لواءها على جميع أنحاء المغرب الاقصى والساحل التونسى وتل الاطلس وبلاد الجريد والزاب ومع بداية الفتح الموحدى بدأت مرحلة توسع

العرب سليما فى كل نطاق فى المغرب ويذكر البيذق أن العرب انتشروا فى كل بلاد المغرب بعد فتح المهدية عام ٥٥٥هـ وقد كان عدد القبائل العربية التى انتقلت إلى المغرب كبيرا جدا وأصبح توطين القبائل العربية الهلالية فى بلاد المغرب الاقصى سياسة ثابتة للدولة .

ولما حافظت قبيلة زغبة على ولائها للموحدين كافأها الخليفة المنصور الموحدى باقرارها على مشاركة بنى باديس حلفاء الموحدين من رناتة فى السكنى بين المسلية وقبيلة تلمسان بينما انصرفت رباح وجشم إلى بلاد المغرب الاقصى فأنزل رباح بلاد الهيط بين قصر كتامة والمحيط وجشم وهم قبائل الخلط وسفيان وجابر بلاد تامسنا وغمارة مما يلى ساحل طنجة إلى سلا وهكذا صار لهذه القبائل العربية الهلالية وجود قوى فى المناطق الساحلية والسهول لاسيما فى حوض وادى سبو ووادى أم ربيع ودكالة وأزمور وانتشر عرب المعقل قرب فج تازا ونتيجة لهذه الموجة العربية الهلالية فقد تعربت بادية البلاد المغربية الغربية وطبعت بالطابع العربى الاصيل وسرى الدم العربى فى وجدان المواطن المغربى وأصبح العرب سمة من سمات البلاد المغربية .

وهكذا أضافت هذه القبائل إلى حضارة بلاد المغرب سمات جديدة ونتج عن امتزاج الدماء العربية والبربرية أجيال أقوى شكيمة وأشد عزيمة وأصلب عودا وأقدر مراسا من أجدادهم وهكذا زاد الاتصال والامتزاج والزواج والمصاهره وتم الاختلاط وبدأت الدماء العربية فى الزيادة وتصبح هى السمة البارزة فى الملامح فلم يعد هناك بربرى بل أصبح شعب عربى يسكن المغرب الاسلامى .

وهكذا كانت أهمية الغزوة الهلالية أو الزحف الهلالى المنظم وقد انطلقت الموجات الاولية فى أعداد قدر متوسطها بنصف مليون أغلبهم من الرجال، بل أوصل بعض الباحثين عددهم إلى المليون نسمة (الميلى) تاريخ الجزائر بعد أن توالت موجات

الهجرة وسارعت القبائل العربية إلى المغرب بعد أن وصلتها أنباء المسيرة الهلالية وعندما يدخل افريقية (المغرب الادنى) نصف مليون أو مليون من العرب منذ ما يقرب من عشرة قرون تتغير سمة الدم وتظهر الدماء العربية القوية فى العروق ويصبح أهل المغرب عربا خلصا بعد أجيال قليلة متعاقبة وعندما يزيد عدد العرب عبر السنوات المتبقية من القرن الخامس الهجرى فان ذلك بدوره يظهر تفاعل الدماء العربية فى كل أجزاء البلاد بحيث زادت فيها نسبة الدماء العربية بحيث لا تقل عن ٩٩٪ عن طريق الاختلاط أو المصاهرة وعن طريق وجود العرب بأعداد كبيرة، بل ان العرب الهلالية لم يتركوا شبرا من أرض المغرب الا وطرقوه وأقاموا فيه فى الجبال الوعرة واستوطنوا فيها وطرقوا البوادى والفيافى والسهول والوديان واستقروا فى أقاليم المغرب المختلفة. فهل بعد ذلك من رأى يارجال الغرب ومؤرخيها الذين يفرقون بين الاقوام الواحدة .

وهكذا غير بنو هلال التكوين البشرى للمغرب بأقسامه المختلفة (الادنى والاوسط والاقصى) فأصبحت العروبة والدماء العربية هى الغالبة ولم يعد البربر الا بقايا وان كان الجميع أبناء عمومة، وفى مقدمة الغزوة احتك أولئك الهلاليون بقبائل كثيرة ودفعوا قبائل أخرى للتقدم غربا نحو المغرب الاقصى والاتجاه جنوبا إلى بلاد السودان فخلت بلاد الجريد وقسنطينة والزاب فى افريقية من أهلها الاولين ونزلتها بطون الهلاليين وتكاثرت فيها وشيئا فشيئا عاد اليها أهلها من البربر أو من بقى منهم واختلط العرب مع البربر اختلاطا تاما فأصبح المغرب من أكبر بلاد العروبة وأعمقها اسلاما .

لم تتأثر الوفود العربية وقبائلها فى بادية البربر من حيث التركيب السكانى، ذلك لان العرب لم يفلحوا فى تغيير التركيبة السكانية لبادية المغرب الاسلامى وأرباعه الا بعد منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى مع الغزوة الهلالية وبفضلها انتشر العرب فى البوادى والارياف فى دورتين مختلفتين كان طابع الأولى

حربيا فى المغرب الادنى والثانية سلميا فى المغرب الاوسط والاقصى .

وهكذا أدى بنو هلال خدمة كبرى لعروبة المغرب وتكوينه السكانى وتركيبته البشرية فقد أضعفت جموعهم قوى قبائل مثل زناتة التى كانت تحاول استخدام القوة والقهر والسلب والعدوان والتخريب والاغارة على المدن الآمنة كما كان يحدث مع دولة بنى زيرى وبنى حماد فكسرت الغزوة الهلالية فى عنفوانها وعدوانها وحدت من سطوتها على باقى القبائل، ثم ان الهلاليين انتشروا فى كل ناحية من البلاد الممتدة إلى شواطئ المغرب الاقصى ومن صحراء مصر العربية وسكنوا السهول والجبال والسواحل وصاهروا الناس فكان عملهم هذا اكمالا لما سبق أن قام به عرب الفتح الاوائل فتحولت بلاد الجريد فى تونس وبلاد المغرب الاوسط (الجزائر) وبلاد المغرب الاقصى إلى بلاد عربية اسلامية خالصة تتكلم العربية وتحس بأنها جزء من العالم العربى ولولا الهلاليين لما صار المغرب عربيا على الصورة التى نراها لولا الهلاليين لما تعمق الشعور الاسلامى والتسليم للعقيدة الاسلامية (التى تظهر آثارها حاليا فى الجزائر جريدة الاهرام القاهرية ١٩٩١/١٢/٢٨م). ففى الفوز الساحق الذى حققه التيار الاسلامى فى انتخابات الجزائر حيث فازت جبهة الانقاذ الاسلامية بحوالى ٢٨٨ مقعدا. فى الجمعية التأسيسية فى حين فاز الحزب الحاكم بنسبة عشر مقاعد فقط) ان الدماء العربية والسلالة الهلالية القوية تدفع مشاعر أبناء المغرب للانتماء العربى الاسلامى انطلاقا من الغزوة الهلالية .

ولقد ساعد على الامتزاج والانصهار فى بوتقة العروبة بعد انتشار العرب الهلالية فى جميع أنحاء المغرب ذلك الاتفاق والتطابق فى أساليب الحياة وتجانسها مع الحياة البربرية فى السهول والجبال فقد كان العرب والبربر شعوبا بدوية رعوية أو شبه رعوية تمتطى ظهور الابل والخيل مما سهل امتزاج العنصرين حيث تكون جنس خليط

واستعرب البربر وتوغلت اللغة العربية بين البدو من البرابرة وسكان المناطق النائية بعد أن كانت قليلة الانتشار فيهم وساعد على ذلك الانتشار السريع والتنقل المكثف للعرب الهلالية فى عهد الدولة الموحدية .

ومهما يكن من أمر فقد سيطرت طلائع الزحف الهلالى على بلاد المغرب الاقصى شأنها شأن الاوسط والادنى وبدأوا يتخذونه وطنا لهم ومستقرا دائما وبدأت تتدفق عليه بطونهم من الشرق فوج يتلوه فوج وساعدتهم الدولة الموحدية فى ايجاد التوازن القبلى وجاءت الوفود من بلاد المغرب الاوسط ولم تتخلف قبيلة عربية هلالية الا وشارك بعض منها فى الزحف نحو بلاد الاطلس وهضبة الشطوط ونقل خلفاء الموحدين الاربعة الاوائل أعدادا كبيرة من العرب إلى بلاد المغرب الغربية وبدأت حركة واحدة بين القبائل من التحالفات العربية مع البربرية تحت لواء واحد وبدأ الامن والسكينة تسود ربوع هذه البلاد وبدأ الجميع يتصرفون تحت هدف واحد هو بناء المغرب العربى الاسلامى ويعلمون على حدة الهدف من أجل الحفاظ على العروبة والعقيدة ليمهدوا السبيل أمام الاجيال القادمة للعيش فى وطن العروبة والاسلام .

وهكذا توحد الجنس العربى وانصهر مع أبناء العمومة من البربر ووقف الجميع تحت لواء الدم العربى صفا واحدا .

ومن هنا فان اللسان العربى كان نتيجة طبيعية للدم العربى فانتشار الدم العربى هو انتشار اللسان العربى ذلك لاننا نرى أن انتشار اللغة العربية وغلبتها على اللسان العربى وشيوع العروبة بين أهالى المغرب قد ظهرت أهميته بالزحف الهلالى فى التمكين للغة العربية وغلبتها على لسان أهل المغرب ذلك لان المسيرة الهلالية ضمت اليها أعدادا ضخمة وعدد المليون نسمة يكون له ثقله فى المنطقة فى القرن الخامس الهجرى اضافة إلى الغزوة كانت تضم أعدادا كبيرة من الرحال. ومن ثم أدى ذلك إلى تمكن اللغة

العربية مخاطبة ومحادثة واستعمالا وكتابة وبدأت اللغة العربية تمثل اللغة الاساسية للاقليم وحلت محل اللغات القديمة وزادت معلومات المغاربة بالعربية وكثرت استخداماتهم للغة العربية فى مختلف نواحي الحياة وتمثلت فى الحضارة الاسلامية .

وهكذا نرى كيف كانت عوامل كثيرة تعمل على تعريب المغرب وادماجه فى الكتلة العربية فبعد جهود العرب الاوائل فى عصر الفتوحات (الخلافة الراشدية، الامويين، العباسيين) وصراعهم الطويل مع البربر وتحويلهم أفريقية إلى بلاد عربية الحضارة والثقافة واللسان عربية المفاهيم والعادات والتقاليد والقيم والاطر الاجتماعية والتعليمية وادخالهم فى اطار مذهب أهل السنة والجماعة (المذهب المالكى) جاء الادارسة (أنظر الجزء الثانى من الموسوعة، المغرب العربى بين الاغالبة والادارسة وبنى رستم) فنشروا فى أرض المغرب الاقصى بذورا عربية طيبة أتى الهلاليون من المشرق فبذروا بذورا أخرى لم تلبث ان أثمرت واتبعت لسانا ودما عربيا وحضارة عربية زاهرة حاملين علما كثيرا بثوة فى نواحى المغرب كله .

وهكذا كان زحف الهلاليين على المغرب قد مكنهم من لعب دور اجتماعى وسكان جنسى وأعاد تركيب النظام القبلى بين القبائل البربرية وتمكنت اللغة العربية من غزو المغرب الاقصى حتى قال (الفريد يل) فى كتابه عن (البربر وديانتهم) أن رجال البربر أصبحوا اليوم كلهم يتقنون اللغة العربية فى الجبال الاطلسية لاسيما منها الناحية الشرقية. بل وتعدى التأثير لهذه القبائل اللهجات الدراجة للقبائل البربرية حتى قيل أن اللغة الدراجة المغربية تعتبر أفصح اللهجات العربية. وهكذا كما ذكر الميلى فى كتابه تاريخ الجزائر، لقد شاء الله أن يكون للعرب وجود جنسى فى عصر البربر السياسى كما كان للبربر وجود جنسى فى عصر العرب السياسى غير ان بين الوجودين فرقا، فان العرب مؤثرون فى البربر فى العصر البربرى سياسيا ودينيا وفى العصر البربرى اجتماعيا

وثقافيا وحضاريا واقتصاديا وسياسيا .

وهكذا اذ كانت عوامل الطبيعية العربية للقبائل الهلالية واتفاقها مع اخوانهم وأبناء عمومتهم البربر فى نشر الدم العربى واللسان العربى فان طبيعة الارض التى انتشر فيها العرب مع اخوانهم كانت قد سبقت فى انتشار الاسلام فى أركانها وتسربت اليها جموع البدو من القبائل العربية فقد كانت هذه البلاد المغربية الواسعة النطاق تحيط بها الصحراء الكبرى جنوبا فى المنطقة الممتدة من حدود مصر الغربية حتى المحيط الاطلسى وهكذا توغلت فى كل هذا النطاق .

وهكذا تمكنت العربية من هذا الشعب وفى هذا المضمار نجد الدكتور محمد عوض محمد فى كتابه الشعوب والسلالات الافريقية يذكر ان بنى هلال امتدت بطونها من الجانب المصرى حتى المحيط الاطلسى وان العروبة أضحت هذا البحر الخضم الجارف لغير العربية فقد نجد بعض الجزر ذات ثقافة بربرية فنجد فى واحة سيوه فى مصر وفى واحة أوجلا وغيرها فى ليبيا بقية من السكان المنعزلين لاتزال لهم لهجات بربرية. ولكن فى تونس يوجد قطر يمتاز بثقافته العربية الاصيلة العميقة وليس فيها بقية من اللهجات البربرية الا أعداد تعد على أصابع اليد الواحدة فى الاطراف الشمالية الغربية ولا يزيد من يتكلمون تلك اللهجات عن ١ ٪ من سكان البلاد كلها والمؤرخون عن تونس يرددون كثيرا ما حدث عن هجرة عرب بنى هلال فى العصور الوسطى اذ وفدوا بجموعهم بايعاز من الفاطميين ووجهوا نحو تونس لغزوها ومن الجائز أن هؤلاء الهلالية قد خربوا ودمروا كثيرا ولا نشك فى أنهم زادوا فى عروبة تونس، ويكون من الخطأ الزعم بأن سكان تونس من البربر وانهم استعربوا نتيجة الزحف الهلالى الواسع النطاق، لأن الزحف العربى سابق للهلاليين بعدة قرون عديدة وقبل الفتح العربى الاسلامى ولا تعدو الغارات الهلالية أن تكون اضافة للعروبة فى بلاد عربية مستقرة وقد

نجم عن هذه الغارات اضطراب فى الحياة الاجتماعية والتركيبة السكانية .

واذ مضينا غربا نحو الجزائر انتقلنا إلى أقطار تزيد فيها نسبه المتكلمين باللغة واللهجة البربرية رغم ان العروبة تزدهر والثقافة العربيه تنتشر واذ العلوم العربية الاسلامية يرتفع لواؤها وثبتت قواعدها كأحسن ما يكون ونجده فى أقطار المشرق العربى (لاحظ الفصل القادم دولة بنى حماد) فان عدد المتكلمين بها لا يزيد عن ٦٪ وأكثرهم فى الجهات الجبلية المنعزلة، وفى نهاية الاتجاه الغربى للمغرب الاسلامى نجد المغرب الاقصى المطل على البحر المتوسط والمحيط الاطلسى، فان نسبة المتكلمين باللهجات البربرية لا يزيد عن ١٢٪ وسبب ارتفاع نسبة المتكلمين باللهجات البربرية فى المغرب الاقصى وجود أقاليم جبلية عالية وهى جبال الاطلس الشهيرة، كما ان دولة الموحدين والمرابطين كانت تقف حائلا دون انطلاق الهجرة الهلالية وكانت الدولة تقوم بتحديد الاماكن التى تتم سكنى الهلالية بها ولم يتركوا الهلالية على حريتهم فى التنقل اضافة إلى نقل أعداد كبيرة منهم إلى بلاد الاندلس للمشاركة فى حماية المدن فقد أنزل عبد المؤمن العرب فى قرطبة وشريش وأشبيلية وأسكن العرب فى بلنسبة وفى شرق الاندلس وكذلك فى بطليموس. وقد قلل هذا من انتشار الهلالية فى المغرب الاقصى مما ساعد على بقاء نسبة المتكلمين باللغة البربرية حاليا دون غيرها فى الجزائر وتونس .

الا أن اظلالة الزحف الهلالى قد جعلت من بلاد المغرب قطرا عربيا خالصا وأصبحت فيه مراكز للثقافة والحضارة والعلوم الاسلامية المختلفة فى مدن مثل القيروان وفى مسجد القرويين بفاس وفى تلمسان وغيرها من مراكز العلوم الاسلامية وهذا الانتعاش الثقافى والعلمى فى القرن الخامس والسادس الهجرى دون ما سبق من عهود ربما كان من أسبابه تقارب فى السلالات أو نوع من القرابة الروحية والامتزاج الجنسى والسلالى .

وهكذا لم تكن الوحدة اللغوية قائمة دون أن تستند إلى شئ من القرابة الروحية من العرب الهلالية وسكان المغرب، ولما كان من الممكن أن تحدث استجابة من سكان المغرب للمؤثرات العربية والاسلامية دون احساس بوحدة الجنس والتقارب السلالى .

وهكذا كانت المعجزة التى تحققت على أرض المغرب من وحدة الدم والجنس والسلالة واللغة والعقيدة والعادات والتقاليد والقيم والمفاهيم الاجتماعية والتراث الحضارى ولم يكن ذلك الا من أجل القرابة، وهكذا لم يبق من أرض المغرب الواسعة الا جزر بسيطة فى قمم الجبال العالية الشاهقة لم تكن تتلائم وطبيعة سكنى العربى الهلالى الذى زحف فى كل بقاع المغرب مواطنا متجاوبا متفاهما مع أخيه فكان الوجه الحضارى الذى تنعم به المغرب، بل الاكثر من ذلك انتشار اللغة العربية كثيرا وأن قوة تأثير هذه اللغة يظهر فى اللهجات الريفية فى القرى المغربية فقد تفرعت من لسان عربى مغربى وهكذا قدمت الغزوة الهلالية للغة العربية مكسبا كبيرا اذ ضمت أهل المغرب إلى لسان القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف الذى أحبه أهل هذه الديار ودافعوا عن عقيدتهم ولغتهم وبهذا أفادت الغزوة الهلالية أهل المغرب بتقديم لغة حضارية ذات أصول عريقة يستعملونها ويفكرون بها ويقدمون عن طريقها عصارة تفكيرهم العلمى ليضاف إلى الحضارة الاسلامية .

كما اننا نلاحظ أن المناطق الاقرب من المغرب الاسلامى إلى المشرق كانت أكثر تأثرا بالعرب فى العادات والتقاليد واللغة حيث نجد فى ليبيا معظم سكانه كانوا ينتسبون إلى قبيلة أولاد على وهو فى هذا يعد امتدادا لما نجده فى الجانب المصرى من القبيلة حيث نجد الفروع الشرقية من تلك القبيلة التى تمتد بطونها غربا حتى تصل إلى طرابلس وقد يرجع ذلك إلى تغلغل نفوذ عرب الزحف الهلالى وزيادة تأثيرهم فى المغربين الادنى والاوسط، بل اننا نجد أن من ينظر إلى أقوال علماء علم الانساب

(النسابة) وأقوالهم فى المغرب يرى انهم يدخلون بعض البربر فى العرب أو يفعلون العكس. فيدخلون بعض القبائل العربية كهوارة فى النسب البربرى أو نرى بعض القبائل العربية تدعى النسب العربى (صنهاجة، المصامدة) ونرى من يقول بالاصل الوافد للعرب والبربر وهكذا فان الخلط بين نسب العرب والبربر دليل على أن الفروق بينهما كانت تختفى. كما تعتبر محاولة البربر الانتماء إلى العرب دليلا على نية صادقة ونزعة قوية للتعريب وكان التقارب هو الذى ساعد على اندماج العرب مع البربر وعدم اندماج البربر بمن سبق العرب فى الوصول إلى المغرب من الرومان والقرطاجيين وغيرهم من المستعمرين .

وقد وجد البربر أنفسهم بعد الفتح العربى الاسلامى ازاء شعب من بنى عمومتهم يشاطرونهم ويشاركونهم مثلهم وعاداتهم وتقاليدهم فهنا امتزج العنصران ولم يزد توالى القرون التماذج الا قوة وعمقا ومن معابر انتشار العروبة نجد ان الزحف الهلالى كان له انجاز ضخم فى اقليم المغرب من الناحية الحضارية فقد ضموا إلى العروبة أمة عظيمة هى أمة البربر وأضافوا إلى الرقعة العربية منطقة واسعة هى منطقة المغرب العربى بأقسامه المختلفة (ليبيا- تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا) ولم تتم هذه الانجازات فجأة وانما تمت فصائل الزحف الهلالى بالتدريج وتغلغلت آثارها فقد تمت الهجرة ببطء وملا العرب بلاد المغرب بالتدريج فقد جاوز العرب طرابلس الغرب بعد أن مكثوا بها سنين وزحفوا خطوة وسكنوا الاودية جماعات جماعات على مهل واختلطوا بالسكان رويدا رويدا وزادعددهم وأصبحت عاداتهم وتقاليدهم وقيمهم وتراثهم الحضارى ولغتهم بعد بضعة قرون هى المغرب بصورته الواضحة ولقد كان الزحف الهلالى بلا منازع أهم حدث عرفته بلاد المغرب أثناء العصور الوسطى فهذا الزحف الهلالى الواسع الانتشار قد أثر أكثر من الفتح الاسلامى فى القرن الاول الهجرى فكانت بصمات الهلالية بصمات

واضحة لم تستطع القرون أن تمحها أو تؤثر فى البناء العربى الاسلامى فقد صمد هذا الطابع العربى للمغرب أمام الغزو الاستعمارى بالقوة والحزم ووقف أمام محاولات النيل من عروبته فأفشل مخططات القوى المعادية أن تنال من عروبته فقد تمكن المغاربة من الوقوف أمام التيار الاستعمارى الجارف ومحاولات النيل من ثقافته ونجحوا فى التغلب عليه وكسر حدته وطرده من الديار المغربية بعد احتلال زاد عن مائة وثلاثين عاما فى الجزائر .

وها هى الصحافة العالية (ديسمبر ١٩٩١) تتحدث عن الانتصار الباهر الذى حققته جبهة الانقاذ الاسلامية فى الجزائر فى الانتخابات وحصولها على ١٨٨ مقعدا فى الجمعية التأسيسية البالغ عدد أعضاءها ٣٤٠ عضوا وحصولها على نسبة ٤٤٪ من مجموع المقاعد التى رشح فيها أكثر من خمسين حزبا سياسيا ولم يكن ذلك النجاح الكاسح الا عودة للعروبة والاسلام وليس للتغريب واللسان الفرنسى، أن المسيرة الهلالية قد وضعت الفرشة الواسعة العريقة العميقة الجذور التى مضى عليها عشرة قرون (ألف عام) لكى يصمد المغرب فاذا اذ لم يكن قد تحرك مليون عربى هلالى أو نصف مليون منذ عشرة قرون. فإن الصورة قد تكون مغايرة تماما لما عليه الحال الآن .

البعد الاجتماعى للغزوة الهلالية

تركت الغزوة الهلالية بصماتها واضحة جلية فى شتى نواحى الحياة فى بلاد المغرب وتعمقت أبعادها فى شتى المظاهر الحضارية فاذا كنا قد تحدثنا فى الفصل السابق عن البعد الحضارى فى سيادة الدماء العربية وتغير التركيبة السكانية وامتزاج العرب مع البربر وانتشار الدماء العربية على نطاق واسع وما تلى ذلك من أثر على اللسان الذى تحول إلى لسان عربى فصيح وانتشار اللغة العربية لغة القرآن الكريم واتخاذها لغة تخاطب وكتابة وفى الدواوين، فان ذلك لابد ان يؤثر انعكاساته القوية

على النواحى الاجتماعية والحياة اليومية فبعد التماذج والتصاهر وظهور جيل عربى فان ذلك كان له مفاهيمه الاجتماعية وعاداته وتقاليده التى اتخذت الطابع العربى الهلالى.

فقد تأثر العرب بمعتقدات كانت تسود فى عاداتهم رغم مرور القرون العديدة حيث نقلوا العادات والتقاليد التى جاءت معهم من شبه الجزيرة العربية حيث الاستقرار النهائى فى بلاد المغرب وقد تأثرت القبائل العربية الهلالية بالمغرب بمعتقدات الجاهدية وعاداتها الذميعة، الا أن الصفات الحميدة كالكرم والشجاعة وحسن الضيافة والجوار ونجدة الملهوف كل تلك كانت عادات سرت فى الحياة المغربية وأخذ البربر من اخوانهم العرب تلك السلوكيات التى تنم عن الشجاعة والوفاء والكرم وحسن الجوار، لكن الاسلام الحنيف وشريعته السماوية الغراء المستمدة من القرآن الكريم والسنة المطهرة قد شذب من عاداتهم وتقاليدهم ووجههم نحو الخير .

وتبدو روح القبيلة وترابطها واضحة جلية فيما يعرف بالجوار فقد كان العرف المتبع بين القبائل العربية اجارة من يستجير بالقبيلة فاذا طلب شخص غريب من القبيلة حمايته من قبيلة أخرى عندما يتعرض لخطر فان القبيلة تقبل اجارته وتدفع عنه ما يتعرض له من ظلم وغصب وحيق وحرق وتقوم بتأييده ونصرته وكان الجوار معترفا به قبل النزوح إلى المغرب لكنه أصبح جزءا من العرف السائد بين القبائل وقد أخذت به القبائل البربرية كصنهاجة وكتامة وزناتة وهوارة ومغراوة وغيرها من القبائل البربرية الاخرى اذ رأت فى ذلك العرف نوعا من الشجاعة والكرم والبأس والقدرة على حماية المستجير .

والتاريخ العربى الهلالى فى عصر بنى زيرى والموحدين وبنى حماد ملئ بأمثلة جوار وقدسيته فقد أثر عرب افريقية قتل ابناءهم على تسليم جارهم والغدر به ولو أتى

القتل على كل القبيلة وكيف كان الامراء المتصارعون على الحكم والثوار فى وجه الدولة يلجأون إلى القبائل العربية لحمايتهم من بطش السلطان أو قواته وكيف كان العرب يحسنون جوار من يلجأ اليهم .

هذه صفات وأعراف عربية أصيلة فمن يتمسك بها يأبى عليه وازعه الضميرى أن يقوم بالسلب والنهب والقتل والتدمير كما صور ذلك ابن خلدون .

وقد أجار عرب الزواودة بافريقية المغضوب عليهم من أبناء الدولة الزيرية والحمادية أو الهاربين خوفا من بطش حكامها واللاجئين اليها طلبا للحماية مما جعل القبائل العربية فى صراع دائم مع الدولة بسبب الجوار الذى أخذه البربر عن اخوانهم العرب. ونتيجة لانتشار القبائل العربية بالمغرب وتعدد مواطن استقرارها فى جميع أنحاء البلاد امتزجت بقبائل البربر وصاهرتها مما ادى إلى تطور مفاهيم القبيلة العربية فيما يختص بالعلاقة التى تربط الرجل بالمرأة والزواج والحلف والجوار والشعر والغناء والزى وحركة التنقل والارتحال ومساكنهم وحكامهم وعلمهم واختيارهم لشيخ القبيلة ومساعديه وتأثرهم فيما يختص بالعادات والتقاليد وتأثر ثقافتهم بطريقة التعليم فى المغرب لحاجة القبيلة المستمرة إلى زعيم القبيلة والقاضى والمفتى لمساعدة الزعيم فى حكم القبيلة .

وكذلك إلى جانب كل هذا كان المظهر الدينى الاخلاقى الذى تجلت صورته بوضوح فى حياة بعض رؤساء القبائل وأفرادها الذين كرسوا حياتهم للعلم والدين وبناء المساجد والاربطة والزوايا وعمل الخير .

كذلك فانه عندما استولى الموحدون على بجاية من أيدى بنى غانية فان بعضا من سكانها خافوا على أنفسهم من بطش الموحدين فلجأوا كمجموعات كبيرة إلى القبائل العربية المجاورة لمدينة بجاية فأجارتهم وحسن جوارهم حتى استقرت الامور فى البلاد وعادوا إلى مساكنهم ولقد تحملت القبائل العربية ضغط الدولة عليها من أجل

تسليم من سبق اجارته وكان الرفض طابع العرب فى معظم الحالات .

كذلك نقل العرب إلى المغرب ظاهرة التحالف والاحلاف التى كانت تتم بين القبائل عملا على الوقوف فى وجه عدو مشرك، ذلك لان القبيلة منفردة وحدها قد لا تقوى على مواجهة أعدائها فكان لابد أن تنضوى تحت لواء حلف قوى يضم العديد من القبائل مما يدعم قوتها ويحافظ على وجودها وقد تكون الاسباب العسكرية من أهم مظاهر ظهور الاحلاف أو تكون عوامل اقتصادية أو تجارية والحلف أن يحلف الجميع على عهد يعاهدون عليه أن يكونوا يدا واحدة وصفا واحدا فى مواجهة الاخطار المحدقة بهم فقد تحالفت قبائل زناتة مع رياح وتحالفت بنى توجين مع الاثيج وتحالفت مغراوة مع بنى المعقل وظهر تحالف كثير من قبائل البربر مع العرب الهلالية فى مواجهة الاخطار الجسيمة التى تتعرض لها البلاد كما ان العرب وقبائلهم وبطونهم كانت تضمهم الاحلاف ساعة العسرة والشدة فقد تحالفت عرب رياح وزغبه وبنو قرة والاثيج وتناسوا ما فيهم من عدوان وتأثرات فى مواجهة زحف الموحدين على افريقية واستطاعوا بهذا الحلف هزيمة قوات عبد الله بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على، كذلك تحالفت القبائل الهلالية فى المغرب الاقصى من عرب العاصم والخلط وسيفان وبنى جابر والحارث فيما بينهم ضد استبداد الوزير عمر بن عبد الله وغمس العرب أيديهم فى الماء، بل أكثر من ذلك فانهم يعقدون الحلف عند قبر أحد الشيوخ الصالحين المشهود لهم بالكرامات لكى يكون للحلف طابع الاخلاص والقدسية وتأخذ صبغة دينية. ثم يتصافحون بعد ذلك على التمسك بالحلف وقد سرى نظام الاخلاف طوال عصر الوجود العربى فى دولة المرابطين والموحدين وقبلهم بنى زيرى وبنى حماد ثم انتشر على نطاق واسع فيما بعد وساد المغرب عرف الحلف والتحالف عند الشدة والذى أصبح قيمة اجتماعية أخذت بها القبائل كجزء من ميراثها الاجتماعى الذى

جاءت به من الجزيرة العربية واستمر متوارثا عبر الاجيال .

وانه اذا ألقينا نظرة فاحصة ومتعمقة فى ميراث العرب الهلالية الاجتماعى فاننا نجد أن هذه الجماعات العربية كان يربطها رباط قوى من التقاليد والقيم والميراث العربى الاجتماعى رغم ما يدور بينها من صراعات وعداوة، ذلك لان روح الجماعة كانت تغلب وتسيطر على تصرفاتهم عند الشدة، فلم يكن العرب يفرطون فى من تربطه بهم أدنى صلة أو رابطة فعندما انتصر الموحدون على عرب الخلط، وأن عرب بنى سفيان وبنى جابر سعوا لدى الخليفة وطالبوا بنقل الاسرى من النساء والذرية إلى دار الاشراف حيث قام عرب بنى سفيان وبنى جابر بما تمليه عليهم الطبيعة العربية من الشهامة والمروءة والكرم مع نساء الخلط وانه اذ كان الانتصار إلى القتال والحث عليه سمة من سمات البربر قبل قدوم العرب الهلالية إلى المغرب الا أن ذلك الشعور قد ظهر بصورة أكثر وضوحا عندما تجاور العرب أبناء عمومتهم واخوانهم البربر واختلطوا بهم، كذلك ساد مفهوم التوفيق والتصالح ومجالس الصلح من القبائل بعضها ببعض لمواجهة الاخطار التى تحدق بالجميع عملا على انقاذ القبائل من خطر داهم يتهددها، فلقد كان كثير من المواقف القتالية أو صد عدوان على حرمة القبائل أو قبيلة معينة يستدعى أن يبايع الجميع على الموت وأن يصبحوا يدا واحدة وسيفا واحدا رغم ما كان من تباين أغراضهم وفساد ذات بينهم .

وقد بلغ من أهمية الاحلاف أو التحالف وقدسية هذا النظام الاجتماعى فى حياة القبيلة ان أصبح فى بعض الحالات علما على القبيلة المتمسكة به حتى لا يختلط الامر على البعض فيطلقون اسم الحلف على قبيلة أو قبائل أخرى كما حدث فى حلف «أبى قحافة» بين عرب النضر وبنى عامر من زغبة اذ يزعم البعض انتساب عرب النضر بن عروة إلى «أبى قحافة» بينما يذكر شيوخ القبيلة انه ليس الا اسم حلف كان

يجمعهم مع عرب بنى عامر من زغبة وان اختلاف البطون لا يثنيه تحالف القبائل .

وهكذا فان زحف بنى هلال على افريقية (تونس) والمغرب الاوسط (الجزائر) والمغرب الاقصى (المغرب وموريتانيا) ذا تأثير عظيم على الحياة الاجتماعية والثقافية أيضا، أما تأثيره الاجتماعى فيبدو فى دخول عناصر جديدة بدوية فى هيكل المجتمع المغربى وتركها بصماتها فى كل الامور، ولقد كان لهذه العناصر خصائصها العقلية والخلقية من حيث الشجاعة والحرب والشهامة والكرم والادب وكره النظام والحكومة المركزية والضرائب ولا شك أنهم بمخلطتهم ومعاشرتهم للقبائل قد أثروا فيهم وتأثروا بهم فى القرى وفى المدن، وبعد فترة من الزمن أخذ البربر يقلدونهم فى أساليب حياتهم ويأخذون عنهم أساليبهم التى مهرو ابها، وقد تجلى تأثيرهم اللغوى فى نشر لغة التخاطب العربية بين القبائل البربرية وقد كان احتكاكهم الدائم لبعض قبائل زناتة وفروع البربر الاخرى بالصحراء وغيرها عاملا فعالا فى تعريبها تماما واستمر التعريب والعربية يعملان عملهما طيلة القرون اللاحقة حتى لم تبق البربرية ولهجاتها أداة تخاطب فى أماكن محدودة ومحصورة بين الجبال وفى نطاق ضيق كما سبق القول .

ولقد كانت مرحلة التنقل والارتحال فى فصول العام سمة من سمات البدو الرحل الذين تطيب لهم حركة النقلة والارتحال وراء العشب والكلا والمراعى وأماكن وجود المياه فقد انتشر العرب فى كل بقاع المغرب من أجل الاستقرار حول أماكن تجمع المياه وطابت لهم الرحلة حتى ان بعضا من القبائل العربية قد توغلت فى القرن الخامس والسادس الهجريين حتى أدركت نهر السنغال كما ذكر ذلك أستاذى الدكتور حسن محمود (قيام دولة المرابطين) .

ويسود بلاد المغرب ظاهرة الهضاب الفسيحة مما قضى بها بوجود ظاهرة البداوة التى تعتبر ظاهرة اجتماعية اقتصادية ذلك لان سكان هذه المناطق من القبائل العربية

والبربرية لا يستطيعون الاعتماد على موارد الاقليم القاطنين فيه فيضطرون إلى النقلة والارتحال انتجاعا للكلا وطلبا للمرعى والمعيشة المشهودة .

ومن هنا كانت الظاهرة الاجتماعية فى ظل هذا المجتمع البدوى أن يشتد التناحر فيه بين السكان وتكثر الهجرات من مكان إلى آخر وتثور الفتن وتنتشر الغارات ولا تتعلق القبائل وبطونها بالارتباط بالارض بالصورة التى نجدها فى مجتمعات السهول والوديان حيث الاستقرار الدائم وانهم لا يدافعون عن أرض معينة طالما انه من الممكن الانتقال إلى مكان آخر توجد فيه وسائل المعيشة ميسورة انما كان الدفاع عن الاسرة والعشيرة والقبيلة فأصبحت القبيلة محور الحياة فى المجتمع المغربى العربى .

ومن هنا كان السكان يرتحلون صيفا وشتاء إلى جهات تتوافر فيها مصادر الرزق والمعيشة ومصادر الحياة وهذه الحركة المستمرة شمالا وجنوبا فى مختلف مناطق المغرب فى أنحاء أماكن العشب والكلا كمرعى للابل والماشية كثيرا ما كان يترتب عليها حروب نظرا لقيام قبيلة لسلب مرعى قبيلة أخرى وأراضيها .

ولقد كانت القبائل البربرية أكثر معرفة ودراية بأماكن المرعى والكلا والعشب ومصادر المياه لان هذه أوطانها، ومن هنا كانت تترك أماكنها للقبائل العربية وتندفع زاحفة غربا وجنوبا فى حركة اخلاء تامة لاماكن استقرارها بعيدا عن مواطن العرب فى بداية الزحف الهلالى، لكن لم يمض وقت طويل حتى عاد البربر إلى أماكن سكناهم وجاوروا العرب وجاورهم العرب واستقروا جميعا فى أماكن واحدة وما صحب الاستقرار من اصهار وامتزاج وحسن جوار ونقل كل القيم والعادات والتقاليد .

لكن ظاهرة النقلة والحل والترحال كانت مرحلة أولى من مراحل الاستقرار الهلالى ذلك لان الزحف الهلالى كما جاء فى أقوال الكثير من المؤرخين كان يتميز بأن العرب المستقرين فى بلاد المغرب كانوا من بدو العرب انتقلوا بأحيائهم وحللهم

وخيامهم وجاوروا أهل البلاد من البربر الذين لم يكونوا يعرفون الخيام والتى كان يصحبها العرب معهم والتى كانت تصنع من الوبر والصوف ويسهل هدمها عند غزوهم أو حروبهم .

لكن لم يمضى على دخولهم المغرب الا فترة يسيرة حتى بدأوا يستقرون ويتأثرون بالمظاهر الحضارية العمرانية وانتقل بعض زعمائهم من سكنى الخيام إلى سكنى القصور وحياة النعيم والرفاهية واتخذوا من الخيول العربية الاصيلة مطية لهم بذلا من الجمال، ودخلت حياة الرفاهية بين فصائل القبائل العربية وانهم كانوا يعتمدون كثيرا على أنعامهم التى كانت تهتم بها القبائل العربية الهلالية فهم لا يستطيعون أن يستغنوا عنها فى جمع التصاريف .

وكان لكل قبيلة شيخ يتولى ادارتها ورياستها ويكون صاحب القول الاول فى شئونها واليه يلجأ أفراد القبيلة فى كل أمر من أمورها وهو كبير القبيلة أو البطن أو الفخد ويكون زعيم أو رئيس المجلس القبلى أو ما يسمى رياسة القبيلة الذى يتكون من مجموعة من الافراد يعاونون شيخ القبيلة وكان شيخ القبيلة يعاونه فى ادارة أمورها أحد أقاربه أو أبنائه أو اخوته بناء على تزكية من أفراد القبيلة أو وجود اجماع عليه ويتم الاختيار لهؤلاء الاشخاص لتمتعهم ببعض الصفات المتميزة كالثروة والجاه والفراسة والصفات القتالية أو حسن الاخلاق والسيرة والقدرة على حل المشاكل وايجاد السبل للتغلب عايها .

وقد كان للقبيلة حق تغيير زعيمها وشيخها اذ ما أساء التصرف وأدى من الاعمال مالا يتلاءم مع مصالح القبيلة أو عرض وجودها للخطر أوتسبب فى مذلة أو شرف القبيلة أو أدى من الاعمال ما يمس شرف القبيلة بل ان الامر كان يصل إلى حد القتل والاغتيال عندما يحاول كبار لقبيلة عزله ولم يستجب فكان يتم الاتفاق على

اختيار من يثق فيه ويجوز الاجماع ويتم خلع من يتولى اذ كانت أفعاله تحقق أهدافا شخصية وكانت الشجاعة القتالية والحربية وكثرة الجمع حوله من أبنائه وأقاربه واخوته وذوى الوشائج والتفاف قلوب القبيلة حوله لاسيما شبابها الذى كان يجد فى شيخ القبيلة مثله الاعلى هذه الامور والصفات هى التى كانت تمهد السبيل أمام شيخ القبيلة للاستمرار فى رياسة قبيلته والعمل على مصلحتها .

لكن عندما استقرت بعض من القبائل الهلالية فى المدن واعتمادها سكنى الامصار وتغلبت عليهم حياة المدن وانصرفوا عن حياة البداوة فانهم تشبهوا بنظام الدولة فى ادارة المدن التى تخضع لسيطرتهم كما فعل ذلك بنو جامع الذين حكموا مدينة قابس وسيطروا على المدينة ما يقرب من تسعين عاما، وكذلك كان لكل قبيلة وزير يتولى أمورها كما حدث لعرب بنى فزارة .

وكان لكل قبيلة رجل يقوم بأمور الكتابة وكان لشيخ القبيلة وكيل عنه يقوم بجباية الاموال والاقطاعات الممنوحة من الدولة للقبيلة، وكان للقبيلة رجل محكم أو مفتى ويستفتى فى المشاكل التى تقع من الافراد بعضهم وبعض وتقبل أحكامه والذى كان لابد أن يكون ملما بأمور الشرع والدين حافظا لكتاب الله وعاملا بسنة رسوله الكريم .

كذلك قبائل بنى هلال التى كانت تقطن الاراضى الحجازية بالقرب من مكة المكرمة والمدينة المنورة كانت ترى فى القرآن الكريم مرجعها ومن هنا حرصت كل البطون والقبائل والافرع على تعليم أبنائها حفظ القرآن الكريم، ومن المرجح بل الثابت أن القبائل العربية الهلالية المستقرة فى المدن فى بلاد افريقية والمغرب وكذلك التى تسكن البوادى تأثرت بنظام التعليم الدينى الذى كان سائدا فى الدولة (بنى زيرى، بنى حماد، المرابطون- الموحدون، بنى حفص، بنى زيان، بنى مرين) ونهج زعماء القبائل

وشيوخها على تعليم أولادهم العلوم الاسلامية ومنها حفظ القرآن الكريم والحديث النبوى. وذلك لحاجة القبيلة إلى من يعلم أبناءها ويحفظهم القرآن الكريم فانتشرت الكتاتيب فى البوادى والقرى وفرق قمم الجبال والمدن الكبرى، بل فى الكهوف حيث بعض سكان البربر، بل أن رؤساء القبائل كانوا يرسلون كل أولادهم لحفظ القرآن الكريم، وكذلك فان هؤلاء الصبيان (الولدان) كانوا من مختلف بطون القبيلة، بل ان بعض القبائل كانت ترسل أبناءها إلى القيروان أو المدن الكبرى ليس لحفظ القرآن الكريم فقط بل الحديث وبعض العلوم الاخرى الاسلامية. وهكذا ظهرت القبائل العربية الهلالية بمظهر دينى أخلاقى تجلت صوره بوضوح حتى جاء بعض رؤسائها وأفرادها الذين كرسوا حياتهم للعلم والدين وعمل الخير واغاثة الملهوف والمحتاج واقامة الزوليا والربط والمساق فى مختلف أنحاء المغرب وتسهيل حركة التجارة والعمل بقوة وعنف ضد قطاع الطرق ومساعدة التجار فى العبور عبر أماكن اقامة القبيلة وظهور الكثير من الفقهاء والصالحين الذين كانوا نساكا عبادا وكانوا لا تأخذهم فى الله لومه لائم .

كذلك فان بنى هلال وهم يقطنون أرض المغرب البعيد عن الاراضى المقدسة فى الحجاز لم ينسوا أداء فريضة الحج فكثيرا ما كان شيوخ القبائل العربية بل بعض من أفرادها بالمغرب يصاحبون ركب الحجاج المغربى حيث كان العلماء يمشون إلى الحجاز فى ركب الحجيج المتجه إلى مصر ثم إلى الحجاز، فقد سافر بعض من عرب سويد وهلهل والخلط وغيرهم حاملين أموالا وهدايا إلى بيت الله الحرام والكعبة المشرفة والانفاق على فقراء الاراضى المقدسة وكانت القبائل العربية على طول الطريق تقوم بتسهيل أمور الحماية لقوافل الحجاج عبر بلاد المغرب سواء المستقرة أو البدوية كذلك فان وجود زعماء من العرب بركب الحجيج لابد وأن يكون معه تابعوه من فرسان

قبائلهم ورجال بطونهم لحمايتهم بصفة شخصية .

وكذلك كان ينضم لركب الحجيج العربى حجاج المغرب الاوسط والادنى والذين كانوا ينتظرون على طريق السفر وصول ركب المغرب لكى ينضموا اليه ومن هنا يكون موكب الحج سنويا لا يخلو من نخبة من رجال العرب وشيوخها وفرسانها وكان وجود جند الحدود من الفرسان العرب عاملا من عوامل الطمأنينه للركب مما كان يفسر على عدم التعرض لهذا الموكب الزاحف إلى الاراضى المقدسة وكان الركب يصل دائما إلى مصر رغم مروره بمناطق استقرار القبائل العربية ببلاد المغرب وكان الركب يحمل معه الهدايا والاموال الكثيرة التى وصلت فى احدى الرحلات إلى مائة وخمسين ألف دينار ذهبا وكسوة للكعبة الشريفة ومصحف مكلل بالجوهر والياقوت والاموال الطائلة التى كانت ترسل لتوزع على أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة وهى أموال كان يسيل لها لعاب قطاع الطرق والمفسدين، بل أن الركب كان ينعم بوفاء وكرمه وضيافة واستقبال القبائل العربية التى تسكن على طريق الحج .

وهكذا يتضح لنا دور العرب الهلالية فى نشر الطمأنينة والامان والعلم والايمان والعمل بما جاء به القرآن الكريم ومن كل هذه الخصال والصفات الاجتماعية التى انتقلت إلى المغرب وسادت الحياة اليومية لاهل المغرب نجد ذلك التلاحم والامتزاج والانصهار بين عناصر العرب والبربر مما ساعد على وجود تلك الفرشة العريضة والواسعة من البناء السكانى العربى والاجتماعى فى السلوك والعادات والقيم والتقاليد والاعراف التى لا زال يتصف بها الانسان المغربى الذى يبدو فى تصرفاته ملامح الانسان العربى المغربى الهلالى الذى نقل مفاهيم وحضارة الجوار الحجازى للمدينة المنورة ومكة المكرمة إلى أرض المغرب .

فانتقلت مفاهيم واعراف وقيم وعادات لم تكن سائدة فى البوادى والجبال

والسهول حيث كانت الزحفة العربية الاولى قبل منتصف القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى يقتصر دورها على العرب المستقرين بالمدن والامصار والذين أسسوا المدن الاسلامية وأقاموا الدويلات العربية الاسلامية ببلاد المغرب وذلك حتى أواسط القرن الخامس الهجرى، وهكذا كان انتقال القبائل العربية من هلال وسليم ومعقل إلى بلاد المغرب وانتقالها وامتزاجها مع العناصر المستقرة من البربر مظهرا من مظاهر التغير الاجتماعى الذى عرضنا له فى هذا الفصل وخدمة للاجيال اللاحقة التى ورثت مفاهيم اجتماعية ذات أصول عربية راسخة عاشت على تربة المغرب فأتت ثمارها فى ذلك الرصيد الحضارى الاجتماعى الزاخر فى أوجه الحياة المغربية .

البعد الاقتصادى للزحف الهلالى

لقد أتيح للعرب الهلالية عندما استقرت جموعهم فى مناطق استقرارهم بعد أن هادنوا السلطة السياسية واندمجوا مع الكيان السياسى للبلاد التى استقروا بها سواء بنى زيرى أو بنى حماد وتعاونهم مع المرابطين والموحدين وانتشارهم فى شتى أرجاء المغرب أن تسهم هذه القبائل فى تنمية اقتصاد البلاد التى وطنوا فيها حيث أن كثيرا من مدن المغرب المختلفة قد اتخذها الهلالية أوطانا استقروا بها أو كانت ضواحيها ومراعيها موقع استقلالهم وسيطرتهم، لقد شارك الهلالية فى البعد الاقتصادى للدول التى استقروا فيها فقد كانوا يتحركون فى يسر وسهولة كما سبق القول ومن هنا ساهموا فى الحركة الاقتصادية وساهموا فى تنمية موارد الدول التى استقروا بها سواء كانت زيرية أو حمادية أو مرابطية أو موحدية ثم فى العصور اللاحقة مع بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين .

وقد أدخل الهلالية إلى المغرب تربية الخيول العربية الاصيلة التى انتقلت معهم من مصر والجزيرة العربية ولقد كان من الطبيعى أن تهتم القبائل العربية فى المغرب

وأنواع الحيوانات المختلفة التى جلبتها معها من مصر وبلاد العرب حيث انها لاتستطيع أن تستغنى عن ممتلكاتها من الاغنام والمواشى والانعام وقد استفادوا بخبرتهم فى الاحتفاظ بسلامة أنساب الخيول والابل وكانوا يدافعون عن ثروتهم الحيوانية أكثر مما يدافعون أى شئ آخر فقد كانوا يحمون بها حريمهم وتعينهم على الاغارة والنجاة وتصحبهم حيثما يكونون حتى أصبحت هذه العلاقة الحيوية بين الفرسان والخيل يضرب بها المثل فى التعاطف والتآلف واشتهر بنو سليم وهلال بنى عامر بتوليد وتكثير الخيول الاصيلة وارتباطهم بهذا الحيوان فقد اعتمد الهلالية على الخيول فى فتوحاتهم فى هذه البلاد المترامية الاطراف فى أواخر القرن الخامس وقبل وفاة المعز بن باديس الزيرى يفضل كانت هديته إلى قرطبة خمسين فرسا ثم الحقها بتسعمائة بعد عودة ابنه من قرطبة، لكن معنى دور الهلالية فى كثرة وانتاج الخيل أن الخيل لم تكن موجودة قبل الزحف الهلالى، لقد كان لعرب الفتح دور فى ادخال الخيول العربية الاصيلة لكن الهلالية زادوا من أنواعها وأدخلوا سلالات جديدة لم يكن المغرب العربى يعرفها من قبل ولم يكن البربر يعتادون على تربية الخيول وركوبها فعلم الهلالية لهذه القبائل فن التلقيح الصناعى فى التوليد ثم كيفية انتجاع الخيول فى الكلا والمرعى .

ونظرا لاستقرار القبائل العربية فى بداية انتقالها إلى المغرب فى المنطقة الممتدة من برقة حتى المغرب الاوسط ازدهرت فى منطقة افريقية تربية الخيول حيث انتشرت الخيول السابقة حتى منطقة تلمسان وعندما انتقلوا إلى جميع أنحاء المغرب وانتشروا فى بواديه وأوديته فقد نقلوا معهم الخبرة العربية فى تربية الخيول فتأثرت بعض القبائل الزناتية (بنى توجين، بنى مغراوة) وغيرهم بهم وأخذوا عنهم تربية الخيول وتحسين أنسابها حتى اشتهرت الخيول العربية العازازية نسبة إلى بطن من زناتة وبلادهم تقع فى منطقة تادلا وكذلك قبائل جبل راشد من زناتة حيث كانت لهم شهرة فى تربية الخيول

وينسب أيضا إلى قبائل بنى حميد من زناتة وهى فرع غمارة البربرية بانتاج نوع معروف من الخيول العربية الاصيلة تعرف بالخيول الحميدية .

ويبدو أن قبائل عرب ذياب من سليم والمستقرين فى المنطقة الممتدة من برقة إلى قابس كانوا متخصصين فى تجارة الخيول ونقلها من بلاد المغرب إلى مصر المملوكية بالقاهرة حيث كانت حاجة الجيوش المملوكية إلى الخيول أشد وأكثر وبذلك تاجرت ذياب فى الخيول وكان يتم نقلها إلى الاسكندرية .

ويبدو ان الدول الحاكمة فى بلاد المغرب قد اعتمدت فى تزويد جيوشها بالخيول العربية بجانب ما كانت تنتجه مراعيها على انتاج الامارات العربية المختلفة بافريقية وكانت مراعى هذه الدول تحت رعاية واشراف القبائل العربية .

كذلك يتضح لنا من سير الاحداث فى بلاد المغرب الغربية الدور الذى لعبه عرب قيس فى انتجاب الاغنام وكذلك عرب عبد الله فى تربيتها حتى حازت الشهرة وقد أطلق على أهم أنواع الغنم الموجود بالمغرب لفظ المرينى نسبة إلى الدولة المرينية ومن المغرب نقل إلى الخارج، ويبدو أن شهرة الاغنام المرينية تعود فى حقيقة الامر إلى خبرة القبائل العربية واصالة المواشى التى نقلوها معهم أثناء الزحف إلى المغرب ولقد كانت تربية الخيول والاغنام تحقق للدولة ايرادا كبيرا .

وكما ذكر بعض المؤرخين أن الهلالية عندما دخلوا افريقية كانوا يغيرون على المزارع ويطلقون قطعانهم من المواشى والاغنام تأكل الحاصلات ويعيثون فيها فسادا، الا اننا نجد بعض المؤرخين يذكر انه قد نتج عن تخريب المزارع تخريب معالم الاقتصاد المغربى وفشل نشاط المزارعين البربر فيه مدة طويلة لكن بعد فترة من حياتهم بالمغرب أخذوا يقلدون البربر ويأخذون عنهم أساليب الزراعة والتجارة التى مهروا فيها قديما .

هذا واذا كان العرب الهلالية قد كان لهم دور كبير ومؤثر بل فعال فى تنمية الثروة الحيوانية ببلاد المغرب الا أن ذلك لا ينفى انه وجد من العرب الهلالية من استقر بالضواحى وزوال الزراعة وفلاحة الاراضى وذلك فى العديد من المواطن التى استقرت فيها بعض هذه القبائل التى اضطرت للاستقرار على طول بلاد المغرب من حدود برقة شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا فقد ساهم العرب فى العديد من المناطق فى الزراعة وفلاحة الاراضى الصالحة للزراعة واستصلاح الاراضى الصحراوية وتهيئتها للزراعة، على الرغم من تخريب العرب لبعض مدن الاقليم الا انهم نجحوا فى اعادة تعميره والعمل على ازدهاره وانهم استعانوا بالبربر الذين يحترفون الفلاحة. وبعد الاستقرار تحول العرب إلى الزراعة وازداد نشاطهم فيها وتحولوا إلى بناء المدن والمبانى الفخمة والاستغناء عن حياة الخيام ومن ذلك قبيلة الجوارى الذين عمروا القرى ونقلها اليها السكان وكان بدء التعمير عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م وقد شارك زعيم قبيلة الجوارى العمل بنفسه حتى يحذو حذوه باقى أفراد قبيلته ويتعاون العرب فى الاستقرار فى القرى والاشتغال بالزراعة .

ولقد ظهر دور العرب واضحا فى الاقاليم الجنوبية على أطراف الصحراء حيث بلاد الجريد والتى كون الهلالية فيها امارتهم المستقلة وهى مدن وبلاد كثيرة تشتهر بالنخيل وكثرة المياه والعيون والارض الخصبة والتربة الصالحة للزراعة .

كذلك اشتهرت امارة قابس العربية بكثرة الانتاج من المحاصيل والحبوب، كذلك اشتهرت مدينة قفصة بالانتاج الزراعى من الفستق والفواكه وكانت أنواعها كثيرة، كذلك كان للعرب الهلالية وجود وسيطرة على بلاد الزاب وسكانها من العرب رزاد الهلالية كثرتهم وذكر ابن خلدون ان بلاد الزاب التى عاصمتها سكرة بها مائة قرية وتشتهر بتربية الابل والبقر بجانب النخيل والزيتون وتحسن بها تربية المواشى وزراعة

الحبوب والثمار حتى أصبح أهلها من أغنياد افريقية .

وهكذا فان بلاد الجريد والزأب التى كانت محل سكنى القبائل الهلالية جنوبا قد تعددت فيها الثمار والصناعات الزراعية لانها اعتمدت بصفة رئيسية على زراعة النخيل وتصنيع انتاجه وهكذا نلاحظ أن هذه المنطقة التى تكونت فيها امارات عربية كانت لها علاقة بالدولة أو علاقاتها ببعضها وبالقبائل العربية المستقرة، وهكذا فان هذه القبائل العربية التى كثرت أعدادها واستقرت واضطرت إلى الاستقرار الدئم وأن تندمج بمن جاورتهم من أهل البلاد من السكان لاشك انهم لعبوا دورا فى الحياة الاقتصادية بتلك النواحى سواء عن طريق احترافهم للزراعة أو التجارة أو الرعى وقد تملك العرب الهلالية البوادى والسهول حتى لم يبق بين الدولة الا ما ضمته أسوار المدن وكذلك بالاضافة إلى ما اقطعته لهم الدولة بالهبات والاقطاعات التى استفاد منها العرب وزرعوها وأفلحت المحاصيل الزراعية بها وقد كانت ملكية الاراضى الزراعية للقبائل التى تسكنها وقد شجع استقرار العرب الكثير من الناس على احياء الارض الجرداء حتى يمتلكوها اقطاعا، الا ان سيطرة العرب الهلالية على الارض قد أفقد بنى زيرى نفوذهم فلم تعد الارض لهم بعد هذه السيطرة. لكن هناك من يذكر (ابن خلدون) ان العرب الهلالية قد عاشوا فى الملكيات الزراعية عياث النار فى يبس العرفج وجاورهم فى ذلك ذوو النفوذ الاقتصادى والمركز الاجتماعى فكثر استغلال أرض الاخرين ظلما والتعدى على الاراضى فلجأ ضعفاء الناس إلى بيع أراضيهم بسعر زهيد، ولقد استفاد العرب الهلالية من الاستيلاء على الاراضى الزراعية واستغلالها أحسن الاستغلال لكى تؤتى بالمحاصيل الجيدة وأصبح العرب ملاكا كبار ومن أولى الشوكة بعد أن لم يكن لهم شيئ حتى ملكية الارض قد اقتصرت الملكيات الزراغية الكبيرة على جمع كبير من الاسر الهلالية الكبيرة وقد استغلوا نفوذهم فى ملكية الاراضى الزراعية وقد بسطوا

سيطرتهم الاقتصادية ولم يفلح وجود الموحدين من اضعاف هذه السيطرة على الرغم من هزيمتهم للعرب الهلالية لكن بعد الصلح معهم فان عبد المؤمن قد أمر العرب الهلالية بالعودة إلى أوطانهم وفلاحة أرضهم ومن هنا فقد اتسعت الزراعة فى المغرب كله وعم الرخاء أرجاء البلاد. وسادت الحياة الرفاهية إلى نهاية القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى لكن الثورات العربية فى قفصة وتحالف الهلالية مع الاعزاز ومع بنى غانية فى خلافة المنصور والناصر وما تم من تخريب قد اتسعت زروع قفصة وأثمارها وثمارها وذلك لسيطرة بنى هلال وحلفائهم على السهول الزراعية كلها.

وقد أثرت هذه القبائل فى الحياة الاقتصادية العربية المغربية تأثيرا ملحوظا اذ نقلوا إلى المغرب فى خبرتهم الطويلة فى تنمية موارد الثروة الحيوانية كما عهدت اليهم دول الغرب ادارة مراعيها وتربية أغنامها، كذلك نجحوا فى الزراعة والفلاحة وفى اعادة تعمير المنطقة الممتدة من برقة إلى طرابلس وزراعتها حتى اشتهرت قراها بأنواع خاصة من المحاصيل الزراعية التى كان يتم تصديرها داخليا وخارجيا .

وقد بذل العرب الهلالية جهودا كثيرة لتوفير المياه للزراعة واستخراجها من باطن الارض وجلبها من الاماكن التى تتوافر فيها إلى مناطق الزراعة وانهم اهتموا بالرى وأولوه عناية خاصة، اضافة إلى الامطار وذلك مستفيدين من خبرة من سيقوهم فى سكنى هذه الاقاليم حتى انهم ما أن استقروا حتى شرعوا فى استكمال ما بدأه أولئك السكان من العرب القدامى أو البربر حتى انهم أقاموا السدود لحجز مياه الامطار وحفروا القنوات للرى والزراعة وساعد وجود المياه على كثرة زراعة المحاصيل الزراعية فى السهول أو الجبال والوديان وكان العيش بجوار الاراضى الزراعية أو القرب منها حتى لتكاد القرى المنتشدة مثلا فى اقليم الزاب تكون متصلة مع الاراضى الزراعية .

ومن كل هذا يتضح أن العرب بعد استقرارهم فى القرن السادس الهجرى ونهاية

القرن الخامس قد كانوا عاملا هاما فى الاقتصاد الوطنى للبلاد وانهم ساهموا بما كان لديهم من امكانيات فى تنمية الموارد الزراعية وادخال محاصيل جديدة لم تكن معروفة من قبل فى البلاد وزاد زراعة الحنطة والشعير والقمح والزعفران وقصب السكر والقطن وزاد انتاج الحرير فى قابس واستفاد العرب من الاخشاب الموجودة فى تونس، وزاد ازدهار صناعة الحرير فى قابس والقطن فى قسنطينة والقمح والشعير والحنطة فى منيسجة، وكان استقرار الامن فى البلاد الشرقية بعد استقرار الهجرات الهلالية قد ساعد على ازدياد الايدى العاملة والناس حيث كان العرب الهلالية يضطرون إلى استئجار عمال زراعيين من البربر أو غيرهم من العبيد والسودان لقطف المحاصيل وجنيها وحملها إلى المدن وتميزت الاقاليم العربية بتنوع المحاصيل ووفرة الانتاج لاسيما فى السهول والجبال وأصبحت بلاد المغرب الاوسط المصدر الاساسى للطعام فى ظل حكم بنى حماد الذين نجحوا فى مداراة هذه القبائل وتقربها اليها بالاقطاعات والجعالات والاستعانة بفرقها النشيطة فى حروبها الاهلية فانفتح المجال أمام بنى هلال واستولوا على البسائط والسهول وساعد ذلك على التحسن الاقتصادى ورقى البلاد من آثار عدوانهم ونجح الحماديون نجاحا ملموسا فى ذلك مما ساعد على ازدهار النشاط الاقتصادى وتقدم الزراعة والحرف الاخرى التى أدت بدورها إلى الانتعاش التجارى وتقدم حركة التبادل وازدياد حجم التجارة .

وكما ساهم العرب العلالية فى الانتاج الحيوانى والزراعى فانه من الطبيعى أن تتأثر التجارة فى بلاد المغرب حيث انتشار القبائل الهلالية خلال القرن الخامس الهجرى وذلك بما طرأ من تغيرات على مراكز الانتاج الحيوانى والزراعى، ذلك لان الحركة التجارية قد نشطت بشكل جديد بعد استقرار العرب النهائى واندماجهم فى أطر الدولة التى يعيشون فيها ودخولهم فى التجارة فى الاسواق، هذا من ناحية بنى هلال

اما الدولة الصنهاجية فلم يكن امامها بعد سيطرة الهلالية الا المدن الساحلية أو المدن الداخلية الحصينة سوى الاعتماد على التجارة كمورد أساسى للدخل وقد أخفق بنو زيرى على الرغم من الجهود التى بذلها تميم بن المعز وابنه يحيى بن تميم فى تأمين الطرق التجارية (لبن الاثير، الكامل) ومن ثم فكروا فى البحر وحارلوا تأمين الطرق البحرية والاستفادة من خبرة أهل بلاد المشرق الاسلامى .

وقد استطاع بنو خراسان العرب حكام تونس الاستفادة من فرض الامن فى البلاد وحافظوا على علاقات طيبة من أجل التجارة، وكان بنو حماد حكام القلعة ثم بجاية فى وضع تجارى أفضل من أبناء عمومتهم بنى زيرى وذلك لما صالحوا العرب على وسائل تمنع هجومهم على المدن وأعفوا أهل بجاية من الضرائب على التجارة الداخلية إلى المدينة وكانوا على علاقة طيبة مع جيرانهم مما جعل بجاية من أهم مراكز التجارة فى السلع الواردة من بلاد السودان جنوب الصحراء الكبرى وبعد أن سيطر العرب الهلالية على بلاد المغرب فقد أخفقت قبائل زناتة البربرية فى حماية التجار وطرق التجارة. ذلك لقدرة العرب الهلالية ونشاطهم فى السيطرة على الطرق التجارية بين افريقية والمغرب وبلاد السودان حيث كانت الطرق الصحراوية تمر بمناطق استقرارهم إلى المدن الكبرى فى السودان .

وقد سيطر العرب فى منتصف القرن السادس على المدن التالية وهى زالة وزويلة ومنيج ووادان وصرت وزويلة وصارت هذه المدن الخاضعه لسيطرة العرب الهلالية تحت سيطرة العرب واكتسبت مركزا تجاريا متقدما مع بلاد السودان (كانم، برنو، مالى، غانا، سنغاى) أنظر رسالة الدكتوراه والماجستير الخاصة بى (سلطنة برنو الاسلامية، السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية) وكانت سيطرة بنى مزنى واتخاذهم بسكرة عاصمة اقليم الزاب تخضع لسيطرة القبائل العربية على هذه الطرق .

كذلك فان طريق المغرب الاقصى الممتد من سجلماسة ثم درعة إلى أودغست ثم النيجر فقد كان يخضع لحماية فرسان بن عبد الله نظرا لطول الطريق وكبر حجم القوافل التى تمر فيه، وقد تحكمت قبائل ذوى حسان وبنى عامر فى هذا الطريق الحيوى واحتكروا التجارة من المغرب وبلاد السودان ومع نهاية القرن السادس الهجرى تمكن عرب ذوى حسان من السيطرة على هذا الطريق بعد سيطرتهم على السوس واقتسامهم جبايته وحمايته من قبائل المصامدة وصنهاجة .

وقام عرب بنى معقل من الهلالية بالتجارة فى الملح يصدرونه إلى بلاد المغرب حيث كان الملح يحمل من سجلماسة ثم يصل إلى بلاد السودان، وكذلك فى المغرب الادنى قام عرب ذياب من بنى سليم الذين استقروا فى منطقة طرابلس وما حولها بالتجارة بالملح يستخرجونه ثم يرحلون به إلى بلاد السودان ثم كان عرب الجوارى من سليم يستخرجون الملح ويتاجرون به مع دول أوربا المسيحية شمالا. ويبدو أن العرب احتكروا تجارة الملح سواء مع بلاد السودان أو مع الدول الاوربية وتاجر العرب مع بلاد السودان من أجل الذهب والصمغ، وقد تغلب الهلاليون على طرق القوافل فلا يجتازها غيرهم الا بحراسة أحدهم وقام الهلاليون بحماية الطريق خير قيام ووسعوا نطاق التجارة بين المغرب وبلاد الصحراء .

وكما سيطروا على التجارة الخارجية والطرق الموصلة إلى بلاد السودان وأوربا فانهم أيضا سيطروا على التجارة الداخلية واحتكروا تموين بعض المدن بكل ما تحتاج اليه من سلع غذائية وآلت اليهم تجارة مدينة (بونة) عنابة وأمدوا مدينة تونس فى ظل حكم بنى خراسان بما تحتاج اليه من الحبوب والعسل والسمن وشاركوا تجار مدينة قسنطينة فيما يتاجرون حتى عمرت أسواقها بالعرب وأغنى تجارها، كذلك لعبوا دورا هاما فى التجارة مع الديار المصرية وبلاد الشرق كالشام وبلاد العراق واليمن والحجاز،

فقد سيطرت القبائل العربية بالمغرب على التجارة مع هذه البلاد وفرضوا سيطرتهم على الطريق التجارى المؤدى من الاسكندرية إلى طرابلس وأقاموا فرقا من الفرسان للقضاء على كل ما يهدد أمن هذا الطريق ضمانا لاستمرار الحركة التجارية ودوامها مع بلاد الشرق (البكرى، المغرب) .

وكانت برقة المحطة التجارية الاولى فيما بين مصر وبلاد المشرق الاسلامى وبلاد المغرب يحمل العرب منها إلى مصر الاغنام حتى قال البكرى أن أكبر ذبائح مصر من اغنام المغرب وكذلك العسل الذى اشتهر بانتاجه العرب وغيره من الصناعات والمواد التجارية التى كانت تجد اقبالا شديدا عليها فى بلاد مصر وبقية بلاد العالم الاسلامى الشرقى ولقد كان المغرب خلال القرن الخامس الهجرى وأوائل القرن السادس يصدر القمح إلى السودان وبلاد سوريا وصدرت التين واللوز إلى أوربا وكذلك التين إلى مصر وكان الزيت والتمور تصدر أيضا إلى بلاد السودان وكانت التمور السوسية(نسبة إلى بلاد السوس) تصدر إلى ورجلان وأوربا شمالا ويصدر الفستق انتاج قفصة إلى الديار المصرية وربما بلغ اليمن وأوربا وجنوب ايطاليا وكريت وزيت صفاقس إلى بلاد الروم وصقلية وايطاليا وسواحل أوربا ومصر وكان السكر يصدر إلى أوربا والثياب النفراوية إلى مصر والاقمشة الكتانية إلى تونس وترسل الثياب الحريرية والكتانية الملونة والزعفران إلى بلاد السودان وتصدر الثياب السندسية الغالية إلى الهند وكانت الجلود أكثر السلع المصدرة إلى بلاد المشرق وقد تحمل الماشية إلى جنوه وبيزا وكان المغاربة يرسلون النحاس إلى أوربا أو بلاد السودان بعد اعادة تصنيعه وكان الزئبق يصدر إلى عدة أقطار ووصلت تجاره بلاد المغرب إلى الهند والصين .

وهكذا نشطت حركة التجارة والصادرات من البلاد المغربية فى ظل الوجود الهلالى الذى ساهم بدور لا يقل فاعلية عن أدوار بقية سكان المغرب فى الحركة

التجارية وساهموا اسهامات كبيرة فى التحول الاقتصادى بالبلاد ودفعوا حركة التصدير إلى آفاق أوسع بما بذلوا فى الانتاج الزراعي والحيوانى واستخراج المعادن من باطن الارض ولم يكونوا عولا على أحد فى تلك البلاد الواسعة ولم يكونوا عامل افساد وخراب بل عمروا البلاد وأقاموا المدن الجديدة وأسهموا فى تطويرها ورقى مرافقها وكان لهم باع طويل فى النشاط التجارى وقد وفروا الامن والامان لحركة القوافل التجارية وقاموا بحراسة طرق المواصلات بين الشمال والجنوب وحماية الطرق الداخلية المتجهة إلى أوربا شمالا وفرضوا حراسة مشددة من الفرسان للضرب على أيدى من تسول لهم أنفسهم بالتعدى على القوافل التجارية التى كان يصل عددها إلى آلاف الجمال التى كانت تحمل الصادرات جنوبا والواردات شمالا. وبذلك أعطوا دفعة قوية للنشاط التجارى والاقتصادى وكبحوا جماح القبائل البربرية كزناتة والمصامدة وصنهاجة الذى كان بعض من بطونها تعتدى على القوافل وقاموا بحماية الطريق المؤدية إلى بلاد المشرق الاسلامى .

وقد أدى ذلك إلى الازدهار التجارى والاقتصادى وبدوره انعكس على حياة السكان الاجتماعية وساعدوا على نمو المدن ودخول حياة المدينة على نطاق واسع بعد أن كانت تغلب عليهم حياة البداوة واكتسبوا المعارف والخبرات الفنية والعلمية وأصبح جزء كبير منهم من تلك الطبقة الراقية والوسطى بالاضافة إلى بعض من بطونهم كانت من الطبقات الحاكمة المسيطرة على مقاليد الامور فى بعض المدن كما سبق القول وأخذوا بيد اخوانهم البربر وشاركوهم فى معيشتهم وتطور حال البربر وتحول حالهم فى ظل الاندماج والامتزاج مع العرب وكان ذلك من أسباب الرقى الحضارى وظهور الفنون الزخرفية والمعمارية الحديثة فى فن البناء وتطور فن العمارة فى العديد من المدن وتطور الفكر والثقافة واللغة والفن والحضارة وعلوم الدين ولا نبالغ اذا قلنا أن

العرب بتعاونهم مع البربر والاندلسيين كانوا سببا رئيسيا فى تقدم الحضارة العربية المغربية فتقدمت حضارة وازدهرت اقتصاديا .

ومن كل هذا فقد لعب العرب الهلالية واخوانهم من بنى سليم والذين هاجروا معهم أدوارا هامة على مختلف الاصعدة الاجتماعية والحضارية والاقتصادية وكانت بصماتهم واضحة جلية فى كل هذه الميادين المختلفة .

الفصل السابع

لماذا الحملة العدائية ضد بنى هلال

أثار ابن خلدون ومن جاء بعده من الكتاب الذين ساروا على نهجه دون محاولة دحض هذه الآراء ، حملة عدائية ضد بنى هلال وتحامل مؤرخو الغرب على كل ما هو عربى متخذين من أقوال ابن خلدون حجة شرعية مشهودة على العرب ، لكن كل هذه كانت ادعاءات لا سند لها وسنحاول فى الفصل القادم تمحييص وتدقيق كل هذه الآراء .

لكن مهما يكن فقد ذكر ابن خلدون عن الاثر المدمر للغزوة الهلالية قائلا ان افريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطها خرابا كلها بعد أن كانت بين البحر الرومى والسودان كله عمرانا فشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدن .

فهل كانت كل آثار الهجرة الهلالية على المغرب بهذا السوء لقد تعصب ابن خلدون ضد القبائل العربية التى انتقلت إلى المغرب ونسب إليهم التوحش والهجمية واشترك بعض مؤرخى العصور الوسطى فى اتهامهم بتدمير وتخريب بلاد المغرب بعد أن كانت جنة بغاباتها وحقولها المزدهرة ومدنها وقراها الحافلة بالسكان ويلخص ابن خلدون أفكار من قبله من المؤرخين فى دور العرب التخريبى بالمغرب بالمقولة السابقة .

لكن الادريسى الذى يعطينا أدق وصف لمدن المغرب بعد وصول الهجرة إلى افريقية وتتبعه لها ووصفه لمدنها وفى الوقت الذى نراه يصف دور العرب المخرب لبعض المدنه مثل المسيلة وقراها بقوله توارت وهى قرية كبيرة عامرة وإلى هنا تصل غارات العرب وضررها وكذلك حصون المسيلة بقوله (وجميع هذه الحصون أهلها مع العرب

فى مهادنة وربما أضر بعضهم ببعض غير أن أيدى الأجناد فيها مقبوضة وأيدى العرب مطلقة الأضرار وموجب ذلك أن العرب لها دية فيمن يقتل ، أما مدينة باغاى فالأسواق فى المدينة والأرياض خالية بإفساد العرب لها وكذلك عند وصفه لمدينة المهدية وزودلة والقيروان ونراه فى مواضع أخرى من كتابه نزهة المشتاق وصف تآلف العرب مع سكان المدن من البربر وتعاونهم معهم سواء فى الزراعة والفلاحة والتجارة فيصف بلدا كالمستنير بقوله وهى قصور ثلاثة يسكنها قوم يتعبدون والاعراب لاتظهرهم فى شئ من شجرهم ولا فى عمرانه وكذلك تونس هى مدينة حسنة وجل معاملات أهلها مع ثقاة العرب وأمرائها وهى الآن معمورة موفورة الخيرات يلجأ إليها القريب والبعيد والعرب تجاور أرضها وتأتى بأنواع الحبوب إليها إليها والعسل والسمن ما يكفى أهلها غدقا ، ويصف قسنطينة بقوله بأنها مدينة عامرة وبها أسواق وتجار وأهلها مياسير ذوو أموال وأحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك فى الحرث والادخار والحيطة .

ولقد حاول ابن خلدون الصاق تهمة للعرب بتخريب المدن والقرى ، وقد سار على نهجه بعض المؤرخين والدارسين من قول بشاع يصف الزحف الهلالى بأوصاف غريبة ويلقى عليها تبعية تدمير المغرب ومدنه وتخريبه بعد أن كان كثير العمران كثير الزراعة وقد أشار ابن خلدون فى غير موقع إلى تخريب عرب الزحف الهلالى للمغرب وأزعجوا سكانه وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قفرا وخرابا وأوحش من جوف العير .

ويعلق الأستاذ الميلى فى كتابه تاريخ الجزائر بقوله أفقر من بلاد الجن وأوحش من جوف العبر فهى مبالغة أجنبية من أسلوب التاريخ والمهم أن نشير إلى أن ما نقله ابن خلدون وأمثال من تقول وتجنى وتطاول من بعض المؤرخين المسلمين يتضح فيه المبالغة والتهويل وعدم التمحيص والتدقيق والتحرى وراء أسباب المشكلة وفى الحقيقة الثابتة التى لاتقبل مراء أو جدالا أن حركة الزحف الهلالى لم يكن لها من مؤرخين

عرب يؤرخون لها دورها أو يتابعون تحركاتها ، ولم يسجل أحداث الزحف إلا مؤرخو الدول البربرية (بنى زيرى ، بنى حماد) والذين أرخوا فى أوائل الزحف وقبل التصالح مع النظم السياسية القائمة وأنه من الطبيعى أن يشوهوا صورة العرب الهلالية ويقفوا إلى جانب الدول البربرية مجاملين لها .

وقد تلقف بعض الكتاب والمؤرخين من غير المسلمين هذا القول مثل المؤرخ الفرنسى العسكرى الحديث هول كاريت Carrette حين ذهب فى وصف الآثار المدمرة للغزوة الهلالية بالمغرب بأشنع التهم وشبه الهجرة الهلالية بالأعصار الذى يقتلع الأشجار ويهدم المنازل أو بالحريق الهائل الذى لا يخلف وراءه غير رماد تذروه الرياح وقد أورد أمثلة كثيرة من عند ابن خلدون ، واستغل الغربيون ذلك ووجهوا نيرانهم إلى العرب للتفريق بين العرب والبربر (التفريق بين العرب والزنوج فى السودان) ولعبوا لعبتهم فى العصر الحديث بل أن هول كاريت لم يكتف بالتطاول على بنى هلال بل تطاول على كل العرب الذين وصلوا المغرب فقال ان انتقال العرب إلى المغرب فى عهد الفاتحين الأول فى القرن الأول الهجرى كان كالأعصار يقتلع الأشجار ويهدم المنازل ، وفى عهد الزحف الهلالى كان كالحريق الهائل يبتلع الأشجار والمساكن ويتركها رمادا تزروه الرياح وانتهى إلى أن ما أبقاه الأعصار قضى عليه الحريق .

هذه أقوال رجال الغرب الذين اعتمدوا على أقوال ابن خلدون ومابقى من السياسة العربية قائما بالمغرب ذهب به الطبع العربى الهدام ، فأتم الهلاليون أعمال التخريب التى ابتدأها الخلفاء الأولون (الفاتحون المجاهدون فى سبيل الله فى القرن الأول الهجرى) أن العرب لم يفعلوا أدنى شئ بالمغرب إنما هى افتراءات غربية لتشويه كل ما هو عربى لقد شوهوا صورة العرب والإسلام بكل ما لديهم من أقوال .

بل إننا بكل أسف نجد بعضا من مؤرخى المغرب المعاصرين كابن عثمان العكاك فى كتابه موجز تاريخ الجزائر العام لم يجانبه الصواب ولم يقنن الحقائق وكان تصويره

غير سديد فى أن صور هجوم الهلالية كهجوم قبائل الوندال على أوربا وتدميرها وفى ذلك مبالغة غير دقيقة وغير علمية بل يتصف بالإنسياق وراء المجهول غير العلمى ولكنه يمكن القول من كلام كاريت ظهور الروح الصليبية والتعصب العنصرى والعداء الواضح والقوى المعادى لكل ما هو عربى ومعاداة قوية للإسلام والعروبة ، بل أنه لم يكتف بالحكم والتعنت والكيد للهلاليين ، بل عاد إلى الوراء ليحول الفتح الإسلامى الحضارى الثقافى والدينى والعلمى الأخوى ذى الصورة التى لم يكن لها مثيل فى كل الفتوحات العالمية الذى اتسم بطابع الاخوة والمحبة والتسامح بين العرب والبربر (طارق بن زياد البربرى وفتوح المغرب والاندلس) ليصف تلك النخبة الطاهرة من شهداء الكاهنة ومذبحة القيروان ، وسياسة عرب الفتح فى اشراك البربر فى جيش الفتح ومنحهم حقهم المشروع فى العطاء وساوى بين العرب والبربر فى الحقوق والواجبات وفى الاشتراك فى النقيط . لكن يأتى هذا الصليبى كاريت فيصف الفتح الإسلامى الخالد بالأعصار الذى يقتلع الأشجار ويهدم المنازل وفى ذلك يصف الطبع العربى بصورة عامة بأنه هدام متناسيا أن العرب هم الذين نقلوا الحضارة إلى أوربا وهم الذين علموا أوربا كل العلوم وهم الذين نقلوا إليها ألوان الحضارة الفكرية والمادية (راجع كتابنا الإسلام والثقافة العربية فى أوربا ، طبع ١٩٧٩ القاهرة) .

لكن أسلوب كاريت فى الاقتباس السابق عن ابن خلدون يختلف كل الاختلاف عن الكتابة التاريخية فى العصر الحديث الذى يتسم بالتدقيق فى الفكرة والعبارة والبعد عن منطق التعميم وطرح النزعات العصبية جانبا والبعد عن الاحقاد الموجهة للأديان ، لكن القول الفصل فى ذلك الموضوع أن تاريخ الزحف الهلالى العربى الإسلامى إلى المغرب قد ناله كل الظلم والجور والتعسف بنعوت لم يكن من طباع العرب ، وإن كان ابن خلدون قد اعتمد على أقوال أو كتابات فهى بربرية (لانريد أن نفرق بين العرب والبربر) كما أن تاريخ بنى هلال نفسه ناله بالتالى بعض الحيف والظلم المتعمد من جانب بعض المؤرخين من غير المسلمين أو المسلمين لانهم

درسوا فى معاهد وكليات غربية فغلب على بعض منهم روح البعثات الصليبية وتسيطر على فكرهم سياسة التفريق التى توضع دائما نصب أعينهم ويحاولون بذر بذورها فى كل مجتمع عربى .

لكن نجد الميلى يعزو ما لحق بالمغرب من أضرار يعود فى المقام الأول إلى الدولة الزيرية الصنهاجة التى لم تحسن التعامل مع هؤلاء العرب كما فعل بنو حماد أصحاب القلعة ثم انهم يتحملون وزر ما فعله الهلاليون ويكونون مسئولين مسئولية كاملة عما لحق بهم من أضرار ، وقد بالغ كتاب العربية فى تقدير تلك الأضرار إلا أنهم كتبوا لدول بربرية ولم تكن للهلاليين حكومة تهتم بدعاية سياسية لهم .

لم تكن الغزوة الهلالية شرا كما صور بعض المؤرخين بل كانت خيرا يفخر به المغرب العربى فان الفضل فى ذلك يرجع إلى أولئك العرب الهلاليين الذين قدموا خدمة كبيرة لعروبة المغرب وأضاءوا وجهه بالحضارة العربية الإسلامية وأشاعوا العمران وبذروا معالم الحضارة العربية الإسلامية لكن مع الأسف الشديد فان ابن خلدون عندما تحدث عن العرب فى مقدمته كان شديد التحامل على العرب الهلاليين وما فعلوه فى المغرب فجاءت صور الحرب فى المقدمة قاتمة جدا ومن هنا فقد أدى بنو هلال خدمة كبرى وجليلة للمغرب ولعروبته وحضارته وأصالته العميقة عبر التاريخ .

واتخذ الكتاب المستشرقون من أقوال ابن خلدون مادة يبالغون فيها ويرمون الغزوة الهلالية والعرب والإسلام فى العصور الوسطى بما لا يقال إلا أنه صورة للحملة الصليبية وبرروا هجومهم على عرب المغرب بما فعلوه عن ابن خلدون ومدحوا البربر وتقربوا إليهم بعدما كانوا يصفونهم بالصفات البشعة والأعمال المنحطة فهى عصور ما قبل الإسلام وبعد الإسلام (العصر الحديث) .

ويتحدث المؤرخ المغربى جرمان عياش فى مهرجان ابن خلدون عن عرب القبائل الهلالية وبنى سليم قائلا : أن بعض المؤرخين المعتمدين على ما كتبه ابن خلدون عن

عرب بنى هلال وبنى سليم قد أسرفوا فى تعليل تسلسل الأحداث وتطور الأحوال فى المغرب بفساد العرب المستمر منذ القرن الخامس الهجرى وحتى القرن الحالى فليس من المعقول أن تتسبب بعض القبائل فى انحطاط قطر عظيم مثل المغرب الممتد من حدود مصر غربا إلى شاطئ المحيط الأطلسى وانحلاله وتدميره وتخريبه لمدة عشرة قرون متصلة وليست القبائل الهلالية هى السبب الأساسى لما حدث ، أما دور العرب فمرتبط ونتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى كانت سائدة قبل قدومهم إلى تلك الديار وفى أثناء تواجدهم ونتيجة لتلك الحياة التى فرضت على هذه القبائل وعملية استقرارها وما نتج عن ذلك من تفاعل حروب ومصادمات (أظهر دورها المفسد لاقتصاديات بلاد المغرب) لكن دورهم الايجابى كما ذكرنا فى الحياة السلالية والجنسية والتركيبة البشرية والحياة الثقافية والاقتصادية والدينية ، بل فى شتى نواحى الحياة كان كالعملة لها وجهان فكان الوجه الباسم للدور الهلالى هو تلك العملة التى حاول كتاب الغرب أن يطمسوا معالمها وهكذا أظهر بنو هلال لونا من ألوان الحضارة الإسلامية وأسهموا بنصيب غير قليل فى شتى نواحى الحياة الثقافية والاقتصادية والعمرانية واهتموا بأمور الثقافة والتاريخ والقوات العسكرية . واهتموا كذلك بالأسطول والسكة واتخذوا دارا لضرب العملة وعاشوا حياة الاستقرار والحضر وفى وفرة من العيش وأصبح تأثيرهم أكبر مما يقال عنه وتمكنوا بالاندماج مع أهل المغرب واختلف هذا الاندماج من حيث الدرجة من مكان إلى آخر بان يكونوا عنصر قوة فى حياة المغرب .

كذلك فان المؤرخين المعتدلين أجمعوا على أن الخسائر التى لحقت بالمغرب وافريقية كانت خسائر عادية بل أقل بكثير مما يحدثه أى جيش فى الحروب وهى خسائر نتجت من أثر المعارك الحربية التى دارت بين الفريقين ولم تنتج عن روح تدميرية تخريبية وأن العرب فى هذا المجال وقع عليهم ظلم كبير بل جور شديد من جانب ابن خلدون ومن سار على نهجه بالقول أنهم دمروا أفريقية ولم يتركوا مكانا إلا بعد أن صار

قاعا صنصفا قفرا أوحش من بلاد الجن ، وأن هذا الاتهام فيه مبالغة كبيرة جدا يدل على ذلك احصاء المدن التى قيل أنهم خربوها وهى مدن قليلة العدد وان الانقسامات التى حدثت فى المغرب خلال القرن الخامس كانت قد بدأت قبل قدوم العرب إلى افريقية ومن ذلك انفصال بنى حماد عن أبناء عمومتهم بنى باديس وتفكك الدولة الواحدة إلى دولتين فلم تكن المسيرة الهلالية السبب فى هذه الانقسامات ومن هنا يمكن القول أن وجود العرب فى هذه المنطقة من بلاد المغرب فى تلك الظروف أضاف إلى عوامل الانقسام عاملا جديدا ، وإن لم يكن هو العامل الأساسى ، ثم وقوف القبائل الهلالية أمام جيوش الموحدين القادمة من المغرب الأقصى صفا واحدا لمنعهم من السيطرة على بقية المغرب ، ألم يكن هذا دفاعا عن كيان دولة بنى زيرى (بنى باديس بنى حماد) أن تثبيت دعائم الإسلام وتوطيد أركانه وبذر اللغة المغربية الفصحى العربية فى الصحارى والبوادى والقفار والواحات وقمم الجبال وسام على جبين الزحف الهلالى .

الفصل الثامن

الرد على ابن خلدون فيما نسبه للهلالية

سوف نحاول هنا فى هذا الفصل الرد على ما جاء عن ابن خلدون فى مقدمته باتهامه العرب باتهامات لاتمت بأدنى صلة لهم ولقد أفاض فى الحديث عن العرب ووصفهم بأوصاف كثيرة مما يدل على أنه لم يكن موضوعيا فى كل ما قاله . فهو يصف العرب بالعصبية وتخريبهم العمران وأن العرب أهل خيام وأن العرب أبعد الناس عن الصنائع وذلك لإسرافهم فى البداوة والتوحش فى القفر والبعد عن العمران الحضارى ، ثم تحدث فى كتابه العبر وديوان المبتدأ والخبر وحملهم كل ما أصاب افريقية والمغرب من خراب ودمار وقد سبقت الإشارة إليه فى الفصول السابقة .

ونحن هنا نحاول اتباع الأسلوب العلمى الموضوعى فى محاولة الرد على ابن خلدون ومقارعة الحجة بالحجة وأن نلقى بالدليل أمام القارئ ليقتنع بما نقوله علميا لاأقوالا جزافية المقصود من ورائها الدفاع عن بنى هلال وأفعالهم .

فنحن نسلم أولا أن ابن خلدون شخصية علمية يرجع إليها الفضل فى وضع أصول علم الاجتماع وفلسفة التاريخ وعلوم العمران والسياسة وأن مؤلفاته تركت بصماتها على شتى فروع العلم المتعلقة بالتاريخ والاجتماع والعمران والسياسة وغيرها من العلوم المختلفة وان اسهاماته العلمية لها دور فى المعرفة ، بل أن هناك العديد من الرسائل العلمية الاكاديمية كالماجستير والدكتوراه قد نوقشت فى الجامعات المصرية والعربية والأوربية والاميريكية حول دراسات ابن خلدون ، لكن نقول أن لكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة ولكل صارم نبوءة « بعد » ، ولقد كانت هفوة ابن خلدون البالغة ذلك التجنى الشديد على العرب ومن هنا فان أقواله هذه لابد أن نخضعها للدراسة والبحث والتمحيص والتدقيق لانها قوة تخضع للخطأ والصواب وهى ليست

نصوصا قرآنية لايمكن الاقتراب منها ، بل هى دراسات من الممكن هدمها إذا قدم الدليل القوى الذى يقبله العقل والمنطق ويسير وفق مجريات الأحداث فى تلك العصور ، فان ما كتب فى العصور الوسطى لم يكن ليؤخذ كقضايا نسلم بها ويسير اللاحقون على نهجها ، بل من الممكن استبعادها كلية والدراسة بمفهوم منطقى .

وبالنسبة لابن خلدون نقول أنه كتب مؤلفاته بعد عام ٧٥٨ هـ حيث انتهى من تأليف المقدمة فى خمسة شهور كان آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم بدأ بعد ذلك بكتاب تواريخ الأمم المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر . ثم أن ابن خلدون قد توفى عام ٨٠٨ هـ / ١٤٠٥ م مع بداية القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى هذه حقيقة ثابتة وكل المشتغلين بدراسة التاريخ الإسلامى يعرفون هذا .

وبالنسبة للزحف الهلالى أقول أنه بدأ عام ٤٤٢ هـ وفى عام ٤٤٣ هـ / ابريل ١٠٥١ م وأن المعز بن باديس ترك القيروان إلى المهدية عام ٤٤٩ هـ / ١٠٥٧ م ومن هنا فان المسافة الزمنية بين معركة حيدران وتأليف كتاب المقدمة ثلاثمائة وستة وأربعون عاما (ثلاثة قرون ونصف وهى مسافة بعيدة زمنيا وعلى ذلك فان ابن خلدون لم يكن من شواهد الزحف الهلالى إلى المغرب ولم يكن معاصرا لأحداث الغزوة والقتال فى افريقية إنما كان البعد الزمنى يزيد عن ثلاثة قرون ونصف وهذا يعطى الدليل القوى بأنه لم يكن شاهدا على الأحداث أو معاصرا لها أو قريبا منها زمنيا أو من الجيل الثانى والثالث والرابع للغزوة ، بل كانت المسافة الزمنية البعيدة تقلل من صدق ما جاء عن لسانه بالنسبة للعرب الهلالية .

كما أنه ليس من المعقول أن تكون أفعال الهلالية من تدمير ظلت طوال ثلاثة قرون ثابتة على ما هى سواء أكان زرعا وضرعا ومدنا وعمرانا مما ينفى أن ابن خلدون

قد شاهد بنفسه آثار التدمير بعد هذه الفترة الزمنية فإذن هو لم يقدم الدليل العلمى الثابت بأنه شاهد الاثار بنفسه ، لكنه اعتمد على مصادر كتابات أو أقوال مشابهة لم يذكرها ولم يقل لنا عن هذه المصادر التى استقصى منها معلوماته حتى نتمكن من الرجوع إليها لكنه فى حقيقة الأمر كان واقعا تحت مؤثرات سياسية ووظيفية جعلته يتحامل على العرب وينعتهم بهذه النعوت ومن هنا فقد يكون له عذره لانه ساير أوضاعا سياسية فى مصر التى آلف فيها هذه الكتب .

وكان ابن خلدون قد قدم إلى الديار المصرية عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م فى عهد السلطان الظاهر برقوق وكان قد تم تعيين ابن خلدون قاضى القضاه وفى ديوان الانشاء وتولى منصب شيخ المالكية بالأزهر الشريف وتولى العديد من المناصب فى الدولة المملوكية مما جعل السلطان الظاهر برقوق يقوم بارسال رسالة إلى السلطان الحفصى أبى العباس أحمد بن عبد الله فى ١٥ صفر ٨٧٦ هـ / ١٣٨٤ م يرجو فيها من السلطان الحفصى أن يرسل أسرة ابن خلدون إلى مصر .

وكان العصر المملوكى فى مصر قد شهد حركة مقاومة شديدة من جانب العرب الذين التفوا حول بعضهم البعض وقاموا بحركة واسعة للمقاومة وثار العرب فى بلاد الصعيد والوجه البحرى وقالوا انهم أصحاب البلاد وانهم كانوا يرون انهم أحق بالملك والسلطان من المماليك العبيد المشتراه والرقيق المجلوب (المقريزى ، السلوك) ومن هنا ظهرت الأحلاف العربية ضد المماليك الأتراك ولقد كانت العداوة قديمة منذ تولى السلطان عز الدين أيبك مقاليد الأمور فى مصر بعد العصر الأيوبى وكانت هذه الأحلاف معادية للسياسة التركية المملوكية التى برزت بصورة واضحة فى العصر المملوكى.

ولقد شهد القرن الثامن الهجرى صراعا عنيفا بين العرب والسلطات المملوكية عام ٧٤٩ هـ وكانت قيادة الحلف العربى لبنى هلال وقد قتل عدد كبير فى هذا

الحادث من المماليك وامرائهم وكانت هذه المعركة ايذانا بحرب عنيفة بين المماليك والعرب وحلفائهم (المقريزى ، السلوك) .

وفى عام ٧٥٤ هـ شن المماليك حملة كبيرة على عرب الصعيد وركبوا بأسلحتهم وقدموا فى أربعمائة فارس وقامت معركة حامية بين الأحلاف العربية والمماليك وقتل من الجانبين خلق كثيرا وطرد العرب إلى بلاد السودان وأضاف المقريزى انه لم يبق بدوى بصعيد مصر . وهرب العرب مسيرة سبعة أيام ثم رجع الأمراء والسلطان إلى الديار المصرية (ابن اياس) كذلك فان ابن خلدون عندما كان يقيم بالمغرب وقبل رحيله إلى مصر حاول عدة مرات اثارة القبائل العربية الهلالية وحضها على الثورة ضد سلطان بنى زيان الأمير أبى حمود ولكنه لم يجد استجابة لما كان يرنو إليه من مناصب سياسية بعد أن تعرض لكثير من المحن فى تلمسان والقيروان وغرناطة وغيرها من بلاد المغرب والاندلس .

إضافة إلى أنه عند رحيله إلى مصر فقد استماله المماليك وعلى رأسهم السلطان برقوق الذى كانت ثورة العرب فى صعيد مصر على أشدها فى عصره وعينه قاضيا للمالكية عدة مرات ومن هنا لم تكن كتاباته عن العرب الهلالية على جانب كبير من الموضوعية حيث خاب مسعاه فى السابق وتحقق حلمه فى منصب قاضى المذهب المالكى ومن هنا كان عليه أن يمالئ السلطة المملوكية فى البلاد .

ومن هنا فان العداوة قديمة بين العرب والمماليك والمعارك مستمرة حتى عام ٧٥٤ هـ وابن خلدون مؤلف المقدمة عام ٧٧٩ هـ وقدم إلى الديار المصرية عام ٧٨٤هـ وتقلد الوظائف الهامة فى ظل الدولة المملوكية الكارهة والحاقدة للعرب الذين كانوا يرون فى المماليك عبيدا رقيقا لا يحق لهم حكم الديار المصرية .

لكن أحداثا حدثت فى مصر عام ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م عندما قام بانزال عرب هوارة فى ذلك التاريخ (السلطان الظاهر برقوق) والذى كان يتولى ابن خلدون

المناصب العليا فـى عـهده والـذى أرسـل إلى سلطـان الحـفصيين بطلب أسـرة ابن خلدون .

قام السلطان الظاهر برقوق بنقل عرب هوارة إلى الصعيد بعد انقضاء الأحداث العنيفة التى وقعت بين المماليك وعرب الصعيد وما تلا ذلك من اضطرابات كثيرة حتى قل عدد البدو الفارين فى أرض الصعيد وأطرافها (المقريزى : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب) ولقد نكل المماليك بالعرب أشد تنكيل فى عهد الظاهر برقوق الذى كان يستخدم ابن خلدون فى وظائف البلاط السلطانى .

ومن الملاحظ حين نقلب صفحات المصادر التى أرخت لأحداث العرب فى مصر عقب هذه المرحلة ، مرحلة الأحلاف ان نغمة جديدة نبعت من كتابة المؤرخين وهى الكره الشديد للعرب ورميهم بالفريه وتلويث السمعة والإساءة إلى مكانتهم وانهم يذكرون كلمة عربان زيادة فى البداوة .

لكن هذه الأحلاف سببت للدولة المملوكية العديد من المتاعب وكانت العداوة شديدة ولايستطيع قلم مؤرخ أن يذكر العرب بشئ من محاستهم لان النظام المملوكى كان قاسيا وفظيعا فى معاملة من يخالفهم فى الرأى .

فابن خلدون له عذره وهفوته ، بل لم تكن هفوة ، إنما كان يخضع لتأثيرات سياسية دفعت به أن يقول عن العرب ما قال وكيف وهل يستطيع أن يجاهر بالقول بأية حسنة من محاسن العرب فى ظل الحكم المملوكى الدموى صاحب القتل والتشريد والاغتيالات وتاريخه مشهود له بذلك ، ومن هنا لم يكن ابن خلدون موضوعيا فى علاجه لموضوع الزحف الهلالى ولم يكن محايدا فى تناول تاريخهم ، بل أن العديد من المصادر والمراجع قد ذكرت دور بنى هلال فى حرب الاندلس وجهادهم مع المرابطين فى معركة الزلاقة ومع الموحدين فى معركة الأرك والعقاب ودورهم مع دولة بنى مرين وكيف فكر ملوك الطوائف فى الاستعانة بالهلالية فى حماية الاندلس لكن

ابن خلدون لم يشر إلى ذلك على الاطلاق وكيف يذكر دور الهلالية البطولى فى حرب الجهاد المقدس فى بلاد الاندلس وهو يخضع لسيف وسلطة وسلطان المماليك ، لقد حاد ابن خلدون عن الموضوعية ولم يلتزم بالنزاهة التاريخية فى حديث عن العرب الهلالية ودورهم فى بلاد المغرب إضافة إلى أنه كتب مؤلفاته فى القرن الثامن الهجرى وكانت آثار الهلالية قد وضحت معالمها وبصماتها فى المغرب خلال هذه القرون الثلاثة واندمجوا مع البربر وخضعوا لسلاطين الدول التى عاشوا فيها ودورهم كان أكثر وضوحا واشراقا مع بنى حفص فكيف يفعل ابن خلدون ذلك الدور انه كان يكتب تحت قسوة وعنف السيف وجور سلطان المماليك ومن هنا جاء كتابه بهذه الصورة مغايرا كل التغاير عن الحقائق التاريخية الثابتة التى نلقى عليها الضوء فى تلك الدراسة .

أما العرب عندما دخلوا أرض برقة وجدوها بلادا خالية من السكان بعد أن كانت قد عمرتها زناتة البربرية لكن المعز بن باديس (٤٠٦ / ٤٥٣ هـ) كان قد دمر ديارهم وفرق شملهم وشتتهم فى الصحراء ، فدخلها العرب الهلالية وأقاموا بها واستوطنوها دون أن يخربوا أو يدمروا شيئا حيث وجدوها بلادا خالية طيبة المرعى (النويرى ، نهاية الأرب جـ ٢٢ . ص ١٥٧) وهنا نقول أن تهمة التخريب والتدمير تنفى شهادة النويرى وما جاء فى حديثه عن برقة ودخول الهلالية إليها . كذلك يذكر المؤرخ التونسى (رابح بونار فى كتابه تاريخ المغرب العربى ص ١٩٣) أن العرب الهلالية دخلوا أرض برقة وما والاها من بلاد فوجدوها خالية من الأهل فأقامت بها العرب الهلالية واستوطنوها ، فمن أين جاء الخراب والتدمير وقلع الزرع وهلك الحرث والنسل ياسيدى يا ابن خلدون ثم تحركوا غربا فى اتجاه طرابلس والقيروان وهنا باعتراف كل المؤرخين انهم لم يهاجموا القيروان هجوما كاسحا قويا جملة واحدة بل انهم أخذوا البلاد شيئا فشيئا حتى لم تبق إلا القيروان ثم أخذوها (ابن الأثير ، الكامل جـ ٨ ص ٥٥) ومعنى هذا أنهم لم يهاجموا القيروان جملة واحدة ولم يقتربوا من القيروان إلا بعد ست سنوات من المعركة وذلك فى عام ٤٤٩ هـ وفى فترة الست

سنوات كان المعز بن باديس يمهد لنقل مقر حكمه إلى المهدية ومن هنا أخذ يشير على رعاياه بالانتقال إلى المهدية خلال هذه السنوات فهاجر إليها الكثير من السكان وفى هذه السنوات كان المعز يقوم بنقل مقاليد السلطة إلى المهدية .

وتذكر المصادر أن المعز بن باديس ترك وأهل القيروان المدينة خاوية بعد أن حملوا ما خف حمله ووزنه وغلا ثمنه ولم يتركوها إلا خاوية ودخلها العرب واستولوا عل ما كان قد بقى من قصور بنى زيرى التى كان المعز قد حمل كل ما فيها طوال السنوات الست التى كان يعد نفسه للانتقال إلى المهدية ولم يجدوا فيها إلا بقايا خيام قديمة وبعض الآلات والأسلحة التى لاتستعمل ولا يمكن استخدامها وخضع من بقى فى المدينة لسطوة العرب وليس لحكمهم لان العرب لم يحكموا القيروان على الاطلاق لكن كان لهم السطوة والنفوذ .

والدليل على ذلك أن المعز بن باديس عندما ترك المدينة قد عين عليها قائدا من قومه من بنى زيرى لصنهاجة وهو (قائد بن ميمون الصنهاجى) وكان يتسم بالقوة والشدة وأمده بالجند والشرطة لحراسة المدينة وقلاعها وأبراجها وأن المدينة كانت تحكم باسم المعز بن باديس وتحت سيطرته وعليها وال من قبله وفى عهد ابنه تميم بن المعز (٤٥٣ – ٥٠١ هـ) أرسل قوات عسكرية وشرطة إلى مدينة القيروان لحفظ النظام والمحافظة على توازن القوى داخل المدينة بين العرب المسيطرين وبين السكان الذين كانوا دائما يحتكون بالهلالية فأين سيطرة الهلالية وأين تدمير الحصون وهدمها وهدم القصور وقطع الثمار وتخريب الانهار كما يقول ابن خلدون ، وهل يعين المعز بن باديس حاكما لمدينة خاوية خربة وهل يقوم ابنه تميم بإرسال قوات وجنود لحماية أطلال مدينة مدمرة أو مدينة خربة ، أن الوجود الهلالى لايعدو أن يكون وجودا من قبل السيطرة وفرض النفوذ والقيام بأعمال الشغب فى المدينة وإلا فلماذا يحكموها أو يحكموا أية مدينة كبرقة وطرابلس والمهدية وتونس والقيروان فى تلك الأوقات لقد أخطأ

ابن خلدون فى نسبه هذه الأعمال إلى العرب الهلالية وقوله أن الهلالية نهبت المدينة نهبا شنيعا وارتكبت فيها فظائع كثيرة من تخريب وتقتيل وافساد جعلت القيروان خالية من السكان متدهورة العمران عدة قرون .

ماذا يحدث عن ترك العاصمة واختيار عاصمة أخرى :

كان قرار المعز بن باديس بالانتقال إلى المهدية واتخاذها العاصمة الأساسية للبلاد وترك العاصمة السياسية والحضارية والعلمية القيروان أثر معركة حيدران والصراع بين العامة وبين بنى هلال والحروب التى وقعت بينهم ، لكن ذلك استغرق ستة أعوام كان المعز يوصى فيها رعاياه بالانتقال ويصدر أوامره لابنه تميم بن المعز حاكم المهدية بالتوسع فى الانشاءات والمبانى فى العاصمة الجديدة وأن يحسن استقبال الأهالى ويكفل لهم سبل الراحة .

ومن المتعارف عليه فى تلك الحالات أن الدولة تسهل سبل الانتقال أمام الأهالى وسبل المعيشة فى العاصمة الجديدة مادام أنها عاجزة عن حماية الأهالى من عدوان العرب كما يقول ابن الاثير ، إضافة إلى أن قرار الانتقال كان يستدعى نقل كل المراكز السياسية كقيادة الجيش والشرطة والبريد والجباية والبحرية والوزارة وديوان الكتاب والانشاء وجميع المؤسسات التى تخدم الدولة ولها علاقة بخدمة السكان حيث أن دولة بنى زيرى كانت لها ركائزها السياسية والإدارية والعلمية والثقافية ومدارسها وجامعاتها التى تستدعى ضرورة نقل كل هذه المراكز إلى المهدية ، وقد سارت خطة المعز بن باديس على خير أداء ولما حقق الهدف من الانتقال انتقل هو وحاشيته إلى المهدية بعد أن عين فيها واليا من قبله كما سبق القول .

ومن المعروف انه فى حالة ترك العاصمة القديمة واتخاذ عاصمة سياسية جديدة فان العاصمة القديمة تفقد دورها القيادى كمركز للدولة وقطب الاتجاه الذى تتجه إليه البلاد وقد تبع ذلك فقدانها لوزنها الحضارى والقيادى والسياسى والثقافى باعتبار

انها لم تعد مقر الحكم ومركز القيادة وبالتالى يقل الاتصال بها والتنقل إليها وينتقل السكان بدورهم وراء مركز القيادة وهذا ما حدث بالفعل بالنسبة للقيروان التى فقدت دورها فى بلاد المغرب الإسلامى ولم تعد تلك العاصمة التى كانت مركز السلطة والسيادة والثقافة والفكر والحضارة والقطب الذى نجذب إليه كل الاتجاهات ولم تعد القيروان كعبة العلم ومركز الحضارة كما كانت فى السابق .

وبذلك ينتفى عن العرب الهلالية فكرة وافتراء هدم القيروان وتخريبها كما هدم القلاع والحصون ، وما هى الفائدة المادية التى تعود على العرب الهلالية من وراء هدم القلاع والحصون ، أن العرب الهلالية لم يكن فى فكرهم السياسى اقامة دولة وبناء كيان سياسى ، ولو كان ذلك فى فكرهم لكان زعيمهم مؤنس بن يحيى الرياحى قد استطاع دخول القيروان بعد معركة حيدران مباشرة وقضائهم على القوة الرئيسية العسكرية للسلطان المعز بن باديس لكنهم لم يفعلوا ذلك فلماذا إذن هدم الحصون والقلاع مادام لم يكن فى فكرهم تدمير الدولة وإقامة كيان سياسى عربى هلالى .

ثم أن ظاهرة خراب العواصم السياسية القديمة ليست المثل الفريد فى القيروان فقط ، بل إننا نجد أبناء عمومة بنى زيرى وهم بنى حماد أصحاب الجزائر وحكام المغرب الأوسط قد اتخذوا عاصمة لهم فى عهد مؤسس الدولة حماد بن زيرى بن مناد بن منقوش الصنهاجى ، ثم انه لما فكر فى بناء القلعة كعاصمة جديد عام ٣٩٨ هـ بدلا من العاصمة القديمة أشير ، فقد أصدر أوامره ببناء القلعة وترحيل الأهالى من أشير العاصمة القديمة إلى القلعة وقام بتشجيع الناس على الهجرة وهجر إليها أهالى القرى والمدن المجاورة حتى صارت العاصمة القلعة عاصمة حديثة نجذب إليها السكان وصارت مقر الحكم والقيادة وفقدت أشير مركزها كعاصمة واضمحلت سياسيا وسكانيا وفكريا وثقافيا وهجرها الناس إلى القلعة وتلك ظاهرة فى بلاد المغرب الإسلامى .

كذلك فانه عندما ضاقت القلعة لان تكون عاصمة دولة كبرى لبنى حماد وفى عهد الناصر بن علناش الحمادى فانه قرر الانتقال من القلعة إلى بجاية عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٥ م واتخاذها عاصمة سياسية للبلاد وبعد أن أعاد بناءها وحدودها وجعلها عاصمة لدولته وانتقل إليها عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م وظل يحكم فيها حتى عام ٤٨١ هـ / ١٠٨٨ م وعندما تولى مقاليد الحكم فى البلاد ابنه المنصور فقد نقل كل ما يمت بالحضارة والثقافة والمعالم العمرانية من القلعة إلى بجاية واهتم ببناء المنشآت والقصور وبذلك فقدت أشير والقلعة مركزهما كعواصم سياسية لبنى حماد وبالمثل ينطبق القول على القيروان التى تركها المعز بن باديس إلى المهدية وظل يحكم البلاد من عام ٤٤٩ هـ إلى عام ٤٥٣ هـ ولكن للحقيقة فان بنى حماد وقد كانت تملى عليهم الظروف السياسية طوعا لا كرها ترك العواصم القديمة وبناء عواصم جديدة بمحض إرادتهم ، لكن فى حالة القيروان فقد يكون المعز بن باديس قد وقع تحت ضغوط جعلته يغادر القيروان إلى المهدية ، لكن فى كل الحالات لم يكن العرب الهلالية العامل الأساسى الأول فى اضطرار المعز بن باديس إلى ترك العاصمة القيروان واختيار المهدية كعاصمة جديدة وإلا لماذا لم يغادرها مباشرة أثر هزيمته فى معركة حيدران عام ٤٤٣ هـ .

هذا عن خراب القيروان ونفى التهمة التى ألصقت بالهلالية ، كذلك القول بأنهم هدموا المعالم الحضارية للمدن وجعلوها خرابا فنحن نحتكم فى ذلك إلى الادريسى فى كتابه نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق قسم المغرب وأرض السودان والاندلس الذى نشره « دوزى خويه » والذى ألف كتابه فى أوائل القرن السابع الهجرى وتوفى عام ٦٤٩ هـ وكان يسبق عصر ابن خلدون ما يقرب من قرن ونصف من الزمان والذى تعتبر شهادته أقوى دليل عن ابن خلدون باعتبار أنه شاهد المعالم فى المغرب وزار هذه المناطق وتحدث عنها قبل ابن خلدون بفترة طويلة وهى تعتبر شهادة نفى لما قاله ابن خلدون وشهادة اثبات فى حق العرب بأنهم لم يكونوا كما قال عنهم ابن

خلدون .

فنجد أنه يتحدث عن العرب الهلالية قائلا انهم يعيشون فى تآلف مع سكان المدن من البربر وانهم يتعاونون معهم فى القيام بالأعمال الزراعية والتجارية ويتحدث عن القوم فى مدينة المستير مثلا فيقول أن الاعراب لانضرهم فى شئ وكذلك تحدث عن تونس فذكر أن العرب تجاور أرضها وتقدم للمدينة ما تحتاج إليه من مواد غذائية وكذلك تحدث عن قسنطينة فذكر أنه مدينة عامرة ولها معاملات واسعة مع العرب وأن العرب يشاركون فى الحرث والزراعة ، وتحدث عن مدينة المسيلة فقال أن جميع حصون المدينة فى مهادنة مع العرب وتحدث عن العديد من المدن والقرى فلم يذكر الخراب والاضرار التى ذكرها ابن خلدون (نزهة المشتاق ص ٩٣ ، ص ١٠٩ ، ص ١١٠ طبع ليدن ١٨٩٩ م) فلما جاء ابن خلدون بعد الادريسى بقرن ونصف من الزمان ليذكر عن العرب الهلالية ما ذكره عنهم ألم يكن أولى بمن عاش فى القرن السادس والسابع الهجرى أن يتحدث واصفا الآثار المدمرة بدلا من ابن خلدون الذى عاش فى القرن الثامن الهجرى ، أن الحقيقة واضحة للعيان وهى أن ابن خلدون كان واقعا تحت ضغوط سياسية أو عوامل نفسية أو اعتمد على مصادر معادية للعرب فى ذلك الوقت وبالطبع كانت مملوكية أو بربرية ومن كل هذا فقد وقع ابن خلدون فى خطأ تاريخى وبالغ مبالغة شديدة فى التجنى على العرب . على الرغم من وضع ابن خلدون لعلم العمران واهتمامه بدراسة المدن ولايستطيع أن نتحدث عن الحسن الوزان وكتاب وصف افريقية رغم وصفه للمدن المغربية جملة وتفصيلا إلا أن كتابه جاء متأخرا جدا عما وصفه ابن خلدون بما يقرب بأربعة قرون أو يزيد .

ثم إننا نرد هنا عليه فى أن القبائل العربية كانت حامية للديار وللسيادة الزيرية على أرضها وكيف أنها وقفت بجانب السلطان تميم ابن المعز بن باديس (٤٥٣ – ٥٠١ هـ) ودافعت عن كيان الدولة الزيرية ضد الإنهيار والسقوط وحالت دون قوات

الناصر بن علناش الحمادى (٤٨١ - ٤٩٨ هـ) من الهجوم على المهدية ومحاولة القضاء على سلطان بنى زيرى . وقد وقع على القبائل العربية الهلالية عبء الدفاع عن سلطان الدولة من ذلك نجد أن تميم بن المعز قد استعان بالقبائل العربية القوية وتحالف معها ولم تكن قد مضى على دخولها البلاد عشر سنوات (٤٤٣ - ٤٥٣ هـ) واستعان بقبائل رياح ورجالها وفرسانها حتى يضمن ولاء جميع القبائل العربية له ويمكن من تحالفه مع العرب من إحباط المؤمرات التى أعدها الناصر بن علناش الحمادى لمهاجمة المهدية كما مكنه التحالف من هزيمة الناصر بن علناش الحمادى عام ٤٥٧ هـ فى موقعة سبيبة وذلك بأن وقفت قبيلة رياح وغيرها من القبائل العربية مع تميم وانحازت القبائل التى كانت تقف فى صف الناصر مع اخوانها وبذلك هزم الناصر شر هزيمة .

لكن ابن خلدون تناسى ذلك الموقف ولم يشر إليه من قريب أو بعيد فى حين أن العديد من المصادر العربية (كابن عذارى المراكشى، ابن الاثير، السلاوى ، الزركشى) ووغيرها من المصادر قد أشارت إلى ذلك .

لقد وقفت القبائل العربية الهلالية ولم يكن قد مضى على دخولها المغرب عشرة أعوام وليس مائة عام بجانب الدولة التى يعيشون فوق أراضيها ودافعوا عام ٤٥٧ هـ فى معركة سبيبة عن سلطانهم تميم بن المعز وتحالفت كل القبائل العربية مع ابن المعز وتخلى بعض منها عن الناصر الحمادى عملا بنصيحة القبائل التى تسكن المغرب الأدنى (افريقية) فلو أن العرب يريدون تدمير المغرب وخرابه لوقفوا مع الناصر الحمادى وساعدوه فى احتلال المهدية وتدميرها والفوز بالغنائم التى ركز عليها ابن خلدون وكان العرب الهلالية كانوا أهل سلب ونهب ويحاربون من أجل المكسب المادى .

وهناك أقوال أخرى تذكرها للتدليل على هفوة ابن خلدون وهو أن العرب الهلالية

فى صراعهم مع الدولة الموحدية عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وكان قد مضى على وجودهم فى المغرب ما يزيد عن مائة عام قليلا وعندما عرض عليهم روجار الثانى صاحب صقلية أن يمدهم بخمسة آلاف فارس من النصارى لكى تقف بجوارهم فى قتال عبد المؤمن بن على زعيم الموحدين فانهم رفضوا طلب روجار الثانى وأجابوه بأنهم فى غنى عن نجدته إذ لايستعان بكافر على مسلم (الميلى . تاريخ الجزائر جـ ٢ ، ص ٢٥٧) هذه هى أخلاق العرب الأصيلة وليست أخلاق العرب البدو الاجلاف ، فلو انهم يريدون مالا وسطوة وحكما وسيطرة لاستعانوا بقوات نصرانية كما استعان بها حكام بنى زيرى وبنى حماد فى فترات سابقة فى صراعهم مع بعضهم البعض .

لو أن العرب الهلالية يريدون خراب المغرب ومدنه وتدميره لاستعانوا بهذه القوات وتحالفوا مع نصارى صقلية لكن الذين سكنوا بجوار الكعبة وقبر الرسول ﷺ بمكة المكرمة والمدينة المنورة يأبى عليهم إسلامهم الاستعانة بكافر على مسلم . حدث هذا فى القرن السادس الهجرى وجاء ابن خلدون يكرر ماذكره المؤرخون فى أواخر القرن الثامن الهجرى .

أن صفحة العرب الهلالية فى تاريخ المغرب هى صفحة مضيئة بعلامات بارزة من مواقف الشرف والبطولة والفداء والشهامة والرجولة وليس من علامات الخسة والدنائة والخزى والعار ، كانوا جنودا بواسل يدافعون عن المهدية عاصمتهم ضد بنى حماد ويرفضون الاستعانة بقوات نصرانية فى صراعهم مع الموحدين ويرفضون الزحف مباشرة على القيروان بعد هزيمة حيدران عام ٤٤٣ هـ وكانت كل الظروف السياسية والعسكرية والنفسية تساعدهم على ذلك ولو أنهم كانوا يريدون دولة لاقاموا دولة ، لكنهم أرادوا العيش فى ظل السياده الزيرية والحمادية وقد كان دفع الخلافة الفاطمية فى القاهرة لهم فى بادئ الأمر ربما أحدثت بعض التجاوزات مثلما يحدث فى كل الحروب .

وإذا سلمنا بما قاله ابن خلدون فان أفعالهم لا تعدوا واحدا فى المليون عما يحدث فى كل الحروب ماذا فعلت الكاهنة وكسيلة بالعرب الفاتحين فى القرن الأول الهجرى ، ماذا فعلت قشتالة وأرغون بالمسلمين فى الاندلس ماذا فعل النورمان بالمسلمين فى صقلية .

أن الهلالية أصحاب قيم ودين وتقاليد فالذى يأبى عليه دينه أن يتحالف مع أعداء الإسلام لايمكن بأى حال من الأحوال أن يعتدى على حرمات الإسلام والمسلمين ويدمر مدنهم وقراهم وحصونهم وقلاعهم كما ذكر ابن خلدون .

أن الغزوة الهلالية لوجه مشرف فى جبين العروبة والإسلام والمغرب وليس صورة تدميرية تخريبية كما ذكر ابن خلدون ، انها وسام على صدر التاريخ الإسلامى المغربى ، انها مفخرة لكل أبناء المغرب المعاصرين أنها رمز القوة والصلابة والرجولة والتحدى والصبر والصراع الطويل ، لقد أكسبت الغزوة الهلالية كل صفات الفارس العربى والتحدى الهلالى والعمق الإسلامى والحس العربى ، فتحية لكل الذين شاركوا فى الزحف الهلالى الواسع النطاق فى منتصف القرن الخامس الهجرى للمغرب العربى الذين أعطوا جنسا وسلالة عربية قوية وأذكوا روحا وثابة قوية صامدة تتحدى الزمن والأقدار وتقف ضد كل المخططات . والذين تركوا بصمات العروبة والإسلام فى كل بقاع المغرب ، ليت ابن خلدون حيا ليشهد وجه الإسلام الباسم المضئ على أرض المغرب المعاصر .

الباب الثالث

بنى حماد على مسرح الأحداث فى المغرب الأوسط
(٤٠٥ - ٥٤٧ هـ)

سبق أن تحدثنا فى الباب الأول من هذا الجزء عن كيفية ظهور بنى زيرى على مسرح الأحداث فى المغرب الإسلامى وكيف أن بلكين بن زيرى أعان الدولة الفاطمية على توطيد ملكها فى المغرب الأدنى والأوسط وحارب قبائل زناتة حروبا عنيفة وقام بخدمة الدولة الفاطمية خدمة خالصة ودخل فى معارك كثيرة كما سبق أن أوضحنا مع زناتة التى كانت تعادى صنهاجة والفاطميين وتناصر الأمويين بالاندلس ، ولما رحل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر عام ٣٦٢ هـ استخلف بلكين بن زيرى الصنهاجى على المغرب الأدنى والأوسط والجزائر وغيرها . وكان استخلاف بلكين بن زيرى على هذه المناطق ايذانا باستقلال البربر لحكم أنفسهم لأول مرة فى العصر الإسلامى وايذانا بسيادة قبيلة صنهاجة البربرية دون القبائل الأخرى على ذلك الجزء من العالم الإسلامى .

ولما توفى بلكين بن زيرى فان ابنه المنصور قد تولى مقاليد الأمور بها بعد أن كان والده قد نهض بأعباء الدولة وأسس مملكة صنهاجة التى قامت بدور عظيم منذ تأسيسها حتى سقوطها وحاولت أن توحد المغرب الإسلامى بشتى أقسامه لولا تمرد زناتة عليه ، لكن المنصور تولى إدارة شئون البلاد عام (٣٧٣ - ٣٨٦ هـ) فقد عمل على استرجاع المغرب الأقصى بإرسال الجيوش لقتال زناتة عام ٣٧٤ هـ وتولى عمه أبو البهار بن زيرى ابن مناد الصنهاجى على المغرب الأوسط وجعل مقره مدينة تاهرت (عاصمة بنى رستم السابقة) وأقام أخاه بطوقت واليا على أشير فى المغرب الأوسط وأوصاهما بالتعاون معا على حماية المغرب الأوسط من أى عدوان تحاول أن تشنه قبائل

زناتة على هذه الأقاليم والعمل على استخلاص الأراضى منها فى المغرب الأوسط ، وترك لأخيه حماد بن بلكين قيادة جيوش بنى زيرى لكن حمادا لم يستطع القضاء على قوة زناتة نهائيا ومات المنصور عام ٣٨٦ هـ وترك لابنه باديس مهمة قتال زناتة وإرسال الجيوش للقضاء عليها لكن لم تتمكن قوات بنى زيرى من القضاء على قوة مغراوة ، ولقد كان الخلاف والصراع بين بنى زيرى والصراع الداخلى بين البربر قد بدأ يدخل طورا جديدا مما ساعد زناتة أن تقيم ملكها فى المغرب الأقصى (مغراوة) وأن تحقق بعض أهدافها فى المغرب الأوسط وتدخل تاهرت ، ومن خلال القتال مع زناتة استطاع حماد شقيق المنصور وعم باديس أن يبرز نفسه كقائد ناجح ولذا كان حماد أبرز القادة الذين وجدهم الأمير باديس بن المنصور ليستعين بهم فى محاربة وقتال زناتة الموالين لبنى أمية فى الاندلس وتكونت الأطماع حوله من أعمام أبيه ، ولما أراد باديس أن يوجه حمادا لقتال زناتة استغل حماد حاجة الدولة الزيرية فاشترط على باديس عدة شروط بعد أن كان قد نجح فى المهمات السابقة التى أوكلت إليه فقد تصدى لمحاربة قبائل زناتة جنوب مدينة المسيلة وغربها إلى وهران فأثخن فيها وكسر شوكتها لذا اشترط عليه عدة شروط كثيرة فى عام ٣٩٥ هـ وهى أن يتملك حماد كل البلاد التى يفتحها ويستولى عليها من أيدى زناتة خارج نطاق الدولة الزيرية وعدم استدعاء حماد مرة ثانية للعمل فى افريقية (المغرب الأدنى) وأن يختار حماد مكان عاصمته.

ومن هنا فقد استطاع حماد أن يفوز من ابن أخيه باديس بن المنصور بما كان يختمر فى رأسه وفكرته من العمل على اقامة كيان سياسى مستقل له ولاحفاده من بعده ، ولقد وجد فى موافقة باديس على هذه الشروط وتعهد باديس على تنفيذ ذلك بمثابة الوثيقة القانونية والشرعية التى يستند إليها حماد على المدى البعيد لإقامة هذا الكيان السياسى الذى كان يفكر فى اقامته حيث أنه فشل فى أن يكون ولى العهد وخليفة أبيه بلكين بن زيرى وفاز بالولاية أخوه المنصور .

وبذلك فانه من الممكن القول أن الشكل القانونى والتكييف التشريعى للبناء السياسى للدولة قد تم عام ٣٩٥ هـ بعد أن توصل حماد بن بلكين إلى هذا الاتفاق مع باديس ، ومن هنا فقد بدأت خريطة المغرب الإسلامى السياسية تأخذ بعدا سياسيا مختلفا عما كان عليه الحال فى عهد المنصور وأبيه بلكين بن زيرى إذ أن ملامح كيان سياسى جديد قد باتت واضحة فى الافق وهو أن حماد بن بلكين بن زيرى سوف يضع يده على أقاليم فى أراضى زناتة يحق له أن يحكمها باسم الدولة لكن تحت سيادته وتخضع لأوامره فمن هنا فقد تغير الوضع السياسى للمغرب مؤذنا بظهور دولة بنى حماد وكان ذلك بمثابة تملك حماد لحكم المغرب الأوسط (اشير ، والمغرب الأوسط) ويمتلك كل ما يفتحه إنما كان ذلك بمثابة الانفراد بالحكم فى إطار الدولة الزيرية وليس الاستقلال الكامل وهكذا لم تمض أكثر من ثلاثين عاما على انفراد صنهاجة بحكم المغرب حتى كان أحد أبناء بلكين (حماد بن بلكين الزيرى) يعمل على تقسيم الدولة والانفراد بحكم معظم أجزاء دولة الجزائر الحالية ويكون بها دولة مستقلة حكمها هو وأولاده وأحفاده من بعده عرفت فى المصادر باسم دولة بنى حماد (الدولة الحمادية فى المغرب الأوسط) فقد استقل حماد بمنطقة غرب تونس والجزائر بل انهم لم يكتفوا بما لديهم من حكم ذاتى بل أسرعوا وأعلنوا استقلالهم عن الدولة الزيرية التى ورثها بلكين بن زيرى والده عن الفاطميين بعد أن اقتطع حماد المغرب الأوسط لنفسه من ابن أخيه باديس بن المنصور ما بين جبال أوراس إلى تلمسان وملوية واختط القلعة كعاصمة سياسية بجبل كتامة .

وكان حماد قد أسس مدينة القلعة عام ٣٩٨ هـ وصار بترك أشير التى ينسب قبل ذلك وكان بنو حماد قد اتخذوا مدينة أشير عاصمة لهم ثم ابتنوا إلى جوارها قلعة ضخمة أشبه بالمدينة الصغيرة عرفت بقلعة بنى حماد .

لكن باديس بن المنصور رأى أن نفوذ عمه حماد قد ازداد وتوسع فى امتلاك

الأراضى فطلب منه أن يتنازل عن مدينة القسنطينة وبعض المدن الصغيرة حولها اختبارا لحسن النوايا ولتولية المعز ابنه أميرا عليها لكن حمادا أبى وأظهر الخلاف وتنكر لابن أخيه وقد استوحش من ذلك حماد فتمرد عليه ، وتأكد لدى باديس ان حمادا لديه رغبة كاملة فى الانفصال عن الدولة .

فزحف إليه ووقعت بينهما معارك عنيفة واستطاع باديس أن يهزمه عند وادى شلف بالقرب من القلعة ففر حماد إلى القلعة عام ٤٠٦ هـ وتحصن بها لكن باديس تتبعه من وادى شلف إلى القلعة وحاصره بها لكن باديس مات فجأة عام ٤٠٦ هـ وهو محاصر قلعة بنى حماد ، ولقد كانت وفاة باديس أثناء حصار القلعة فرصة ما أعظمها فرصة بالنسبة لحماد قلما تتاح لكثير من الطامحين إلى الاستقلال فقد ترك جيش باديس حصار القلعة وانسحبت الجيوش إلى المدينة المحمدية ثم رحلوا منها إلى المهدية ، وبذلك أتيحت الفرصة لحماد من التمكن فى توطيد دعائم حكمه فى ظل أمور بنى زيرى المضطربة أثر وفاة باديس وانشغال كبار الدولة فى تعيين خليفة له .

وتولى المعز بن باديس مقاليد الأمور فى البلاد خلفا لابيه وكان عليه أن يواجه وأن يعمل هو ورجاله بكل السبل والوسائل لمحاولة حل أكبر مشاكل الدولة آنذاك وهى القضاء على نزعة الانفصال عند بنى حماد بقيادة عم أبيه (جده) حماد بن بلكين الذى جعل من القلعة حصنا قويا وعاصمة له بعد أن نقل إليها أهل مدينة المسيلة ومدينة أهل حمزة ونقل قبيلة جراوة من المغرب وأنزلها بها .

وكانت جنود كرمة بن المنصور عم المعز تقاتل قوات حماد الذى كان يحاصر مدينة باغاية . فلما علم بقدوم قوات المعز فر عنها وقاتله قوات المعز بن باديس وانهزم حماد واسر أخوه ابراهيم بن بلكين الذى كان يقاتل معه وجرح حماد جرحا بليغا وكاد أن يقع فى الأسر كأخيه ابراهيم لولا أن استطاع الفرار . وأثر هذه المعركة وما جلبت على حماد من خسائر مادية وبشرية وعودته إلى القلعة بأعداد قليلة من جنده

وتركه من كانوا يلتفون حوله أدرك ومساعدوه وبنوه انه لاقبل له بقتال قوات المعز بن باديس وأنهم لايستطيعون الوقوف طويلا أمامهم وعدم القدرة على حرب طويلة لاسيما أنه لازال فى بداية الطريق نحو وضع معالم الدولة التى ينشد تأسيسها فما كان منه إلا أن تقدم بطلب الصلح مع رجال المعز بن باديس على أن يكون تابعا للسلطة المركزية فى القيروان وأن يتمتع باستقلال محلى فى المغرب الأوسط وأن يكون استقلالا ذاتيا وهكذا تصالح المعز بن باديس مع حماد بن بلكين واعترف له بالاستقلال بولاية الجزائر وذلك عام ٤٠٨ هـ والتى كانت تضم المدن التالية (المسيلة ، طبنة ، الزاب ، أشير ، تاهرت، القلعة) وكل مايفتح من بلاد المغرب الأقصى وبذلك الصلح تعتبر الدولة الزيرية فى المغرب والتى كانت تشتمل المغرب الأدنى والأوسط قد انقسمت إلى دولتين بنى زيرى أو باديس فى القيروان ثم المهدية ودولة بنى حماد فى أشير والقلعة وبجاية فيما بعد .

وهكذا فانه يمكن القول أنه فى عام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م يعتبر بمثابة ميلاد أو تاريخ ميلاد دولة بنى حماد المستقلة فى المغرب الأوسط . ومع أن شروط الصلح كانت تنص على ألا يتصرف بنو حماد فى شأن من شئون بلادهم السياسية والعسكرية إلا بالاتفاق مع المعز بن باديس ورجاله أصحاب السلطان والنفوذ فى القيروان ، إلا أن المشاكل الكثيرة التى أحاطت بالدولة الزيرية ورجالها قد جعلتهم عاجزين عن القيام بأى محاولة جديدة أو جدية (عسكرية) لإجبار بنى حماد على طاعتهم ، ومن ثم فقد اكتفوا بالطاعة الاسمية ولكن سارت كل من الدولتين فى طريقها الذى ارسمته لنفسها .

كما أنه يمكن القول وطبعا لما أشار إليه العديد من المؤرخين فى المصادر المختلفة أن قيام بنى حماد فى مطلع القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى ، يعتبر نقطة بداية ظهور المغرب الأوسط ككيان مستقل داخل الدولة الإسلامية الواسعة ، ومعنى ذلك أنه قد تحدد وضع المغرب الأوسط على خريطة المغرب الكبير وظهور الكيان

السياسى الحالى للجزائر والتى كانت الدولة الحمادية تشتمل على معظم أراضيها الحالية .

كذلك فان الذى دعم وضع حماد فى تلك البقعة من المغرب الإسلامى ذلك الانتصار الرائع على قبيلة زناتة فى المغرب الأوسط وسيطرته على تلك الأراضى التى وضع يده عليها ليقيم دولته بها وأنه نجح فى تأمين حدود الدولة الصنهاجية من ناحية المغرب ، كل هذا كان له أكبر الأثر فى تثبيت سلطان بيته فى المغرب الأوسط مع أنه لم يكن يرغب فى إعلان انفصاله عن أبناء عمومته فى المغرب الأدنى ، إلا أن كل أفعاله ودخوله فى قتالهم قد أعطى الفرصة للأخير من (بنى زيرى) أنه لا محالة سائر فى طريقه نحو الاستقلال التام بالمغرب الأوسط عن دولة بنى عمومته وها هو قد نجح بعد ثلاثة عشر عاما قضاها فى الكفاح الطويل والقتال المرير مع قبيلة زناتة وفى بناء معالم دولته وها هو أيضا قد وضع اللبنة الأولى لتأسيس دولة بنى حماد بعد أن كان التعهد الأول عام ٣٩٥ هـ بينه وبين ابن أخيه باديس بن المنصور قد تم نقضه من جانب بنى زيرى ولم تسمح الدولة له بالاستقلال أو أن يعين حاكما على الاقليم الذى يحكمه دون أن يكون للدولة حق التصرف فى تعيين بدل منه واستدعائه إلى العاصمة القيروان ، لكن جاء صلح ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م ليضع الأمور فى نصابها ويبتدع فجر يوم جديد على ميلاد دولة جديدة تلعب دورها على مسرح الأحداث فى المغرب وهكذا أظهرت الدولة رسميا عام ٤٠٨ هـ بعد توقيع الصلح بين المعز بن باديس وحماد بن بلكين هو الميلاد الحقيقى للدولة وليس عام ٣٩٥ هـ ، ذلك لان الفترة التاريخية أو الزمنية بين التاريخين لم تكن إلا مرحلة تمهيدية حاول حماد فيها أن يوسع دائرة أملاكه أو يعمل على تقوية نفوذه .

وترجع بعض المصادر قيام هذه الدولة إلى عجز بنى زيرى عن بسط نفوذهم وسلطانهم على كل أنحاء المغرب الأدنى والأوسط باعتبارهم ممثلين للفاطميين ولكن

باعتبارهم مستقلين عنهم ، وإن كانوا قد احتفظوا ببعض قواتهم فى المغرب الأدنى ، إلا أنهم قد عجزوا تماما عن بسطها فى المغرب الأوسط والأقصى ، ومن هنا جاء دور حماد ليوطد هذه الدولة ويبسط لواء صنهاجة على تلك الأقاليم ، لكن لم يكن ذلك إلا من أجل أهداف شخصية ومساع نفسية يسعى حماد من ورائها لان يكون له نصيب فى دولة أبيه بلكين بن زيرى الصنهاجى ذلك أن كان أخوه المنصور بن بلكين قد تولى مقاليد الأمور فى افريقية فلماذا لايكون هو مثل أخيه له سلطان ونفوذ ، لكن أخاه تولى عرش افريقية بالوراثة أما حماد فقد نال حكم المغرب الأوسط بالقتال والاستعداد والبناء وهنا اختلاف بين الشخصيتين .

الفصل الأول

ميلاد الدولة الحمادية ككيان مستقل

قامت الدولة الحمادية بدور كبير وعظيم منذ تأسيسها إلى سقوطها فى تاريخ المغرب الأوسط وكان لها شأن عظيم على مجريات الأمور والأحداث فى هذا الجزء من المغرب الإسلامى والعالم آنذاك فى ذلك الوقت فقد عملت على ترقية سكان الجزائر وحاولت أن تمد نفوذها غربا فى المغرب الأقصى لكن قوى المرابطين الفتية وقفت عقبة كأداء فى سبيل بسط نفوذها على القبائل الزناتية .

ولقد كان أمراء هذه الدولة بدءا من أولهم حماد بن بلكين رجالا عظماء ، يهتمون بأحوال الشعب والرعية ويدعمون نفوذهم وسلطانهم فى آن واحد ، ويسعون ما وسعهم السعى إلى نشر الأمن والأمان فى مختلف أرجاء الإمارة ، لان ذلك من الأسباب القوية للتقدم الاقتصادى والإزدهار العلمى والحضارى ، ولذلك عملوا على تنشيط الزراعة والفلاحة والاهتمام بأمر الانتاج الزراعى والحيوانى ، والبناء التجارى ، ونشر العمران فى أرجاء البلاد لاسيما العواصم المدمرة التى قاموا بانشائها (أشير ، القلعة ، بجاية) وغيرها من المدن الكبرى والموانئ الواسعة العظيمة الواقعة على شاطئ البحر المتوسط .

وكانت دولة بنى حماد دولة ملكية يقوم نظام الحكم فيها على أساس الحكم الوراثى من خلال الأسرة الحمادية حيث أن الذى سيقرأ تاريخها يجد أن الأمراء بدءا من حماد مؤسسها إلى يحيى بن العزيز آخر أمراد الإمارة كانوا جميعا من سلالة حماد، لكن كان يغلب على الدولة طابع الحكم الاستبدادى إلا أن ذلك لايعنى أن الأمير لم يكن له مجلس وزراء يساعدونه فى إدارة الحكم لاسيما انهم اقتبسوا طريقة الحكم ونظامه من أبناء عمومتهم بنى زيرى فى تونس .

وكان ولاؤهم السياسى مرة للفاطميين وتارة أخرى للعباسيين لكنهم قضوا فترة من الزمن يستظلون بمظلة الحكم الزيرى فى القيروان لاسيما قبل قدوم القبائل الهلالية عام ٤٤١ هـ إلى البلاد . وكان ذلك الولاء سواء لبنى زيرى أو الفاطميين أو العباسيين يسير وفق المصالح السياسية التى تحقق فائدة للنظام الحاكم فى البلاد وكان ذلك ينبع من مقتضيات ومتطلبات الظروف التى تحيط بهم فى ذلك العصر وكانت عاصمتهم وقت انشاء الدولة هى أشيرتم منها انتقلت إلى القلعة وهو الاسم الذى درج على التعارف عليه فى المصادر التاريخية إذ اقترنت القلعة ببنى حماد فكان يقال بنى حماد أصحاب القلعة ، لكنه فى بعض الفترات التاريخية انتقلت العاصمة السياسية من القلعة إلى بجاية فى عام ٤٦٠ هـ . لاسيما أن هناك إجماعا من بعض المصادر التاريخية على أن الباعث وراء الانتقال إلى بجاية واتخاذها مركز السلطة والسلطان هو الخوف من خطر القبائل العربية الهلالية التى بدأت تتسرب إلى المغرب الأوسط بعد استقرارها فى المغرب الأدنى منذ عام ٤٤١ هـ ووصول طلائعها إلى الجزائر عام ٤٦٠هـ ومن هنا كان لابد من اللجوء إلى تأسيس عاصمة كبيرة تتوافر فيها شروط الأمن والقدرة على الدفاع والاحتماء بها من هجمات القبائل الهلالية ، ولقد كان الخطر الهلالى يزحف على القلعة لاسيما أن القبائل الهلالية قد بدأت تتحرش بالدولة الحمادية أثر هزيمة الناصر بن علناش الحمادى فى موقعة سبيبة عام ٤٥٧ هـ ومن هنا كان تأسيس بجاية .

ولقد كان الفضل الأول فى تأسيس تلك الدولة الفتية يعود فى المقام الأول إلى حماد بن بلكين الذى كان هو الباعث الأول لكى يظهر هذا الكيان السياسى كوحدة ذات معالم حدودية نامية ومحددة ومعترف بها من القوى السياسية الأخرى فى القرن السادس ، والذى عمل منذ أن وطئت أقدامه أرض المغرب الأوسط على بناء هذا الكيان مهما تكن الظروف والملابسات التى تحيط به من أخطار وقد حقق حلمه فى دولة قوية فتية دخلت التاريخ .

الدولة الحمادية بالقلعة

الأمير حماد بن بلكين الزيرى

(٤٠٥ - ٤١٩ هـ - ١٠١٤- ١٢٢٨ م)

هو حماد بن بلكين بن زيرى بن منقوش الصنهاجى . وهو أحد أبناء بلكين بن زيرى وقيل أنه كان الرابع فى الترتيب بين الأبناء بعد المنصور ويطوف ومحمد ، وهو أول أمراء هذه الأسرة . وقد انفرد بحكم معظم اجزاء الجزائر الحالية وكون منها دولة مستقلة يحكمها هو وأبناؤه وأحفاده من بعده .

وقد نشأ حماد فى بيت الخلافة الفاطمية حيث تربى فى قصور الخلافة مع أبناء الخلفاء والأمراء والأسرة الحاكمة الفاطمية فى ذلك الوقت فى المغرب حيث كان أبوه وجده زيرى الساعد الأيمن للدولة الفاطمية ومن هنا فقد وضحت معالم شخصيته وهو طفل صغير وان كنا لانعرف تاريخ مولده على وجه التحديد لكنه بالتقريب كانت ولادته قبل استقلال أبيه بلكين بحكم المغرب عام ٣٦١ هـ بعد سنوات ربما فى أعوام ٣٥٣ هـ أو ٣٥٤ هـ . وقد تربى تربية إسلامية قويمة وتعلم فنون القتال والفروسية ومن هنا لم يكن قد شب عن الطوق حتى كان فارسا ماهرا يجيد الكر والفر وفنون القتال ومن هنا تميزت شخصيته دون أخوته وإن كان أبوه بلكين يعده إعدادا سياسيا لكنه اختار القتال والفروسية ولم يكن يولى اهتماما لغيرها وإن كان على علم كبير بالقرآن الكريم وعلومه والحديث لكنه لم يكن ميالا منذ طفولته لتقبل تعاليم المذهب الاسماعيلى الشيعى .

ولقد ظهرت شخصيته على مسرح الأحداث فى عهد أخيه المنصور بن بلكين عام ٣٧٣ هـ / ٩٨٣ م إذ استعان به المنصور فى قتال زناتة وكسر شوكتها التى كانت تتحدى صنهاجة وتطمع فى أن يكون حكم المغرب لها بدلا من صنهاجة ، ومن

خلال الحروب مع قبائل زناتة لمع اسم حماد كقائد عكسرى ناجح وأن يحقق أهداف الدولة فى كسر حدة هجوم زناتة على أجزاء الدولة البعيدة وحدودها ، وقد اختاره أخوه المنصور لتولى منصب قائد جيش صنهاجة فى الجبهة الغربية للبلاد وأن يمنحه حكم البلاد التى يستخلصها من أيدى زناتة وإن كان المنصور قد عين أخاه الأكبر يطوف واليا على أشير إلا أن حمادا كان القائد والوالى الفعلى لهذه الانحاء من المغرب الأوسط .

ولما كانت الحروب طويلة ومتصلة مع زناتة فان حمادا اضطر إلى اتخاذ مدينة أشير كعاصمة جديدة له .

ومن هنا فقد مهدت له الظروف لكى يطمع فى تأسيس حكومة وأسرة حاكمة له، لاسيما أن الظروف لم تكن تساعدة فى أن يكون وريث أبيه فى عرش افريقية بعد أن وقع الاختيار على أخيه الأكبر المنصور لكنه كتم غيظه وأسر فى نفسه أن يكون له حاكما وسلطانا لايقل عن أخيه المنصور وكان يتحين الفرص والظروف لكى يستغلها أحسن استغلال حتى تتحقق أهدافه وقد لاحت له الظروف ممهدة له طريق الوصول إلى المجد التاريخى فى المغرب فى عهد ابن أخيه باديس بن المنصور (٣٨٦ هـ/ ٩٦٦م) . إذ بولاية باديس مقاليد الأمور بدأ الصراع الداخلى وتغيرت الظروف السياسية وثار عليه أعمامه أشقاء المنصور وأخوته وكان حماد هو الرجل الثائر طيلة حياة باديس وكان حماد يحمى حدود الدولة الغربية أو ما يمكن أن نطلق عليه ولاية الجزائر الشرقية من هجوم زناتة واستطاع منذ عام ٣٧٣ هـ حتى عام ٣٨٦ هـ أى أكثر من ثلاثة عشر عاما أن يجمع حوله الأعوان واستطاع أن يحارب زناتة وأن يهزمها واستدعى ذلك الأمر الاتفاق على عقد هدنة بين الطرفين كانت فى عام ٣٣٥ هـ / ١٠٠٤ م ونحن نرى هنا أن هذا العام هو العام الذى ظفر فيه من ابن أخيه باديس بأن تكون له الأقاليم التى يفتحها وهو تاريخ تخطيط بناء القلعة وإن كانت بعض المصادر ترى أنه عام ٣٩٨ هـ.

وقد نجح حماد فى مد سلطانه ونفوذه حتى ساد المغرب الأوسط كله من نهر شلف إلى نهر الموبوية وكان رئيس الدولة يلقب بالأمير منذ عهد حماد ولكنه حين استقل عن الخلافة الفاطمية حمل لقب ملك لكن نحن نميل إلى أن يظل أسماء امراء بنى حماد كما هو متعارف عليه ، ذلك لأنه لقب ملك لم يكن متعارفا عليه فى ذلك العصر وقد تكون أسماء أطلقها بعض المؤرخين على حكام بنى حماد فى الجزائر تفريقا لهم عن أبناء عمومتهم فى القيروان الذين اتخذوا لقب سلطان وهو الأعم والشائع فى ذلك العصر ، وقد كان حماد بن بلكين كما يقول عنه لسان الدين بن الخطيب فى كتابه الأعلام [نسيج وحدة ، وفريد دهره وفحل قومه ، ملكا كبيرا وشجاعا ثبتا وداهية حصيفا ، قد قرأ الفقه بالقيروان ونظر فى كتب الجدل (علم الكلام) وعلوم المعتزلة] .

وهو مؤسس الدولة وقد استغل حاجة بنى زيرى إلى قدرته القتالية والعسكرية فأملى شروطه التى سبق الإشارة إليها على ابن أخيه باديس التى كان من بينها امداده بالمال والعتاد والرجال كلما احتاج إلى ذلك للدفاع عن حدود الدولة الغربية والحد من قدرة زناتة على الاعتداء على أراضى الدولة وطردها من الأراضى التى تحت أيديها ، لكن كان شرط باديس هو القدرة على كسر شوكة زناتة وحماية الحدود الغربية للدولة وقد كان حماد ينوى الاستقلال بالحكم والانفراد به بعيدا عن الدولة الزيرية التى كانت صاحبة النفوذ والسيادة على كل المغرب من طرابلس شرقا إلى المحيط الأطلسى غربا .

فقد اختلفت المصادر التاريخية فى إعلان استقلال حماد عن الدولة الزيرية فى القيروان والبعض يرى أنها عام ٣٩٥ هـ والبعض الآخر يرى انها عام ٤٠٥ هـ لكن الجميع اتفقوا على أنها كانت فى عهد باديس بن المنصور والذى توفى عام ٤٠٦ هـ . وأنه قام بقتل الشيعة وأظهر السنة والمذهب المالكى وخلع طاعة الفاطميين وأعلن

طاعة العباسيين وذلك عام ٤٠٥ هـ وكان حماد قد انتصر على أخيه كرامة بن المنصور الذى كان يقود قوات المعز بن باديس ، لكن ابن خلدون يذكر تاريخا مغايرا للتاريخن السابقين إذ أننا نجد أنه يذكر أن حماد بن بلكين قد استقل بالمغرب الأوسط عام ٣٨٧ هـ في عهد باديس ، وربما يكون قول ابن خلدون انه تولى شئون المغرب الأوسط من قبل باديس بن المنصور واختط مدينة القلعة عام ٣٩٨ هـ وكان بناء القلعة يعنى ميلاد الدولة وظهورها على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب الإسلامى كدولة نامية ولقد ظل الأمير حماد بن بلكين ما يقرب من عشر سنوات ٣٩٥ - ٤٠٥ هـ / ١٠٠٤ - ١٠١٤ م وهو يعمل ما وسعه العمل على وضع وبناء دولة وطيدة الدعائم بعد أن حقق نجاحا باهرا فى طرد زناتة وبعثرها فى الصحراء وقضى على كيانها السياسى بحيث لم يعد لها نفوذ أو اقامة فى المغرب الأوسط ولم يعد لها دور تلعبه إلا غزو الاطراف والاغارة على المدن الآمنة ، واتجه فكر حماد بعد أن رأى هذه الأراضى الواسعة من نهر شلف إلى قهر المولولية تخضع لسلطانه فكان عليه أن يقيم دولته ، ولكن هذه الدولة كان لابد لها من عاصمة سياسية تكون مقر الحكم ومركز القيادة والحصن الذى يلجأ إليه وقت الشدة لكى يحميه من زحف الأعداء وكان نفوذه يمتد إلى المغرب الأوسط كله .

ولقد كان النجاح الساحق الذى حققه حماد دافعا الرجال السلطة والأقارب فى دولة بنى زيرى بالقيروان بالوشاية والكيد له لدى باديس الذى بدأ يحس أن عمه حماد قد صار مصدر خطر يهدد وحدة الأراضى الزيرية ، وكان على باديس أن يختار من نفس الأسرة رسولا إلى حماد ووقع الاختيار على الأخ الشقيق لحماد لكى يكون مبعوث الدولة الزيرية إلى حماد وهو ابراهيم بن بلكين وذلك بعد إجماع الأسرة الزيرية على ما حمله من أوامر وهو أن يرفع حماد يده عن الأراضى التى يملكها أو يتنازل عن القسنطينة وأرسل ابراهيم فى عام ٤٠٥ هـ لكنه عندما وصل إلى القلعة وشاهد قوات حماد التى كانت تزيد عن ثلاثين ألف مقاتل ورأى عظمة القلعة وما حققه حماد فى

تلك الفترة القصيرة من الحكم انضم إلى أخيه ورفض العودة إلى القيروان وأعلن استقلاله بالدولة ردا على مطالب باديس ودخل باجة عام ٤٠٥ هـ لكن كما سبق القول سار إليه باديس بقواته وانتصر عليه وانهزم وثار الناس عليه ورفض حاكم مدينة أشير دخول حماد وفلوله المنهزمة المدينة ووقفت باجة فى وجهه ، وانهزم حماد مرة ثانية عام ٤٠٩ هـ / ١٨٢٥ م ، لكن باديس بن المنصور مات فجأة وهو يحاصر القلعة

ودارت حروب طويلة بين كرامة بن المنصور عم المعز بن باديس شقيق حماد فى أشير وكانت مدينة أشير تخضع لحكم بنى زيرى وفى عام ٤٠٨ هـ قام حماد بمحاصرة باغاية بالقرب من قفصة وانهزم حماد وتم الصلح بين المعز بن باديس والذى دفعه إلى ذلك عمه كرامة بن المنصور وكما يقول السلاوى فى كتابه الاستقصا بأخبار المغرب الأقصى أن السلام والصلح كان فاتحة عهد جديد فى تاريخ المغرب .

وتم الصلح مع المعز عام ٤٠٨ هـ ودعم هذا دولة حماد الفتية وتزوج عبد الله ابن حماد شقيقة المعز بن باديس فازدادت المودة واستحكمت الصلة وتلاقت مصلحة رجال دولة حماد مع ما يتطلبه حماد من فرص لاستكمال بناء الكيان السياسى لدولة قوية لعبت دورها على مسرح الأحداث السياسية فى تاريخ المغرب بعد اتمامها قوية البناء وطيدة الأركان . وأطلق المعز سراح عمه ابراهيم بن بلكين والقائد بن حماد واستقرت الأمور بينهما .

ومن هذا التاريخ كما اتفق العديد من المصادر فى وفاة حماد فى عام ٤١٦ هـ / ١٠٢٨ م فان الدولة الحمادية قد بدأت تشعر بالاستقرار واستطاع حماد بعد هذا المجهود الشاق المضنى منذ عام ٣٧٣ هـ حتى عام ٤٠٨ هـ أى بعد خمسة وثلاثين عاما أن ينجح فى إقامة دولة له ولبنيه وكان الصلح الذى عقد بينه وبين المعز بن باديس (حفيده) بداية مرحلة الانطلاقة الأوسع والأرحب فى بناء عصرى لدولة تتطلع إلى أن

تتبوأ مكانة لها بين الكيانات السياسية فى بلاد المغرب وقد امتد هذا الصلح ما يقرب من ربع قرن من الزمان واستمر حتى نهاية حكم حماد ثم فترة فى عصر القائد ابن حماد .

وقد قال ابن الخطيب أن القلعة فى عهد حماد قد شهدت ازدهارا معماريا وحضاريا واتسم عهده بالتشييد والبناء وتوطيد دعائم الحكم وشهدت القلعة أيضا القصور العالية والحصون والأبراج القوية والمساجد الجامعة الواسعة الفسيحة التى ظهر فيها الفن العراقى مع الفن الاندلسى واتسمت حياة القلعة بالازدهار والنمو وكثرت الحدائق الغناء والبساتين الانيقة وقرب إليه العلماء والأدباء والشعراء وغيرهم من رجالات الفكر والعلم والدين والسياسة والشورى والزعامة ، وذلك لانه عمل على توطيد دعائم الدولة التى كانت الحروب قد انهكتها مع ابن أخيه باديس وحفيده المعز إضافة إلى الحروب الطويلة مع زناتة ، ومن هنا فان البناء الداخلى بدأ يظهر بصورة جلية كمظهر لكيان سياسى قوى ، ولقد كانت الدولة فى حاجة إلى ذلك الصلح لكى يسود عصر الهدوء والازدهار وقد اتخذت القلعة طابعا عسكريا وشيدت بالحصون الكثيرة فقد كانت ظروف تلك المرحلة تقتضى أن تكون حاضرة عسكرية وليست سياسية لانها لم تكن قد استقرت الأحوال فى المغرب الأوسط ومن هنا قضى حماد فترة ثمانية عشر عاما يعمل على البناء السياسى للدولة ويزيد فى التوسع الزراعى والعمرانى ويشجع الناس على الهجرة إلى القلعة التى نقل إليها أهل المسيلة وأهل حمزة (ابن خلدون) لكى تظهر العاصمة بصورة تضاهى العواصم ولكى يعمل على أن تكون قلعة العلم والدين لاسيما ان حمادا كان ضليعا فى الأمور الفقهية وخاصة أنه درس الفقه المالكى والحنفى والشيعى وإن كان قد نبذ الشيعى منذ صغره واتخذ المذهب الحنفى مذهب الدولة العباسية لكن السيادة والغلبة كانت المذهب المالكى .

وتوفى حماد بن بلكين فى شهر رجب عام ٤١٩ هـ / ١٠٢٨ م وقيل أنه

توفى عن عمر يناهز المائة عام بعد أن عمل على بناء دولة وتحقيق أحلامه التى كان يرى أنه أحق من أخيه المنصور وكان يؤيده فى ذلك أخوه ابراهيم ويطوف لكن الظروف السياسية والعائلية كانت أقوى من يحقق أحلامه على أرض المغرب فاستغل وضعه العسكرى كقائد عسكرى ناجح استطاع بما لديه من قدرات عسكرية ، وامكانيات قتالية أن يكبح جماح قبيلة زناتة البربرية التى كانت العدو التقليدى لصنهاجة وأن يطردها من كل بلاد المغرب الأوسط حيث كان مقر استقرارها ويقيم على أرضها دولته الفتية التى لعبت دورها على مساحة التاريخ المغربى بقدر ما سمحت لها الظروف فى ظل المتغيرات التى كانت تطرأ على الساحة المغربية وظهور دولة المرابطين القوية فى المغرب الأقصى والتى حدت من تطلعات بنى حماد نحو بناء كيان واسع على حساب زناتة (مغراوة) التى كانت تحكم المغرب الأقصى من قبل بنى أمية حكام الأندلس .

كذلك فان حمادا رغم تاريخه العسكرى إلا أنه لم يكن يتمتع بقدر من المرونة التى كانت تمنع عنه الدخول فى قتال مع أبناء أخوته وأحفاده واخوته فى القيروان ، إلا أن النزعة القبلية المفرطة والتعصب الأعمى للقبيلة قد جلبت حروبا كثيرة على الدولة جعلته يخوض حروبا مع صنهاجة (أبناء العمومة) ومع زناتة الأعداء التقليديين والدائمين لبنى حماد .

الأمير القائد بن حماد بن بلكين

(٤١٩ – ٤٤٦ هـ – ١٠٢٨ – ١٠٥٤ م)

تولى مقاليد الأمور بعد وفاة أبيه حماد والذى كان قد تم اختياره ليخلف أباه فى إمارة الدولة وكان والده يعده لهذه المهام الجسام دون أخوته عبد الله ، زيغلان ، محمد، علناش (علاء الناس ، أعلى الناس) ويوسف نظرا لانه كان يتصف بصفات فريدة وكانت المواصفات القيادية والدبلوماسية تؤهله لان يختصه والده بالقيام بابرام الاتفاقيات وعقد الصلح وقيادة الجيوش بجانب والده والاشتراك معه فى جميع المعارك التى خاضها والده وقد دامت فترة حكمه طوال سبعة وعشرين عاما .

وكان قائدا هماما وأميرا شجاعا حازما ، شديد الرأى واستطاع أن يقود دفة الأمور فى البلاد وأن يسهم فى تقدمها ورفاهيتها لاسيما أنه تولى الحكم والبلاد تأخذ طريقها للتقدم والازدهار فى ظل حالة الأمن والطمأنينة التى تسود البلاد .

ونظرا لسداد رأيه وحسن تصرفه فقد أوكل إليه أبوه أن يقوم بقيادة فريق الصلح الذى أرسل للتفاوض مع السلطان المعز بن باديس بشأن وضع نهاية للحرب الدائرة وفتح صفحة جديدة فى العلاقات فقام بالمهمة خير قيام وعاد إلى القلعة فى شهر رمضان عام ٤٠٨ هـ/ ١٠١٧م بعد أن تم التوقيع على الصلح ، ولقد لعب بأسلوبه فى المفاوضات دورا كبيرا فى توطيد الصفاء بينه وبين المعز بن باديس ، وفى أثناء فترة حكمه بدأت العلاقات بين الفاطميين فى القاهرة والسلطان المعز بن باديس تأخذ بعدا مغايرا عن السياسة التى سار عليها أسلافه وحدث الصدام .

فانتهز القائد بن حماد سوء العلاقة بين الطرفين وأراد التقرب للخلافة الفاطمية وأن يخلع الخضوع السياسى لدولة بنى زيرى ويستغل الظروف السائدة لكى يقيم علاقات دولية بدلا من التبعية السياسية لبنى زيرى فراسل القاهرة وأعلن الخضوع

والولاء للخليفة الحاكم بأمر الله ومن قبله الخليفة المستنصر ، فجاءه لقب تشريفي من قبل الفاطميين بالقاهرة ، وهو لقب شرف الدولة .

وقد استطاع أن ينظم شئون البلاد وأن يولى اهتماما كبيرا بالتنظيم الإدارى والقضائى والتشريعى والقوات الحربية فعين أخاه يوسف واليا على الأقاليم الغربية من البلاد وأخاه عبد الله لقيادة وإدارة شئون الدفاع والقوات العسكرية وأخاه زيغلان على مدينة حمزة ، إحدى المدن الغربية التى كانت لاتزال مأهولة بالسكان رغم انتقال عدد كبير من سكانها إلى مدينة أشير فى عهد حماد بن بلكين .

لكن فترة الصلح الذى تم بين المعز بن باديس وحماد بن بلكين لم تدم طويلا إذ بدأ سوء التفاهم يعكر صفو الحياة السياسية ومن هنا لم تكن العلاقات غير مرضية وحدث الخلاف الذى قام على أثره المعز بن باديس بحشد قواته عام ٤٣٢ هـ وغزاه بجيوشه وحاصر القلعة واستمر فى حصارها لمدة عامين ، إلا أنه تم بعد ذلك الصلح ولم يقم المعز بن باديس بغزوة مرة أخرى نظرا لانشغاله بمحاربة القبائل العربية الهلالية التى داهمت البلاد وأخذت الجهد الكثير من دولة بنى زيرى .

لكن القائد بن حماد والذى ورث عن أبيه قتال قبيلة زناتة البربرية لم يكن يهنأ بالصلح الذى تم بينه وبين ابن عمه المعز بن باديس حتى تعرض لهجوم كاسح من قبل زناتة قاده على الحدود الغربية للبلاد زعيم قبيلة مغراوة الزناتى (حمامة بن زيرى المغراوى) والذى كان يتخذ من فاس فى المغرب الأقصى عاصمة لبلاده وهاجم الأقاليم الغربية من البلاد حيث أنه كان يسعى إلى اقتطاعها من بنى حماد وضمها إلى أملاكه والتوسع شرقا على حساب الدولة الحمادية ، لكن أخاه يوسف حاكم هذه الأقاليم استنجد بالقائد الذى زحف إليه بقوات كبيرة واشتبك مع حمامة بن عطيه المغراوى فى حروب عنيفة وطاغية استطاع قائد بن حماد بما يمتلك من أساليب يحقق من ورائها الانتصار فدفع بالأموال سرا إلى زعماء زناتة الذين قبلوا الرشوة

وانفضوا من حول حمامة مما أتاح للقائد بن حماد أن ينتصر عليه وأن يهزمه شر هزيمة فاضطر حمامة الزناتى أن يطلب الصلح والعودة إلى فاس مقر امارته دون أن يحقق أدنى هدف مما كان يسعى إليه بل عاد خائبا ودخل حمامة فى طاعة القائد أمير بنى حماد وقد ساعد هذا الانتصار القائد على أن يحاول أخذ دوره فى العلاقات الخارجية وأن يظهر دولته على مسرح الأحداث الإسلامية وكما سبق القول أقام علاقات سياسية ودبلوماسية مع القاهرة وراسل الخلفاء وأرسل إليهم الأموال والهدايا ، وهناك بعض الآراء تذكر أن القائد بن حماد قد وجد نفسه تحت ضغوط سياسية قاهرة أن يعلن اعترافه وولاءه للخلافة الفاطمية وذلك أثر الهجوم الهلالى العربى على افريقية وهزيمة المعز بن باديس هزيمة قاسية فى معركة حيدران عام ٤٤٣ هـ / ١٠٥١ م .

لكن مما يذكر للقائد بن حماد من حسنات فى علاقته مع أبناء عمومته حكام القيروان أنه عندما أحس المعز بن باديس بالخطر العربى الهلالى الداهم فانه استنجد به وقام القائد بدوره بتلبية الاستغاثة وأرسل إليه ألف فارس مقاتل من أشجع فرسان قواته للاشتراك معه فى المعركة وقد لعبوا دورا فى معركة حيدران ولكن لم يوفقوا فى تحقيق النصر .

ومنذ ذلك الوقت واحساسهم بحاجة المعز بن زيرى إليهم فان التوازن السياسى قد بدأ يميل لصالحهم لاسيما ذلك وأن قوة الدفع العربى الهلالى لم يكن قد زال خطرها لكنه فى السنوات الأخيرة أثر الغزوة الهلالية قد بدأ يدرك أبعاد الأخطار التى تتعرض لها إمارته لاسيما أن المد الهلالى لم يكن يتوقف عند حدود الدولة الزيرية ، لكن أيامه لم تشهد دخول بنى هلال إلى أطراف دولته الشرقية ، ومن هنا فقد عاش باقى أيامه يمارس إدارة الدولة وبعد الاعدادات العسكرية تحسبا للأيام القادمة لكنه مات فى ذى القعدة عام ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م وهو مطمئن على مصير الإمارة الحمادية .

ولقد كانت فترة الحكم الطويلة هذه التى قاربت سبعة وعشرين عاما حافلة

بالأعمال والأمجاد وتوطيد دعائم الدولة والسير على نهج والده حماد فى العمل على النهوض بشتى مرافق الحياة والاهتمام بالعلم والتعليم وتشجيع العلماء لاسيما أنه لم يكن لهذه الدولة ماض حضارى أو ثقافى فهى لم تكن قبل بنى حماد دولة بالمعنى المفهوم ، ولم تكن للمغرب الأوسط عاصمة تاريخية اللهم إلا الدور الذى لعبته مدينة تاهرت كعاصمة سياسية لبنى رستم الاباضية الذين أسقط حكمهم بنو الفواطم .

وقد اتخذ القائد مدينة القلعة عاصمة سياسية له ولم يحاول التفكير فى الانتقال منها لكنه كان يوطد دعائم الدولة ويحاول أن يحد من خطر الأخطار التى تهددها لذا كانت القلعة الضخمة أشبه بالمدينة بل هى مدينة كاملة النظم والمرافق والإدارة وبها من كل المنشآت ما يؤهلها أن تكون العاصمة السياسية للبلاد .

وبلغ من شهرة القلعة وموقعها وضخامتها أن ينسب بنو حماد إليها وأصبح اسمهم فى الكثير من كتب التاريخ بنى حماد أصحاب القلعة ، وقلعة بنى حماد تعتبر أعظم القلاع التى أنشأها المسلمون فى تاريخهم وهى تقارن بقلعة حصن الأكراد فى الشام وقلعة صلاح الدين فى القاهرة فهى فى حقيقة الأمر كاملة المرافق وتستطيع بما توافر لها من امكانات أن تقاوم الحصار لفترات طويلة فقد صمدت أمام حصار المعز ابن باديس أكثر من عامين دون أن يؤثر ذلك على الحالة العامة للقلعة وكانت مقسمة إلى أحياء سكنية كل حى يسكنه جماعة من الحرفيين أو القبائل ولها مسجد ، بل مساجد وتتوسطها قصبة أى حصن ينبع داخلى ولا زالت بقاياها قائمة فى بلاد الجزائر حتى اليوم .

ومن الملاحظ أنه فى تلك الحقبة التاريخية التى نتدارسها أن ظروف القلق وعدم الاستقرار التى عرفتها بلاد المغرب منذ النصف الأول من القرن الثانى الهجرى جعلت الدول (الاغالبة ، الادارسة ، بنى رستم) وغيرها من الدول لا تعتمد على قدرة

القبائل المقاتلة أو سلطة الدولة بقدر اعتمادها على الحصون والقلاع القوية المجددة بالسلاح والقادرة على مقاومة الغزو أطول فترة ممكنة .

وهكذا ما كان قد بذل فيه جهده القائد بن حماد تمكينا لحكم أسرته ولمن يأتى من بعده بتوفير ظروف الأمن والمعيشة والاستقرار داخل العاصمة السياسية القلعة التى كانت تتوافر لها أسباب الحكم والاستمرارية فيه .

الأمير محسن بن القائد بن حماد

(٤٤٦ - ٤٤٧ هـ - ١٠٥٤ م)

تولى مقاليد الأمور فى القلعة بعد وفاة أبيه بعد أن كان أخذ البيعة له من أخوته وأعمامه وأفراد الأسرة الحمادية ، لكنه لم يكن بالصورة التى تتوافر فى حاكم يقود أمور البلاد فقد كان مندفعا متسرعا لم يكن على درجة عالية من الكياسة والفطانة التى تمكنه من إدارة شئون دولة تتعرض للأخطار وتحاول أن تعصف بها الرياح التى كانت تهب على المغرب منذ عام ٤٤١ هـ أثر الغزوة الهلالية ، لكن هكذا قدر عليه أن يقع فى المحظور وأن يخالف وصية أبيه فى أن سلطته لابد أن تدعم بتعاونه مع أعمامه ومع أفراد أسرة بنى حماد وضرورة مشاركتهم له بالرأى والمشورة والاستعانة بهم فى تولى مقاليد الأمور وأخذ مشورة كبار السن فى تقرير مصير البلاد وتدارس أمورها ، لكنه ضرب عرض الحائط بكل هذه الوصايا التى لو سار عليها لما لقى حتفه قتيلا أمام أسوار القلعة العاصمة ولما كانت فترة حكمه قصيرة بهذه الصورة حيث لم يدم حكمه إلا بضعة شهور لم تزد عن أربعة أشهر حيث تولى الحكم فى أواخر شهر ذى القعدة عام ٤٤٦ هـ وقتل فى منتصف ربيع أول عام ٤٤٧ هـ .

ولقد ساعدت كثير من العوامل على قتله وقصر فترة حكمه ذلك لانه كان يشك فى كل من حوله وانه اتخذ أسلوب الغدر والعزل والقتل منهجا له فى الحكم فلم

يمض إلا شهر واحد على توليه أمور البلاد إلا ونجده قد قام بعزل أعمامه عبد الله ويوسف وزيغلان من جهاز الحكم حيث كانوا هم السند والقوة والساعد الايمن لابيه قائد وقد سبق الإشارة إلى الدور الذى لعبوه فى حكم البلاد وفى حياتهم أحسن قيام بالأداء الملتزم فى مسئولياتهم قبل حاكم البلاد ولكنه لم يكتف بالعزل والسجن بل قام بقتل أربعة من أعمامه وسجن بعض من أخوته وأبناء أعمامه مما أحدث فزعا فى الأسرة الحاكمة وبدأت الدسائس تدبر لقتله ولو أنه كان له السبق فى المبادرة واستخدام المال وسيلة للغدر فيمن يشك فى عدم ولائه له حيث كانت الأحوال لصالحه فى استمراره فى الحكم فترة أطول .

وكان والده قد أوصاه بألا يخرج من القلعة ولا يقاتل خارج أسوارها وأن يلتزم الاستقرار بها طيلة ثلاث سنوات كاملة حتى تستقر الأمور فى البلاد ويكون قادرا على الاعداد والعدة لقواته ، لكنه لم يطق صبرا فقد أعلن عمه يوسف بن حماد الثورة عليه فى الاقاليم الغربية من البلاد وهى الحدود المجاورة للمغرب الأقصى حيث قبائل زناتة ورفض قرار العزل وألب القوات ضده وحشد القوات استعدادا لقتاله ، لكنه كان يرى فى ابن عمه بلكين بن محمد بن حماد خطرا قويا على ملكه لا سيما أن أفراد الاسرة الحمادية كانوا يرون فى بلكين صفات الزعامة والقيادة والقدرة على إدارة شئون البلاد ، فقرر محسن بن القائد الغدر به وعهد إلى قبيلة بنى هلال التى كان قد امتد نفوذها فى ذلك الوقت إلى بلاد المغرب الأوسط وقرب زعماءها إلى قادة البلاد وأوكل قتله إلى زعيمين عربيين هما (خليفة ابن معين الهلالى وعطيه الشريف الهلالى) لكن بلكين فطن للحيلة وكشف أمرها بعد أن أباحا له العربيان بما كان ينوى عمله محسن به ، فتعاهد الجميع لقتل محسن ورجعوا إلى القلعة وعدلا عن محاربة يوسف بن حماد عم محسن وقرروا أن تعود القوات الحمادية والعربية المشتركة إلى القلعة مرة ثانية لقتال محسن والتخلص منه ، وكان محسن بن قائد فى ذلك الوقت خارج القلعة يقود قواته لقتال عمه

يوسف .

وتقابلت القوات التى عادت بدون قتال مع قوات محسن بن القائد الذاهبة للأقاليم الغربية للبلاد لقتال يوسف بن حماد ، ودارت بينهما معركة قادها بلكين بن محمد بن حماد بمساعدة القوات الهلالية بمهارة حتى انتصر على محسن الذى حاول الفرار داخل القلعة ، لكن بلكين ومن معه استطاعوا مطاردته وإدراكه وقتلوه فى ربيع أول ٤٤٧ هـ ، ودخل بلكين القلعة ليلا ومعه قواته والقوات العربية الهلالية وأعلن نفسه أميرا على القلعة خلفا لسلفه محسن بن القائد الذى قتل والذى لم يحسن إدارة دفة الأمور بالكياسة والحكمة والحنكة فلقى حتفه على أيدى أحد أبناء الأسرة .

ومن هنا فان حادثة قتل محسن بن القائد كانت أول شرارة تؤدى إلى الانقسام العلنى بين أفراد الأسرة الحاكمة بعد أن كان الصراع يدور خلف الكواليس فى القصر السلطانى لكنه هذه المرة اتخذ أسلوب الحرب المعلنة وتمت التصفية بالقوة وأصبح من يملك القوات الأكثر والقدرة على الاستعانة بالقوات العربية بيده مقاليد الأمور فى الأسرة الحمادية وكانت فترة محسن هذه بداية الانهيار للدولة الحمادية .

الأمير بلكين بن محمد بن حماد بن بلكين

(٤٤٧ – ٤٥٤ هـ – ١٠٥٥ – ١٠٦٢ م)

كان الصراع الداخلى بين أفراد الأسرة الحمادية وما يشبه بالحرب الأهلية بين أفراد البيت الواحد وسياسة القتل والغدر والعزل من الأسباب القوية التى ساعدت على ضعف بنى حماد ودهمتهم الفرقة التى دهمت بنى عمومتهم فى المغرب الأدنى ، ولكن الدولة الحمادية فى هذا الدور الجديد من أدوار قيامها كانت تسعى إلى التوسع

وكسب أراضى جديدة والتوسع غربا على حساب المغرب الأقصى وتحقيق أهداف الجد الأكبر حماد فى بناء دولة قوية ومدافعة أعداء الدولة من زناتة ومحاربة كل من تسول له نفسه الاعتداء على حدود الدولة والضرب بشدة على أيدى الخارجين على سلطة الدولة فى العاصمة السياسية القلعة .

وكان بلكين بن محمد بن حماد خير من ينفذ هذه السياسة كما سنرى ذلك ، والمعروف أن بلكين بن محمد قد وصل للحكم عن طريق قتل ابن عمه محسن وبذلك انتقل الحكم إلى فرع جديد من أسرة حماد هو فرع محمد بدلا من فرع القائد. وقد ظل بلكين بن محمد يحكم البلاد سبع سنوات قام فيها بأعمال لم يقم بها أحد من الذين سبقوه فى حكم المغرب الأوسط ، إذ عمل على تدعيم كيان الدولة السياسى وبسط نفوذها على قدر أوسع من الأراضى وتوسيع رقعة الدولة والمحافظة على هذا الكيان السياسى وسط الانواء والأخطار التى تحدق بالبلاد من (عرب بنى هلال ، المرابطين وزناتة وبنى زيرى) .

وقد قال عنه لسان الدين بن خطيب أن بلكين بن محمد كان شجاعا مقداما مغوارا ، جسورا ، جريئا على العظائم ، محبا لسفك الدماء ، وقال عنه ابن خلدون ، كان شهما قويا ، حازما ، سفاكا للدماء ، وقد استطاع أن يستولى على السلطة السياسية فى البلاد بالقوة والإرادة والفطانة والحنكة التى مكنته من اكتشاف ما يدبره ابن عمه ضده ، وقلب الموقف إلى صالحة بعد أن كان ضده وتلك مهارة سياسية تشهد له وقد شهدت سنوات حكمه هذه القصيرة ظهور دولة بنى حماد قوية متماسكة إذ استطاع أن يجمع الأسرة الحاكمة من حوله لذا أطاعته البلاد وخضعت له القبائل.

وقد كانت فترة حكمه تساعد على ذلك ، إذ أن الأمور فى الشرق والغرب كانت تشهد اضطرابات شديدة فمن الشرق كان ابن عمه (المعز بن باديس) يعد العدة لمغادرة القيروان بعد أن ضيق عليه عرب بنى هلال الخناق ولم يكن المعز بن

باديس فى تلك الظروف بقادر أن يتجه إلى الغرب إلا طلبا للنجدة والقوة ، وكان بنو هلال قد وصلوا إلى بلاده بل انهم هم الذين أوصلوه إلى عرش البلاد . وكانت زناتة البربرية العدو التقليدى لبنى حماد تعانى اضطرابات قوية على يد المرابطين القوية الصنهاجية الزاحفة من الصحراء جنوبا فاستطاع بلكين أن يستفيد من كل الظروف وأن يستثمرها لصالحه وأن يحقق أطماع بلاده فى التوسع وامتد طموحه إلى المغرب الأوسط والأقصى . وكان المرابطون قد بسطوا نفوذهم على المغرب الأوسط ووضعوا حامية فى تلمسان استطاعت أن تجنب المغرب هجوم بنى حماد والهلالية الذين تحالفوا معهم وقد اهتم المرابطون بالمغرب الأوسط ووضع حد لتقدم بنى حماد والهلالية لانهم كانوا يعلمون أنه يتحكم فى الطريق الموصل إلى المغرب الأقصى ، ومما يدل على اهتمامهم بأمر هذا الاقليم أن يوسف بن تاشفين لما علم باختلال أمره ولى عليه القائد اللمتونى الشهير (مزدلى) ليرعى شئونه ويحرس مسالكه فلا ينفذ إليه بنو حماد والعرب الهلالية ويطرقون باب المغرب الأقصى ، لكن بلكين بن محمد بن حماد هاجم عام ٤٥٤ هـ / ١٠٦٢ م مدينة فاس وقاتل المرابطين أصحاب يوسف بن تاشفين بها وشردهم إلى الصحراء .

وهكذا أدى توسع المرابطين فى المغرب الأوسط وعملهم على وقف مسيرة العرب الهلالية إلى اصطدامهم ببنى حماد أصحاب القلعة بعد أن كان بنو حماد قد أزروا المرابطين وقدموا لهم الدعم عندما فتحوا المغرب الاقصى وكان بنو حماد منذ عهد بلكين هذا لم يروا فى التوسع المرابطى فى المغرب الأوسط إلا حدا لنفوذهم وقتلا لطموحاتهم للتوسع فى الاجزاء الغربية المجاورة لبلادهم ، لذا ظلوا يترقبون فرصة مواتية لهم حتى عبرت قوات المرابطين إلى الأندلس وشغل يوسف بن تاشفين بالجهاد ، فاستعانوا بعرب بنى هلال وأغاروا على المغرب الأوسط لانتزاعه من المرابطين ، بل انهم كما سبق القول وصلوا إلى فاس بالمغرب الأقصى مما حمل يوسف بن تاشفين على مغادرة الاندلس والعبور إلى المغرب لمواجهة هذا الخطر الداهم ويبدو أن المرابطين قد

أقروا السكينة فى ربوع المغرب الأوسط وحالوا بين بنى حماد وحلفائهم من العرب الهلالية وبين مايريدون من توسع ، بل أن قوات المرابطين هددت مدينة اشير الحمادية كما أنه يمكن القول أن اهتمام المرابطين بأمر المغرب الأوسط وعملهم على تحسينه واقرار السكينة فى ربوعه لم يكن القصد منه مناهضة بنى حماد والكيد لهم ، بل رد العرب الهلالية عن التوسع غربا ، وكما يذكر ابن الاثير أن يوسف بن تاشفين صالح وسالم بنى حماد بعد أن اطمأن إلى أن المغرب الأوسط لم يقع فى قبضة العرب الهلالية .

إضافة إلى أن يوسف بن تاشفين قد بعث برسالة إلى أمير بنى حماد يعاتبه على الاستعانة بعرب بنى هلال فى الوقت الذى كان يجب أن تتضافر فيه جهود أمراء بنى حماد مع المرابطين لمدافعة الفرنجة فى الاندلس ورد عدوانهم على ديار المسلمين ، فلابد أن بنى حماد قد حاولوا الانتقام واغتنام فرصة غياب ابن تاشفين والانقضاض على المغرب الأوسط والمغرب الأقصى مستغنين بالعرب الهلالية الذين كان بلكين بن محمد بن حماد قد هادنهم واستعان بهم .

وهكذا نجح بلكين بن محمد فى أن يصد الاعداء المحيطين بدولته وأن يوفر لها الحماية وأن يكون عهده عهد سلام وود مع أبناء عمومته فى القيروان والذى كان يقدر ظروفهم والأحوال التى تمر بها الدولة أثر هجوم بنى هلال عليها فلم يقم بأدنى عمل يعكر صفو العلاقات بين الدولتين ولم يعمل على مناوشة المعز بن باديس ، إلا أنه قام فى عام ٤٥٠ هـ/ ١٠٥٥م بحملة ضد اقليم الزاب وقاتل حاكم بسكرة لخروجه على سلطة الدولة فى القلعة وقتل عددا كبيرا من قبيلة زناتة ، وفى عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م اتجهت قواته وحشوده ناحية الأقاليم العربية للبلاد أثر دخول زناتة حدود الدولة فارة من أمام الهجوم الكاسح الذى شنته عليها قوات المرابطين وقد نجح بلكين ابن محمد فى وقف زحف يوسف بن تاشفين وسيطر على كل البلاد الواقعة غرب العاصمة القلعة فى مدينة فاس .

وتعتبر فترة حكم بلكين بن محمد فترة فرض سيادة الدولة وفرض نفوذها وكان شخصيته قوية كجده حماد مؤسس الدولة فقد كان حريصا على دعم كيانها السياسى وكسب ود وخضوع القبائل والمدن لها وقد بنى دولة قوية مرهوبة الجانب قوية البناء مدعمة الأركان يشهد لها الأعداء والأصدقاء فقد وضع حدا لتحرش المرابطين والهلاليين وحفظ حدودها من كل عدوان خارجى .

لكن سياسة المؤمرات والدس والوقيعة والقتل والاغتيالات والصراع الداخلى بين أبناء الأسرة الواحدة كانت قد أخذت طريقها وربما كانتنهجا لمن يريد أن يتولى الحكم لاسيما بعد أن كان محسن بن القائد قد وضع بذور تلك السياسة بما اتبعه من أساليب وعناد أدت بالبلاد إلى الدخول فى الصراع على العرش . وكان على بلكين بن محمد بن حماد أن يلقى مصير محسن بن قائد ، إذ أنه أثناء عودته مزهوا بانتصاره على المرابطين ودعم نفوذ الدولة تحالف عليه ابن عمه الناصر بن علناش ابن حماد بعد أن تآمر عليه مع أهل بيته من آل حماد وطائفة من الصنهاجيين الذين رأوا فى بريق المال والذهب سببا للتآمر فقتلوه في ميتسالة بأرض المغرب الأقصى بعد أن كان قد حقق مجدا لبلاده ووزع الأموال التى كانت فى خزائن بلكين على العرب وزناتة وغيرها ممن اشتركوا فى هذه المؤامرة الدنيئة التى قضت على آمال وطموحات رجل من الرجال القلائل الذين حكموا دولة بنى حماد وبعام ٤٥٤ هـ طويت صفحة من أمجد صفحات بلكين بن محمد بن حماد .

الفصل الثانى

الدولة الحمادية فى بجاية

السلطان الناصر بن علناش بن حماد بن بلكين

(٤٥٤ – ٤٨١ هـ – ١٠٦٢ – ١٠٨٨ م)

جاء الأمير الناصر بن علناش إلى حكم الدولة الحمادية عن طريق مؤامرة دبرها مع بعض أعوانه من العرب والصنهاجة من البيت الحمادى الحاكم يعاونهما بعض رجال زناتة ضد ابن عمه بلكين بن محمد بن حماد الذى قتله فى طريق عودته إلى العاصمة القلعة بعد أن حقق انتصارات حاسمة فى المغرب الأقصى ، لكن الناصر لم يدعه يهنأ وينعم بهذه الانتصارات إذ غدر به فى طريق العودة راجعا إلى عاصمته .

ومن هنا فقد كان وصول الناصر إلى الحكم بعد سلسلة من الفتن والحرب الأهلية بداية لفرع جديد من أسرة حماد يحكم البلاد مخالفا لفرع قائد ومحمد حيث كان الناصر بن علناش حفيد حماد وابن الابن الثالث من أبناء مؤسس الأسرة وبذلك انتقل الحكم إلى الفرع الثالث من أبناء حماد ، وكان لناصر أخوان هما علاء الناس، أعطى الناس واللذان لعبا دورا لايقل أهمية عن دور أخيهما الناصر فى حياة الدولة الحمادية حيث بقيت السلطة السياسية فى أيديهما حتى سقوط الدولة عام ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢ م .

ويعتبر الأمير الناصر خامس أمراء الاسرة الحمادية الذين حكموا البلاد وطالت فترة حكمه حتى بلغت سبعة وعشرين عاما حافلة بالأعمال الجليلة والانتصارات الحربية وواضعا الأسس لبناء دولة عصرية تضارع الدول المعاصرة لها فى المغرب الإسلامى من حيث القوة والتقدم الحضارى والعمرانى وبناء الجيش .

إلا أننا انصافا للحق لانستطيع أن نعطى هذه الدولة الحمادية اكثر من حقها فقد كانت دولة اقليمية محلية لم تبلغ مبلغ الدول الكبرى كما حاول أن يصور ذلك بعض المؤرخين المحدثين أو طلبة الدراسات العليا المتقدمين لدرجتى الماجستير والدكتوراه بل تعتبر دولة صغيرة من صغار دول المغرب ، فهى لم تبلغ مبلغ دولة المرابطين أو الموحدين الذين أسقطوها ولا تبلغ مبلغ دولة بنى زيرى المجاورة ولم تصل بجاية العاصمة الحديثة التى اتخذها الناصر دار الحكم والسلطنة مبلغ القيروان أو فاس أو مراكش ، وقد كانت دولة قبلية فليست من الدول ذات النفوذ والشهرة وتخضع لحكم الأمراء ، لكنها لم تصل شأوا من العلم والتقدم الحضارى يقاس كالقاهرة أو بغداد أو قرطبة أو بالرمو أو فاس وغيرها من الحواضر الإسلامية ذات السمعة والمكانة السياسية والعلمية وهى لم تكن إلا دويلة أو امارة صغيرة يحكمها عتاه مستبدون تقاسموا المغرب الإسلامى فيما بينهم .

وعندما تولى الأمير الناصر حكم البلاد فقد كانت الامارة الحمادية قد انتقلت إلى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى أى مضى أكثر من نصف قرن من الزمان على تأسيسها وظهورها ككيان ذاتى مستقل مما هيأ الظروف للأمير الناصر أن يلعب دوره بعد أن ورث حكم امارة توطدت دعائم الاستقرار السياسى لها وكانت قد اكتسبت الشرعية والاستمرارية فى الحكم واستطاع من سبقه (الأمير بلكين بن محمد بن حماد) أن يضع حدا لانتهاك حدود بلاده من الناحية الغربية فقد آمن خطر المرابطين وكذلك عمل على احتواء القبائل الهلالية العربية وأنهى المرابطين بدلا منه خطر قبيلة زناتة وكذلك لم يكن فى مقدور أبناء عمومته بنى زيرى الزحف غربا أو تهديد حدود بلادهم بعد أن كان همهم الأكبر الدفاع من البلاد ضد الخطر الداخلى المتمثل فى قبيلة بنى هلال والخطر الخارجى المتمثل فى خطر النورمان الذى هدد صقلية العربية الإسلامية والذين نقلوا سلطانهم وقيادتهم إلى مدينة المهدية منذ عام ٤٤٩ هـ وتوفى أبرز شخصية زيرية فى تاريخ بنى زيرى وهو السلطان المعز بن باديس

عام ٤٥٣ هـ وذلك قبل توليه الناصر علناش بعام واحد مما جعله يشعر انه لم تعد هناك أخطار تهدد كيان دولته وهو من أعظم أمراء هذه الأسرة .

وكان الناصر من الشخصيات البارزة فى بنى حماد بل يكاد يكون الوحيد من بينهم الذى كان أبعد صيتا عما سواه فقد كان يمتلك صفات المهابة والكياسة والفطانة والذكاء الحاد والقدرة على مواجهة المواقف وكان أكثر أمراء بنى حماد ذكاء وحزما ودهاء بل أعظم سلاطين الدولة تحضرا ورقيا كما أن عهده شهد توسع الدولة إلى أقصى حدود لم تبلغها منذ عهد جده حماد بن بلكين مؤسس الدولة .

وقد شهدت سنوات حكمه تغير الميزان الحضارى والثقافى وانتقاله من المغرب الأدنى فى اتجاه الغرب ناحية المغرب الأوسط والأقصى فقد رحل العلماء من القيروان ومدن المغرب الأدنى وفجع العلماء فى أمنهم واستقرارهم فخرجوا يبحثون عن ملاذ لهم يقيهم شر هذه الفتنة ولم يكن أمامهم إلا الاتجاه غربا إلى المغرب الأوسط والأقصى فقد استقرت أموره السياسة فى أيدى بنى حماد والمرابطين ومن هنا بدأت كفة هذين المغربين فى الرجحان فقد أصبحت بلاد بنى حماد المحطة الأولى التى يصل إليها العلماء ورجال الفكر والدين من افريقية (تونس) فمن كانت تطيب له أمور الاستقرارا فقد كان يستقر بها ومنهم من كان يفضل الرحيل غربا إلى بلاد المرابطين ، إضافة إلى أن الأمير الناصر بن علناش قد شهدت البلاد فى عهده استقرار سياسيا وازدهارا حضاريا واقتصاديا ثم ما كان من أثر ذلك من الناحية المالية والرخاء والترف وثراء الأمراء واغداقهم على أهل العلم والأدب وتشجيعهم للفئات العلمية وتوفير سبل الراحة أمامها اغراء لها على الاستقرار فى بلادهم باعتبارهم ثروة لاتقدر وسوف يعود منها النفع الكثير على الرعية والبلاد .

حقيقة تاريخية وجغرافية ومكانة سياسية بل قوة عسكرية وقد تطلبت هذه المستجدات على الدولة الحمادية حذقا سياسيا ومهارة سياسية من الناصر فى إدارة دفة

الأمور والسير فى المسار الصحيح حتى يصل بها إلى بر النجاة وسط الانواء الشديدة لاسيما أنها كانت تتعرض للهجوم لاسيما من قبائل زناتة التى اتجهت جنوبا بعد طرد المرابطين لها كما أنها كانت تقيم فى اقليم الزاب وتأخذ بسكرة مقرا لها وتتأهب للعدوان على بنى حماد وبعد أن قتل بلكين بن محمد الأمير السابق زعيمهم صفوان ابن أبى رمان ، لكن زناتة فى ذلك الوقت كانت تواجه عدوا أقوى منها كثيرا وهم المرابطون فقد استطاع المرابطين تفريق شمل زناتة بحيث لم يعد لها بالمغرب الأقصى قوة تذكر ونجح المرابطون فى القضاء على قوة زناتة بالمغرب الأقصى ولكن بقيت لهم بعض فلولهم بالمغرب الأوسط حيث كانوا لايزالون يسيطرون على تلمسان أكبر المدن فيه وكانت لاتزال تتحفز للنضال فيه .

ويخيل إلينا أنه لولا أن الدولة الحمادية كانت قوية فى ذلك الوقت ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، لاطمأن المرابطون وانصرفوا إلى فتح السهول الشمالية تاركين زناتة المغرب الأوسط إلى بنى عمومتهم (بنى حماد) ولكن حدث فى ذلك الوقت أن بدأت جموع العرب الهلالية بعد أن اجتاحت بلاد افريقية (تونس) تطرق ديار بنى حماد فشغلوا عن المغرب الأوسط ولم يستطيعوا أن يقاوموا الزناتيين مقاومة الند للند ، لذلك لم يتردد المرابطون فى التوسع شرقا فاستولوا حتى حدود وادى ملوية ثم انصرفوا إلى مدينة تلمسان وفتحوها وبلغت قوتهم مشارف اقليم الجزائر وكان من الممكن لهم التوجه شرقا لفتح بقية بلاد المغرب ولو كان فى نيتهم المضى إلى فتحها لفعلوا لان البلاد كانت فى تلك الأوقات تفقد قوتها ووحدتها وكانت ممزقة إلى كيانات صغيرة (لكن المرابطين وقفوا عند حدود الجزائر ولم يتجاوزوها لا اشفاقا وعدم قدرة على فتح بقية المغرب وإنما ابقاء على صلات القربى بينهم وبين بنى حماد (رأى الدكتور حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ص ٢٠٦) وكان ذلك هو الرأى الصواب لان المرابطين كانوا قوة لايستهان بها فى ذلك الوقت وقواتهم فى الاندلس خير شاهد ولو أنهم كانوا ينوون السيطرة على كل المغرب لفعلوا .

ومن هنا فان الذين عللوا عدم دخول الناصر بن علناش فى صراع مع تلك القوى حتى يستطيع امتصاص طاقة كل من المرابطين وزناتة قد وقعوا فى خطأ كبير ذلك لان سنوات حكم الناصر (٤٧٢ - ٤٧٥ هـ) قد شهدت هجوما مرابطيا على تلمسان وكذلك بعض بلاد الجزائر كوهران وتنس وشريش وأعمال شلف ، ولم يحرك بنو حماد ساكنا لكل هذه التحركات فلو كانت بنو حماد قوية لكانت تلك البلاد المجاورة لها أولى بأن تكون تحت سيادتها بدلا من المرابطين ومن هنا وقع الذين أعطوا بنى حماد دورا وقوة أكثر من فاعلية المرابطين .

وقد قال ابن خلدون عن الناصر بن علناش الحمادى ، لقد بلغت جنوده جنوبا بلاد وركلان (ورجلان) وعين عليها واليا من قبله وأخضع جميع أراضى أقليم الزاب وعين واليا من قبله أيضا على العاصمة بسكرة وأسس مدينة بجاية عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م وبنى بها القصور والبساتين والحدائق ومنها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا ونقل الناس إلى العاصمة الجديدة وأسقط عنهم الخراج والضرائب .

وقال عنه لسان الدين بن الخطيب (أنه كان جريئا ، سفاكا للدماء ، محبا للناس شديد الغيرة عليهم ، وله فى ذلك أخبار مشهورة ، ثم عاد فى صفحات تالية لينفى عنه هذه الأقوال) .

ولقد تردد الناصر بن علناش كثيرا فى قتال المرابطين حيث توقفوا فى مكانهم عند تلمسان وكفوا أيديهم عن بلاد بنى حماد . كذلك شهد عصر الناصر استمرار القتال والمناوشات مع قبيلة زناتة العدو التقليدى لصنهاجة وبنى زيرى (بنى باديس ، بنى حماد) لاسيما بعد طردهم من المغرب الأقصى وتلمسان ، فكان على الناصر أن يواجه زحفهم ناحية بلاده فجرد إليها الحملات ونازلها واستعاد سيطرة بنى حماد على المناطق التى استقرت بها وطردهم من حول القلعة وهجم على مناطق تجمعهم فى (تاقريوست) واستولى عليها وقتل زعيمهم .

ويضيف ابن خلدون عنه أن أيامه شهدت عظمة دولة بنى حماد بل بلغت أوج مجدها ورقيها وازدهارها وتوسع ملكهم واستفحل ورنا ببصره إلى ملك أبناء عمومته بنى باديس فى المهدية لما ابتلاهم الدهر بفتنة الهلاليين والنورمان ، حتى اضطرب عليه الأمر وكثرت الثورات عليهم فدخل الناصر بن علناش فى صراع معهم وذلك عكس سلفه بلكين بن محمد ابن حماد الذى قضى سنوات حكمه حريصا على حرمة الدماء وصلة الرحم فلم يحاول أن يطأ بلادهم قط أو يدخل فى صراع معهم مكتفيا بما يعانونه من صراع مع العرب الهلالية .

وقد أفادت ظروف الغزوة الهلالية الدولة الحمادية كثيرا فقد ضموا إلى أملاكهم ما جاورهم من أقاليم وخضع لحكمهم كثير من الأقاليم مثل صفاقس وقسنطينة وأهل القيروان وأهل تونس وعلا نجم بنى حماد وتحصنوا بالمناطق الجبلية البعيدة عن خطر العرب وبسطوا سلطانهم على كثير من المدن والبلاد .

وكما سبق القول كان كثير من أهل تونس قد انتقلوا إلى بلاد الحماديين بعد دخول الهلالية فعمرت بلادهم وحسنت أحوالهم وصلحت أمورها وبدأ التقدم والرقى والتمدين والعمران وفن البناء والحضارة والعمران والثقافة تأخذ بأساليبها فى الحياة اليومية فى بلاد بنى حماد ووجد بنو حماد فى صراع بنى زيرى مع الهلالية فرصتهم المنشوده لكى يحاولوا أن يتصدوا لزعامة المغرب الإسلامى (أقوال مزعومة) لم يصلوا أبدا إلى مرحلة المرابطين أو الموحدين أو حكم المعز بن باديس (قبل قدوم الهلالية) ومن أجل ذلك تحالف الحماديون مع الهلالية ضد بنى زيرى .

ومن هنا توترت العلاقات بينه وبين تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ – ٥٠١هـ/ ١٠٦٢ – ١١٠٧م) الذى تصدى لمحاولات الناصر بن علناش واشتبك معه فى معارك كثيرة ووقف ضد محاولاته للزحف على حساب أراضى دولة بنى زيرى وقضى على محاولته التى قيام بها عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٧م بمساعدة قبائل زناتة والعرب من الاثبج وعدى وكان تميم قد أستعان بعرب رباح وزغبة القوية وكذلك بعض من عرب بنى

ومن هنا فان الذين عللوا عدم دخول الناصر بن علناش فى صراع مع تلك القوى حتى يستطيع امتصاص طاقة كل من المرابطين وزناتة قد وقعوا فى خطأ كبير ذلك لان سنوات حكم الناصر (٤٧٢ – ٤٧٥ هـ) قد شهدت هجوما مرابطيا على تلمسان وكذلك بعض بلاد الجزائر كوهران وتنس وشريش وأعمال شلف ، ولم يحرك بنو حماد ساكنا لكل هذه التحركات فلو كانت بنو حماد قوية لكانت تلك البلاد المجاورة لها أولى بأن تكون تحت سيادتها بدلا من المرابطين ومن هنا وقع الذين أعطوا بني حماد دورا وقوة أكثر من فاعلية المرابطين .

وقد قال ابن خلدون عن الناصر بن علناش الحمادى ، لقد بلغت جنوده جنوبا بلاد وركلان (ورجلان) وعين عليها واليا من قبله وأخضع جميع أراضى أقليم الزاب وعين واليا من قبله أيضا على العاصمة بسكرة وأسس مدينة بجاية عام ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م وبنى بها القصور والبساتين والحدائق ومنها قصر اللؤلؤة وكان من أعجب قصور الدنيا ونقل الناس إلى العاصمة الجديدة وأسقط عنهم الخراج والضرائب .

وقال عنه لسان الدين بن الخطيب (أنه كان جريئا ، سفاكا للدماء ، محبا للناس شديد الغيرة عليهم ، وله فى ذلك أخبار مشهورة ، ثم عاد فى صفحات تالية لينفى عنه هذه الأقوال) .

ولقد تردد الناصر بن علناش كثيرا فى قتال المرابطين حيث توقفوا فى مكانهم عند تلمسان وكفوا أيديهم عن بلاد بنى حماد . كذلك شهد عصر الناصر استمرار القتال والمناوشات مع قبيلة زناتة العدو التقليدى لصنهاجة وبنى زيرى (بنى باديس ، بنى حماد) لاسيما بعد طردهم من المغرب الأقصى وتلمسان ، فكان على الناصر أن يواجه زحفهم ناحية بلاده فجرد إليها الحملات ونازلها واستعاد سيطرة بنى حماد على المناطق التى استقرت بها وطردهم من حول القلعة وهجم على مناطق تجمعهم فى (تاقريوست) واستولى عليها وقتل زعيمهم .

ويضيف ابن خلدون عنه أن أيامه شهدت عظمة دولة بنى حماد بل بلغت أوج مجدها ورقيها وازدهارها وتوسع ملكهم واستفحل ورنا ببصره إلى ملك أبناء عمومته بنى باديس فى المهدية لما ابتلاهم الدهر بفتنة الهلاليين والنورمان ، حتى اضطرب عليه الأمر وكثرت الثورات عليهم فدخل الناصر بن علناش فى صراع معهم وذلك عكس سلفه بلكين بن محمد ابن حماد الذى قضى سنوات حكمه حريصا على حرمة الدماء وصلة الرحم فلم يحاول أن يطأ بلادهم قط أو يدخل فى صراع معهم مكتفيا بما يعانونه من صراع مع العرب الهلالية .

وقد أفادت ظروف الغزوة الهلالية الدولة الحمادية كثيرا فقد ضموا إلى أملاكهم ما جاورهم من أقاليم وخضع لحكمهم كثير من الأقاليم مثل صفاقس وقسنطينة وأهل القيروان وأهل تونس وعلا نجم بنى حماد وتحصنوا بالمناطق الجبلية البعيدة عن خطر العرب وبسطوا سلطانهم على كثير من المدن والبلاد .

وكما سبق القول كان كثير من أهل تونس قد انتقلوا إلى بلاد الحماديين بعد دخول الهلالية فعمرت بلادهم وحسنت أحوالهم وصلحت أمورها وبدأ التقدم والرقى والتمدين والعمران وفن البناء والحضارة والعمران والثقافة تأخذ بأساليبها فى الحياة اليومية فى بلاد بنى حماد ووجد بنو حماد فى صراع بنى زيرى مع الهلالية فرصتهم المنشوده لكى يحاولوا أن يتصدوا لزعامة المغرب الإسلامى (أقوال مزعومة) لم يصلوا أبدا إلى مرحلة المرابطين أو الموحدين أو حكم المعز بن باديس (قبل قدوم الهلالية) ومن أجل ذلك تحالف الحماديون مع الهلالية ضد بنى زيرى .

ومن هنا توترت العلاقات بينه وبين تميم بن المعز بن باديس (٤٥٣ – ٥٠١هـ/ ١٠٦٢ – ١١٠٧م) الذى تصدى لمحاولات الناصر بن علناش واشتبك معه فى معارك كثيرة ووقف ضد محاولاته للزحف على حساب أراضى دولة بنى زيرى وقضى على محاولته التى قيام بها عام ٤٥٧ هـ/ ١٠٦٧م بمساعدة قبائل زناتة والعرب من الاثيج وعدى وكان تميم قد أستعان بعرب رباح وزغبة القوية وكذلك بعض من عرب بنى

سليم واستطاعت هذه القبائل العربية أن تؤثر على أقاربها من الاثيج وعدى للانصراف عن مساعدة الناصر مما مكن تميما من الانتصار على الناصر وقتل من جيشه أعدادا كبيرة بل قتل فى تلك المعركة (معركة سبيبة) أخاه القاسم بن علناش، وكان تحالف تميم بن المعز مع القبائل العربية سببا فى صد غارات الناصر والمعتدين معه على دياره وساعده فى فرض سلطان الدولة .

وتمكن تميم بن المعز أيضا بتحالفه مع العرب الهلالية من صد غارات الناصر الحمادى ومنعه من غزو العاصمة المهدية وكانت مساعدة عرب رباح وزناتة بقيادة المعز ابن زيرى الزناتى وانصراف زناتة عن الناصر بن علناش من عوامل الانتصار فى معركة سبيبة ٤٥٧ هـ لكن الناصر عاود للهجوم على القيروان عام ٤٦٠ هـ/ ١٠٧٠م لكن تميم بن المعز وجموع العرب الهلالية المتحالفة معه أجبرته على الخروج عام ٤٦١هـ وتم الصلح والاتفاق بين تميم بن المعز والناصر بن علناش وتزوج الناصر (بلازة) ابنه تميم وبنى لها قصرا بديعا ببجاية أطلق عليه اسمها وسماه قصر (بلازه) .

وكان الناصر محبا للفنون والمعمار ، فأنشأ القصور الفاخرة وشيد المدائن العظيمة وابنى المبانى الحديثة وشيد منها البنايات الكثيرة التى تتناسب مع أسلوب العصر فكانت آية فى الروعة والجمال وحلبت بالنقوش والزخارف الهندسية الاندلسية والتى ظهر فى بعضها الفن الفاطمى والعراقى ، وشد الرحيل إليه العلماء والادباء والشعراء وأهل الفن والفكر ومن الشعراء الذين طرقوا بابه فى بجاية (ابن الكفاه القيروانى) وكان نفوذه واسعا لكن نقطة الضعف فيه أن عمل على توسيع حدود دولته شرقا على حساب أبناء عمومته من بنى زيرى وتصدى له تميم بن المعز وكان يخاف الاحتكاك بالمرابطين نظرا لقوتهم الهائلة .

لكن طموحاته شرقا قد أصابته بخيبة أمل لان توقعه التوسع شرقا على حساب أبناء عمومته قد أدى به إلى نكسة عسكرية عام ٤٥٧ / ٤٦١ هـ وقد فشل مخطط التوسع شرقا والحلم باقامة دولة واسعة الأركان .

وقد استفاد بنو حماد من هذه النكبة وانكفأوا على أنفسهم داخل حدودهم يعمرون بلادهم وينقلون عاصمتهم القلعة إلى مكان آخر بعد أن شاهدوا بأنفسهم حصار العرب الهلالية للقلعة وأحس الناصر بالخطر الزاحف عليه من ثورة العرب وهجماتهم الساحقة على عاصمة القلعة ، فسعى فى اختطاط العاصمة الجديدة بجاية التى كانت أحسن أعماله على الاطلاق ، إذ فشل فى الأعمال العسكرية فعوضها بالأعمال المدنية وكان الذى أشار عليه ببناء العاصمة الجديدة وزيره ابن البعبع ، وتم بناؤها على أنقاض مدينة « صلداى الفينيقية العربية » والتى كان قد أضاف عليها الرومان وكان ذلك فى عام ٤٦٠ هـ كما سبق القول والإشارة إلى ذلك وكانت من أهم المدن فى المغرب وبدأت سمعتها تعلو فى الافاق محاولة اللحاق بركب المدن الكبرى ، بعد أن انتقل إليها الناصر بن علناش وكل المصالح الحكومية ودواوين الدولة واتخاذها العاصمة السياسية والمركزية للبلاد وقصدها الناس من كل فج فى البلاد وجاء إليها القوم من مختلف النواحى يسعون للكسنى والإعاشة بها بعد أن شجعهم الناصر على ذلك فلم تلبث أن ازداد عمرانها واتسعت وتعددت أحياؤها وكثر سكانها ومن ذلك التاريخ صارت بجاية من أعظم مدن المغرب ، بل هى عاصمة المغرب الأوسط .

وكان الناصر بعد أن انتقل إلى عاصمته الجديدة ورأس أنه فى مأمن من خطر الهجوم الهلالى قد بادر بتجديد المهادنة والتصالح مع أبناء عمومته وساد الاتجاه السياسى حركة سلمية وتأكدت فى نفس الناصر روح التسامح بعد أن غرر به عرب الاثيج وعدى ودفعوه لقتال أبناء العمومة فى المهدية ومنذ ذلك التاريخ لم تحدث أدنى مناوشة أو اشتباك بين تميم بن المعز والناصر بن علناش وكان الناصر قد ربط مصيره بمصير بعض القبائل العربية مثل الاثيج التى تحالف معها وأجزل لها الاقطاعات والعطايا وأدخلها فى ديوان الجند ، كما أنه حالف العديد من القبائل البربرية الزناتية التى تحيط بالدولة الحمادية واستخدم سياسة استمالة بعض البطون منها وتزوج من قبيلة « بنى داماتو » وحالف الناصر بنى توحين وبنا داماتو .

لكننا نجد ابن عذارى المراكشى ، والزركشي يكران أن الناصر بن علناش كان حاكما عادلا يتصف بصفات إنسانية يميل إلى الهدوء ولا يحب الانغماس فى المشاكل السياسية ، لكنه حقق لدولته وشعبه الاستقرار والهدوء النسبى لكن سياسته الاقليمية والسلمية وعدم الاكتراث إلا بما يعنيه والنظرة الإسلامية البعيده والتطلع إلى لعب دور سياسى على مستوى الاحداث الجارية قد كان عاملا فى سقوط دولته ، إذ أنه ترك أبناء عمومته فى المهدية منذ عام ٤٤٩ هـ يواجهون أخطارا كثيرة منها الخطر العربى الهلالى الذى استنفذ الجهد الكبير من الدولة الزيرية وكان التعاون بين بنى حماد وبنى زيرى ربما قد وضع حدا للانقسام والتفكك الذى أصاب حكام المهدية كذلك الوقوف مكتوف الأيدى أمام الخطر الداهم الذى يتهدد المسلمين فى صقلية والزحف النورمانى القوى الذى أدى إلى سقوط صقلية فى أيدى النورمان عام ٤٨٤هـ/ ١٠٩١ م ، لكن هذه السياسة الاقليمية أدت إلى أن يحقق الناصر لدولته وسط الصراعات العاتية مستوى لائقا من التقدم والازدهار بعد أن لبث آخر حياته ينعم بالنظم الإدارية والقضائية والعسكرية والتى انتهت كل المهام فى حالة التقدم بينما يشاهد خلاله عدم التوازن والاختلال فى دولة بنى زيرى فى افريقية ، ويذكر انه قتل بظاهر بجاية يوم الجمعة ٧ جمادى الأول عام ٤٨١ هـ/ ١١٠٤ م وكان حمامة بن زيرى المغراوى قد قتله ثم حمل إلى بجاية ودفن بها .

وهكذا طويت صفحة الأمير الخامس فى سلسلة أمراء بنى حماد بعد أن حكم البلاد سبعة وعشرين عاما قضاها فى الأعمال العسكرية التى ربما لم يحقق منها أدنى انتصار إلا هزيمته للقبائل البربرية الزناتية لكنه لم يستطع أن يحقق انتصارات على الجبهة الشرقية حيث بنى زيرى ولا الجبهة الغربية حيث المرابطين ولم يشارك فى صد الهجوم النورمانى على صقلية أو يتحرك لاغاثة مسلميها ، بل اكتفى ببناء عاصمته بجاية وعاش عيشة البذخ والرفاهية إلى أن هلك عام ٤٨١ هـ / ١٠٠٤ م وآل الحكم من بعده إلى ابنه المنصور الذى جلس على عرش الإمارة الحمادية بعد أبيه .

الأمير المنصور بن الناصر بن علناش بن حماد

(٤٨١ - ٤٩٨ هـ - ١٠٨٨ - ١١٠٤ م)

يعتبر المنصور بن الناصر من أبرز الشخصيات التى حكمت البلاد فى الأسرة الحمادية كان ترتيبه السادس من بين الأمراء الذين حكموا وقد تولى مقاليد الأمور بعد مقتل أبيه الناصر عام ٤٨١ هـ وقد دامت فترة حكمه سبعة عشر عاما هجرية وقد لعب دورا هاما على مسرح الحياة السياسية لبلاده وكان له أسلوب واضح فى التعامل مع المشكلات الداخلية والخارجية التى أحاطت ببلاده ، وسار المنصور على نفس النهج الذى كان يسير عليه أبوه فى إدارة شئون البلاد وذلك لانه أبقى على المستشارين والدولاب الحاكم فى البلاد يستفيد من خبرته وحنكته والاستعانة به فى دفة الأمور وذلك بعد أن أشاروا عليه بأن خط أبيه هو خط الأمن والأمان الذى قاد الدولة إلى بر النجاه وسط تقلبات الأحداث الجارية من حوله على الساحة المغربية ومن هنا فان خط الدولة السياسى لم يحدث عليه أدنى تغيير إذ اقتفى سياسة أبيه فى الحزم والعزم والكياسة والسياسة .

وقد بلغت الدولة الحمادية فى عصره أقصى عصور مجدها وأوجها ، فقد عنى المنصور بالمنشآت والقصور وفى أيامه أصبحت بجاية من أعظم مدن أفريقية والمغرب الأوسط وأوسعها عمرانا وأكثرها رخاءً وازدهارا .

وكان فاضل الأخلاق ، كريم الشيم ، عزيز النفس ، حازما ساس أمور الدولة سياسة رشيدة ، وشهدت بجاية فى عصره بناء القصور الرائعة والواسعة والقلاع والحصون وأجرى المياه إلى المدينة واستعان بالمهندسين من الاندلس لكى يخططوا له الأحياء الراقية والمبانى الجميلة ، وغلب على عهده طابع البناء الحضارى والثقافى والتطور العلمى والصناعى .

لكن بداية حكمه قد شهدت بعض الأحداث الداخلية التى ربما تكون طابع

الحياة السياسية فى الدولة الحمادية عندما يتولى الأمور بها حاكم جديد إذ دائما ما تحدث الثورات نظرا للمطامع الشخصية ومحاولة أحد أفراد الأسرة الحاكمة مناوأة الأمير الجديد طمعا فى السلطة أو رغبة فى أن ينال وضعا سياسيا معينا ومن هنا كانت تحدث الثورات والمشاكل والتى كان على المنصور أن يواجهها بحزم وقوة حتى يستطيع أن يتفرغ لبناء الدولة ، لان الحزم فى علاج هذه المشاكل يسبب له جوا من الاستقرار فيما بعد وكان عليه أن يواجه الخصوم الثلاثة التى كانت تواجه أبيه وهى القبائل العربية الهلالية التى بدأت تتسرب إلى دولته بأعداد كبيرة والتى بدأت محاولة فرض النفوذ على الحياة اليومية وكذلك خطر المرابطين الأقوياء على الحدود الغربية لبلاده وخطر قبائل زناتة البربرية العدو التقليدى للبلاد وكذلك كان عليه أن يقرر موقفه من الدولة الزيرية فى المهدية والذين كانوا لم ينسوا تدخل أبيه الناصر فى أمورهم الداخلية محاولة فرض نفوذه على العديد من المدن الزيرية ومن هنا فانه لابد لهم أن يسببوا الكثير من القلاقل للأمير الجديد .

ومن هنا ثارت عليه الأقاليم الشرقية المجاورة لدولة بنى زيرى فقد ثار عليه عمه « بليار » والى قسنطينة وقد كان أول الحماديين الذين خرجوا على السلطة الشرعية ويبدو أن ذلك كان بتحريض من تميم بن المعز الذى كانت هذه المدن تخضع لنفوذ الدولة فى السابق وكان بليار يرى أحقيته فى تولى الإمارة بدلا من ابن أخيه المنصور ، كما ثار عليه ابن عمه أبو يكنى بن محسن بن القائد بن حماد « حاكم ولاية بونة » لكن المنصور وجه جهده لمواجهة حركة الثائرين وكان البلياز قد رفض التخلى عن ولاية قسنطينة وتولى منصب جديد فى النظام الجديد مما استدعى المنصور أن يرسل إليه قوات بقيادة أبى يكنى بن محسن بن القائد بن حماد (قبل أن يتمرد على المنصور) والذى كان قد تم تعيينه حاكما على قسنطينة بدلا من عمه بلياز ، لكن أبا يكنى وأخاه بغلان عملا على الاستقلال بالمدن التى تحت سيطرتهما وأرسلا إلى تميم بن المعز بن باديس يطلبان منه الدخول فى طاعته لكن تميم بن المعز رفض الاستجابة لطلبهما

« فما كان من ابن يكنى إلا أن استعان بالعرب الهلالية والمرابطين فى المغرب الأقصى وذلك لإثارة القوى الكبرى فى المنطقة طامعا فى تحقيق أحلامه فى بناء كيان مستقل له يحكم مناطق الحدود الشرقية المجاورة لبنى زيرى .

لكن المنصور حاربهما واستخدم القوة والدهاء وحاصر بونة وقسنطينة سبعة أشهر ثم فتحها وقبض على أبى الفتوح بن تميم الزيرى الذى كان قد أرسله والده مندوبا عنه بقوات لمساعدة هذه الأقاليم الثائرة كذلك استولى على قسنطينة وتم طرد العرب منها والقضاء على الثورة وعندما ثار عليه عرب بنى هلال حاربهم وأخضعهم وكذلك قتل أبا يكنى بن محسن وأخاه بغلان واستطاع المنصور أن يقضى على الفتنة وأن يخمدها فى مهدها .

وكذلك كان عليه أن يواجه قوة المرابطين الزاحفة والقوة التى لا قبل له بها ذلك لان المرابطين مهما حاولوا استمالة بنى حماد والتصالح معهم وإرسال الوفود ورسائل التهنئة وحسن الجوار ، لكن كل ذلك لم يضع حدا لأطماع المرابطين فى بلاد بنى حماد والمغرب الأوسط فسرعان ما تبدل حال الصلح وجو الود والتفاهم الذى كان قد ساد جو العلاقات بين الطرفين لاسيما ان يوسف بن تاشفين قد سعى إلى طلب الصلح سابقا . وأمر بكف أيدى المرابطين عن بلاد بنى حماد . لكن قوات المرابطين دخلت حدود بنى حماد الغربية وعاثت فى المناطق الغربية مما اضطر المنصور أن يحشد قوات كثيرة وأن يرسل ابنه عبد الله قائدا لهذه القوات وذلك بعد أن كان المرابطون قد طمعوا فى تلمسان وهاجموها واحتلوها ، لكن ابنه عبد الله رأى ضرورة أن يقاتل قبائل زناتة لانها سبب عدوان المرابطين لان زناتة تهاجم المدن المرابطية مما يستدعى قيام قوات المرابطين بمطاردتها فتدخل حدود بنى حماد ، فحاربهم ووصل بلاد زناتة (بنى ميسو ، وبنى مانو) ذلك لان المرابطين لم يكن هدفهم الأساسى الدخول فى صراع مسلح مع بنى حماد واصع النطاق وكسر شوكة بنى حماد ، ذلك لان المرابطين لم يفكروا فى فرض سلطانهم على المغرب الأوسط كله وكان الحد

الفاصل للحدود هى بلاد تلمسان لان ميدان الجهاد الإسلامى ورد عدوان نصارى الاندلس كان شغلهم الشاغل الذى شغلهم عن فتح جبهة شرقية فى المغرب الأوسط ، ومن هنا كانت سياسة المرابطين طيلة عهد المنصور هو تأمين حدود الدولة الشرقية وليس التوسع ولم يكن فرض نفوذهم فى تلمسان وبعض المناطق المجاورة لها إلا نوعا من تحقيق هذا الأمل ، ذلك لان المغرب الأوسط كان يحرس البوابة الشرقية للمغرب الأقصى ومن هنا كانت سياسة الاضطرابات التى تشنها غارات زناتة على الحدود هى السبب الأساسى فى النزاع بين بنى حماد والمرابطين لاسيما أن بنى حماد لم يكن فى مخططهم التوسع غربا على حساب أبناء عمومتهم (صنهاجة) المرابطين ، ومن هنا فقد صالحهم المنصور وصاهرهم فحمدوا سياسته بعد أن كان قد زحف إليهم وحاصرهم حتى توسطت فى الصلح بينه وبين المرابطين زوجة يوسف بن تاشفين التى تربطها بالمنصور رابطة الرحم والنسب فقبل الصلح وجنح للسلم ورضى بأن يأمن شر المرابطين وأن يعيش معهم فى سلام لاسيما أن المرابطين كانوا قوة كبرى وعظمى ولهم مكانتهم الدولية والعالية فى ذلك الوقت وتأثيرهم على مجرى الأحداث الدولية لاسيما فى الاندلس وحوض البحر المتوسط الغربى ، ودور أسطولهم فى الدفاع عن المسلمين فى صقلية وحماية الكيان الإسلامى فى غرب البحر المتوسط .

لكن مع قوة المرابطين الدولية العالمية فى ذلك الوقت باعتبارها أكبر قوة فى العالم الإسلامى فى القرن الخامس الهجرى والسادس الهجرى أيضا ، يحاول بعض طلاب الدراسات العليا فى أبحاثهم عقد مقارنة بين قوة بنى حماد الصغيرة والمرابطين وكأنه يحاول أن يجعل بنى حماد دولة كبرى تقارن بالمرابطين الذين كان لهم ملكهم الواسع الممتد جنوبا حتى حدود بلاد السودان وقواتهم الكبرى فى الاندلس وأسطولهم البحرى الذى يخشى الأوربيين قوته وقهر أسطول روجار الثانى حاكم صقلية وأغار على سواحل جنوب ايطاليا وكرر الإغارة أكثر من مرة على صقلية واستولى على بعض المدن فيها وشهرتهم على مستوى العالم الإسلامى فى حين أن بنى حماد وامارتهم لم تعد

أن تكون دويلة صغيرة اقليمية لم يكن لها أدنى عمل خارجى ولم تشارك فى أى عمل للدفاع عن المسلمين سواء بالعتاد والذخيرة والأموال أو المساعدة البحرية ، فقد كانت دولة ذات امكانات محدودة ووضع اقليمى يفرض عليها ألا تلعب دورا إلا ما هو مقدر لها وليست دولة كبرى فى المغرب الإسلامى كما حاول أن يصور ذلك الذين تحدثوا عن المنصور بأنه كان رجلا حربيا مظفرا نجح فى جميع المعارك التى خاضها مع الزناتيين والمرابطين والصنهاجيين فى أوج قوتهم ومجدهم .

وقد قدم عليه فى العاصمة بجاية ابن عمه المعز بن حماد فارا من وجه المرابطين الذين أخذوا منه مدينة المرية بالاندلس التى كان يحكمها فأرضاه المنصور وعينه حاكما على مدينة « تدلس » وأسكنه بها وفى ذلك رد على الذين يحاولون وضع دولة بنى حماد فى ميزان المرابطين ، ذلك لان المنصور لم يحرك ساكنا لهذه الحشود التى استولت على العديد من بلاد الدولة الغربية وان المرابطين لو أرادوا اسقاط الحماديين والاستيلاء على أملاكهم لفعلوا لكن تأمين الحدود كان جزءا من واجبهم السياسى للتفرغ للجهاد فى الاندلس ، لكن يبدوا أن حاكم تلمسان من قبل المرابطين « تاشفين بن يغمور » تحرك للاستيلاء على أشير عاصمة بنى حماد القديمة عام ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م وذلك استمرارا للصراع ، فتحركت قوات المنصور عام ٤٩٦ هـ / ١١٠٢ م بعد أن طلب المساعدة العسكرية من أبناء عمومتهم فى المغرب الأدنى والأوسط وربما قدمت إليه قوات من بنى زيرى فى المهدى وتمكن من إعداد قوات كبيرة بلغت نحو عشرين ألف مقاتل منها أعداد كبيرة من القبائل العربية الهلالية وبنى سليم إلى جانب صنهاجة بنى زيرى واستطاع أن يسترد أشير وأن يحاصر تلمسان التى فر منها حاكما واستولت قوات بنى حماد على تلمسان وأوقف زحف المرابطين ثم فى النهاية اضطر إلى رفع الحصار عن المدينة ، وقام يوسف بن تاشفين أمير المؤمنين المرابطى بعزل حاكم تلمسان (تاشفين بن يغمور) إرضاء للمنصور .

كما أن المنصور نجح فى التعامل مع القبائل العربية الهلالية وفقا للظروف

السياسية السائدة والأحوال العسكرية للبلاد واستطاع أن يصالح القبائل العربية وأن يضمها لحضن الدولة وسادت حالة الاستقرار طوال تاريخ بني حماد وبذلك كان بنو حماد في وضع سياسى أفضل من بنى زيرى ، لما قاموا به من تصالح مع العرب الهلالية وكانوا على علاقات طيبة مع المرابطين وأدى حسن العلاقات مع المرابطين إلى جعل عاصمتهم بجاية من أهم المراكز الحضارية والثقافية والتجارية فى المغرب الإسلامى .

وقد قال عنه لسان الدين بن الخطيب أن المنصور بن الناصر بن علناش كان أديبا لامعا وشاعرا عظيما يكتب الشعر ويقرضه ، وكان حميد السيرة فاضل الخصال ، ضابطا لأمور دولته ، وكان يحافظ على القليل من الأشياء ، وذكر ابن خلدون عنه أنه كان مولعا بالبناء وتشييد المصانع واتخاذ القصور والاهتمام بالفلاحة والزراعة وتنمية موارد البلاد اقتصاديا وصناعيا وتجاريا لاسيما مع بلاد السودان حيث الذهب والمواد الاستوائية التى تحتاج إليها البلاد وتصدر إلى الدول الأوربية .

ومما يؤخذ له من أساليب السياسة الهادئة انه استخدم سياسة حكيمة فى معالجة قضاياه وأموره مع القبائل العربية الهلالية لكى يجنب البلاد أخطارا ربما تؤدى إلى ما حدث فى المغرب الأدنى فقد استخدم أسلوب المهادنة والتحالف والاحتواء وبذل الأموال والهدايا والاقطاعات والضم إلى ديوان الجند ، وضرب القبائل بعضها ببعض حتى أن القبائل كالتى وضعت نفسها تحت تصرف المنصور كالاثيج وعدى وبنى سليم كانت تضع نفسها تحت تصرفه فى الحرب والسلم فقد كانت تشارك فى القتال وحفظ الأمن فى الطرق التجارية وفى المدن وحراسة المدن والقلاع ، وبذلك فقد قدر لهذه القبائل أن تلعب الدور الأساسى فى الحماية الخارجية للدولة وكذلك فى المحافظة على الأمن الداخلى والضرب على أيدى الخارجين على القانون وتأمين سلامة القوافل التجارية التى كانت تتحرك على الطرق الصحراوية من الجنوب إلى الشمال وبالعكس ، كانت تلك القبائل العربية طوع إرادة القيادة الحمادية .

بل أن هذه القبائل قد أصبحت جزءا من نظام الدولة السياسى والإدارى فقد ارتبطت مع بنى حماد ارتباطا عضويا مصيريا كالمشاركة فى حفظ الأمن وجمع الضرائب ومصاحبة ركب الحجيج إلى الأراضى المقدسة وتأمين كل وسائل المواصلات وحراستها .

كذلك ليس أدل على دور القبائل العربية الهلالية من شكوى يوسف بن تاشفين أمير المرابطين من استعانة بنى حماد بالقوات والقبائل العربية فى العدوان على بلاد المغرب الأقصى .

وقد مات المنصور بعد حكم دام سبعة عشر عاما وهو فى طريق عودته من حرب المرابطين بعد أن نجح فى المحافظة على كيان دولته وحفظ دورها فى المسرح الغربى والحفاظ عليها من اعتداء القوى المحيطة بها وجعلها تعيش فى أمن واستقرار ضد الأخطار الخارجية وتوفى عام ٤٩٨ هـ .

باديس بن المنصور بن علناش بن حماد
ربيع أول ٤٩٨ – ذى القعدة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م

نحن هنا أمام شخصية حاكمة من حكام بنى حماد تعتبر الشخصية السابعة فى سلسلة الحكام الذين حكموا البلاد لكن شخصية باديس هذه قد لايكون لها مثيل فى سلسلة الحكام الذين سبقوه إلا شخصية الأمير محسن بن القائد بن حماد (٤٤٦ – ٤٤٧ هـ) الذى حكم البلاد أربعة شهور وقد تقاربا فى التصرفات والطباع مما جعل فترة حكمها أقصر فترة فى تاريخ الحكام ، والذى ينظر إلى شخصية باديس هذا وفترة حكمه يجد أنها فترة قصيرة لم تزيد عن ثمانية شهور إذ تولى حكم البلاد بعد وفاة أبيه المنصور فى ربيع أول عام ٤٨٩ هـ ومات فى ١٣ ذى القعدة من نفس العام . وقد يكون صورة مكررة لشخصية محسن بن القائد من حيث الطباع والسلوك الشخصى

الذى أودى بحياتهما فالأول مات مقتولا وشخصيتنا هذه مات مسموما . لكن الذى يبحث فى بواطن الأمور داخل البلاد الحمادى وبين الأسرة الحاكمة يتعجب لم أفرزت الظروف تلك القيادات السياسية لتكون على رأس السلطة فى البلاد ، لاشك ، أن هناك أمورا خفية قد تستدعى أن يعتلى مثل هؤلاء الأشخاص قيادة المسيرة السياسية لكن الأخطاء القاتلة التى يقعون فيها هى التى تعجل بحياتهم .

وقد تكون هناك أسباب سياسية دفعت المنصور بأن يولى ابنه باديس هذا ولاية العهد خلفا له من بعده ويستدل على ذلك أن باديس هذا كان حاكما على مدينة القلعة وكان مقيماِ بها وقت وفاة أبيه الذى توفى خارج العاصمة بجاية وهو عائد من قتال المرابطين ، فلو أن هناك قوى أخرى مناوئة له فى الحكم لاستغلت الظروف السائدة واستطاعت وهى تقيم داخل العاصمة بجاية أن تتولى مقاليد الأمور .

وقد ذكر عنه ابن خلدون وابن الخطيب أنه كان شديد الغضب سريع البطش عظيم السطوة جبارا شجاعا متهورا مندفعا لا يحسب للعواقب أدنى حساب ولايدرس الخطوات التى يقدم على فعلها ولايدرى كيف تكون النهاية شاذا فى تعامله مع من حوله من قاد البلاد ، وعندما علم بوفاة أبيه خرج من القلعة التى كان يقيم بها ربما كان يتولى شئون الحكم بها وربما كان سجينا ومنفيا واستطع يبذل الأموال أن يستغل الظروف ويصل إلى بجاية ليقيم نفسه حاكما عليها لاسيما وأن نظام الحكم فى تلك الإمارة كان يعتمد على القوة والجبروت والاستبداد وكان نظام الحكم قبلى عشائرى .

وعندما وصل إلى العاصمة بجاية كان أول عمل قام به هو قتل (عبد الكريم بن سليمان) وزير ابيه وقائد حامية بجاية وذلك ربما أحس منه بخطر على الحكم أو أنه قاوم توليته العرش وعارض فى ذلك وربما كان يريد أن يعين شخصا آخر بدلا منه باعتباره الوزير الأول فى الدولة والمطلع على كل أسرارها (وعزل أخيه العزيز الذى ستصير إليه الأمور فيما بعد)،كان العزيز محبوبا لدى أبيه المنصور مقربا من البلاد والإدارة ورجال الجيش وكان يتولى حكم المناطق الغربية من البلاد ويحكم فى مدينة

الجزائر ، فقام بعزله ونفاه ووضع حوله حراسة مشددة فى مدينة جيجل (ابن الخطيب) وذلك خوفا منه لان العزيز كان عليه إجماع بأن يتولى القيادة السياسية وهم بقتله لولا دفاع أمه عنه فتوعدها هى الأخرى بالقتل لانها حالت دون قتله لأخيه العزيز (عبد العزيز) ومن شذوذه النفسى وأعماله التى تتنافى مع أدنى قيم بشرية أنه ألقى بأحد الصالحين ورجال الدين حيا للأسود لتأكله عندما حاول أن يحول بينه وبين البطش وأن يأمره بالكف عن الأذى فسجنه ثم ألقى به للأسود حيا. وقام بالكثير من الأعمال التى عجلت بنهايته حيث أن يقال أن أمه قد دست له السم لانه توعدها بالقتل ذلك بعد أن دبرت أمر ذلك مع ابنها العزيز الذى وافق عليه رجال البيت الحمادى وقادة الجيش وعلية القوم فى السلطة وقد لقى باديس حتفه قبل أن يستكمل عاما واحدا فى الحكم وذلك جزاء قصر بصيرته وشدة سطوته ، وتولى الحكم بعده أخوه العزيز بن المنصور الذى كان قد عزله عن ولاية الجزائر ونفاه إلى مدينة جيجل حيث قام كبار رجال الدولة باستدعائه من هذه المدينة ليتولى قيادة البلاد بعد أخيه ولم يقم باديس بأدنى عمل من الأعمال التى تذكره قط لقصر فترة حكمه وبطشه وسوء تصرفه وقصر حيلته.

الأمير المنصور بن الناصر بن علناش بن حماد

(٤٩٨ – ٥١٥ هـ – ١١٠٥ – ١١٢١ م)

هو الشقيق الأصغر للأمير السابق بدايس الذى مات بعد أن وضعت له أمه السم وكان الأمير العزيز وقت وفاة أخيه يعيش منفيا فى مدينة جيجل بأمر من أخيه بعد أن كان حاكما لمدينة الجزائر ، ولم تكن سنه قد تجاوزت العشرين عاما وقت أن تم استدعاؤه إلى مدينة بجاية لتولى قيادة المسيرة الحمادية والإمساك بدفة القيادة بعد أن كانت أمه قد أقنعت قادة البلاد واتفاقهم على توليه عرش الإمارة نظرا لتمرسه بشئون الحكم وعلاقاته الطيبة بقادة الأمة .

ولقد كان حسن ظنهم فى محله إذ أظهر من العزم والحزم وحسن السياسة والإدارة وبعد النظر والإدراك للأمور والاستعانة بالخبرات وأهل المشورة وقد اتفق المؤرخون على أنه نموذج فريد من بين أبناء الأسرة الحمادية وتكاد تكون شخصيته تتقارب مع شخصية جده الناصر بن علناش بل أنه سار على الخط والنهج السياسى الذى كان يسير عليه جده الناصر بن علناش وفى ذلك يقول عنه ابن خلدون انه كان سياسيا بارزا حكيما قاد دفة الأمور لفترة تزيد عن سبعة عشر عاما هجرية وسادت أرجاء المملكة فى عهده جو من الهدوء والأمن والاستقرار وقد تطورت البلاد فى عهده تطورا كبيرا وشهدت الديار عهدا من الانماء والتعمير والتشييد وتقدم فن البناء وازدهرت معالم الحضارة الإسلامية وتركت بصماتها على وجه الحياة وتقدم الاقتصاد وانتعشت التجارة الداخلية والخارجية .

وكان ماهرا عارفا متمرسا بشئون الحكم فقد اكتسب خبرة عند توليه امارة الحكم فى الجزائر سابقا ، وكان حسن الخلق ، وقد ولد ليلة تولى أبيه المنصور الحكم وبذلك تكون سنه الحقيقية يوم توليه امارة بنى حماد سبعة عشر عاما ولذلك سمى بالميمون .

ولقد كانت فترة الحكم السابقة التى لم تدم إلا ثمانى أشهر التى حكم فيها الأمير باديس قد جعلت البلاد تعيش حالة من القلق والانهيار والفوضى من جراء الأعمال التى قام بها سلفه ولم يكن الأهالى يأمنون على غدهم وكسدت الأحوال العامة لكن الدور الكبير الذى لعبه قائد الأسطول الحمادى (على بن حمدون) فى تولى إحضار العزيز من منفاه فى جيجل بوساطة السفن الحربية نظرا للصداقة التى كانت تربطه مع العزيز كان له أكبر الأثر فى تهدئة الأمور وعودة الحياة إلى طبيعتها بعد أن كان أميرهم الجديد بعيدا عن مسرح الأحداث فى العاصمة بجاية ومنفيا فى جيجل ومن هنا فان تولى العزيز للحكم يعود الفضل فيه إلى دور على بن حمدون

وكذلك الدور الذى لعبته أمه فى التخلص من الأمير باديس .

وكان القائد البحرى على بن حمدون قد حفظ الأمور فى البلاد عشية وفاة باديس بعد أن تم الاتفاق على تولى العزيز مقاليد الأمور وأرسل له سفينة حربية سرية بقوات بحرية تحضره من منفاه فى جيجل وسارت الأمور كالمعتاد فى تسلم العزيز مقاليد الأمور ، وكان على بن حمدون أول من بايعه وعلية القوم ورجال القصر وسادة البلاد الأميرى وتمت بيعة خاصة ثم بعد ذلك جاء دور البيعة العامة حيث بايعه الشعب والأهالى فى صلاة الجمعة فى الجامع الكبير ببجاية فى السابع من ذى القعدة عام ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م .

واتخذ سياسة حكيمة قبل أطراف النزاع التقليديين الذين كانوا يدخلون فى قتال وحروب مع الدولة وكان عليه أن يبدأ سياسة المسالمة والمهادنة والتصالح وفتح صفحة جديدة من الود وحسن العلاقة وابتدأ بقبيلة زناتة وفتح صفحة من الوفاء والمصاهرة فتزوج ابنة زعيم القبيلة ماخوخ ونكحها وأقطعهم الأراضى وقربه إلى مجلسه وعقد معهم عهدا بألا يكون بينهم حروب أو قتال نظرا لصلة القربى والتراحم والمصاهرة .

كذلك نظر إلى الشرق حيث أبناء عمومته من بنى زيرى وشهدت فترة تولية حكم السلطان (يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ٥٠١ - ٥٠٩ هـ) وكذلك ابنه على بن يحيى بن تميم (٥٠٩ - ٥١٥ هـ) وتحسنت العلاقات مع المهدية طوال فترة حكمه وساد جو التفاهم والصداقة بعد أن تزوج ابنة السلطان يحيى بن تميم وشقيقة السلطان على بن يحيى • بدر الدجى) ودخل بها قبل وفاة أبيها بعدة شهور فى عام ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م .

هذا عن الجبهة الداخلية والشرقية أما الجبهة الغربية حيث الحدود المشتركة مع المرابطين فى المغرب الأقصى فانه لم يمض عامان على توليه العزيز حتى كانت أقوى شخصية فى تاريخ المرابطين قد ماتت وهو يوسف بن تاشفين الذى مات عام ٥٠٠ هـ

/ ١١٠٦ م وتولى أمر المرابطين بعده ابنه على بن يوسف بن تاشفين وبدأت الأمور تختل وبدأ السلطان الجديد (أمير المؤمنين) على بن يوسف يواجه العديد من المصاعب مما جعل المرابطين يصرفون النظر نهائيا عن النظر إلى الحدود الشرقية لبلادهم ولايصارعون بنى حماد وشهدت البلاد القريبة من تلمسان الحد الشرقى للمرابطين هدوءا تاما ، ولم يعد الجانب المرابطى يفكر فى الاعتداء أو التحرش أو خلق متاعب للدولة الحمادية أو الاغارة وملاحقة القبائل الزناتية ، وكانت كل هذه الأمور من الاستقرار شرقا وغربا وداخليا جعلت عهد العزيز يوصف بأنه عهد الرخاء والأمان والسلم والسلام فهو لم يواجه أى نوع من المشاكل التى واجهها سابقوه من الأمراء السبعة الذين حكموا البلاد حيث كان الأمير العزيز هو الأمير الثامن فى سلسلة حكام بنى حماد الذين حكموا المغرب الأوسط والذين كانت تمتص طاقتهم وقدراتهم ومن هنا ساعدته الظروف فى أن يحكم بهدوء واستقرار ليتفرغ للبناء الداخلى وتوطيد دعائم الدولة .

وقد كان عالما أديبا متميزا فى علوم الفقه والدين ومولعا بمجالسة العلماء ومناظرتهم فى مجلسه الذى كان يضم العديد من العلماء والفقهاء ورجال علم الكلام والعلوم الطبيعية كالكيمياء .

ولما أنس من نفسه قوة بدأ يتطلع للعمل العسكرى فى الخارج فقد كان بنو خرسان حكام تونس قد نبذوا طاعته فنازلهم وأرسل الحشود عليهم وأخضع حاكمها أحمد بن عبد العزيز الخرسانى وخضع لنفوذه والخضوع لطاعة العزيز وهكذا قد نجح بنو حماد فى الصعود بعد هذه الانتصارات .

وكان أهل جربة قد ثاروا على العزيز بن المنصور وأعلنوا العصيان عليه وخرجوا عن حكم الأمير العزيز بن المنصور لكن العزيز حشد الحشود واستكثر منها وأعد الأسطول الذى حاصر الجزيرة عام ٥١٠ هـ/ ١١١٧م وظل مقيما على حصارها حتى

أقر أهلها بالطاعة وتعهد أشياخهم بالخضوع وعدم قطع طريق المسافرين والتجار إلى بجاية ، لكنه من عجيب القول الذى ذكره ابن خلدون عن بجاية أنها فى ذلك الوقت كانت تخضع لحكم بنى زيرى فى المهدية وكان على بن يحيى الذى عاصر العزيز بن المنصور قد أخضع الجزيرة واعترف أشياخها بالحكم الزيرى.

وحاولت القبائل العربية الهلالية التى انساحت فى بلاد المغرب الأوسط أن تضع العراقيل والمشاكل فى وجه العزيز فحشدت قواتها وهاجمت القلعة العاصمة القديمة للبلاد ، لكن العزيز تصدى لهم بعد أن هزمت حامية القلعة واضطرتها إلى الفرار ، لكن العزيز أرسل ابنه يحيى على رأس القوات ومعه القائد على بن حمدون للدفاع عن القلعة وطرد القوات العربية منها وتم لهما ذلك، لكن القلعة أخذت بعد تلك الأحداث طريقها إلى التدهور والانحلال .

وشهد عهده نوعا من الاستقرار والأمن فى ظل القيادة الرشيدة التى عملت على مواجهة كل مشكل داخلى أو خارجى لكن عهده شهد بوادر أخطار خارجية تهدد الأمن والاستقرار بل كل البلاد الساحلية والذى تتمثل فى الخطر النورمانى الذى بدأ يطرق البلاد مسلحا بالقوات الحربية والبحرية وبدأت أنظاره تتطلع إلى دولة بنى زيرى فى المهدية لمحاولة احتلالها والسيطرة عليها وانهاء الوجود الزيرى من الساحة المغربية والإسلامية .

لكن سياسة الدولة الحمادية الاقليمية ذات النطاق المحدود فى النظرة للمشاكل العالمية قد صرفتهم عن التفكير فى مواجهة الأخطار الخارجية أو التقارب مع أبناء عمومتهم للعمل سويا للدفاع عن الكيان السياسى الاقليمى بغض النظر عن قصر النظر وتجاهلهم للأحداث الكبرى التى تحيط بالعالم الإسلامى والتى باتت تهدد المغرب العربى .

لكن قرب نهاية العزيز كان الخلل قد بدأ يدب فى جسد الدولة الحمادية ، لكن

حدثا كبيرا سوف يكون له تأثير بالغ على مجرى الأحداث فى المغرب الكبير بل سوف ينهى دولة بنى حماد ويستخلص أراضى الدولة الزيرية من أيدى النورمان ذلك لأن السنوات الثلاث الأخيرة من حكم العزيز وبالتحديد فى عام ٥١٢ هـ/ ١١١٨م قد شهدت ظهور باعث الدولة الموحدية المهدى محمد بن تومرت المصمودى الذى كان قد عاد من المشرق ومر بالمغرب الأوسط ووصل إلى بجاية عاصمة بنى حماد وأخذ يهاجم أمراء العصر ومن بينهم أمراء بجاية ولقد أحس العزيز بن المنصور بالخطر الذى يكمن وراء هذا الداعية المغربى وحاول القبض عليه ، لكن ابن تومرت عندما أحس بالخطر توجه إلى قبائل بنى درياكل الصنهاجة الذين رحبوا به واستضافوه ورحبوا بدعوته وحالوا دون المساس به وقاتلوا من أراد النيل منه ارتحل إلى المغرب ، بعد أن كان محمد ابن تومرت قد اجتاز بلاد المغرب وهو فى طريق عودته من المشرق واتصل بعرب الثعالبة الذين كانوا أول القبائل العربية التى ناصرت الدعوة الموحدية وأهدت المهدى حمارا فارها ليركبه بعد أن كان يسعى على قدميه فى سبيل دعوته ، وقد أهدى ابن تومرت هذا الحمار بدوره لرفيقه وقائد دعوته عبد المؤمن بن على الذى سيصبح خليفة الموحدين، بعد أن تعاهدوا سويا على العمل من أجل الدعوة وارتحلا إلى المغرب وأخذه معه .

لكن العزيز توفى عام ٥١٥ هـ / ١١٢١ م وآلت أمور البلاد إلى خلفه وابنه يحيى بن العزيز الذى تشهد الدولة نهايتها على يديه .

يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر
(٥١٥ - ٥٤٧ هـ - ١١٢١ - ١١٥٢ م)

شهد عصر هذا الأمير استقرار العرب الهلالية بكثرة وكثافة شديدة فى بلاد المغرب الأوسط وازدياد نفوذهم و،لم يستطع هذا الأمير إعادة الدولة الحمادية إلى قوتها

التى كانت عليها . وهو آخر سلاطين بنى حماد . وقد ساءت العلاقات بينه وبين أبناء عمومته بنى زيرى حكام المهدية حيث ضيق الخناق على آخر حكام بنى زيرى الحسن ابن على مما دفع يحيى بن العزيز صاحب بجاية أن يرسل قوات حمادية تشاركها قوات عربية هلالية وأخرى زناتية وكانت قوات كثيفة تشتمل على قوات بحرية وبرية وحاصر المهدية حصارا شديد .

ويذكر أن سبب هذه الحملات البحرية والبرية ذلك الصلح المخزى من وجهة نظر العزيز والذى تم بين روجار الثانى حاكم صقلية والحسن بن على بن يحيى الزيرى والذى أغضب صاحب بجاية يحيى بن العزيز الحمادى حيث كان الأمير يحيى يرى أن هذا الصلح وتلك الهدنة التى تمت بين الطرفين لم تكن فى صالح المسلمين وكان وفد من أهل المهدية وكبار رجالها وشيوخها لما لاحظوا تطاول النفوذ المسيحى الصقلى فى بلادهم وازدياد وفود رسل روجار قد رحلوا إلى بجاية وخاطبوا يحيى بن العزيز وأطمعوه بأن يتولى حكمهم بدلا من ابن عمه الذى هادن الفرنجة ودفع الجزية لهم وأثقل كاهل الأهالى بتحصيل هذه الجزية منهم وأنه فى حالة إرساله قوات حمادية فسوف يتم تسليم البلاد له .

لكن ذلك لم يكن إلا حجة استغلها يحيى العزيز الذى كان يطمع فى التوسع شرقا على حساب بنى زيرى بعد أن سد الموحدون أمامه فرصة النظر للحدود الغربية ، ومن هنا كان السبب الحقيقى هو رغبة بنى حماد أصحاب بجاية والقلعة فى الاستيلاء على المهدية والقضاء على ملك بنى زيرى فى المغرب الأدنى ، حتى يتم لهم السيطرة على المغربين الأدنى والأوسط والانفراد بحكم هذه البلاد . فقد كانت روح التنافس بين الأسرة الواحدة والفرعين الحمادى والباديسى لاتزال قائمة ، ومن هنا فقد انتهز الحماديون فرصة المشاكل الداخلية والخطر الخارجى القادم من صقلية وازدياد النفوذ المسيحى فى بلاد افريقية ، وكان ذلك الطمع للسيطرة وفرض النفوذ ، لكن الحسن بن

على الزيرى عندما علم بقدوم قوات يحيى بن العزيز البحرية والبرية استعد بالجيش والأسطول الذى تمكن من أسر بعض قطع أسطول بجاية . وساعد العرب الهلالية الحسن بن على ونجدوه فى وقت الشدة وقتل كثيرا من الخارجين على حكم الحسن بن على والذين راسلوا وساعدوا يحيى بن العزيز صاحب بجاية الحمادى وازاء هجوم الحماديين لم يجد الحسن بن على أمامه من وسيلة سوى الالتجاء لطلب النجدة من روجار الثانى صاحب صقلية ولكى يمده بعشرين قطعه بحرية تعاونت مع أسطول بنى زيرى وحاصرت أسطول بجاية الحمادى وأرادت القضاء عليه ، لكن الحسن بن على رد أسطول صقلية ومنعه من الهجوم وقاتل أبناء عمومته وقائد أسطولهم « مطرق بن حمدون » وأمر قواته بالكف عن قتالهم لانه كره سفك الدماء وأراد أن يحفظ ماء وجهه الحسين وكان صاحب صقلية بهذا التدخل السافر والذى كان بناء على طلب الحسن بن على يريد إضعاف المسلمين وايقاع التنازع بينهم ومساعدة فريق ضد الآخر لكن الحسن وهذه شيمة بنى زيرى فى المحافظة على أبناء عمومتهم فوت الفرصة على قوات الفرنجة وطلب حقن الدماء العربية الأسلامية ونجح الحسن بن على فى المحافظة على ملكه وصد غارات بنى حماد .

لكن الدولة الحمادية كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة لما أصابها من ضعف وانحلال فقد تمكن عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين من دخول العاصمة السياسية للحماديين بجاية فى عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وهكذا انتهت دولة بنى حماد من مسرح الأحداث فى الغرب الإسلامى .

وتذكر المصادر عن يحيى بن العزيز هذا أن جيوشه كانت قوية وأسطوله البحرى كان عظيما لكنه رغم ذلك فقد فشل فى فتح المهدية وأخفق فى حصارها لكنه هاجم تونس واخضعها لنفوذ بنى حماد واستطاع أن يعتقل صاحبها أحمد بن عبد العزيز الخراسانى وأن ينقله معه عند عودته إلى بجاية وأن يقيم عليها حاكما جديدا من

الأسرة الحمادية هو عمه كرامة بن المنصور بن الناصر ، وفى عهده سقطت عاصمة بنى زيرى المهدية فى أيدى النورمان عام ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م (سوف نعود بالتفصيل إلى هذا الحديث عند فصل العلاقات) .

وقد لبثت دولة بنى حماد قوية بعض الشئ حتى هاجمها عبد المؤمن بن على واحتل عاصمتها بجاية فى عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م وأخذ الأمير يحيى بن العزيز مأسورا إلى مراكش .

وكان يحيى هذا كما يتحدث عنه ابن خلدون قد طالت فترة حكمه وأيامه حتى حكم ما يقرب من اثنى وثلاثين عاما هجرية وكان مستضعفا يخضع لرأى مستشاريه ، وكان مولعا بالصيد ، مغلبا للنساء يعيش حياة الهدوء والدعة وينغمس فى إرضاء شهواته حتى نهاية انقراض الدولة وذهاب الأيام بالأسرة الحمادية الصنهاجية وقد أصدر السكة وغير التعامل بالدنانير الفاطمية وهو أمر لم يقدم عليه أحد من أمراء بنى حماد الذين سبقوه .

وفى عهده زادت شهرة بنى حمدون الذين كانوا السبب فى تولية أبيه عرش البلاد وذاعت شهرة القائد البحرى مطرق بن على بن حمدون وهو الذى فتح تونس ، لكنه فشل فى فتح المهدية .

وقال عنه لسان الدين بن الخطيب ، كان يحيى بن العزيز فاضلا حليما فصيح اللسان والقلم جالس الشعراء والأدباء والعلماء وحضر مجالسهم وكان مغرما بالأدب ، بليغ العبارة ، بديع الإشارة ، مولعا بالصيد ومغرما به ، كما كان يحب اللهو والمضحكات فى مجالسه تغلب عليه عبد المؤمن بن على عندما هاجم الموحدون دولته وعاصمته بجاية وتغلبوا عليه وقضوا على دولته ونقلوه معهم إلى مراكش ، لكنه ظل يعيش أسيرا فى مراكش من عام ٥٤٧ هـ حتى عام ٥٥٨ هـ إلى أن توفى فى ذلك العام ومن هنا فقد عاش تحت كنف عبد المؤمن بن على إحدى عشر عاما هجرية بعد

سقوط دولة بنى حماد وتوسع الموحدون فى المغرب إذ بعد ثمانى سنوات من سقوط بجاية أنهى عبد المؤمن بن على الوجود النورمانى فى المهدية وكل سواحل المغرب ودخل المهدية عام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م واستولى على المغرب الأدنى وامتد ملكه إلى طرابلس وهكذا توحد المغرب الإسلامى بكل أقسامه من حدود مصر الغربية (طرابلس) حتى المحيط الأطلسى تحت حكم الموحدين .

وسقطت دولة بنى حماد بعد أن ظلت تحكم المغرب الأوسط طوال اثنين وأربعين عاما بعد المائة .

وكان قيامها عام ٤٠٥ هـ وسقوطها عام ٥٤٧ هـ وبذلك طويت صفحة من صفحات الوجود الحمادى الاقليمى المتنقل ودخلت المغرب فى طور الوحدة السياسية الكبرى فى ظل الحكم الموحدى الذى أنهى وجود دولة بنى زيرى فى المهدية وطرد النورمان ورد هيبة الإسلام وطرد النورمان من الساحل المغربى وبذلك طويت صفحة الدولة الزيرية بقسميها الحمادى والباديسى ، وسوف نذكر ذلك بالتفصيل فى فصل سقوط الدولة .

الفصل الثالث

ماثر الحكم الحمادى بالمغرب الأوسط

دام حكم الدولة الحمادية فى بلاد المغرب الأوسط والجزائر ما يقرب من مائة واثنين وأربعين عاما هجرية ومائة وخمسة وثلاثين عاما ميلاديا تولى فيها حكم هذه البلاد وممارسة نشاطهم السياسى والعسكرى كأمراء تسعة أمراء بدأ من حماد بن بلكين الزيرى الذى أقام هذه الدولة ونهاية بالأمير يحيى بن العزيز الذى قضى على حكمه عبد المؤمن بن على أول خلفاء الدولة الموحدية عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م .

وقد كانت دولة بنى حماد أول دولة (دويلة) مغربية خالصة يقيمها البربر الذين تم استعرابهم على أرض المغرب الأوسط وإن كان المغرب الأوسط قد شهد قبل ذلك قيام دولة بنى رستم الاباضية التى اتخذت تاهرت كعاصمة سياسية لها حتى أسقطها الفاطميون ، وبذلك أصبحت دولة بنى حماد عضوا أساسيا فى الإسلام والعروبة وساهموا بدور فعال بل ومؤثر وبارز فى دعم انتشار الإسلام ولغته العربية .

وقد نجح حماد بن بلكين فى صراعه مع باديس بن المعز فى الاستقلال بكيان الدولة وإقامة كيان سياسى مستقل بعد أن بذل جهدا عظيما وجبارا فى إقامة هذا الكيان وتنظيمه وحكمه وإن كانت فترة حكمه قد اتسمت بالعنف والقسوة سواء مع رعاياه أو مع خصومه وكانت مظاهر البذخ والترف تغلب على طابع الدولة وإن كان ذلك فى صورة بدوية .

وقد كان نظام الحكم وراثيا استبداديا مع أنه لم يحرم من استخدام الشورى والمشورة واتخاذ الوزراء والمعاونين فى إدارة شئون البلاد وظل الحكم وراثيا منذ حماد بن بلكين يتوارثه ابنه القائد بن حماد ومن بعده جاء محسن بن قائد بن حماد وهكذا استمر هذا النظام الوراثى قائما فى حكم البلاد واخضاعها حتى سقوط الدولة .

وكان اتباع سياسية العنف والشدة والقسوة عاملا من العوامل الأساسية التى ساعدت على نفور الكثير من القبائل والدخول فى صراع مع الأسرة الصنهاجية الحاكمة « قبائل زناتة » وقد استنفذ بنو حماد قوتهم وأموالهم فى حروب طويلة دون جدوى ودون وضع نهاية لها مما جعل هذه الأسرة لا تطول فترة حكمها وجعلها تدخل فى طور الانحدار والانهيار بل الاختصار قبل مضى قرن ونصف على تأسيسها .

وقد كانت دويلتهم من الدويلات الصغيرة التى ظهرت فى العالم الإسلامى يحكمها أمراء مستبدون بالأمر يهجمون على السلطة ويتنازعون ولاية العهد أو الأمير وينزعون منه الحكم انتزاعا دون وجه حق ويحكمون بقوة الجند ويقومون بالثورة والانقلاب كما حدث لمحسن بن القائد بن حماد الذى قتله بلكين بن محمد بن حماد وتولى الحكم بدلا منه ، وكذلك قتل باديس بن المنصور بن الناصر وتولى أخوه العزيز بن المنصور بدلا منه .

لكن للحقيقة التاريخية فان بنى حماد يعتبرون من أفضل الحكام الذين حكموا بلادهم فى العالم الإسلامى فقد حرصوا على راحة رعاياهم ورعاية مصالح بلادهم رغم كل هذه الانقلابات والثورات التى كانت داخل البيت الحمادى والأسرة الواحدة فلم يتغير شكل الحكم أو نظامه ، وإن كان الطابع الوراثى والاستبدادى هو السائد وكان الحكم ارستقراطيا يميل إلى العنف والشدة فى بعض فتراته .

وقد شهدت فترة حكم بنى حماد تغيير العاصمة السياسية عدة مرات فكانت فى البداية مدينة أشير هى العاصمة السياسية ثم تلتها مدينة القلعة ثم استقرت العاصمة السياسية للبلاد فى مدينة بجاية طوال فترة حكم خمسة من الأمراء أى منذ عصر الناصر بن علناش حتى حكم يحيى بن العزيز .

وكان الأمير الحاكم الأول لايحرم أبدا من أخذ مشورة رجال القصر وكبار الأسرة الذين كانوا يحيطون به ويناقشهم ويناقشونه فى أحداث الدولة وما يجب أن

يتم اتخاذه فى علاج المشاكل وإدارة شئون البلاد لكنه ليس من المعقول أن يكون الأمير محاطا بأسرة من نسل حماد الكبير ولا تتم مناقشة أمور الحكم فى جلسات عائلية داخل القصر وبصحبته رجال البلاد والأمراء والنبلاء من أبناء الأسرة .

لكن جهاز الحكم كان يتولاه الوزراء الذين كان يتم اختيارهم من قبل الأمير حاكم البلاد الذين كانوا يختارون بدرجة عالية ورفيعة من الكفاءة والقدرة على إدارة ما يتولون من مهام وكان الوزراء فى غالب الأمر يتم اختيارهم من خارج نطاق الأسرة الحاكمة ، وكان أبرز الوزراء الذين ظهروا فى عصر حكم أسرة بنى حماد هم أسرة بنو حمدون الذين ظهروا فى عصر العزيز بن المنصور أثر مقتل باديس وأزداد نفوذهم طيلة عهد يحيى بن العزيز وكان لهم دور كبير فى اسقاط الدولة نظرا لتعاونهم مع عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين ومساعدته فى احتلال بجاية والقضاء على العرش الحمادى .

وكذلك كانت هناك بعض الأسر الكبيرة التى تتوارث حكم بعض الأقاليم والولايات مثل أسرة بنو رمان البربرية التى كانت تتوارث حكم اقليم الزاب وعاصمتها بسكرة بعد أن أخذها الحماديون من أيدى بنى مزنى العرب ، كذلك توارث بنو خراسان حكم تونس من قبل الحماديين .

ولقد عظم شأن الأسرة الحمادية واتسع نفوذها وسلطانها بعد الغزوة الهلالية وضعف أبناء عمومتهم فى المهدية وكادوا يوحدون المغرب الأوسط والأدنى (تونس) لولا العصبيات القبلية فيهما ومناوشات العرب الهلالية لهم وكان الناصر بن علناش من أكثر حكام بنى حماد شهرة وأعظمهم سلطانا وملكا وشأنا وأكبرهم قوة وأكثرهم دفعا للعلم والعلماء .

وفى عهد الحكم الحمادى تم تقسيم البلاد (المغرب الأوسط الجزائر) إلى

ولايات كبيرة وكانت كل ولاية لها عاصمة كبيرة من المدن الكبرى وكان لكل مدينة أو ولاية حاكم من قبل الحكومة المركزية فى العاصمة بجاية ويخضع لأوامرها وينفذ تعليماتها وكانت المدن مقسمة إلى ولايات كولاية الجزائر وبونة وقسنطينة ، والمسيلة ، وجيجل وأشير والقلعة وحمزة وغيرها من المدن وكان ولاة الأقاليم والمدن الكبرى يختارون فى الغالب من أبناء الأسرة الحمادية الحاكمة سواء كانوا أخوة الأمير أو أعمامه أو أبناء عمومته وذلك ضمانا للسيطرة على البلاد وعملا على استقرارها وكان ولى العهد يتولى حكم بعض الولايات أو المدن الكبرى تمرسا له لممارسة نظام وطريقة الحكم والإدارة توطئه لتولى منصب الأمير فيما بعد ومن ذلك تولى القائد بن حماد حكم المدن فى عهد أبيه حماد وتولى العزيز حكم الجزائر فى عهد أبيه ويوسف بن حماد أيام بلكين وبلكين بن محمد أيام محسن بن القائد وغيرهم الكثير من أبناء الأسرة الحمادية الذين تولوا دفة الأمور فى الولايات رغم صغر مساحة الدولة قياسا لدولة بنى زيرى أو المرابطين .

وكانت الولايات أو المدن تقسم بدورها إلى مدن صغيرة والمدن تتبعها واحات أو قرى صغيرة أو سكان بوادى فى الخيام لكن لهم استقرارا دائما بجوار منابع المياه وكانت النظم الإدارية التى تسير عليها الدولة الحمادية تساعد على احكام سيطرتها على كل نواحى البلاد وقدرتها على الدفاع عنها ومعرفة أحوالها وكذلك سرعة حشد القوات عند الخطر واستدعاء الأهالى من المدن والولايات وكذلك تحصيل الضرائب والخراج والجزية ومسئولية كل حاكم أمام الأمير فى العاصمة .

وقد لعب القضاء دورا كبيرا وهاما فى الدولة الحمادية وفى دعم نظام الحكم الذى كان حريصا كل الحرص على إقامة العدل ونشر العدالة بين أفراد الرعية ورعاية مصالح العباد وكان القضاة يصدرون أحكامهم وفق المذهب المالكى الشائع فى البلاد وطبقا لتعاليم الشريعة الإسلامية وكان القضاة يتم اختيارهم لما يتمتعون به من سمعة

طيبة وتبحر فى عالم الفقه والدين ومن المشهود لهم بالعدل والنزاهة وحسن السمعة والحصول على نصيب موفور من العلم والثقافة والحريص على التمسك بأهداب الدين الحنيف واحترام شئون الرعية ومحاربة المنكر والأمر بالمعروف وكان القضاء مستقلا عن الحكم وكان القاضى الأكبر أو قاضى الجماعة يتم تعيينه من قبل الأمير حاكم البلاد وكان يعاونه بعض القضاه وفى دار القضاء وكذلك كان إرسال قضاة آخرين من قبل قاضى القضاة إلى الأقاليم والولايات للحكم بين الناس وفض المنازعات وتسيير أمور الرعية وفقا للتعاليم الإسلامية المالكية وإن كان القضاء فى بعض الفترات قد سار على المذهب الاسماعيلى الشيعى إلا أن ذلك لم يدم طويلا ، إذ عدل عنه عندما خلع الحماديون طاعة الخلافة الفاطمية العبيدية فى القاهرة .

البعد الاجتماعى فى الحياة الحمادية

كان المجتمع الحمادى فى المغرب الأوسط (الجزائر) فى سنوات حكم بنى حماد خلال القرون الثلاثة التى حكمت فيها تلك البلاد وهى القرن الرابع والخامس والسادس الهجرى يتمثل فى طبقات تتصدر المجتمع الحمادى وهى الطبقة البربرية الحاكمة التى هى طبقة وقبيلة صنهاجة الزيرية الحمادية والتى تتشابه فى اجناسها ودمائها وأصلها الواحد وهذا ما كان ينطبق على صنهاجة الطبقة الحاكمة وكانت تنازعها السيادة ومحاولة فرض النفوذ قبائل بربرية أخرى كتامة وزناتة التى كانت لاتنفك تناوئ الطبقة الحاكمة وتشاكسها من أجل نزع السيادة منها وفرض النفوذ على المجتمع حيث أن موطنها الأصلى كان المغرب الأوسط .

كذلك اشتمل المجتمع الحمادى فى تلك الآونة التى خضع فيها المغرب الأوسط لذلك النفوذ على طبقات كبيرة من العرب الذين قدموا قبل قيام تلك الدولة وهم عرب الفتح الذين كانت ولادتهم فى تلك البقاع وهو العرب البلدين كما أطلق عليهم ذلك الدكتور حسين مؤنس وكان قد مضى على استقرارهم حوالى ثلاثة أو أربعة قرون .

كذلك ضم المجتمع الحمادى العرب الهلالية الذين كانت أقدامهم قد وطئت أرض المغرب الأوسط منذ عام ٤٦٠ هـ وكان العرب الهلالية أهم هذه الطبقات التى تعيش فى المغرب الأوسط ولها تأثير واضح وجلى على الحياة الاجتماعية فى المجتمع الحمادى فهم الذين كانت لهم السيادة بعد أن زاحموا ودفعوا القبائل البربرية غربا وجنوبا وسيطروا على المدن والبوادى والتلال والبسائط وأخذوها عنوة ، وهؤلاء الهلاليون رغم استخدامهم القوة فى زحفهم وفرض نفوذهم وما سببه ذلك من تغيير بعض المعالم العمرانية والانثربولوجية فى زحفهم ورغم تأثير الحركة الاقتصادية فى أول الأمر بذلك النفوذ وزعزعتهم للأمن والهدوء طيلة القرن الخامس الهجرى إلا أن بصماتهم فى الحياة الاجتماعية والحضارية والثقافية والعمرانية واللغوية كانت واضحة قوية وتغير الدماء وتعزيز الكيان الوجدانى للفروسية والرجولة والكفاح فيها .

كذلك ضم المجتمع إلى جانب العرب الهلالية والعرب البلدين والبربر سادة الحكم ومن ينازعهم فيه من كتامة وزناتة طبقة أخرى هى الزنوج وهم الذين استقروا فى البلاد كعبيد وأجراء وكانت أعدادهم كبيرة وعناصرهم متعددة ومهنهم متنوعة ووضعهم الاجتماعى متفاوتا . وقد كان العبيد خلال القرون الثلاثة يتكونون من ثلاثه عناصر هى سبى مسلم وعبيد سودان وروم ، وكان العبيد السود والروم يقومون بأكثر الخدمة فى المجتمع الحمادى لان الطبقات القادرة على تملك العبيد كانت تستنكف أن تؤدى أعمالها بنفسها وكان العبيد السود يعملون فى الصناعة والتجارة بالإضافة إلى وضعهم فى الجندية والجيش والشرطة سواء كانوا روما أو سودا .

كذلك ضم المجتمع الحمادى وهو المجتمع الذى اتصف بالتسامح بعض الذمة من اليهود والنصارى والذين أطلق عليهم المعاهدين أو النصارى المعاهدين أو الروم المعاهدة وفى هذه الحالة يشتمل هذا اللفظ على النصارى واليهود معا . وقد كان اليهود أكثر من النصارى لاسيما فى مدن الساحل التونسى والمدن الكبرى واستمر حالهم إلى نهاية القرن السادس الهجرى ، غير أن النصارى وإن كانوا أقل عددا من اليهود فى بلاد بنى

حماد إلا أنه زاد عددهم بحكم استخدام الروم فى الجيش والبحرية .

وكان البربر الصنهاجة يشكلون قمة الهرم الاجتماعى والوضع المتميز فى البنية الاجتماعية للدولة وكانت طبقة ممتازة لها امتيازات فى الدولة نتيجة انتمائهم للطبقة الحاكمة والقيادة السياسية والإدارية وأصحاب الكلمة العليا فى البلاد وكانت لهم بصمات اجتماعية وسياسية قوية بل نفوذ يفوق نفوذ أية طبقة أخرى نظرا لما يتمتعون به من هيبة واحترام بين أفراد المجتمع الحمادى ، ولقد شهدت السنوات الأخيرة من القرن السادس الهجرى نماذج بين طبقات المجتمع التى يجمعها دين واحد وعقيدة واحدة ممتزجة جنسيا كالبربر والعرب والسودان وذلك مع كل القادمين من الاندلس أثر حركة طرد المسلمين من تلك الديار والقادمين إلى ديار بنى حماد ، كذلك بدأ التعاون والامتزاج أيضا بين قبائل البربر المختلفة كصنهاجة وزناتة وكتامة وغيرها من القبائل البربرية الأخرى وكان كثير من القبائل البربرية تعيش فى المدن الكبرى مما ساعد على الامتزاج والتقارب والتعايش متجاورة وبدأ المجتمع الحمادى يأخذ بعدا وشكلا جديدا من أشكال التقارب الطبقى والجنسى ، لكن منذ منتصف القرن الخامس الهجرى بدأ العنصر العربى الزاحف الوافد بوفرة وقوة يأخذ وضعه الاجتماعى فى المجتمع الحمادى وكان لبنى هلال دور كبير فى رقى الدولة وأثر بالغ فى الحياة الاجتماعية وامتياز على العنصرين البربرى والعربى السابق .

فقد شهد البعد الاجتماعى العربى بعدا حضاريا لغويا ثقافيا إذ بدأ اللسان العربى يغير فى اللسان البربرى حيث أثر العرب فى لغة التخاطب وزحفت العروبه على الأرياف والبوادى والمدن والتلال وبدأ التأثير الحضارى العربى يأخذ شكلا مغايرا لما سبقه حيث أن التأثير العربى الحضارى وتغيير الوضع الاجتماعى لم يكن له ليتم إلا فى ظل الاحتكاك بين الأجناس والعناصر الحكومية للمجتمع الحمادى .

وكان العنصر العربى الهلالى منذ أن وطئت أقدامه أرض الجزائر أو مغرب بنى

حماد الأوسط يشكل طبقة اجتماعية لها عنصر السيادة والقوة والنفوذ بين طبقات المجتمع المختلفة ولها مميزاتها الشخصية والثقافية والاجتماعية وأن بصماتها كانت واضحة وجلية فى اللغة والعادات والتقاليد والقيم والاعراف والمفاهيم مما ساعد على ظهور مفاهيم اجتماعية لم تكن معروفة من قبل عام ٤٦٠ هـ وهو عام الزحف العربى الهلالى الكاسح للمغرب الأوسط ، كذلك شهد المغرب الأوسط خلال حكم بنى حماد قدوم الكثير من مسلمى البلاد الأخرى الإسلامية كالاندلس وصقلية ومالطة بعد سقوطها فى أيدى الفرنجة وفتح بلاد بنى حماد أبوابها لأخوة الإسلام لاستقبالهم للعيش مع اخوانهم لكى يؤدوا دورهم الحضارى والاجتماعى بعد أن تعرضت بلادهم الأصلية للزحف الصليبى الذى أجبرهم على الهجرة إلى بلاد بنى حماد واستقر الاندلسيون بمدن الساحل الكبرى ومارسوا نشاطهم الحضارى والتعليمى والعلمى والثقافى والاقتصادى وكان الاندلسيون يشكلون طبقة ممتازة فى مدينة بجاية العاصمة السياسية لبنى حماد وغيرها من المدن الكبرى إلى جانب البربر لاسيما أهل الجزر الثلاث (ميورقة ومنورقة وياسية) وهى جزر البليار التى سيطر عليها الأسبان .

وقد شهد منتصف القرن الخامس الهجرى هجرات متعددة إلى بلاد بنى حماد من القيروان وصقلية والقلعة العاصمة القديمة وغيرها من مدن القطر إلى بجاية العاصمة وكان من بين المهاجرين أعلام الفقه والدين والشريعة والأدب والشعر واللغة ، ومما لاشك فيه أن كل هذه الهجرات الواسعة قد تركت بصماتها وطابعها الحضارى فى الحياة الثقافية فى المجتمع الحمادى « الجزائر » .

وعلى هذا فانه مما تقدم عن الحديث عن البعد الاجتماعى فى الحياة اليومية فى دولة بنى حماد والنظام الاجتماعى يتضح أن سكان المغرب الأوسط خلال القرون الثلاثة التى حكمت فيها دولة بنى حماد (الرابع والخامس والسادس الهجرى) قد تعددت عناصرهم واختلفت أصولهم العرقية والسلالية والجنسية وتباينت مواقعهم

الاجتماعية وتنوعت أعمالهم ومهنهم وأدوارهم فى الحياة اليومية وقد كانت السمة البارزة فى تلك الفترة هى عملية الجلاء الواسع عن القيروان وصقلية ومالطة والاندلس وجزر البليار بعد ترك تلك الأوطان الأصلية وفتح بنى حماد أبواب بلادهم لأخوة الإسلام لايجاد وطن جديد يلوذون به من الاضطهاد والذى تمثل فى غزوات النورمان والضغط المتواصل من نصارى الأندلس أو نتيجة الغزوة الهلالية للمغرب الأدنى أو نتيجة نزاع بين قبائل المغرب المختلفة أو اضطهاد أهل الذمة فى بلاد الاندلس ، وصقلية مما كان يوفر لهم تسامح الإسلام السكنى والاقامة فى ديار المسلمين ولاشك فى أن هذه الأحداث وتلك البنية الاجتماعية فى المجتمع الحمادى قد تركت تأثيرها المباشر على النشاط الاقتصادى سواء أكان فى مجال الزراعة والصناعة والتجارة وذلك مما ساعد على ازدهار الحياة الاقتصادية فى دولة بنى حماد .

البعد الاقتصادى فى دولة بنى حماد

لقد كان بنو حماد فى وضع اقتصادى أفضل بكثير مما كان عليه بنو زيرى فى المهدية نظرا لانهم صالحوا العرب الهلالية وأعفوا أهل بجاية العاصمة من الضرائب على التجارة الداخلية إلى المدينة وكانوا على علاقات طيبة مع جميع جيرانهم من النورمان والمرابطين والمدن الايطالية التجارية ومع بلاد السودان وأيضا فى بعض الفترات مع بنى زيرى حكام المهدية وحافظوا على علاقاتهم الطيبة مع كل الأطراف مما فتح بلادهم للتجارة خاصة أنهم وفروا الحماية للسفن القادمة وتزويدها واعفائها من عشور بعض الصادرات أو تخفيضها وأصبحت بجاية أهم مركز اقتصادى وتجارى فى ساحل البحر المتوسط الجنوبى بل مركزا أساسيا للتجارة البحرية حتى أشاد المورخون الأوربيون بثروتها ووصفوها بأنها مدينة تجارية عظيمة وافرة الخيرات .

ولقد كان للجانب الاجتماعى والاقتصادى دوره فى الأحداث السياسية وقوة الدولة إذ أن النشاط الاقتصادى كان له دوره فى توجيه السياسة خلال فترة حكم بنى

حماد وذلك لما له من أهداف فى فهم المدلول الاجتماعى ذلك لان العامل الاقتصادى هو المحرك الأساسى لحركة الدولة لان العامل الاقتصادى ونشاطه مرتبط بالظاهرة الحضارية والثقافية والسياسية والفكرية للدولة ولان النشاط الاقتصادى يرتبط بحركة السكان فى المجال الزراعى والصناعى والتجارى وأثر هذه الأنشطة الثلاثة فى الحياة الاقتصادى وكيف تطورت دولة بنى حماد وانتقلت من دولة عشائرية بدوية إلى دولة حضارية تنعم بأساليب الحضارة والتقدم الراقى فى ذلك العصر وكيف انها نجحت فى استغلال مواردها الاقتصادية المتاحة والعمل على بناء حضارة إسلامية عربية وكيف وضحت بصماتها الحضارية والتغيرات التى حدثت فى منطقة حكمها وكيف أسهم بنو حماد رغم قصر فترة حكمهم فى تطور اقتصاديات المنطقة الوسطى من بلاد المغرب وربطها بالتباين الاجتماعى والاقتصادى بين طبقات المجتمع وكيف تركت قضيية الترابط والامتزاج الاجتماعى فى استجلاء التقدم الاقتصادى وشئون الحياة الأخرى الفكرية والثقافية والعلمية والحضارية التى سنعرض لها فى فصول لاحقة وكيف أن البعد الاقتصادى وجذوره اضافة إلى البعد الاجتماعى كان لها الأثر المباشر فى كل التطورات الحضارية التى ظهرت فى دولة بنى حماد وكيف أن هذين البعدين الاجتماعى والاقتصادى ظلا يشكلان العمود الفقرى الذى ارتكزت عليه الدولة فى كل بنائها العمرانى والثقافى والحضارى والفكرى والتعليمى وكيف أن النماذج الاجتماعية والتقارب الطبقى ترك تأثيره المباشر على وجه الحياة الاقتصادية فى دعم دولة بنى حماد وساعدها رغم انها دولة اقليمية محلية صغيرة أن تلعب دورا حضاريا وثقافيا شهد به كتاب الغرب المعاصرين لتلك الحقبة التاريخية والذى لم يكن أبدا يتناسب مع وضعها السياسى على خريطة الأحداث فى المغرب الإسلامى أو حوض البحر المتوسط ولكن يبدو أن قوقعة هذه الدويلات وانكفاءها داخليا وعدم مشاركتها للأحداث السياسية الجارية على الساحة العالمية وعدم مشاركتها فى حركة الجهاد الإسلامى ذودا عن حياض الإسلام فى الاندلس وصقلية ومالطة وبلاد جنوب أوربا

الإسلامية قد ساعدها على انماء مصادرها الاقتصادية وتحركها إلى الوضع الحضارى المتقدم .

ومن هنا فان الحياة الاقتصادية للدولة الحمادية قد تقلبت بين مراحل مختلفة بتأثير العوامل السياسية والاجتماعية المحيطة بها وأن الحالة الاقتصادية والتقدم الاقتصادى نقل شعب الدولة الحمادى نقلة حضارية بل طفرة حضارية واسعة من حالة البداوة والرعى والترحال والتنقل إلى حالة من الرقى والتحضر والتدرج فى مدارج الحضارة الإسلامية والأخذ بأساليب الحضارة الإسلامية العالمية وقد شجعت الأسرة الحمادية بدءا من مؤسسها حماد الأكبر ونهاية بيحيى بن العزيز الاهتمام بالبناء الاقتصادى ونتيجة الثورة الداخلية واتاحة الفرصة للرخاء الاقتصادى ولقد كانت دولة بين حماد دولة غنية منذ نشأتها ومن ذلك انه عندما هزم باديس بن المنصور الزيرى أول حكامها حماد بن بلكين عام ٤٠٦هـ/ ١٠١٥ م .

فقد استولى بنى زيرى على أموال لاتحصى من جيش حماد ، لكن قصب السكر والقطن والتمر (البلح) والقمح والشعير والحنطة والزيتون (حركة التصدى الداخلى والخارجى) وكانت للأهالى طريقة لحفظ الفواكه مثل التين والعنب (الزبيب) والتفاح والرمان والموز واللوز . وقد شهدت القرى نشاطا زراعيا واسعا نظرا للاستقرار السياسى وكانت أراضى المغرب الأوسط جيدة الانتاج وكثر الانتاج داخل المدن المسورة وظلت القلعة تعطى الانتاج المطلوب من الأراضى المحيطة بها بعد انتقال العاصمة إلى بجاية ، وكانت بلادهم بلادا وفيرة الإنتاج وكانت الحبوب هى المحصول الرئيسى إضافة إلى زراعة القمح والشعير والعدس والحمص والذرة والفواكه بأنواعها .

ولقد ساعد النشاط الزراعى الكثيف فى زيادة موارد الدولة ورفاهية الشعب الحمادى وزاد دخل البلاد من الذهب والفضة مما ساعد على التوسع فى التصدير إلى بلاد المغرب الأدنى والبحر المتوسط والمغرب الأقصى وبلاد السودان وكان اللوز والجوز

والبلح والتين المجفف والعنب المجفف أيضا من المحاصيل الزراعية التى تصدر من بلاد المغرب الأوسط التى اشتهرت بها إضافة إلى الزيتون الأسود والقمح والشعير والحنطة .

ولقد ساعد النشاط الزراعى الزائد فى البلاد إلى الاتجاه إلى النشاط الصناعى الزراعى والصناعة وتقدمها .

الصناعــة :

لقد كان حظ بنى حماد أفضل من بنى عمومتهم بنى باديس فى التنمية الصناعية نظرا لانهم رسموا لانفسهم سياسة صناعية وشجعوا الأهالى على التصنيع لوفرة الإنتاج الزراعى وزيادة حركة التعدين ووفرة الصناعات المعدنية حيث شهدت مناطقهم الساحلية ازدهارا زراعيا لانها عاشت بمنأى عن الخطر الهلالى والنورمانى فقامت صناعات نشطة بتشجيع الدولة الحمادية التى وفرت بأسطولها حماية السواحل ونقل المواد بين الموانئ والمدن المختلفة حتى لقد ذكر صاحب كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار (مؤلف مجهول) أن صاحب بجاية كان يضاهى صاحب مصر نظرا لان المغاربة كانوا يحيون الصناعة ويعملون على تعليم أولادهم هذه الحرف لاسيما وأن الدولة كانت بحاجة كبيرة إلى الصناعات الحربية ومواد العمارة وأدواتها فضلا عن أن العاصمة بجاية كانت مقرا للصناعات الجيدة بعد أن انتقل إليها الاندلسيون والصقالية وأهل مالطة وعمت الاستفادة من الخبرات الاندلسية لاسيما فى مجال هندسة البناء والعمارة والصناعات الحربية مما ساعد على امتداد اثر الحضارة الاندلسية إلى جميع طبقات الشعب الحمادى .

ولقد ساعدت وفرة الثروة الزراعية والحيوانية والمعادن ووفرة انتاجها على تقدم الصناعة ، ذلك لان المدن الساحلية نظرا لقربها من بلاد جنوب أوربا وقربها من الساحل ساعد على قيام بعض الصناعات التى كان يتم تصديرها إلى الخارج وظهور صناعة الأخشاب لبناء السفن حيث اشتهرت هذه المناطق بالغابات التى تمكن الأهالى

من استغلال أخشابها فى بناء السفن وتصدير الفائض للخارج ووجدت بعض الصناعات المعدنية وصناعة القطن وقصب السكر والكتان والملح الذى كان يصدر بكميات وفيرة إلى بلاد السودان جنوب الصحراء الكبرى ، وكذلك شهدت البلاد ازدهار صناعة النحاس الذى كان يرد من تكادا التبر (تراب الذهب) الذى كان يرد من ورجلان وبلاد السودان .

وقد مارس الصناع الحماديون الوانا من الصناعات المختلفة وكانت القلعة العاصمة القديمة والعديد من المدن الكبرى تزهو بالعديد من الحرفيين الذين اشتهروا بصناعتهم الجيدة وشهدت بجاية العاصمة الجديدة نشاطا صناعيا كبيرا نظرا لانها البناء الأكبر للبلاد والذى ترسو فيه سفن أوربا وجنوب البحر المتوسط والمغرب الأقصى ومصر وبلاد المشرق الإسلامى ونظرا للازدهار الاقتصادى فقد زاد الطلب على أشياء الترف وأدوات الزينة والزخارف .

وقد كثرت صناعة الملابس والمنسوجات حيث كان من عادة المغاربة لبس الثياب الصوفية فى الشتاء والقطن والكتان صيفا وانتشرت منذ عصر الأغالبة وقد كثرت مراكز صناعة الورق فى بجاية والمدن الكبرى خاصة أن بجاية صارت مركز القيادة السياسية والإدارية والدولة فى أمس الحاجة إلى الورق لكتابة الشئون الهامة بها وكثرت حرفة الوراقة الوراقين وصناعة الكتب والمخطوطات وحظيت تلك الصناعة بعناية تامة من جانب الأمراء الذين كانوا يهتمون بالعلم وتشجيع الحركة العلمية ومن هنا ظهر الوراقون والنساخين والمكتبات كعامة .

وأدت تلك الصناعات إلى الاهتمام بالتجليد ، وكذلك ظهرت صناعة الجلود والخزف والقيشانى والأوانى الفخارية .

وشهدت فترة حكم بنى حماد انتشارا واسعا فى صناعة الخشب حيث تميزت تلك البلاد بكثرة الانتاج ووفرته .

وقد أخفق بنو باديس فى المحافظة على دور الصناعة التى شيدها الأغالبة والفاطميون بسبب سيطرة النورمان على البحر المتوسط والعرب الهلالية على البر ، بينما استطاع بنو حماد انتاج السفن فى بجاية والتى آمنت من الخطرين معا وذلك لوفرة الأخشاب فى مناطقها ووفرة الزفت والقطران فى جبالها .

ويذكر رابح بونار فى كتابه المغرب العربى تاريخه وحضارته . أن الحماديين قد استفادوا من حضارة بنى رستم فى تاهرت وحضارة الفاطميين ، ثم زادوا عليها واهتموا بالفلاحة وأحيوا الأرض الصحراء والجرداء وغرسوا الأشجار واعتنوا بالبساتين ونشطوا التجارة فى حواضرهم وموانيهم وصارت القلعة على عهدهم مصدرا لتجارة مزدهرة وتصل إليها التجارة من العراق والحجاز ومصر والشام وسائر بلاد المغرب الإسلامى ويذكر البكرى أن بالقلعة كانت تصنع اللبابيد الجيدة والاكسية القلعية الجيدة النسيج المطرزة بالذهب ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة إلا برسيم، ويقول جورج مارسيى وحوالى عام ٥٧٥ هـ / ١٠٦٥ م صارت القلعة مدينة تجارية عظيمة وافرة الخيرات وقصدها أرباب الصناعات من الشرق وافريقية ويبدوا أن صناعة الفخار يومئذ بلغت مبلغا عظيما كما يظهر عليها التأثير المصرى البارز والواضح فنا وعملا ووجد بها من آثار ذلك الكثير ، ثم تطورت الصناعة وتقدمت وتطورت حسب تطور الدولة ورقيها وعظمتها وتطورت صناعة العقاقير والعطور وماء الورد وتقدم فن وعلم الكيمياء والصناعات الطبية والدوائية .

وقد استفاد المغاربة من تجارب غيرهم فى هذه الصناعات وأضافوا عليها ، وكانت المواد المعدنية وغير المعدنية متوافرة وكثرت صناعة الخزف والفضة والنحاس والرخام ، لكن المغرب الأوسط طوال فترة حكم بنى حماد لم يعرف فن استخراج الذهب من باطن الأرض بينما كثر استخراج الفضة من بلاد الساحل .

ومن كل هذا يتضح أن الصناعات طوال فترة حكم بنى حماد قد تركزت فى

مدن الساحل نظرا لسياسة الحماديين فى تأليف وامتزاج قلوب أهل البلاد ، ومن هنا شهدت بلادهم نهضة صناعية شاملة برزت فيها بجاية ومدن الساحل كقاعدة للتصنيع الزراعى والحيوانى والمعدنى ولعل هذا التطور الصناعى يدل على سماحة حكام بنى حماد ، كما أن ظروف الهجرة من البلاد التى سيطرت عليها القوى المسيحية ساعدت على التطور الصناعى الذى شهدته البلاد حتى سقوطها على أيدى الموحدين فى عصر خليفتهم الأول عبد المؤمن بن على عام ٥٤٧ هـ / ١١٥٢ م .

التجـارة :

لقد أدى النشاط الزراعى والصناعى فى تلك الدويلة الاقلمية إلى ازدياد النشاط التجارى الذى أدى بدوره إلى دفع الحركة الاقتصادية ونموها وتطورها نظرا لما كانت تتمتع به مدنها وأسواقها من سمعة طيبة وعدم دخولها فى صراع مع القوى الأوربية مما مكنها من المحافظة على تدعيم مواردها الاقتصادية .

ولقد كانت التجارة أبرز الأنشطة الاقتصادية وقد ساعدت الظروف السياسية والاقتصادية والجغرافية الطبيعية وموقع المغرب الأوسط بين الاقصى والأدنى وقربها من جنوب أوربا على ازدهار التجارة الحمادية ولقد كانت سياسة المهادنة وحسن العلاقات مع دول أوربا وكذلك العلاقات الطيبة مع المرابطين حكام المغرب الأقصى وأحيانا كثيرة بين أبناء عمومتهم بنى زيرى حكام المهدية وسياسة المهادنة مع العرب الهلالية ، ساعدت كل هذه العوامل على الازدهار التجارى والرخاء الاقتصادى ، كما أن سياسة الحماديين فى بسط لواء الأمن والأمان على ربوع البلاد وتأمين طرق القوافل المتجهة جنوبا إلى بلاد السودان وكذلك شمالا إلى أوربا وشرقا وغربا إلى بقية بلاد العالم الإسلامى على نمو الحركة التجارية ومن هنا فقد تاجرت مع بلاد المشرق والاندلس والاسكندرية ونشطت التجارة الداخلية بين القلعة وبجاية وبقية المدن الأخرى كالجزائر وقسنطينة والمسيلة وغيرها من البلاد وتبادلت المنتجات فيما بينها ، لذا كانت أسواق

مدنها الأخرى عامرة وتجارتها رابحة وتباع فيها أصناف المنتجات الزراعية والصناعية .

ولم يجد بنو حماد أمامهم من وسلة بعد أن فضلوا عدم الاشتراك فى الحروب الخارجية سوى الاعتماد على التجارة وذلك كمصدر أساسى للدخل ، ومن هنا فقد نشط الحماديون فى التجارة الخارجية لان وضعهم التجارى كان أفضل من بنى باديس فقد تاجر أهل بجاية مع تجار المغرب الاقصى وتجار بلاد جنوب الصحراء (مالى وسنغاي وبرنو ، كانم والواحات الجنوبية) بلاد المشرق وأهل الروم وكذلك بلاد اليمن والهند والصين والحجاز والعراق والشام .

وكانت مدينة الاسكندرية المصرية محطة يلتقى فيها تجار بجاية مع تجار هذه الدول ونشطت التجارة البحرية .

كان بنى حماد قد حافظوا على علاقات طيبة مع تجار المدن الايطالية وخاصة (بيزا وجنوه والبندقية) وحماية سفنهم وتزويدها بالمواد وقد ظل التطور والتقدم الاقتصادى طوال حكم الحماديين ولم يتأثر إلا بعد احتلال النورمان لصقلية عام ٤٨٤هـ وبرز النورمان على مسرح الأحداث السياسية وهددوا بلاد بنى زيرى وبنى حماد وفرضوا سيطرتهم على حوض البحر المتوسط الغربى ، لكن ظلت التجارة معهم فى فترة حكمهم الأولى لصقلية .

لكن التجارة انقطعت معهم عندما بدأوا يشنون الغارات على سواحل المغرب الإسلامى كما عمل النورمان على فرض حصار بحرى على التجارة الحمادية ومنعها من الاتجار مع بلاد جنوب ايطاليا والبلاد الأوربية الأخرى .

ومن هنا فانه يتضح أن التجارة فى بلاد بنى حماد خلال فترة حكمهم قد سارت فى اتجاهات مماثلة لحركة الزراعة والصناعة ، غير أن أزمة التجارة الخارجية أثرت على الأوضاع التجارية الداخلية ، وكان التجار المغاربة أكثر تأثرا بسيطرة العناصر الأجنبية على صقلية ومالطة لاسيما بعد سقوط المهدية عاصمة بنى زيرى فى قبضة

النورمان وسقوط كل الموانى ومنها موانى خاضعة لنفوذ بنى حماد ومن هنا فان هذه التطورات التى حدثت فى المجال الزراعى والصناعى والتجارى قد تركت آثارها الواضحة على المجال الاقتصادى والاجتماعى والسياسى ، لكن رغم ذلك شهدت فترة حكم بنى حماد ازدهارا اقتصاديا دون غيره من بلاد المغرب .

المنظور الثقافى والحضارى للدولة

اعتنت هذه الدولة بتنشيط العلم والعلماء مما ترك بصماته الواضحة على الحركة الثقافية والحضارية فى طوال البلاد وعرضها ، كما أن الحياة الثقافية والحضارية قد استفادت من هجرة القبائل العربية الهلالية من حيث هجرة العلماء من القيروان إلى القلعة وبجاية واستقرارهم فى مدن بنى حماد ورحيل البعض الآخر إلى المغرب الأقصى.

كما أن الهجرة الهلالية أيضا تركت بصماتها واضحة جلية على الشخصية الثقافية والعلمية والحضارية فى البلاد مما أثر فى اللسان وتعريب أوجه النشاط الحضارى والثقافى للبلاد وتعميق اللغة العربية فى مختلف الأنشطة الثقافية والحضارية وظهرت الأنشطة الحضارية بصورة عربية إسلامية جزائرية إذ أن الحضارة الحمادية وقعت تحت تأثير المظاهر الحضارية والثقافية القادمة من المشرق الإسلامى وأنها تركت آثارها بحيث أنه لم يكن لها نظير مماثل فى بقية أوطان البربر ، وهى شاهد قوى على رقى الحضارة الإسلامية ذات الأصول القوية الراسخة فى وجدان الشعب الحمادى الجزائرى .

ومن هنا فقد شهدت فترة حكم بنى حماد طوال القرن الخامس والسادس الهجريين / الحادى والثانى عشر الميلادى بعدا جديدا فى غلبة الطابع العربى على أوجه النشاط الثقافى والحضارى فقد طبعت المفاهيم البربرية من وجهة المنظور التاريخى منذ القرن الثانى الهجرى بالطابع العربى الإسلامى لكنه لم يكن عميق التوطن فى البوادى والتلال والسهول ولم تكن الموجة العربية الأولى تغطى الفرشة الواسعة لأرض

المغرب فجاءت الغزو الهلالية فى القرن الخامس الهجرى لتقلب موازين القوى الثقافية وتطبع البلاد بالطابع العربى الخالص ، ذلك لان اللغة العربية لغة القرآن الكريم قد حظيت باحترام المغاربة البربر بحيث صارت هى لغة الحديث والخطابة بل هى لسان حال الأدب والعلم وعنوان الثقافة والحضارة ومراسيم الملك والسلطان والمراسلات وعنوان التطور الحضارى والتقدم الثقافى ، وقد نتج عن الغزوة الهلالية التى كانت حدثا ضخما زلزل أركان المغرب الإسلامى وترك بصماته جلية ظاهرة بل خير شاهد على آثار المغرب الثقافية والحضارية والعلمية إذ أن الحياة الثقافية والسياسية والاجتماعية والحضارية ، ما كان لها أن تزدهر فى بلاد بنى حماد إلا فى ظل حركة تعريب الثقافة ولقد شجع الحماديون توطن القبائل الهلالية نظرا لان الحماديين كانوا يشعرون بحاجتهم إلى ذلك للعمل على نشر اللسان العربى وطبع البلاد بالطابع العربى نشرا للثقافة العربية الإسلامية فى ربوع بلادهم وفى ذلك يذكر عثمان الكعاك فى كتابه بلاغة العرب فى الجزائر ، لقد وقع على بنى حماد عبء العمل فى وضع حجر الأساس لتعريب البلاد والسير بخطى واسعة فى هذا المضمار بل بذل جهودا كبيرة مستغلين وجود العناصر العربية الهلالية ومن هنا لم يدخلوا فى صراع معهم بل اعتمدوا عليهم كل الاعتماد فى طبع البلاد بالطابع العربى وقد ساروا على هذا النهج طوال فترةحكمهم وشهد عصر بنى حماد دخول المغرب الأوسط والجزائر ، فى عصر ثورة التعريب لاسيما بعد أن تغلغل الهلالية فى مختلف الأنشطة اليومية وكانت تجمعاتهم فى العديد من القرى والبوادى والواحات الجنوبية (اقليم الزاب) وفى التلال والجبال ونتج عن ذلك انصهارهم فى بوتقة المجتمع الجزائرى وامتزاجهم مع اخوانهم وبنى عمومتهم بربر البلاد .

ومن هنا طبع اللسان العربى المغربى فى لغة التخاطب والتعامل والثقافة والتعليم وظهرت بجاية وقسنطينة والمسيلة كعواصم ثقافية حضارية طيلة فترة حكم بنى حماد بعد أن لجأ إليها علماء افريقية من القيروان بعلمهم وثقافتهم وحضارتهم وكان طبيعيا

أن يقيم هؤلاء العلماء فى كنف سلاطين بنى حماد الذين رحبوا بهم وقدموا إليهم كل عون ومساعدة وأشركوهم فى مجالسهم العلمية ومناظراتهم التى كانت تقام فى القصور ويتم فيها مناقشة المشاكل الفقهية والتشريعية .

وقد ساعد انتشار مذهب الإمام مالك بن أنس القادم من افريقية والذى لقى قبولا من فئات الشعب المختلفة وصار هو المذهب السائد بعد أن أعلن حماد بن بلكين مؤسس الأسرة نبذ طاعة الفاطميين والخروج على المذهب الاسماعيلى الشيعى والدعوة للخلافة العباسية فى بغداد مما سهل انتشار المذهب على نطاق واسع وساعد على انتشار الثقافة الإسلامية السنية المالكية وتشريع القوانين وفقا لهذا المذهب السائد ، ولقد كان لعلماء القيروان الراحلين غربا إلى بجاية وغيرها من بلاد المغرب الأقصى الدور الأكبر فى رسوخ الثقافة العربية الإسلامية وانتشار المفاهيم الحضارية العربية ، كذلك لعبت عوامل أخرى ساعدت فى عمق الشعور العربى الثقافى والتى منها احتكاك الجزائر بالاندلسيين القادمين إليها وكذلك هجرة أهل المغرب الأدنى وصقلية وبلرم وغيرها من البلاد الإسلامية المختلفة مما ساعد على ايجاد الاجواء العلمية الملائمة لكى تفسح الثقافة الإسلامية العربية لها مجالا واسعا فى نفوس الرعية التى كانت تواقة إلى تلقى المزيد من الجرعات العربية الإسلامية بعد أن أصبح اللسان السائد لسانا عربيا .

ولقد لعب العلماء القادمين من مختلف الجهات المشار إليها سابقا دورا أساسيا فى نمو وازدهار الحركة الثقافية والفكرية الحمادية وذلك بما حملوه من علوم وآداب وفنون وفكر وثقافة وتعاليم إسلامية .

كل هذه المؤثرات ساعدت على تكوين الشخصية الثقافية الحمادية الجزائرية ، كما ساعد على رقيها وازدهارها ومن ثم بدأت بجاية العاصمة السياسية تصبح عاصمة الفكر والثقافة والعلوم والفنون فى المغرب الأوسط وبدأت تشد إليها الرحال طلبا للعلم والمعرفة وكثرت بها الجامعات والمعاهد العليا والمساجد التى تدرس فى حلقاتها العلوم

المختلفة وبدأت سمعتها العلمية وشهرة علمائها وفلاسفتها ومشرعيها ورجال فقهها تضارع بل تدخل فى طور التنافس مع العواصم الإسلامية المختلفة محاولة أن تجد لها مكانا يتلاءم مع وضعها العلمى الذى اكتسبته فى ظل الحكم الحمادى الذى أجزل العطاء وفسح المجال أمام العلماء مما جعلنا لانبالغ إذا قلنا ان بجاية قد بدأت تنافس غيرها من العواصم العلمية الإسلامية كالقيروان والمهدية وفاس ومراكش وسبتة وبلرم وقرطبة وطليطلة وبغداد والقاهرة وقد اكتسبت مدينة بجاية شهرة علمية واسعة فى المجال الرياضى حيث ازدهرت بها العلوم الرياضية كما أن المهدية اشتهرت بالكيمياء وتلمسان زادت شهرتها فى العلوم الطبية وكان لبجاية الفضل فى انتشار الأرقام العربية التى أخذها الأوربيون منها ولازالت تكتسب حتى الآن الأرقام العربية التى يستخدمها الأوربيون .

وكان فضل المهاجرين عظيما فى الحياة الثقافية الجزائرية إذ تركوا بصماتهم وآثارهم فى مختلف نواحى الحياة الثقافية والذين كان منهم ابن النحوى وابن حمديس الصقلى كما أن طائفة من مهاجرى الاندلس كالأمير الصمادحى وغيره قد قدموا إلى الجزائر فى ظل حكم بنى حماد وأثروا حياتها الثقافية والعلمية وكان لهم فضل لاينكر ولا يجحد فى مختلف الأصعدة العلمية .

وقد ساعد على ازدهار الحركة الفكرية الثقافية والعلمية أن الأمراء الحماديين كانوا يشجعون العلماء والمفكرين وقد شهدت مجالسهم العلمية كثيرا من المناظرات التى كانت تعقد فى القصور فى وقت السلم حيث كان الأمراء يؤثرون العلماء والمفكرين والمخترعين على سائر الطبقات والفئات . وكان للناصر بن علناش الحمادى خامس أمراء الأسرة الحمادية دور كبير فى هذا المضمار إذ كان أجل الأمراء شأنا فى مجال تشجيع حركة العلم والفكر والثقافة وكان أكثرهم مساهمة فى ترقية العلم والعلماء وتنشيطهم ودفعهم للعمل والابتكار .

وقد سجل التاريخ فى عصره صفحات جليلة من معالم التمدن والرقى الإسلامى بالجزائر والتوسع فى حركة العلم والتدريس ونبغ فى عهده طائفة كبيرة من العلماء والمفكرين والمخترعين الذين ضربوا بكل سهم فى مختلف الأنشطة العلمية ، وشهد عصره حركة انتقال العلماء والطلاب والمفكرين من العواصم والبلاد الإسلامية المختلفة إلى بجاية العاصمة الجديدة التى رحبت بكل القادمين من الشرق والغرب والشمال وخلدوا بأعمالهم العلمية صورة حية للحركة الفكرية والثقافية التى كانت تسود ذلك العصر .

وقد أصبح بنو حماد بالجزائر محافظين على قوة الدفع العلى والحضارى معتدين بنظام تشجيعهم وانتفعوا عن هاجر إليهم من أعلام الفقه والأدب والفكر والثقافة وصارت القلعة وبجاية وريثة لأمجاد القيروان .

وهكذا برزت بجاية فى مجال الحضارة وميدانها وتألق نجمها فى عالم الثقافة ومكنوا العلماء من متابعة تأدية رسالتهم بعيدين عما يتهددهم من مخاطر وعمل بنو حماد على حماية تراث قبيلتهم وجمعوا العلماء الذين وصلوا إلى بلادهم وجعلوا المغرب الأوسط قلعة فكرية وعلمية بل انهم حالوا بين العلماء ووصلولهم إلى بلاد المغرب الأقصى طمعا فى كسبهم واستفادة منهم وصانوا تراث الحضارة العربية الإسلامية التى انفرط عقدها فى القيروان وبسطوا ظل حمايتهم على العلماء وأخذت مدارس بجاية والقلعة وأشير والمسيلة بونة (عنابة) وجيجل وقسنطينة فى كنفهم تزداد تفوقا ويتألق نجمها حتى لقد قيل أن جامعة بجاية ورثت تقاليد القيروان وخلفتها فى مضمار الثقافة الإسلامية ، كذلك مما ساعد على نمو الحركة العلمية والفكرية وازدهارها أن قبيلة صنهاجة التى أقامت نظام الحكم الحمادى لم تكن قبائل هدم ، إنما كانت قبائل بناء مما ساعد على تشجيع الحركة الثقافية والفنية فقد شهد عصر بنى حماد بناء ثلاث عواصم مختلفة فى فترة لاتزيد عن قرن وربع من الزمان (أشير والقلعة وبجاية) مما ساعد على أن تكون حركة الفكر والثقافة متصلة بين هذه العواصم

بل بين مختلف العواصم العربية الإسلامية مما جعلها تعكس تقاربا فكريا وثقافيا وحضاريا يعتبر من حقائق الحضارة الإسلامية وإن كان الأدب والعلوم فى بجاية وافدا من الشرق أو من الاندلس .

ولقد تألق نجم الثقافة العربية الإسلامية وفنونها المختلفة فى ظل حكم بنى حماد الصنهاجى واختلطت المؤثرات المغربية القادمة من القيروان مع المؤثرات الشرقية القادمة من بلاد المشرق والاندلس وقد نتج عن هذا الامتزاج الحضارى أن تبلورت الثقافة الجزائرية وبدأت تظهر فى صورة ثقافة جزائرية تأكد طابعها المحلى بما يتلائم مع قيم وثقافة وتقاليد وأعراف المجتمع الحمادى فى ظل الثقافة والفن فى المغرب الأوسط ، ولكن الحقيقة التى يجب أن تقال أن المؤثرات الاندلسية قد انتشرت فى اقليم الساحل ومدنه المختلفة ومن هنا ظهرت هذه المدن ذات التاريخ المجيد فى الثقافة والحضارة العربية الإسلامية بل أن هذه المؤثرات استطاعت أن تنتشر جنوبا حتى ورقلان التى كانت تخضع للنفوذ الحمادى وداخل نطاق الدولة .

وكان الأمراء يستقدمون أعلام الفقه والعلماء والأدباء لتأديب بنيهم وحضور مجالس مشورتهم كما كان الأمراء فى نفس الوقت يشجعون الأطباء والفلاسفة والرياضيين والكيميائيين وكانت ظاهرة تشجيع العلم والعلماء مشهورة فى بلاط بنى جماد حيث كان كل أمير يقلد الأمير الذى سبقه فى هذا المضمار ، بل انهم اتخذوا الشعراء والأدباء جلساء وقربوا منهم الكثيرين وبصفة خاصة الناصر بن علناش الذى خلد اسمه فى قصائد شعرائه وشعراء ابنائه من بعده وأغدقوا عليهم وشجعوهم بكل وسيلة وعملوا على استقدام نخبة من وأجل العلماء من المشرق والاندلس وأفسحوا المجال أمام الأهالى لكى يجلسوا إلى الفقهاء والعلماء والأدباء والشعراء والذين كانوا يتخذون الائمة لتأدية الصلاة بهم وتدريس القرآن الكريم وعلومه فى احيائهم وبحكم حملة القرآن والحديث والفقه فى قضاياهم وحل مشاكلهم وكيف أن العلماء والفقهاء

كانوا ينتشرون فى مختلف المدن الحمادية ويحيط بهم الطلاب يأخذون عنهم العلوم والآداب وشهد عصر الحماديين مرحلة حافلة بالحركة والنشاط العلمى يفيض بالعلماء الذين تفرغوا لتدريس كل لون من ألوان الثقافة العربية الإسلامية والحياة العقلية والفكرية ، بل أن هذه الدولة قصيرة العمر طويلة الاثر الحضارى قد أدت للثقافة العربية الإسلامية خدمات جليلة حتى بدأ علماء المغرب الأوسط ينافسون علماء المشرق فى هذا المضمار كما ظهر لهم من إنتاج علمى يدرسه العلماء والأساتذة ويرويه الطلاب عن شيوخهم .

واعتنى الحماديون بالنباء والتشييد فأسسوا كثيرا من القصور ويتحدث ابن خلدون عن الناصر بن علناش قائلا أنه هو الذى حصر ملك بنى حماد وصير بجاية دار مملكته وجدد صورها وشيد جامعها وتألق فى اختطاط المبانى وتشييد المصانع وكانت معامل الحديد والزئبق تستخرج من جبل ازراو والنحاس من جبل كنامة والمرجان من مرسى الخرز ، واتخذ القصور وأجرى المياه فى الرياض والبساتين فبنى فى القلعة قصر المنار والملك والكوكب وقصر السلام وقصر اللؤلؤة وقصر أسيمون ، وقد ذكر هذه القصور التى تدل على حضارة بنى حماد المغاربة ببجاية بعض شعراء ذلك العصر كابن حماد، وابن حمديس الصقلى ويذكر جورج مارسى أن آثار الحضارة الحمادية لا نظير لها ببقية وطن البربر وقيل أن النورمان هم الذين بنوا قصورهم على مثال قصور الحماديين فى بجاية وقد بنى حماد المساجد والقناطر وكان الحماديون قد نظموا وأحسنوا وأفننوا فى القلعة كل أنواع الفنون والزخارف وهى التى كانت على مقربة من المسيلة والتى كانت مركزا تجاريا هاما تلتقى عنده القوافل القادمة من افريقيا والسودان والذاهبة فى اتجاه تلمسان وتنسى وتاهرت والقيروان كما اشتهرت القلعة بمنسوجاتها الرفيعة .

وقد ازدهرت الحركة الأدبية أيام الحمادين بسبب تشجيع الأمراء للأدباء والعلماء مما أدى إلى انتعاش الحركة الثقافية فى جميع الأوساط وقد اشتهر من أدباء

هذه الدولة وعلمائها كثيرون منهم أبو عمران الوهرانى المتوفى ٤٢٩ هـ والذى أخذ عن أعلام الفقه وتضلع فى الرياضيات وكان بصيرا بالطب ماهدا فى العلاج وسافر إلى الاندلس حيث مات هناك ، كذلك أبو القاسم السكرى المتوفى ٤٦٥ هـ وكان متخصصا فى القراءات وارتحل فى سبيل ذلك إلى جميع البلدان الإسلامية إلى أن استقر فى مدرسة بنسايور بالقرب من الموصل بالعراق فدرس بها وتوفى بها واشتهر مؤلفاته كتاب الكامل فى القراءات وقد ارتحل ابن الرمامة المتوفى عام ٥٦٧ هـ إلى الاندلس حيث التقى مع ابن رشد الفيلسوف وأخذ عنه ثم عاد إلى المغرب واستوطن فاس مفضلا عدم العودة إلى ديار بني حماد وتولي القضاء بها إلى أن توفى هناك أما يوسف الورجلانى المتوفى عام ٥٧٠ هـ فقد قرأ مبادئ العلوم ثم ارتحل إلى قرطبة بالاندلس وأخذ عن علمائها وأدبائها ثم عاد إلى بلاده واعتكف فى منزله على التدوين حتى أخرج كتبا عدة أشهرها كتاب (مروج الذهب فى الفلسفة) كما نبغ بعض من أهل الذمة الذين تمتعوا بعطف الأمراء ورعاياهم وتمكنوا من الاستنارة بالثقافة العربية الإسلامية وكان أشهرهم اسحق بن يوسف الملقب بالكاتب .

وقد كانت قصور الأمراء خير شاهد على رقى الحضارة الإسلامية ذات الجذور العميقة بالجزائر بالإضافة إلى أن الموسيقى قد ازدهرت بها وكان النورمان مغرمين بالحضارة الحمادية فأقاموا وشكلوا قصور بلرم على شكل قصور بجاية وكان قصر زيزية، وكوويه ببلرم شديدى التشبه بقصور اللؤلؤة والكوكب والميمون والتى سبق الإشارة إليها والتى كانت بجاية تزدهر بالعديد من القصور ذات الروعة والابهة والجمال .

واهتم الحماديون بالفنون الحميلة وأبدى استعدادهم للبذل بسخاء فى سبيل رقى هذه الخصائص الفنية الجميلة التى زادت الحياة بهجة وجمالا وكان النقش والتصوير والموسيقى يحظى بالاهتمام الأكبر حيث استقدموا خلاصة مهندسى هذه الفنون من الاندلس وجنوب أوربا وغيرها وقد ظهر ذلك فى فن البناء والمعمار الذى قام ببنائه

مهندسون جزائريون كبوبناش وغيره وقد وجد كثير من الآثار التى تزدهر بهذه الفنون .

ويبدو أن صناعة الفخار والخزف قد بلغت مبلغا عظيما كما يظهر عليها تأثير مصر فنا وعلما وعملا فقد عثر على أوانى من الخزف المطلى فى بجاية والقلعة وعليها كتابات عربية بخط رائع كما عثر على قارورات من الزجاج وأدوات منها وهذا كله يشير إلى رقى الصناعة الخزفية والزجاجية وتقدم علم هذه الفنون فى ذلك الوقت من القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ، كما أن الزخارف الفنية بالقصور تدل على تقدم فن النقش والتصوير والنحت والطلى والتزيين ، لكن الموضوع هذا فى حاجة إلى زيادة فى البحث نظرا لقلة المصادر التى تتحدث عن هذا اللون من ألوان النشاط الحضارى فى العهد الحمادى لاسيما فى مجال الفنون الزخرفية والعلوم الهندسية والمعمارية .

وكانت العاصمة بجاية تمثل مرحلة التحضر والازدهار الحضارى والانفتاح على العالم الخارجى كعاصمة حضارية ثقافية تختلف عما سبقها من أشير والقلعة وشهدت بجاية حضارة زاهرة فى عهد الناصر بن علناش حيث بدأ يقوم بعملية تحضر شاملة فأنشأ دارا للصناعة الحربية والبحرية وأنشأ السفن حتى صارت حاضرة الحواضر فى بلاد بنى حماد .

وفى عهد سلفه المنصور بن الناصر استمرت عملية تحضر المدينة ورقيها بل أنها كانت الملاذ الذى استقر به أبناء افريقية بعد خراب القيروان ولما كان عام ٥٣٨ هـ اقتلع يحيى بن العزيز ما بقى من آثار خالدة فى القلعة ونقل أدوات الزخارف إلى بجاية ويعتبر العصر الحمادى ٥١٥ – ٥٤٧ هـ قمة ما وصلت إليه بجاية من تطور حضارى بعد أن ساعدت الظروف السياسية السائدة فى دولة المرابطين وبنى زيرى وما أصابها من انهيار سياسى قد أعطى الفرصة لبنى حماد ليحتلوا مركز الصدارة فى المغرب الإسلامى نظرا لضعف القوى المحيطة بهم مما جعل بجاية تمثل مرحلة الوصول إلى مدى حضارى

وثقافى لم تصل إليه الدولة من قبل وجعل دولة بنى حماد تكون محور المغرب الإسلامى وبجاية مركز الحضارة والثقافة والعلوم . ومن مظاهر التقدم والرق الحضارى ما عثر عليه من اثار فى العاصمة ومن معالم ذلك ما جاء فى قصر البحر أو دار البحر من بركة كبرى يناهز طولها ستين مترا فى عرض خمسة عشر مترا وتحيط بها القاعات والرواقات وتشتمل على بدائع الزخارف الفنية المليئة بالرخام المنقوش والزينة بالأشكال الهندسية الجميلة والنادرة بل والعجيبة وكذلك قصر الأمير والذى كان منزل الأمراء ودار سكانهم فهو آية من آيات الفن المعمارى العربى الأصيل الذى يكتسب سمات أندلسية مصرية شرقية ، ومثل ذلك صرح المنار الذى بناه الفنان بوبتاش وهو صرح من صروح التقدم الحضارى فى فن المعمار والجمال إذ كان يشتمل على مرايا لإرسال العلائم (العلامات) فى النهار وتوقد النار بأعلاها ليلا لإرسال إشارات الحراسة من منارته إلى منائر أخرى على الجبال المقابلة وقد انتشرت هذه الطريقة فى العصور الإسلامية وأخذها الحماديون وحسنوها على توالى العصور وهذه الآثار خير شاهد على تقدم تلك الفنون فى عصر الحكم الحمادى لبلاد المغرب الأوسط .

وقد نجح العصر الحمادى فى أن يقدم فى مجال العلوم الشرعية عددا من العلماء فى مختلف الفروع بالإضافة إلى أن المذهب المالكى كان قد أضفى لونا من ألوان الثبات الفكرى فى أنحاء المغرب الإسلامى وبرزت مدرسة الحديث إلى جانب دراسة علوم القرآن الكريم ولقيت من المغاربة جل الاهتمام وشهدت ساحة العلم والفكر فى البلاد الحمادية ظهور العديد من علماء الحديث وأعلام الفقه والتفسير والفكر وغيرهم فى شتى أفرع العلوم المختلفة بل انه من الظواهر الجديره بالنظر والذكر أن هذه العلوم التى تسمى بالعلوم النقلية كانت مختلطة باعتبارها علوم عقيدة وقد ذاعت شهرة العلماء فى مختلف أنحاء مدن الدولة الحمادية الكبرى فقد وجد فى بجاية والقلعة والجزائر وتاهرت وبونة وأشير وقسنطينة والمسيلة والزاب علماء أجلاء قصدهم طلاب العلم من كل صوب وحدب يجدون لديهم ما يروى ظمأهم للاستزادة من بحور العلم

المختلفة وقصدهم طلاب المغرب الأدنى والأقصى والاندلس بل طلاب من مصر شدوا الرحال لدراسة علوم الرياضيات والطب وقد كان لبعض هؤلاء العلماء شهرة واسعة على امتداد العالم الإسلامى .

وقد أبدى أمراء بنى حماد اهتماما زائدا بنشر التعاليم الإسلامية وعلوم الدين الإسلامى وكان المذهب المالكى يتصدر المذاهب والعقائد فى المغرب الإسلامى ، على الرغم من أن صنهاجة قد أصبحت حليفة للفاطميين ودعمت حكمهم ، لكنهم مع هذه العلاقة لم ينجح الفاطميون فى أن يكسبوا عقول أهل المغرب وكان المذهب المالكى قد انتشر وبسط نفوذه على سائر المذاهب الإسلامية الأخرى وفشل الفاطميون أصحاب المذهب الشيعى الاسماعيلى فى هذا الشأن ، بل أن حكام بنى حماد فى قطعهم صلاتهم بالفاطميين فى القاهرة كانوا يتقربون إلى الشعب الجزائرى وأن استغلوا المذهب الشيعى سياسيا إلا أن المذهب المالكى كان لسان حالهم لدى الجزائريين فى عصور بنى حماد بل كان هو المذهب السائد على المستوى الشعبى ويلقى من المسئولين كل رعاية فأصبح هذا المذهب مصدر التشريع والأحكام فى البلاد ولقيت علوم القرآن والسنة من تفسير وقراءات وفقه وحديث وتصوف اهتمام الدولة والأهالى وكانت المساجد والزوايا والأربطة المكان الخصب لازدهار العلوم كلها .

وقد كان المسجد والزاوية يلعبان دورا هاما فى الحركة التعليمية فى البلاد ومن ذلك فاننا نجد أن الدولة قد أبدت اهتماما زائدا بالتعليم على الرغم من قلة نصيبها من الحضارة والتثقيف والعلم لكن ولاة الأمور بها قد بذلوا أقصى ما فى وسعهم للوصول بالبلاد إلى ركب التحضر والرقى ومن ذلك نجد أن الأمير حماد بن بلكين مؤسس الأسرة الحَمادية عندما اختط القلعة انتشرت فيها المساجد والفنادق وكان المسجد يلعب دورا كبيرا فى التعليم فى تلك الآونة من القرن الخامس الهجرى وكان الشيوخ والائمة والاساتذة يقومون بالتدريس فى المساجد ووجدت الزوايا التى كانت بكثرة فى بلاد

الجزائر وكانت الكتاتيب تسهم بنوع من التعليم بل كانت أشهرها فى تحفيظ القرآن الكريم وتدريسه للصبيان والأولاد الصغار وكانت القلعة عامرة بالكتاتيب إلى جانب كونها مصلى كبير تقام فيه الصلاة .

وفى المدن الكبرى كبجاية كان يقوم التعليم الجامعى وقد أنشأ الناصر ابن علناش فى بجاية معهد سيدى التواتى (نسبة إلى واحة توات) الذى كان يحتوى على ثلاثه آلاف طالب تدرس فيه العلوم والمواد المختلفة منها علم الفلك . وقد قصدها العلماء والطلاب من الاندلس والمغرب الأقصى ومدنه المختلفة من المغرب الأدنى (افريقية) .

وقد أنجبت علماء أفذاذا وبلغت فى ذلك العهد مبلغا لم تبلغه مدرسة معاصرة . وقد عرف علماء هذه المدرسة وهى حديثة النشأة وقد تفوقت تفوقا ظاهرا لما كان يوليه الناصر بن علناش باهتمام شديد بها وكان يصرف عليها بسخاء وقد وفد عليها العلماء والطلاب من كل فج وقد نهضت تلك المدرسة (الجامعة) نهضة موفقة فى عهد سلفة المنصوروابنه العزيز ويحيى بن العزيز آخر خلفاء بنى حماد وقد تفوقت هذه المدرسة فى تدريس علم الفقه والرواية والحديث فى ذلك العصر تفوقا عظيما وقد شهدت تلك المدرسة عددا كبيرا من العلماء الثقاة المتفرغين للدراسة حيث كان بها أكثر من ثلاثة آلاف طالب .

وقد ارتفع شأن الفقه والحديث والأدب واللغة والشعر والفلسفة والطب والكيمياء والرياضيات وذاع صيت هذه المدرسة فى الأوساط الأوربية فى العصور الوسطى حيث عرفها الناس لاسيما أن الأوربيين كانوا كثيرى التردد على بجاية .

وقد تركت هذه الحياة العقلية الرفيعة المستوى التى وصلت إلى درجة التخصص فى فروع عديدة من المعرفة والفكر أثرا بعيدا فى شعب الجزائر الحمادى إذ أقبلوا على الثقافة والعلم يأخذون منها ما طاب لهم والاستفادة من العلوم الجديدة التى تدرس فى تلك الجامعة وأصبح الطلاب أكثر استعدادا لتقبل حياة علمية رفيعة المستوى والفكر

لاسيما أن الاساتذة كانوا يعملون على التفتح الذهنى العقلى للطلاب لتلقى علوم الثقافة العربية والتراث الإسلامى بمختلف فروعه العلمية لكى يتابعوا الحركة العلمية العالمية ولا يتخلف الركب الحضارى فى بلادهم عما جاورهم من بلاد ومن هنا فتحت أمام الطلاب آفاق جديدة فى مجال العلم وأقبل الجميع على التعلم بنفوس راضية وعقول واعية بدليل وجود أكثر من ثلاث آلاف طالب فى تلك الجامعة فى ذلك الوقت من القرن السادس الهجرى .

كما عرفت العاصمة والمدن الكبرى المكتبات العامة وخزانات الكتب وكانت بجامع المنار بالقلعة مكتبة مليئة بالكتب الواردة من بلاد الشرق الإسلامى والمغرب والاندلس وفى عهد العزيز بن المنصور كان يحاضر فى هذه الجامعة (جامعة سيدى التواتى) علماء من الاندلس والمشرق والقيروان (افريقية) فقد ازدهرت الحياة العلمية ازدهارا كبيرا حيث احتلت بجاية منزلة عالمية لما بها من العلماء حتى اشتهروا فى انحاء العاصمة بجاية وقد كان لبجاية مكانة كبيرة بحيث أصبحت كعبة العلماء والأدباء والشعراء ومقصد طلاب العلم فقد ارتحل إليها ابن حمديس الصقلى وابن الفضل النحوى وبرز العلماء والفقهاء والشعراء والمؤرخون والأطباء والرياضيون وغيرهم فى بجاية والقلعة وطبنة وأشير والزاب والمسيلة برزوا لا عهد للجزائر به وقد حدد عثمان الكعاك العصر الذهبى للعلوم فى الجزائر بأنه العصر الذى يبدأ مع أوائل القرن الخامس الهجرى وليس هذا العصر سوى الفترة المتألقة التى عاشتها الجزائر فى كنف الدولة الحمادية .

وقد تصدرت علوم اللغة العربية والآداب مجالات النشاط الفكرى فى الدولة الحمادية وكان الأدب يلقى عناية كبيرة واحترام كل الطبقات بعد أن أشتغل به السلاطين والوزراء والأمراء ورجال الدولة والعلماء وعلية القوم .

وظهرت فى البلاد طائفة من الأدباء والكتاب الذين برعوا فى الكتابة وأحاطوا بأسرار اللغة العربية فتهافت عليهم الأمراء والسلاطين يستخدمونهم فى دواوين الدولة

ومصالحها وشهدت بجاية جماعات كثيرة من الأدباء وفحول الشعراء وذاع صيت بعض منهم مثل ابن حمديس وابن حماد وكان انتاجهم غزير الأدب متمكنا من البلاغه. ولقد كانت العربية الفصحى هى لغة الثقافة والفكر والشعر والمكاتبات وكانت توجد بقايا لغة بربرية فى ذلك الزمن المتقدم فى القرن الخامس الهجرى ، بل بقيت بعض من اللهجات البربرية معروفة ومتداولة وكانت اللغة البربرية يتخاطب بها إلى جانب العربية فى البلاط السلطانى أو الأميرى (لاتزال اللغة البربرية مستخدمة حتى الآن فى الجزائر ولكن لايزيد عدد المتكلمين بها عن ١٠ ٪ من مجموع الشعب الجزائرى) لكن سيادة اللغة العربية الفصحى جعلت من الجزائر الحادية تقدم مجموعة كبيرة من الكتاب والشعراء واللغويين وقد برع فى علوم اللغة طائفة كبيرة من الأعلام وكذلك فى علم النحو والصرف والعروض والبلاغة .

ولقد أقبل الأمراء والنبلاء وعلية القوم على الثقافة كما أقبل عليها عامة الشعب الحمادى وظهر من بين الأمراء من تبغ فى هذه العلوم وازدهر المجتمع الحمادى الذى كان مفتوحا وملتقى كل القادمين إليه من الاندلس ومن المشرق العربى وبلاد المغرب المجاورة وكان المنصور بن الناصر الحمادى يعيش فى بلاط يشبه البلاط الاندلسى نظرا لكثرة الاندلسيين القادمين إلى البلاد من جراء المحن المنتشرة فى الاندلس ، ولعبت بجاية دورا ثقافيا وعلميا وحضاريا وفكريا لايقل عن القيروان وأصبحت مركز العلوم فى المغربين الأدنى والأوسط .

وكان الشعراء يمدحون الأمراء والقواد بقصائد شعرية ومنها مدح ابن حمديس للناصر بن علناش وكان الناصر بن علناش محبا للفنون والمعمار فأنشأ القصور الفاخرة وشيد البنايات الكثيرة واستدعى إليه العلماء والشعراء وممن قصده من شعراء عصره ابن الكفاه القيروانى .

وكذلك وصفه لقصر المنصور بن الناصر وكان الأمراء يغدقون عليهم الأموال ، لكن رغم هذه الصورة الحضارية المتقدمة فإننا نجد الدكتور حسين مؤنس لايعطى دولة

الحماديين قدرها فيظهر الدولة بأنها كانت دولة قبيلة يحكمها رؤساء قبليون فى صورة أمراء وانهم كانوا على صورة بدوية ساذجة وانهم بدو جفاه غلاظ أشاعوا جوا من القسوة والعنف لكن الحال تبدل غير الحال منذ عصر الناصر بن علناش حتى سقوط الدولة لاسيما أنه أقام الجامعة (سيدى التواتى) والتى كانت تضم بين جنباتها أكثر من ثلاثة آلاف طالب وهى التى ساعدت على تقدم ورقى المعارف فى البلاد ولايختلف اثنان فى أن الناصر بن علناش (٤٥٤ - ٤٨١ هـ) قد شهدت البلاد فى عهده تفوقا حضاريا وعلميا وفكريا لم تشهده البلاد من قبل .

ولقد انتشرت الآثار الفنية فى مدن المغرب الأوسط ولكن العاصمة بجاية كانت أشد تألقا فى سماء الفن بسبب وجود بلاط الأمير وقصر الحكم وشهدت تقدم فن البناء والمعمار بسبب تنافس الأمراء والقواد وعلية القوم وأبناء الأسرة الحاكمة ورجال الدولة فى بناء القصور فحفلت بالعمائر المدنية والمساجد الكبيرة كما سبق القول كما أضحت مدينة بجاية من أهم مراكز الفن فى المغرب فى عهد الحماديين بل تكاد تكون قد تفردت بهذا النوع من الفنون ، بعد أن شهدت عصرا من الاستقرار السياسى والرخاء الاقتصادى مما أدى إلى رواج التجارة والصناعة والزراعة بالقيام بسك العملة عام ٥٤٣ هـ واصدار الدينار العزيزى الحمادى الذى لم يكن أحد من أمراء بنى حماد قد قام بسك العملة من قبله .

وقد عثر على دنانير حمادية فى القلعة وبجاية مضروبة عام ٥٤٣ هـ وكان الحماديون يطلقون عليها الدنانير الناصرية وقد كتب فى إحدى الوجهين بسم الله الرحمن الرحيم لا إله إلا الله محمد رسول الله يعتصم بحبل الله يحيى بن العزيز بالله الأمير المنصور ، ضرب هذا الدينار بالناصرية عام ٥٤٣ هـ (الإمام أبو عبد الله المنتصر لأمر الله أمير المؤمنين العباسى) على الوجه الآخر وهذا يعنى اعتراف الدولة بالخلافة العباسية ، وعلى الوجه الآخر كتب الآية (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون) ، ولا إله إلا الله يعتصم بحبل الله يحيى العزيز

بالله الأمير المنصور .

وهذا أكبر دليل على قوة الدولة وثروتها الغنية مما جعل الأمير يحيى العزيز يفكر في إصدار سكة محلية باسمه بدلا من السكة الفاطمية التى كان يتعامل بها الشعب الحمادى طوال فترة تأسيس الدولة وهذه المسكوكات التى عثر عليها تدل دلالة أكيدة على أن أكثر الآثار الإسلامية التى خلفها الحماديون لازالت معالمها باقية شاهدة على ما بلغته الدولة الحمادية من رقى وتقدم فى فن المعمار وظهر الفن الإسلامى فى المساجد كالمسجد الكبير فى قسنطينة الذى يعتبر أهم الانجازات المعمارية .

ولقد كانت الحضارة الحمادية من أرقى الحضارات المغربية فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى وان النقوش الحمادية التى كانت منحوته فى المساجد والقصور، تركت آثارا واضحة على التقدم ، بل أن الحضارة الحمادية قد تركت بصماتها فى المجالات المختلفة وكان القلعة قد حظيت بعناية أمراء بنى حماد فقد ابتنوا فيها القصور وغرسوا الجنات وجلبوا إليها المياه ونظموا لها أبوابا لكن فى عام ٤٦١ هـ / ١٠٦٩ م نقل الناصر بن علناش العاصمة إلى بجاية التى صارت ملجأ الباحثين عن المعرفة والفكر والثقافة والعلوم والفنون الإسلامية . وقد ظهر هذا التقدم الحضارى والرقى الفكرى والعلمى فى ظل سياسة واضحة المعالم تقوم على التسامح والبحث عن كل ما يساعد على تقدم ورقى ونمو وازدهار الحياة فى الدولة وتشجيع البحث والاطلاع وكان من شأنه المساعدة على ظهور الدولة الحمادية بمظهر الدولة المتطورة المتقدمة حضاريا وعلميا وثقافيا وفكريا فى المغرب الإسلامى وفى ظل السياسة التى سار عليها الحماديون وهى عدم الدخول فى الصراعات العالمية التى تجرى على ساحة حوض البحر المتوسط الغربى وعدم اقحام الأمراء انفسهم فى المشاكل التى لا قبل لهم بها فهم لم يشاركوا أدنى مشاركة فى الدفاع عن مسلمى صقليه ومالطه والاندلس كما شارك جيرانهم الشرقيون بنو زيرى والغربيون المرابطون ، بل كانوا لاينظرون إلى الصراع الدائر من حولهم وهذا من أسباب تقدمهم إلا أنها كانت الطامة الكبرى عليهم أيضا فهم لم

يقدموا العون لابناء عمومتهم بنى زيرى الذين قدموا العون للمسلمين فى صقلية أو الاندلس فى حين نجد ذلك على العكس فى سياسة بنى زيرى الذين قدموا العون للمسلمين فى صقلية وشاركوا أسطول المرابطين فى الدفاع عن الاندلس ، كما أن الأسطول المرابطى شارك بنى زيرى فى الدفاع عن المسلمين فى صقلية .

لكن الحماديين نجحوا فى ترويض واحتواء القبائل العربية الهلالية والاستفادة منها فى صنع الحضارة العربية الإسلامية الحمادية ، ولقد أدت الحضارة الحمادية دورها خير اداء على امتداد حقبتها التاريخية التى حكمت فيها البلاد التى دامت ما يقرب من مائة واثنين وأربعين عاما تخللتها فى القرنين الخامس والسادس الهجرى .

وهكذا تجلت روائع الحضارة المغربية الحمادية فى بجاية العاصمة وما تركته من قصور جاءت آية فى روعة الفن وما تم من المساجد وما نقش فى المحراب والذى كان جامع قسنطينة والجزائر وبجاية روعة فى الفن وأبهة البناء بعد أن أقبلوا على بناء المساجد إقبالا منقطع النظير مما جعل الأمراء يعملون على الإكثار منها واستجلاب خيرة الصناع المهرة والمهندسين والذين كانوا ينفقون الكثير فى بناء المساجد ويوجهون جل عنايتهم إلى بناء صرح المآذن ويقبلون على المساجد يعمرونها وكان أهل الفن والصناعة يعملون بسخاء فى بيوت الله يدفعهم حبهم لبيوت الله إلى الاتقان والتجويد لذلك تجلت فى المساجد ومبانيها الضخمة الثروة والرخاء وروعة الفن الذى كان متأثرا إلى حد بعيد بالطابع الشرقى على الرغم من أنه لم يحرم الطابع الاندلسى .

ومن هنا فانه يمكن القول ان دولة بنى حماد عاشت ما يقرب من مائة عام وبالتحديد منذ عام ٤٦١ هـ حتى سقوط الدولة عام ٥٤٧ هـ فى ظل حياة إسلامية عربية شهدت تقدما باهرا على مختلف الأصعدة العلمية والحضارية والفنية والمعمارية والثقافية ، بل أن البلاد عاشت فترة من أزهى فترات تاريخ المغرب رغم قصر عمر الدولة ورغم انها كانت دولة محلية اقليمية انكفأت على نفسها وحققت رخاءً وتقدما

لشعبها وعاشت الحضارة الحمادية فى ظل حكم بنى حماد مستفيدة من كل الظروف العالمية والاقليمية المحيطة بها ومن هنا كان القرن الخامس والسادس الهجرى صورة حية فى الجزائر للحياة والإسلامية الراقية .

البناء والتشييد وهندسة العمارة الإسلامية

رغم قصر العمر الزمنى الذى حكمت فيه دولة بنى حماد إلا أنها أنجزت الكثير من المهام العمرانية وتقدمت فى فن البناء والعمارة والهندسة فقد شهدت سنوات حكمها ظهور ثلاث عواصم سياسية قام الحماديون بتشييدها وهى أشير العاصمة الأولى ثم القلعة التى استمرت من عام ٤٠٨ حتى عام ٤٦١ هـ والعاصمة الثالثة بجاية التى استمرت من عام ٤٦١ هـ حتى عام ٥٤٧ هـ . وقد اهتم الحماديون ببناء المدن التجارية واعتنوا بالبناء والتشييد وأسسوا العديد من المدن الأخرى ووسعوا فى مساحتها وأضافوا إليها أحياء جديدة وتركوا بصماتهم المعمارية والحضارية فى كل من بلدان المغرب الأوسط كأشير والقلعة وبجاية والجزائر وبونة وطبنة والمسيلة وبنى حمزة وجيجل ومرسى الحرز ومرسى الدجاج وغيرها من المدن المختلفة .

وقد تجلى دور الحمدانيين فى القرنين الخامس والسادس فى توسيع هذه المدن واستحداثها للعواصم الثلاث وتشييد الأسوار العالية وبناء القلاع الحصينة ومنها القلعة الحمادية التى كانت من أعظم القلاع التى أنشأها المسلمون فى تاريخهم وهى تقارن بقلعة حصن الاكراد فى الشام التى استولى عليها صلاح الدين الأيوبى وقلعة صلاح الدين الأيوبى فى القاهرة فهى فى حقيقة الأمر مدينة كاملة ذات أحياء ومساجد تتوسطها قصبة أى أنها هى حصن منيع داخلى ولازالت بقاياها قائمة حتى اليوم فى الجزائر خير شاهد على عصر بنى حماد ودورهم الرائع فى البناء والتشيد ، إضافة إلى

بنائهم المساجد الكبيرة والكثيرة التى تدل على عظمة الاهتمام ببيوت الله فى الأرض وكذلك بناء القصور الكثيرة التى سبق الإشارة إليها فى صفحات سابقة من هذا البحث واقامة الجسور مما يدل على تقدم الهندسة الإسلامية المعمارية فى القرنين الخامس والسادس فى ظل حكم بنى حماد وهى تصور العناية الكبرى بالبلاد فى النواحى المعمارية وتعكس اهتمام بنى حماد بالعمارة وانشاء المدن الحديثة وفق مقاييس ومعايير العصر وقد استمر الحماديون فى تأسيس المدن والعواصم الجديدة خير ما تصور هذا الاهتمام تأسيس العاصمة الحديثة والعصرية بجاية وتوسيع الأمراء للمدن الأخرى وتحويل القلاع والحصون إلى مدن عامرة بالسكان والبناء والنشاط ولعل ما تصور تطور فن الهندسة المعمارية الإسلامية كثرة المبانى التى شيدت بالإضافة إلى ما سبق الإشارة إليه من انشاء المدن الجديدة وبناء المنازل للأمراء وسادة البيت الحاكم وموظفى الدولة وعلية القوم وبناء الأسوار حول القلاع إضافة إلى الحصون التى كانوا يحتمون بها وقت الشدة ولقد انتشر الحماديون من بناء القلاع والحصون طوال فترة حكمهم للبلاد وغلبت عليهم النزعة العسكرية وكان الطابع العسكرى هو الدافع وراء بناء القناطر الحجرية لكى يعبر عليها الجنود فى الذهاب للقتال والعودة إلى المدن وكان بعث الطابع الدينى هو الدافع وراء النشاط الواسع فى بناء أو اصلاح المساجد والجوامع وتجديدها واستحداثها بالإضافة إلى اهتمام الحمدانيين ببناء المدارس والمستشفيات والمصحات لعلاج المرضى وصرف الدواء للمرضى بالمجان ، وقد حرص على حظى هذا النشاط المعمارى والحركة الهندسية المعمارية التى كانت على أوسع نطاق أمراء الحماديين وسادة القوم وخاصة الناس وأصحاب الثروات والموسرين فى العاصمة بجاية والقلعة والمدن الكبيرة وعلى بناء القصور وقد تجلى تقدم فن البناء فى العاصمة والمدن الكبرى التى تعتبر عواصم الأقاليم والولايات فى ضخامة البناء وسرعة الانجاز وحسن التخطيط والمهارة الفنية .

وقد تميزت المبانى الحمادية بالفخامة وآثار القلعة وبجاية خير شاهد على ذلك

وقد فاقت جوامع بجاية وقسنطينة غيرها من الجوامع فى بلاد المغرب قاطبة فى الاتساع وفخامة المبانى وعظمة التأثيث والمفروشات وقيل عن جامع قسنطينة أنه يعد من أكبر الجوامع فى بلاد المغرب .

كذلك ظهر علم تخطيط المدن وهندسة التقسيمات وإصلاح الشوارع وتبليطها فى بجاية والقلعة وشهدت هذه المدن اتساع الشوارع وايصال المياه إلى المنازل والقصور وقد كانت القصور كل قصر منها مكتفيا بذاته بكل ما يحتاجه المرء من شؤون الحياة وتوصيل المياهِ إلى هذه القصور فى أقبية تحت الأراضى أو فى أقواس ممدودة عليها قنوات المياه .

ومن هنا نرى أن فن المعمار وفن تشييد القصور والمنازل وتخطيط الشوارع قد أولاه أمراء بنى حماد عناية فائقة حتى بلغ شأنا عظيما فى عصر الناصر بن علناس عندما أسس العاصمة الجديدة بجاية وافتتحها عام ٤٦١ هـ وكان تخطيطها وفق أرقى أساليب العصر فى البناء والتخطيط والتنظيم ومن انشاء الحدائق والبساتين وفى تصنيع واستيراد المواد التى يحتاج إليها البناء نفسه وفى تأسيس المساجد والجوامع الكبيرة والقصور وتزيينها وفيما يتطلبه كل ذلك من احتياجات لأدوات الترف وقد كانوا يطعمون المصنوعات الخشبية بالمعادن وتذهيبها وتذهيب النسيج والكتب فضلا عن اتخاذ الحلى وتذهيب الأوانى الفخارية ولعل هذه المتطلبات التى تحتاج إليها المنازل والقصور كانت وراء تلوين المعادن ويوضح تقدم فن صناعة المعادن فى مجال المعمار واستخدام الحديد والرصاص فى أنابيب لجر المياه إلى المدن أو توزيعها فيها .

ولم تكن النهضة المعمارية التى شهدها القرن الخامس والسادس الهجرى فى بلاد بنى حماد بأقل أثرا من الضرورات العسكرية ، فعمارة المساجد وبناء القصور والمستشفيات والمصحات تركت آثارا كبرى فى تطور الصناعات الخشبية بما احتاجته

من سقوف وشبابيك وأبواب ومقصورات ومنابر وأثاثات وتحف زخرفية وكانت السقوف الخشبية تزخرف وتنقش بالقصدير والأصباغ الملونة وكانت المنابر والمقصورات تزخرف بأشكال هندسية ونباتية وتطعم حشوات المنابر بالعاج والابنوس والصندل وأنواع الأخشاب .

ومن كل هذا يتضح لنا أن الدولة الحمادية قد أبدت اهتماما كبيرا بالجبهة الداخلية وأولت عنايتها بالبناء والتشييد على اعتبار أن الدولة كانت فى فترة تأسيسها تعيش حالة من البداوة وعدم التقدم والرقى الحضارى .

إضافة إلى اهتمام الأمراء حكام البلاد بالعمل على دفع البلاد بخطوات سريعة متواصلة للانتقال بها نقلة حضارية سريعة لمحاولة اللحاق بركب التطور الحضارى الذى تعيشه بلاد بنى زيرى فى القيروان والمهدية لاسيما أن بلادهم كانت دار حرب بين زناتة وبينهم وانهم طردوا زناتة من المغرب الأوسط لكى يقيموا دولتهم هذه على أساس التوسع ولم تكن هذه البلاد إلا خرابا صفصفا ولذا نجد الاهتمام الأول ببناء المدن وتشييد القصور وانجاز الانجازات الحضارية فى فترات زمنية قصيرة لاتقاس بما كان يتم خلالها من أعمال معمارية ، بل أنهم شجعوا الناس على سكن العواصم الجديدة وقرروا اعفاءهم من الضرائب وتسهيل حركة الإقامة لهم بالمدينة مما ساعد على ازدهار هذه المدن وزيادة عدد سكانها وعدد القصور والمنازل الكبيرة بها . حيث ظل الناس مقبلين على البناء والتشييد من شتى الطبقات من أمراء بنى حماد وسادة البيت الحاكم وأرباب الخطط وعامة الناس وإن كان كل حى من أحياء العاصمة بجاية يسكنه أناس لهم طبائع وخصائص معينة فالقصر الأميرى يحيط به قصور أفراد الأسرة الحاكمة والوزراء وكبار القواد والقضاه ورجال الدولة ، أما عامة الناس فانهم كانوا يعيشون فى أطراف المدينة وكانت الاحياء مقسمة بين الصناع والحرفيين واشتهر كل حى أو قطاع بحرفة معينة .

وقد احتوت العاصمة بجاية على أربع وعشرين ألف أسرة وبها الجوامع والمدارس التى يكثر فيها الطلاب وكذلك أساتذة الشريعة والعلوم كما تحوى زوايا المتعبدين وحمامات وفنادق وبلمارستانات وكلها عمارات حسنة البناء وأسواقها جميلة وأهل بجاية على قدر كبير من الغنى والثروة .

ومن كل هذا يتضح مدى اهتمام حكام بنى حماد بالعمل على أن يتم فن البناء والمعمار ودفع حركة البناء والتشييد فى بلادهم وإظهار عاصمتهم بجاية بمظهر العاصمة التى لاتقل شأنا عن القيروان والمهدية وفاس ومراكش وغيرها من الحواضر الكبرى فى المغرب الإسلامى بل وفى العالم الإسلامى ولم يدخر الحكام الحماديون وسعا فى العمل على ذلك كلما أتاحت لهم ظروف السلم وحالة الرخاء الاقتصادى لدفع حركة النهضة المعمارية والحضارية فى بلادهم .

وقد أدوا واجبهم فى هذا المجال على خير أداء إذ أقاموا ثلاث عواصم فى فترات زمنية قصيرة وهذا دليل على حبهم وميلهم للبناء والتشييد وتقدم فن الهندسة المعمارية الإسلامية .

الفصل الرابع

الجيش والأسطول والشرطة فى عهد بنى حماد

قامت الدولة الحمادية منذ عهد مؤسسها الأول حماد بن بلكين بن زيرى (٤٠٥ - ٤١٩ هـ) على أساس القوة العسكرية حيث أنها كانت دولة بلا أرض لكن عندما أرسل المنصور بن بلكين أخاه حمادا للدفاع عن الحدود الغربية للدولة من خطر قبيلة زناتة البربرية العدو التقليدى والدائم لصنهاجة الزيرية فانه كلفه بالدفاع عن الحدود ودفع خطر هذه القبيلة ومحاولة طردها من المغرب الأوسط الذى كان المقر الأساسى لقبيلة زناتة بعد أن تولى حماد بن بلكين قيادة الجيوش لكنه لم يستطع القضاء على زناتة ، لكن عندما تولى باديس بن المنصور عام ٣٨٥ هـ وجه عمه حمادا لقتال زناتة وهنا استخدم حماد بن بلكين حاجة الدولة إليه واشترط أن يقيم ملكا على الأراضى التى يستولى عليها ويفتحها فى بلاد زناتة خارج نطاق الدولة الزيرية ومن هنا قامت الدولة على أساس التفوق العسكرى والسيطرة العسكرية وظلت طوال تاريخها السياسى تعتمد على قواتها الذاتية فى صد غارات القبائل البربرية المناوئة لها والدفاع عن حدودها السياسية .

وعندما ظهر الخلاف بين حماد بن بلكين وباديس بن المنصور عام ٤٠٦ هـ . فان حمادا حشد قوات عسكرية تزيد عن ثلاثين ألف جندى لم يستطيع أن يعود إلى القلعة عاصمته إلا بثلاثة آلاف فقط وهزمت قواته وتحصن بالقلعة والذى ينظر إلى رقم الثلاثين ألف جندى التى حشدها حماد بن بلكين يدل على أن الدولة منذ نشأتها الأول كانت دولة تعتمد على القوى العسكرية ، لكنها ربما لم تكن قوات مدربة على فنون القتال بدليل هزيمتها مرتين فى عهد باديس بن المنصور وفى عهد ابنه المعز بن باديس عام ٤٠٨ هـ حيث جرح حماد فى هذه المعركة ونجا بنفسه .

لكن عندما دخلت القوات العربية الهلالية أرض المغرب الأدنى عام ٤٤١ هـ في عهد المعز بن باديس وقبل الدخول فى معركة حيدران فان المعز استنجد بابن عمه القائد بن حماد صاحب القلعة الذى لبى طلبه وأمده بألف فارس مما يدل على استعداد الدولة الحربى للمساعدة وبقاء قواتها فى حالة تأهب دفعا للأخطار .

ولقد بنت الدولة قوات حربية قوية في عهد الأمير الرابع بلكين بن محمد بن حماد (٤٤٧ – ٤٥٤ هـ) والذى فرضت قواته نفوذها على القبائل واطاعته كل القبائل التى تدخل فى سيادة الدولة وكسر شوكة زناتة بل ان طموحاته العسكرية امتدت إلى المغرب الأقصى حيث هاجمت قواته مدينة فاس عاصمة المرابطين عام ٤٥٤ هـ وقاتل المرابطين مما اضطر يوسف بن تاشفين إلى الانسحاب منها .

ونظرا لقوة جيوش بنى حماد بعد الغزوة الهلالية فانهم بدأوا يبسطون نفوذهم على أقاليم فى المغرب الأدنى كانت تخضع للنفوذ الزيرى مثل جربة وتونس بعد أن خضعت تونس لحكم الناصر بن علناش الحمادى بالقلعة وولى عليهم أشهرهم عبد الحق بن عبد العزيز بن خراسان وفى عهد يحيى بن العزيز الحمادى عادت تونس لحكم بنى حماد عام ٥٢٢ هـ وهو عام سقوط المهدية فى يد النورمان .

وبذلك بدأ نجم بنى حماد فى الصعود بعد الغزوة الهلالية وكانت قواتهم العسكرية تدعم هذا النفوذ خارج حدود دولتهم وقد استغل الناصر بن علناش ضعف قوة بنى عمومته حكام المهدية فتوسع على حسابهم واستخدم قواته لاستقطاع أراضى من دولتهم بدلا من مساعدتهم للوقوف ضد الخطر الداخلى والخارجي .

كذلك كانت القوات الحربية كبيرة العدد ومجهزة بأحسن أجهزة العصر فى عهد سلفه المنصور بن الناصر (٤٨١ – ٤٩٨ هـ) إذ أن هذا الأمير استخدم ما لديه من قوات كثيرة العدد والعدة وحارب بنى هلال وأخضعهم .

وكان المرابطون قد طمعوا فى مدينة تلمسان وهاجموها واحتلوها فأعد المنصور قواته وزحف إلى الحدود الغربية وحاصر تلمسان ولم يفرج عن حصارها إلا بعد أن تم الصلح وكان المنصور رجلا حربيا مظفرا فى جميع معاركه مع زناتة والمرابطين .

وفى عهد يحيى بن العزيز (٥١٥ - ٥٤٧ هـ) كانت جيوشه قوية وأسطوله البحرى عظيما وقد حاول أن يفتح المهدية لكنه أخفق فى حصارها (كما سبق القول فى صلب هذا البحث) وهاجم تونس واحتلها واعتقل صاحبها أحمد بن عبد العزيز الخراسانى ولبثت دولة بنى حماد قوية بعض القوة حتى هاجمها عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين واحتل عاصمتها بجاية عام ٥٤٧ هـ .

ولاشك أن الدولة الحمادية كان لها جيش قوى متماسك يخضع لنظام عسكرى دقيق وكان الجيش يتكون من الصناجيين حكام البلاد والذين كانت فى أيديهم القيادة العسكرية والرتب العليا فى هذا الجيش وكان هناك جيش دائم يخدم فيه أهل البلاد الموالين للدولة الحمادية وكان الأمراء يستخدمون الرقيق العبيد (سواء من السودان أو من الروم الفرنجة) بعد تدريبهم واجزال العطاء لهم وترقيتهم فى أعلى الرتب مما ساعد الدولة على أن تحافظ على حدودها وتأمين التدخل الخارجى فى شئونها الداخلية .

وكان الجيش مقسما إلى عدة فرق وكانت فرقة بنى حماد تشكل أكبر الفرق العسكرية التى تدافع عن الدولة وتشترك فى القتال بالإضافة إلى الفرق الأخرى التى كانت تشارك مثل فرق السودان وكانت الدولة تحصل على حاجتها من العبيد لاشراكهم فى المعارك الحربية وكان امراء بنى حماد يعتمدون على تجنيد فرق من هؤلاء السودان يتخذون منهم حرسا خاصا يدين لهم بالولاء وقد استعان بهم بنو حماد واشتركوا معهم فى كل المعارك التى خاضوها وكانت هذه الفرق بمثابة فرق الفدائيين فى الوقت الحاضر إذ كان أفرادها يحيطون بالأمير فى قتاله .

كذلك استخدم بنو حماد فدقا من الروم والصقالية واعتمدوا عليهم فى القتال وكانت منهم طائفة من النصارى الذين اعتنقوا الإسلام دافعوا عن كيان الدولة الحمادية وكذلك بعض الفرق الاندلسية الذين قدموا إلى بجاية بعد فتح الناصر بن علناش الطريق أمامهم للسكنى فى العاصمة والمدن الساحلية وإن كان جل الاندلسيين قد خدم فى السفن البحرية أو التجارية نظرا لدرايتهم الفائقة بعلوم البحار وفن الملاحة .

بل أن الدولة استعانت فى بعض فتراتها التاريخية بأعدائها التقليدين من زناتة نظرا لحاجة القوات إليهم وذلك عندما هزم الناصر بن علناش فى موقعة سيبة بينه وبين تميم بن المعز وتخلت عنه القبائل العربية الهلالية وبنو زناتة .

وقد اشتركت قبائل بنى هلال العربية فى القتال بجانب قوات بنى حماد لاسيما فى صد الهجوم المرابطى على تلمسان فقد شاركت القوات الهلالية فى الهجوم على حدود المغرب الأقصى والتوغل داخل حدود المغرب حتى فاس العاصمة (انظر دور العرب الهلالية فى الدولة الزيرية الحمادية) .

وكان لكل فرقة علمها الخاص وقوادها ، ذلك لان بنى حماد لم تكن قواتهم ومواردهم البشرية بكافية لخوض قتال على الجبهات الشرقية والغربية والوقوف بحزم أمام خطر زناتة .

بل الأكثر من ذلك فان الدولة لم تكتف بالاستعانة بهذه الطوائف فى قواتها العسكرية ، بل أن ظروف القتال كانت تضطرها إلى الاستعانة بمختلف الطوائف الذين كانوا ينخرطون فى صفوف الجيش طمعا فى القتال للاستشهاد أو كسبا للغنائم ، بل أن الدولة كانت تفرض على القبائل تقديم عدد من الأفراد أو الخيول لاستخدامها فى القتال أو تقديم المؤن والعون المادى دفعا للأخطار التى تحدق بالدولة .

ومهما يكن من قول بشأن قوة الحماديين العسكرية فانها لم تسهم بأدنى جهد عسكرى فى الدفاع عن حقوق المسلمين المسلوبة فى صقلية ومالطة وجزر البحر

المتوسط أو فى الاندلس ولم يذكر أى مصدر معاصر أو متأخر اشتراك قواتهم بجانب قوات بنى زيرى فى الدفاع عن صقلية وهى لم تكن بعيدة عنهم ، واشتراك قواتهم فى صد الهجوم النورمانى على السواحل المغربية بعد احتلال بعض مدنهم أو اشتراك قواتهم مع قوات المرابطين فى الذود عن حياض الإسلام والمسلمين فى الاندلس ولم تدخل فى صراع حقيقى مع المرابطين نظرا لضعف قوتهم بالقياس بالمرابطين ، لكن صراعها الدائم كان مع أبناء عمومتهم بنى زيرى حكام القيروان والمهدية هذا ما أشارت إليه المصادر التاريخية .

وعلى هذا فانه يمكن القول أن الدولة كانت تعتمد على الجيش وكان لها جيش متفرغ للقتال ودائم العمل فى أماكن تمركزه ، بالإضافة إلى دور القبائل فى المساندة والمساعدة فى وقت الحرب وكان عدد الجيش الحمادى فى عهد الناصر بن علناش ثلاثين ألف جندى وقت قتاله فى معركة سبيبة وكان لدى المنصور بن الناصر عندما هاجم تلمسان عشرون ألف مقاتل وقد لعب الجيش دورا أكبر من الأسطول فى حماية الدولة ولعب دورا فى تثبيت أركان الدولة وحمايتها وفى قتال القبائل من زناتة وبنى هلال وكان الجيش كما سبق القول ينقسم إلى فرق منها الفرسان والمشاه وحملة الدروع وكان للجيش راية عامة والقائد يعرف بعمامته رعلى رأسه كدليل على القيادة وقد اعتمدت الدولة على الجيش والأسطول فى حماية كيانها الداخلى والخارجى .

واعتمدت الدولة كذلك على الأسطول ويبدو أن القوة البحرية الحمادية لم تبلغ شأنا عظيما فى المجال البحرى العسكرى نظرا لان الأسطول الحمادى كان ينقصه الرجال والملاحين ومن هنا كانت هذه القوة أدنى من القوة الزيرية البحرية ، بل أنها رغم ما قام به الأمير الناصر بن علناش ويحيى بن العزيز من انشاء الأساطيل والقوى إلا أنهم لم يستطيعوا التفوق على الأسطول الزيرى وعلى الرغم من أن دار صناعة السفن التى أقامها الناصر فى بجاية وكذلك دار صناعة السفن فى مرسى الحرز كانت تنتجان

المراكب والسفن الحربية التى تغزو بلاد الروم وذلك بسبب توافر الخشب فى أودية بجاية وجبالها وكذلك توافر الزفت البالغ الجوده والقطران والمعادن إلا أن انتاج السفن الحربية كان محدودا لاعتماد المغرب الأوسط على البحرية التجارية فى تصريف منتجاته وكان هذا شأن الأسطول الحمادى .

وكانت دور صناعة السفن فى بجاية تقوم بصناعة السفن الحربية للأسطول التجارى وكما ذكر الأدريسى بأنه كانت فى بجاية دور صناعة السفن والأسطول ومعهما بعض المدن الساحلية وقد استطاعت تكوين أسطول بحرى يحمى شواطئها الطويلة وكانت المدن التى بها أساطيل بحرية حربية وتجارية هى بجاية وبونة (عنابة) والجزائر وجيجل ومرسى الدجاج وقد نجح الأسطول الحمادى فى أن يشارك فى الحركة التجارية العالمية ويلعب دورا بارزا فى نقل التجارة العالمية إلى موانى جنوب أوربا بعد أن وسعوا دور انشاء السفن فى بجاية وجددوا ما أهمل سابقا فى وهران وعنابة وباديس وأسسوا دورا جديدة فى المدن الأخرى الساحلة واحتلت بجاية مكان الصدارة البحرية وحافظ الحماديون على علاقات طيبة مع دول جنوب أوربا وفتحوا بلادهم لتجار المدن الايطالية وكانوا على علاقات طيبة مع المرابطين وشجعوا التجارة وكان من أثر حسن علاقاتهم مع المرابطين أن أضحت بجاية من أهم مراكز التجارة البحرية .

وكان ظهور الأسطول الحمادى فى تلك الفترة التى سبقت سقوط صقلية عام ٤٨٤ هـ يمثل عصر القوة البحرية الإسلامية وقبل ميل ميزان القوى البحرية الإسلامية لصالح القوى المغربية ، لكن بعد انتقال الصراع من السيطرة الإسلامية على حوض غرب البحر المتوسط (أنظر كتابنا الإسلام والثقافة العربية فى أوربا ، القاهرة ، ١٩٧٩) ودخول عصر الحروب البحرية الطويلة والسيطرة البيزنطية والأوربية على حوض البحر المتوسط الغربى وانتهت السيطرة الإسلامية قبل نهاية القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى ، إلا أن الصراع بين ايطاليا ومدنها وصقلية وبلاد المغرب الأدنى

والأوسط كان قد دخل فى طور جديد ورغم جهود بنى حماد الواسعة فى المجال البحرى إلا أنهم لم يصلوا إلى مرتبة عالية فى قوة الأسطول بالقياس إلى الأسطول الصقلى أو الاسبانى الذى استفاد من خبرة المسلمين ، لكن الدولة الصغيرة ذات القوى البشرية المحدودة والامكانيات العسكرية كان أسطولها يتلاءم مع حجم الدولة وقوتها وثقلها السياسى والعسكرى فى ميدان الصراع فى ذلك الوقت والذى لم تساهم فيه القوى البحرية الحمادية بأدنى عمل عسكرى يذكر لها على صفحات الأمجاد الإسلامية ، ذلك لان أسطولهم لم يقم بأية جهود عسكرية لصد زحف الصليبيين على جزر البحر المتوسط الإسلامية (صقلية ، مالطة ، سردانية ، كورسيكا ، ميورقة ، منورقة ، يابسة) أو المساعدة فى دفع الخطر عن الاندلس أو الهجوم على صقلية بعد أن احتلها النورمان عام ٥٨٤ هـ أو جنوب ايطاليا ولم تظهر للحماديين أية أنشطة للدفاع عن شواطئ البحر المتوسط الجنوبى الممتد من طرابلس شرقا حتى طنجة غربا أو شواطئ المغرب الأوسط الذى يخضع لنفوذهم أو الاشتراك فى غارة بحرية إسلامية فى عرض البحر المتوسط كما فعل بنو زيرى أو المرابطون لكن الاهتمام التجارية كان هو الغالب على النشاط البحرى الحمادى .

ولم يكن للأسطول الحمادى دور إلا فى قتال أبناء العمومة حكام المهدية أو قتال حكام تونس ومن ذلك قيام القوات البحرية الحمادية عام ٥٢٩ هـ بقيادة قائد الأسطول مطرق بن على بن حمدون فى عهد الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى فى المهدية بأن دفع يحيى بن العزيز الحمادى فائدة بعد أن جهز له قوات بحرية فائقة العدد لكى يحاصر المهدية بحرا وبرا وكان الأسطول عظيما كبيرا ولما أحس الحسن بن على بالخطر المحدق ببلاده ووقوع العاصمة لا محالة فى أيدى الحماديين لما أحس به من قوة الأسطول البحرى فانه اضطر إلى الاستعانة بالأسطول الصقلى وطلب من روجار الثانى حاكم صقلية أن يمده بأسطول بحرى للدفاع عن كيان دولته مما جعل أسطول يحيى بن العزيز يسرع بالرحيل إلى بجاية ، وكان الموقف فى تونس من أسباب تدخل

الأسطول الحمادى أيضا إذ نجد أن الأسطول الحمادى عندما فشل فى احتلال المهدية فانه اتجه إلى تونس للسيطرة عليها واخضاع حكامها أحمد بن عبد العزيز بن الخراسانى وأخذه أسيرا إلى بجاية .

كذلك فان الدولة الحمادية أبدت اهتماما شديدا بالمحافظة على الامن والأمان وتوفير أسباب الراحة والاستقرار للأهالى فاستعانت بقوات من الشرطة للمحافظة على شئون الأمن وكان صاحب الشرطة من المقربين لدى الأمير حاكم البلاد وكانت الشرطة تسهر على حراسة الأسواق والمدن والقلاع والحصون وأبواب العاصمة بجاية وتأمين طرق المواصلات الداخلية وحماية الموانى والسهر على راحة التجار وتوفير الأمن فى الفنادق التى ينزلون بها ويبدو أن الدولة قد عهدت إلى قبائل بنى هلال بحماية الطرق الصحراوية مع بلاد السودان وما بين وصول البضائع والسلع وجباية الأموال والضرائب وبذلك وفرت الدولة حماية المواطنين والقادمين إلى ديارها مما ساعد على استقرار الأوضاع الداخلية فى البلاد والضرب بقوة على أيدى اللصوص وقطاع الطرق والمعتدين على القوافل التجارية القادمة عبر الطرق الصحراوية وتوفر أماكن للاستقرار فى هذه الطرق الطويلة .

ولقد لعبت القبائل العربية الهلالية دورا فى تأمين هذه الطرق وكذلك فى حراسة مواكب الحجيج الذاهبة لأداء فريضة الحج فى الأراضى المقدسة الحجازية .

وعلى هذا فانه يمكن القول أن بنى حماد طوال فترة حكمهم والتى توالى على حكمهم تسعة أمراء بقدر ما توفر لهم من امكانات اقتصادية وبشرية فانهم عملوا على بناء دولتهم الصغيرة وفقا لما كان يتطلب ذلك العصر من تأمين البلاد خارجيا فاستعانت بالجيش والأسطول لحماية أمنها الخارجى وبالشرطة والقوات المساعدة له لحماية أمن الوطن والمواطنين الحماديين الذى ساعدت ظروف الاستقرار لكى تتبوأ الدولة وضعها بين الدول المجاورة والتى لم تكن تطمع لان تصبح قوة كبرى كالمرابطين

الذين خاضوا حروبا طويلة فى الاندلس دفاعا عن الإسلام والمسلمين ولا كأبناء عمومتهم حكام القيروان والمهدية الذى دافعوا بما لديهم من امكانيات فى صد عدوان النورمان على صقلية بإرسال الحملات البحرية والعسكرية لصد هذا الخطر إلا أن الظروف حالت دون تمكنهم من تثبيت قواعد الإسلام فى هذه البلاد .

وهكذا نرى أن هذه الدويلة لو قدر لها أن تسير سياسيا وفق متطلبات العصر وتتعاون مع جيرانها فى الشرق بنى زيرى والمرابطين فى الغرب لكان ذلك له آثار طيبة فى دفع الخطر الخارجى وفى التقارب مع القوى المعاصرة لدفع الخطر الموحدى الذى سارع بانهاء دولة المرابطين وهى لم تزل بعد دولة فتية .

وهكذا كانت الظروف التاريخية فى تلك العصور تلعب أدوارها فى محاولة التوسع كل طرف على حساب الطرف الآخر ولكن حقيقة الأمر أن بنى حماد لم تتح لهم الظروف ليفهموا الواجب الإسلامى الملقى على أكتافهم فى التعاون مع حكام القيروان والمهدية ومع حكام فاس فى صد غارات النورمان والفرنجة الأسبان ومن هنا كان القضاء على الدولة عام ٥٤٧ هـ وتوحيد المغرب الإسلامى من طرابلس شرقا إلى طنجة غربا تحت قوة الموحدين الفتية التى أعادت للمغرب الإسلامى وحدته وقوته .

الفصل الخامس

السياسة الخارجية لبنى حماد

حاولت الدولة الحمادية طوال فترة حكمها التي شهدت القرن الخامس والسادس الهجريين أن تحافظ على كيانها السياسى وأن تدعم أمنها الداخلى وتعمل على حماية اراضيها بعد أن حصلت على استقلالها واعترفت دولة بنى زيرى فى القيروان والمهدية بهذا الكيان شبه المستقل وذلك على اعتبار انها دولة محلية اقليمية لم تصل طوال فترات تاريخها الذى امتد مائة واثنين وأربعين عاما (٤٠٥- ٥٤٧هـ/ ١٠١٤- ١١٥٢م) والتى حاولت فى بعض فتراتها التاريخية أن تكون دولة عالمية ذات علاقات خارجية ولكن كيانها السياسى لم يكن يسمح لها أن تلعب هذا الدور مثل بنى زيرى أو المرابطين ومن بعدهم الموحدين فقد كانت دولة محلية اقليمية عاشت طوال تاريخها منذ أن أسسها حماد بن بلكين حتى سقوطها فى عهد يحيى بن العزيز الحمادى عام ٥٤٧هـ .

لكن رغم اعتراف بنى زيرى بالدولة الحمادية واستقلالها عن الكيان الاكبر فى القيروان والمهدية الا أن الشئون السياسية الخارجية كانت من نصيب بنى زيرى باعتبار ان دولة بنى حماد كانت فرعا لدولة بنى زيرى فى افريقية .

لكن رغم كل هذا فان ذلك لم يمنع من أن يكون لبنى حماد علاقاتهم السياسية والاقتصادية (التجارية) والثقافية الخارجية مع العديد من الدول المجاورة سواء فى المشرق أو المغرب أو بلاد جنوب أوربا رغم أنهم تقوقعوا داخل حدودهم السياسية والتزموا سياسة لاتتفق مع حركة التاريخ الاسلامى والظروف والاحداث العالمية التى تجرى فى تلك الحقبة التاريخيه وما تعرض له العالم الاسلامى من خطر القوى الاوربية

بعد طرد المسلمين من جزر البحر المتوسط وظهور حركة الاسترداد فى الاندلس بصورة قوية، فان بنى حماد لم يحركوا ساكنا لكل هذه الاحداث وربما التزام السكينة وعدم محاربة القوى الخارجية (قتال بنى زيرى والمرابطين) قد يكون منهجا سياسيا اختطه أمراء الحماديين بعد أن عقدوا المعاهدات مع النورمان والجمهوريات الايطالية والبعد عن المشاكل الخارجية والدخول فى صراعات مع القوى الخارجية ايثارا لسلامة بلادهم لكن هذا المنهج لم يكن يتفق مع الاحوال الاسلامية وصورة الصراع التى كانت تدور في حوض البحر المتوسط الغربى وعلى الجبهة الشمالية والجنوبية .

سياسة بنى حماد قبل أبناء عمومتهم بنى زيرى

كان حماد بن بلكين مؤسس الدولة شقيق المنصور بن بلكين الذى انحدرت معه الاسرة الزيرية فى القيروان والمهدية ومن هنا فان حماد كان من أهل الاسره الحاكمة وله حقوق سياسية مثل أبناء المنصور رغم انه كان يطمع فى أن يكون عرش القيروان له خلفا لابيه بلكين بن زيرى لكن حمادا كان طوال حياته يدين لكيانه السياسى لابناء العمومه فى المغرب الادنى ورغم حدوث بعض المصادمات بين باديس بن المنصور وابنه المعز بن باديس لكن الصلح قد تم بين الطرفين عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م وبعد ذلك استمرت العلاقات حسنة بل ودية بعد أن تزوج ابن حماد الامير عبد الله شقيقة المعز ابن باديس لكن عام ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م شهد خلافا بين المعز بن باديس وابن عمه القائد حين طلب المعز بن باديس من القائد بن حماد مساعدة فى دفع الاخطار التى تحيط بالدولة فأرسل له القائد ألف فارس للمساعدة، الا أن كلا منهما قد فشل فى أن يقف صفا واحدا فى مواجهة الاحداث الخارجية كالغزوة الهلالية التى ارسلها خلفاء الفاطميين بالقاهرة أو الغزو النورمانى القادم من جزيرة صقلية، ونظرا لقصور سياسة بنى حماد الدولية وعدم تقديرهم للاخطار التى تحيط بالدولة الزيرية فى كلا العاصمتين

الفصل الخامس

السياسة الخارجية لبنى حماد

حاولت الدولة الحمادية طوال فترة حكمها التى شهدت القرن الخامس والسادس الهجريين أن تحافظ على كيانها السياسى وأن تدعم أمنها الداخلى وتعمل على حماية اراضيها بعد أن حصلت على استقلالها واعترفت دولة بنى زيرى فى القيروان والمهدية بهذا الكيان شبه المستقل وذلك على اعتبار انها دولة محلية اقليمية لم تصل طوال فترات تاريخها الذى امتد مائة واثنين وأربعين عاما (٤٠٥- ٥٤٧هـ/ ١٠١٤- ١١٥٢م) والتى حاولت فى بعض فتراتها التاريخية أن تكون دولة عالمية ذات علاقات خارجية ولكن كيانها السياسى لم يكن يسمح لها أن تلعب هذا الدور مثل بنى زيرى أو المرابطين ومن بعدهم الموحدين فقد كانت دولة محلية اقليمية عاشت طوال تاريخها منذ أن أسسها حماد بن بلكين حتى سقوطها فى عهد يحيى بن العزيز الحمادى عام ٥٤٧هـ .

لكن رغم اعتراف بنى زيرى بالدولة الحمادية واستقلالها عن الكيان الاكبر فى القيروان والمهدية الا أن الشئون السياسية الخارجية كانت من نصيب بنى زيرى باعتبار ان دولة بنى حماد كانت فرعا لدولة بنى زيرى فى افريقية .

لكن رغم كل هذا فان ذلك لم يمنع من أن يكون لبنى حماد علاقاتهم السياسية والاقتصادية (التجارية) والثقافية الخارجية مع العديد من الدول المجاورة سواء فى المشرق أو المغرب أو بلاد جنوب أوربا رغم أنهم تقوقعوا داخل حدودهم السياسية والتزموا سياسة لاتتفق مع حركة التاريخ الاسلامى والظروف والاحداث العالمية التى تجرى فى تلك الحقبة التاريخيه وما تعرض له العالم الاسلامى من خطر القوى الاوربية

بعد طرد المسلمين من جزر البحر المتوسط وظهور حركة الاسترداد فى الاندلس بصورة قوية، فان بنى حماد لم يحركوا ساكنا لكل هذه الاحداث وربما التزام السكينة وعدم محاربة القوى الخارجية (قتال بنى زيرى والمرابطين) قد يكون منهجا سياسيا اختطه أمراء الحماديين بعد أن عقدوا المعاهدات مع النورمان والجمهوريات الايطالية والبعد عن المشاكل الخارجية والدخول فى صراعات مع القوى الخارجية ايثارا لسلامة بلادهم لكن هذا المنهج لم يكن يتفق مع الاحوال الاسلامية وصورة الصراع التى كانت تدور فى حوض البحر المتوسط الغربى وعلى الجبهة الشمالية والجنوبية .

سياسة بنى حماد قبل أبناء عمومتهم بنى زيرى

كان حماد بن بلكين مؤسس الدولة شقيق المنصور بن بلكين الذى انحدرت معه الاسرة الزيرية فى القيروان والمهدية ومن هنا فان حماد كان من أهل الاسره الحاكمة وله حقوق سياسية مثل أبناء المنصور رغم انه كان يطمع فى أن يكون عرش القيروان له خلفا لابيه بلكين بن زيرى لكن حمادا كان طوال حياته يدين لكيانه السياسى لابناء العمومه فى المغرب الادنى ورغم حدوث بعض المصادمات بين باديس بن المنصور وابنه المعز بن باديس لكن الصلح قد تم بين الطرفين عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧م وبعد ذلك استمرت العلاقات حسنة بل ودية بعد أن تزوج ابن حماد الامير عبد الله شقيقة المعز ابن باديس لكن عام ٤٣٢هـ/ ١٠٤٠م شهد خلافا بين المعز بن باديس وابن عمه القائد حين طلب المعز بن باديس من القائد بن حماد مساعدة فى دفع الاخطار التى تحيط بالدولة فأرسل له القائد ألف فارس للمساعدة، الا أن كلا منهما قد فشل فى أن يقف صفا واحدا فى مواجهة الاحداث الخارجية كالغزوة الهلالية التى ارسلها خلفاء الفاطميين بالقاهرة أو الغزو النورمانى القادم من جزيرة صقلية، ونظرا لقصور سياسة بنى حماد الدولية وعدم تقديرهم للاخطار التى تحيط بالدولة الزيرية فى كلا العاصمتين

(القيروان والقلعة ثم المهدية وبجاية) ونظرتهم الاقليمية الضيقة فانهم يتحلمون وزر ما حدث من أحداث وانهيار الدولتين .

ولقد كانت السياسة الحمادية منذ عهد الناصر بن علناش وبصفة خاصة بعد معركة سبيبة عام ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م سياسة التقوقع والانكفاء داخل الحدود السياسية المحلية وعدم التطلع إلى التوسع شرقا أو غربا دون النظر إلى ما يتعرض له أبناء عمومتهم بني زيرى ومحاولة الوقوف معهم، في حين أن الاحداث التاريخية تؤكد أن التعاون الحمادى الزيرى في مختلف المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية كان يشكل خط دفاع قوى لحماية عروشهم وتنمية موارد بلادهم الاقتصادية والسكانية والثقافية والعلمية وفي ذلك تكون الفائدة المرجوة التي تعود بالنفع على كلا الطرفين والذى يستعرض تاريخ الدولتين منذ تأسيسهما يجد أن بني زيرى كانوا أكثر حنكة ودراية وتقديرا للاحداث لذا نجد أنهم لم يفكروا مرة واحدة بعد الصلح الذى عقده العز بن باديس عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٧ مع حماد بن بلكين في العدوان على أراضى الدولة الحمادية أو ارسال حملات عسكرية إلى القلعة أو بجاية لكن الصورة تبدو عكسية حين ننظر إلى بني حماد بعد الغزوة الهلالية نجد انهم قد شجعوا الحركات الانفصالية في تونس والقيروان وغيرها من المدن الزيرية، بل مدوا لها يد المساعدة والعون وأخضعوهم لنفوذهم لكن على الجانب الآخر فان تميم بن المعز بتحالفه مع الاعراب الهلالية تمكن من احباط المؤامرات التي اعدها الناصر بن علناش الحمادى كما مكنه التحالف من هزيمة الناصر بن علناش بعد أن أغاروا على المهدية واستولوا على تونس والقيروان لذا وقف الطرفان وجها لوجه وصالح الحماديون بني هلال وتحالفوا معهم وأشركوهم في الجيش والشرطة والجباية وأقطعوهم الاقطاعيات نكاية في أبناء عمومتهم ومن أجل التوسع شرقا في بلاد بني زيرى منتهزين المواقف السياسية التي تمر بها

البلاد، فضلا عن تواطئ بنى حماد مع زناتة والاعراب لقتال بنى زيرى فى موقعة سبيبة عام ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م .

لكن بنى زيرى لم يقفوا مكتوفى الايدى ازاء ما كان يدبره بنو حماد لهم من مؤامرات ومكائد لمحاولة الاستيلاء على عرش المهدية وتوحيد المغربين الاوسط والادنى فنجد تميم بن المعز (٤٥٢– ٥٠١هـ) عندما أحس بالثورة الداخلية حول العرش بين أفراد الاسرة الحمادية وقيام أبى يكنى بن محسن بن القائد بن حماد بالثورة مطالبا بالعرش بدلا من المنصور بن الناصر فانه أرسل له ابنه ابراهيم على رأس قوات عسكرية وساعدت فى المطالبة بالعرش ووقف وراءه يدعمه بالجيش والعتاد والمال لكن المنصور بن الناصر انتصر على أبى يكنى بن محسن عام ٤٨٧هـ .

ولقد كان تدخل بنى حماد فى تونس وصفاقس وجربة يمثل أسباب الصراع بين بنى زيرى وبنى حماد، كما ان القيروان خضعت لنفس المصير، ولقد يكون وراء تحرش بنى حماد الدائم ببنى زيرى أسباب نفسية عميقة، وربما لان بنى حماد كانوا يشعرون دائما ان القيروان والمهدية وحكامها من بنى زيرى هم الذين يتصدرون للسيادة الخارجية وان بنى حماد لم ينالوا الاعتراف العالمى بهم كدولة وكيان سياسى مستقل وخضوعهم للسيادة الزيرية، لذا فاننا نراهم يباركون الغزوة الهلالية ويتحالفون معها فانهم وجدوا فيها ضالتهم المنشودة التى تحقق هدفهم الاسمى وهو صعود نجم بنى حماد على حساب بنى زيرى وقدرتهم بعد ذلك للتصدى لقيادة المغرب سياسيا على حساب بنى زيرى ومن ثم يستطيعون أن يرسموا سياستهم الخارجية فى هذا الاطار الجديد بعد الغزوة الهلالية.

ولذا فاننا نجد بدءا من عام ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م وفى نهاية حكم القائد بن حماد بدأت الامور السياسية تتغير وخلع الامراء الحماديون تبعيتهم السياسية للقيروان والمهدية

وسار على هذا النهج محمد بن القائد وابن عمه بلكين بن محمد وبعده الناصر بن علناش حتى نهاية الدولة، لكن رغم خلعهم لنفوذ بني زيرى فانهم لم يحاولوا أن يرسموا سياسة خارجية سليمة بل اتسمت سياستهم بالاقليمية الضيقة رغم أنهم لم يتركوا فرصة تنتابهم الا واقتنصوها للتوسع على حساب بني زيرى .

ولعل هذا هو السبب الذى جعل علاقاتهم مع بنى زيرى تتسم بالفتور والعداء رغم محاولات التقرب عن طريق المعاهدة أو عقد معاهدات الصلح الا أن كل ذلك لم يكن الا لعبة سياسية للتهدئة استغلها الحماديون مع بنى زيرى كى يحققوا أهدافهم فى ازالتهم من طريقهم للتوسع شرقا .

ولقد شكل الوضع السياسى فى تونس نقطة صراع دائم بين بنى زيرى وبنى حماد بسبب وجود بنى خراسان حكام تونس ومحاولاتهم الخضوع لبنى زيرى تارة وبنى حماد تارة أخرى .

لكن عودة العلاقات الطبيعية كانت هدفا يسعى اليه بنو زيرى مع أبناء عمومتهم بنى حماد ولأنهم كانوا يدركون مدى المخاطر التى تتعرض لها بلادهم، لكن السياسة الحمادية فى أحلك الظروف كانت سيئة بالنسبة لبنى زيرى فقد سعى يحيى ابن العزيز عام ٥٢٩هـ للاستيلاء على المهدية كما فعل ذلك من قبل جده الناصر بن علناش مما دفع الحسن بن على آخر خلفاء بنى زيرى لطلب العون من روجار الثانى ملك صقلية. وعلى الرغم من المحاولات التى بذلها الحسن بن على للتقرب من بنى حماد بعد أن طرد من المهدية عام ٥٤٣هـ واحتلال النورمان لبلاده وعندما أراد الحسن بن على التوجه غربا إلى المغرب الاقصى لمقابلة عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين فان يحيى بن العزيز الحمادى رفض مقابلته وقام بسجنه فى مدينة الجزائر انتقاما منه ولم يفك أسره الا بعد دخول عبد المؤمن بن على بجاية عام ٥٤٣هـ وهكذا

نرى ان الصراع رالتطاحن والاقتتال كان هو السمة الغالبة على العلاقات بين الدولتين، لكن فى كل الحالات كانت دولة بنى حماد هى التى تبدأ بالعدوان والتدخل العسكرى واثارة القلاقل .

لكن على الرغم من حالة العداوة التى كانت تغلب على طابع العلاقات بين بنى زيرى وبنى حماد وفى معظم فترات حكم كل منهما الا ان الفترات التى كان يسود فيها السلام والتصالح كانت العلاقات الثقافية والتجارية تنتعش وتعود لحالتها الطبيعية فقد وجد بناة القيروان وبعض مدن المغرب الادنى (افريقية) ضالتهم المنشودة فى التحرك غربا تجاه بلاد المغربين الاوسط والاقصى بل ان العديد من العلماء والادباء والفقهاء والشعراء والمفكرين الافارقة (المغرب الأدنى) قد فضلوا البقاء فى بلاد الحماديين بعد أن فتح الامراء الحماديون أمامهم المجال وأجزلوا لهم العطاء واستدعوهم إلى مجالسهم ومناظرتهم ومن ذلك نجد الشاعر ابن الكفاه القيروانى يمتدح الامير الناصر بن علناش الحمادى ومن هنا فقد ساعد علماء وفقهاء الدين الشرقيين فى النهوض بالحركة العلمية والثقافية فى بجاية والجزائر وتلمسان والقلعة وعنابة وطبنة والمسيلة وبسكرة وجيجل وغيرها من المدن الحمادية ولم تنقطع وفود العلماء والطلاب من المغرب الادنى إلى المغرب الاوسط .

وبالعكس فان بنى حماد فى أشير والقلعة قد شجعوا رحيل الطلاب وأبناء دولتهم إلى القيروان للتزود بالعلوم قبل الغزو الهلالى لاسيما بعد أن تم الصلح بين المعز بن باديس عام ٤٠٨هـ حتى الغزو الهلالى ٤٤١هـ وقد استغل فترة الهدنة والصلح الطويلة لكى يدفعوا بأبناء دولتهم للرحيل شرقا إلى القيروان لتلقى العلم على أيدى شيوخ هذه الكعبة الحضارية الثقافية الاسلامية لاسيما ان الدولة الحمادية كانت لاتزال فى دور التكوين وكانت فى أمس الحاجة إلى العقلية المتعلمة المثقفة التى تساعد على

وضع أركان بناء الدولة ومنذ عام ٤٦١هـ صارت بجاية معقل العلم فى المغرب الاوسط فرحل اليها العلماء وقصدها الناس من مختلف النواحى وكثرت المدارس التى كان من بين طلابها طلاب من قسنطينة والاقاليم الغربية للدولة الزيرية ومن هنا فان حركة الصراع والحروب لم تقف عائقا ولا حائلا دون تحرك العلماء والطلاب بين البلدين وكان العلماء يدرسون العلم أينما رحلوا وأينما حلوا بلا جند ولا رقابة مادام ذلك يسير وفق المذهب المالكى الذى عشقه أهل المغرب جميعا ومن هنا كانت الصلة العلمية والثقافية والحضارية متصلة ودائمة بل ومتبادلة .

اضافة إلى أن حركة التجارة والقوافل والبيع والشراء والترحال بين الاقليميين لم تكن متقطعة دائما بل كانت فى وقت الحروب تقل عما تكون عليه فى حالة الصلح والسلام وكان الحماديون يعملون على فتح بلادهم أمام حركة التجارة الشرقية التى كانت تأخذ طريقها البحرى والبرى عبر أراضى الدولة الزيرية وكذلك رحل التجار من بلاد المغرب الادنى مع اخوانهم أهل بجاية وغيرها من مدن الساحل إلى المشرق والهند والصين واليمن وإلى صقلية وجنوب ايطاليا والاندلس وقامت حركة تصدير واستيراد المواد التى يحتاج اليها كل طرف والتى كانت تزيد عن الاستهلاك المحلى للآخر مما دفع إلى ايجاد سوق تجارية اسلامية لم تكن تتأثر بحركة الصراع العسكرى والسياسى فالشعوب كانت تسعى لما فيه خير الجميع ومن هنا نمت التجارة الداخلية والخارجية لاسيما مع حركة القوافل فى اتجاه الجنوب حيث بلاد السودان الغربى والاوسط (كانم، برنو، مالى، غانا، سنغاى، بلاد التكرور) والتى كانت القوافل المغربية تتحرك فى صورة مجتمعة من أجل خير المجتمع الاسلامى وليس من أجل نظرة محلية ضيقة. فقد نشطت الحركة التجارية بين الجانبين رغم محاولة حكام البلدين فرض حصار اقتصادى كل طرف على الآخر الا ان بنى زيرى لم يكن يستفزهم عمل أبناء بنى حماد فانهم

كانوا يشجعون الحركة التجارية عبر الصحراء ووجدوا دعما من حكوماتهم باعتبار ان التجارة هى المصدر الاساسى للدخل وكان الموقف الاقتصادى لبنى زيرى قد انتابه بعض الضعف من جراء الغزوة الهلالية فدفعهم ذلك إلى فتح أبواب للتجارة مع بنى حماد رغم توتر العلاقات السياسية وقد أشار ابن الاثير فى كتابه الكامل إلى أن بنى حماد كانوا يعرقلون التجارة مع بنى زيرى بسبب توتر العلاقات الا أن بنى زيرى كانوا يعملون على كسب بنى حماد لضعفهم تجاريا واقتصاديا لمصلحة الشعبين .

بنو حماد والخلافة الفاطمية بالقاهرة

عندما ترك الخليفة الفاطمى المعز لدين الله بلاد المغرب وانتقل للقاهرة عام ٣٦١هـ فقد ترك على حكم بلاد المغرب بلكين بن زيرى الصنهاجى والد الامير حماد ومؤسس الاسرة الحمادية فى بلاد المغرب الاوسط. وهكذا فقد أصبح بلكين بن زيرى الصنهاجى واليا شبه مستقل بحكم بلاد افريقية بأقسامها الثلاث طرابلس وافريقية وبلاد الزاب وما يفتحه من بلاد المغرب الاوسط والاقصى. وقد ظلت هذه البلاد تتبع سياسيا وتدين بالولاء للخلافة الفاطمية بالقاهرة منذ بداية حكم بلكين بن زيرى ٣٦٢هـ/ ٣٧٤هـ حتى حكم المعز بن باديس بن المنصور الذى خرج على سياسة من سبقه من بنى زيرى ونبذ سياسة الولاء والتبعية للخلافة الفاطمية بالقاهرة وفى خلال تلك الفترات الزمنية كان حماد بن بلكين منذ أن أرسله أخوه المنصور بن بلكين وابنه باديس ابن المنصور لمقاتلة زناتة وذلك يعد موافقة على شروطه عام ٣٩٥هـ يقيم بالمغرب الاوسط وفى أشير بالذات مقر تركز قواته .

ولما كان حماد بن بلكين يدرك مدى عدم استعداد الناس لتقبل المذهب الاسماعيلى الشيعى وحبهم الشديد وتمسكهم بالمذهب السنى المالكى فانه قام عام ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م بنبذ طاعة الفاطميين والخروج عليهم والدخول فى طاعة العباسيين

وفى حقيقة الامر فان الخلافة الفاطمية فى القاهرة لم يكن يعنيها من أمر بلكين بن زيرى شيئا فهى لم تكن تعترف به أو توجد أدنى صلة بينهما بل كانت كل علاقاتها بحكام القيروان والمراسالات والتقاليد الفاطمية والالقاب تتم بين القاهرة والقيروان وكان حماد بن بلكين يتبع السياسة الزيرية ولم تكن القيروان تسمح له بالعلاقات المباشرة مع القاهرة أو مع غيرها من العواصم الاخرى لان السياسة الخارجية كانت من شأن حكام القيروان وكان حكام القلعة تابعين لهم فى ذلك .

ولقد عمل حماد بن بلكين على نبذ طاعة الفاطميين واعلان الخطبة للخلفاء العباسيين في بغداد ادراكا منه بأنه يريد أن يكسب شرعية لحكمه لاسيما انه كان يدرك بذلك ارضاء الشعب المغربى والعمل على استمالته لصفه وخضوعه لحكمه لان الخروج على الفاطميين لم يجد أدنى مقاومة من الشعب لعدم رغبة الشعب فى الخضوع للفاطميين وكراهيتهم الشديدة للمذهب الاسماعيلى الشيعى .

وربما قصد حماد بن بلكين بقطع الخلافة الفاطمية انه يريد كسب الشارع السياسى والشيعى له والتفافهم حول قائدهم حماد والتمسك بحكمه لان فى بقائه على حكم البلاد بقاءا وانتشارا لمذهب المالكى الذى كان يصادف قبولا شديدا منهم وتمسكا بتعاليمه وقيمه وشريعته فى كل أمورهم .

لكن ذلك وان كان يشكل بدرة خطيرة للنظام الشيعى فى القاهرة وتوابعه فى بلاد المغرب لاسيما ان انصار المذهب الاسماعيلى الشيعى كانوا حتى عام ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م يسيطرون على مقاليد الامور فى بلاد بنى زيرى، ولم تكن هناك أدنى علاقة مباشرة بين الفاطميين ووزرائهم فى القاهرةوبين بنى حماد أصحاب القلعة الذين كانوا لازالوا فى ذلك الوقت حكاما محليين تعترف بهم السلطة السياسية الحاكمة فى القيروان وكذلك على اعتبار ان الفاطميين لم يعترفوا باستقلال الحماديين عن بنى

زيرى وان ولاء الحماديين نحو حكام القاهرة الفاطميين لم يكن ولاءا مباشرا ولا عاما انما كان ولاءا صوريا، لكن ما قام به حماد بن بلكين عام ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م من نبذ طاعة الفاطميين كان دافعا قويا لرجال البلاط الزيرى لتشجيع المعز بن باديس للسير على نهج جده حماد فى نبذ طاعة الفاطميين عام ٤٠٧هـ/ ١٠١٦م وما ترتب على ذلك من هذا الاعلان الذى كانت تربطة علاقات مباشرة مع القاهرة وكانت الدولة الفاطمية تحس ان المعز بن باديس والٍ من ولاتها على بلاد المغرب ولم يكن يحق له الخروج على الشرعية الفاطمية الشيعية، فما كان من الفاطمين الا أن أو عزوا للقبائل العربية الهلالية بالزحف على المغرب الاسلامى وصنهاجة بلاد ابن زيرى عام ٤٤١هـ، ودفع المعز وبلاده فى دوامة الحروب والقلاقل والمناوشات والحروب والصراع حتى اضطر عام ٤٥٩هـ إلى ترك العاصمة القيروان والرحيل إلى المهدية .

وازاء هذه الاحداث التى ترتبت على أثر الهجرة العربية الهلالية وما تم فى بلاد المغرب الادنى فان القائد بن حماد (٤١٩- ٤٤٦هـ/ ١٠٢٨- ١٠٥٤م) حاكم القلعة وقد رأى وسمع ما ترتب على الخروج على الخلافة الفاطمية من هجوم القبائل الهلالية وتخريبها للبلاد على حد قول بعض المؤرخين وأدرك بثاقب نظره وحنكته السياسية ودرايته لمعالجة الامور انه لاقبل له بهذا الطوفان العربى الكاسح وانه خاف على عرشه فبادر على الفور عام ٤٤٢هـ باعلان الولاء للفاطميين استرضاء للقبائل العربية الهلالية وخوفا من بطشها وتأمينا لبلاده وأرسل الهدايا والاموال إلى الخلافة الفاطمية بالقاهرة وقامت الخلافة الفاطمية من قبلها بارسال التقاليد الفاطدية له وأنعمت عليه بلقب شريف هو لقب شرف الدولة (ابن خلدون، العبر ، جـ ٦ ص ٣٥٢)، لكن هذا الاعتراف الفاطمى لم يكن الا صوريا ولكن الذى يدعم هذا الاعتراف استمرار الدولة الحمادية فى التعامل بالدنانير الفاطمية وعدم اصدار

مسكوكات جديدة كما فعل المعز بن باديس عام ٤٤١هـ عندما أبدل التعامل بالدنانير الفاطمية بالدنانير المعزية الزيرية لكن الحماديين ظلوا على ولائهم الظاهرى والصورى للفاطميين ولم يغيروا العملة الا فى عام ٥٤٣هـ عندما أصدر الدينار الناصرى .

لكن المذهب الشيعى الاسماعيلى لم يكن له وجود منذ عهد حماد بن بلكين حيث طارد الشعب المغربى الشيعة وقضى عليهم لكن رغم كل هذا فان الفاطميين لم يفقدوا الامل فى عودة المغرب الاسلامى للخضوع لهم والمناداة باسمهم فوق المنابر والخطبة لهم بالمساجد، ومن هنا فقد كانوا يتابعون كل ما يجرى من أحداث على أرض المغرب وربما كان لهم جواسيسهم الذين يرسلون لهم بالاخبار ومن هنا فانهم كانوا يرسلون الهدايا والتقاليد والخلع والالقاب عند ظهور أدنى بادرة من شأنها أن تؤدى إلى تحسين العلاقات بين الطرفين والعمل على المناداة لهم والخطبة لهم فى المساجد بل ان الفاطميين أرسلوا الهدايا والالقاب إلى الامير يحيى بن العزيز الحمادى آخر خلفاء بنى حماد عام ٥٣٢هـ وكانت هذه الهدايا تحملها سفينة كبيرة وصلت بها إلى بجاية وكانت تحمل البضائع والهدايا العظيمة من الخليفة الفاطمى للامير وعلية القوم وقد تم توزيع هذه الهدايا على أفراد الاسرة الحاكمة والوزراء وكبار رجال الدولة بعد أن تم استعراضها فى موكب رائع فى العاصمة بجاية .

اضافة إلى أن الخلافة الفاطمية بالقاهرة ظلت حتى وقت متأخر من حكمها تعتمد على العنصر المغربى فى جيشها بحيث كان الجيش الفاطمى يضم ثلاث فرق من العنصر البربرى المغربى وكانت القبائل المغربية وأفراد جيشها من القوى الكبرى التى يرتكز عليها عليها نظام الحكم ويعتمد عليها جيش الفاطميين اضافة إلى أن المغاربة كانت لهم أحياء خاصة تنسب اليهم فى مدينة القاهرة وكانوا يقيمون بالسكنى فيها، ومن ذلك فان العلاقات لم تكن مقطوعة بل كانت متصلة وكان المغاربة

يشاركون أيضا فى الاعمال البحرية والحربية باعتبارهم ملاحين مهرة .

كما ان العلاقات الاقتصادية كانت تتم بين الطرفين وكان التجار المغاربة بكثرة فى الاسكندرية والقاهرة وكانوا يمارسون نشاطهم التجارى بسهولة ويسر ولم تكن الدولة تتعرض لهذا النشاط لاسيما ان التجار كانوا يقدمون إلى الديار المصرية أحيانا مع قوافل الحجيج ويمارسون نشاطهم وتكونت منهم جاليات فى الاسكندرية والقاهرة، حيث كان التجار المغاربة يدخلون مدائن المدينة ويتعاملون فى التجارة وكان التجار المغاربة يتعاملون بعملة بلادهم المغربية التى تضرب فى بلادهم لكنهم يغيرونها بالعملة المصرية عند التعامل وكانت التجارة المغربية والمصرية تمر عبر الطريق البحرى من الاسكندرية إلى موانئ بلاد المغرب ومن هذه الموانى إلى الاسكندرية وكانت التجارة تستخدم الطرق الصحراوية الداخلية التى تنطلق من بلاد المغرب حتى القاهرة عند سفح الاهرام ومن ثم تدخل القاهرة وان كان الطريق البحرى من الاسكندرية إلى بلاد المغرب أكثر استعمالا لاسيما أن الطريق البرى كان محفوفا بالمخاطر لكن القرن السادس الهجرى شهد كثرة استخدام الطريق البرى الذى يصل المدن الممتدة على الطريق، لكن مصر الفاطمية كانت سيئة الظن بالمغاربة الذين اعترفوا بالخلافة العباسية وكان الوزير الفاطمى بدر الجمال يضيق عليهم الخناق حتى انه من أراد الحج إلى الديار المقدسة من المغاربة كان يعدل عن هذا الطريق وبعد بدر الدين الجمالى كانت العلاقات طيبة بين المغاربة وحكام القاهرة .

لكن العلاقات الثقافية والفكرية والعلمية لم تكن متصلة الا نادرا نظرا لاختلاف المذهبين الشيعى الاسماعيلى والمذهب السنى المالكى ومن هنا لم تشهد العلاقات الثقافية أدنى نمو وازدهار الا أن ذلك لم يمنع نقل بعض العلماء والطلاب الذين كانوا يدرسون أو من يدرسون العلوم غير الشرعية مثل الطب والفلك والكيمياء

والرياضيات وغيرهم من العلوم التى لا تتصل بالمذهب الشيعى الاسماعيلى، لكن مصر الفاطمية كانت دائما تمانع وتعطل أبناء المغرب فى الدراسة بالازهر الا فى المذهب الشيعى الذى كانوا يسعون لنشره ولو بالقوة ولكن المغاربة لم يكونوا يقبلون على دراسته لذا لم تقم علاقات ثقافية بين الطرفين .

بنو حماد ودولة المرابطين بالمغرب الاقصى

وفى الوقت الذى غزا فيه عرب بنى هلال بلاد افريقية وقوضوا صرح الدولة الزيرية وبدأوا يطرقون أبواب المغرب الاوسط ويهددون دولة بنى حماد، كان على الجانب الآخر المرابطون فى أعوام ٤٤٥هـ، ٤٥٠هـ قد بدأوا زحفهم على المغرب الاقصى وتمكنوا من القضاء على قوة زناتة فى هذه الديار، لكن بقيت فلول منهم بالمغرب الاوسط الذى كان الحماديون يسيطرون على الجزء الاكبر منه وكان المرابطون يفضلون القضاء نهائيا وحسم صراعهم مع زناتة لاسيما ان قبائل زناتة بالمغرب الاوسط قد خفت لنجدة اخوانها زناتة فاس فى صراعها مع المرابطين وانهم كانوا يعيدون تجمع صفوفهم للقيام بعدوان جديد لدرء المرابطين القادمين من الجنوب وعلى الجانب الآخر فان المرابطين يؤثرون أن ينقضوا على زناتة المغرب الاوسط لوضع نهاية لاستفزازاتهم حتى ينصرفوا لفتوحاتهم فى بقية المغرب الاقصى .

ويبدو ان الدولة الحمادية فى تلك الاونة كانت تعانى بعض الضعف والاضطراب والمشاكل من جراء التواجد العربى الهلالى الكثيف مما جعل المرابطين لا يطمئنون إلى الاوضاع فى المغرب الاوسط وتركوا زناتة إلى أبناء عمومتهم بنى حماد، لكن شهدت تلك الحقبة التاريخية بداية جموع العرب الهلالية فى طرق أبواب المغرب الاوسط لذا لم يستطع الحماديون مقاومة زناتة، وما كان على المرابطين أن يتوسعوا صوب الاقاليم الشرقية فاستولوا على وادى ملوية ومدينة وجدة ومدينة وسطاط وانفضوا على اقليم تازا

ثم انقضوا على مدينة تلمسان وفتحوها كما فتحوا وهران وتنيس وبلغت قواتهم مشارق اقليم الجزائر ووقف المرابطون عند حدود الجزائر ولم يتجاوزوها ابقاء لصلات القربى بينهم وبين بنى حماد .

وكان الحماديون يتعرضون لزحفين كبيرين يتصفان بالقوة والشراسة من الشرق القبائل العربية الهلالية التى نجحت السياسة الحمادية فى احتوائهم والقبائل الزناتية التى اخترقت الحدود الغربية فرارا من مطاردة المرابطين وبدأت تسبب المتاعب للدولة الحمادية وكان عليهم مقاومتهم وكان الزيريين يعانون من زحف العرب الهلالية، وكان الحماديون ينظرون نظرة ريبة وشك للمرابطين لانهم فتحوا العديد من المدن فى المغرب الاوسط ووصلوا فى زحفهم إلى تلمسان والجزائر والتى كان ينظر اليها الحماديون على انها امتداد طبيعى لاملاكهم فى المغرب الاوسط ومن هنا كانوا يرون فيهم العدو الاول حيث ان الاستيلاء على المغرب الاوسط كان يمثل جزءا من سياسة الدولة المرابطية .

لكن المرابطين لم ينظروا إلى أبناء عمومتهم بنى حماد نظرة عدائية فقد كان فى امكانهم أن يفتحوا كل بلاد المغرب الاوسط وأن يصلوا فى زحفهم حتى طرابلس وكل بلاد المغرب الادنى ولكن المرابطين قد أصبحوا سادة المغرب دون منازع، لكنهم كانوا يرون فى المغرب الاوسط خط الدفاع الاول عن المغرب الاقصى تأمينا لحدودهم وضربا للقبائل الزناتية التى تلجأ اليه عندما يشتد عليها حصار المرابطين ولقد كان النزاع فى المغرب الاوسط بالنسبة للمرابطين هو تحدى زناتة وليس الحماديين الذين كانت نظرة المرابطين لهم كأبناء عمومة وأشقاء صنهاجة وكان المرابطون يمدون أبصارهم لضرب كل أثر لزناتة لاسيما ان المغرب الاوسط موطنها الاصلى .

وكانت أهمية المغرب الاوسط تفوق غيره بالنسبة للمرابطين فقد كان الوجود

المرابطى فى تلمسان تقف حدا لمد الحماديون بأبصارهم صوب المغرب الاقصى وينهى أحلامهم فى التوسع غربا لذا كانوا يتجهون إلى الشرق حيث بنى زيرى لانهم كانوا يرون أنفسهم انه لا قبل لهم بقوة المرابطين ومن هنا كانوا يردون كيد الحماديين عن المغرب الاقصى .

لذا قاوم الحماديون المرابطين بكل قوتهم واستعانوا بالقبائل العربية الهلالية وكذلك زناتة واستطاعوا أن يحموا بلادهم من زحف المرابطين ونجحوا فى ذلك لدرجة جعلت يوسف بن تاشفين يتراجع عن مطامعه ويجنح إلى السلم ولقد كان الصراع السياسى يدور بين الطرفين، لكن شهدت بعض الفترات حالة من التفاهم والود والصداقة عندما أرسل يوسف بن تاشفين إلى المنصور يبلغه أخبار الانتصار الذى أحرزته القوات المرابطية فى معركة الزلاقة رغم ان بنى حماد حاولوا اغتنام فرصة وجود القوات المرابطية بالاندلس وانقضوا على المغرب الاوسط مستعينين بالاعراب الهلالية .

كذلك فان يوسف بن تاشفين قد أوضح للحماديين انه لم يرد بهم شرا لذا فان الحماديين لم يغلقوا باب التفاهم مع المرابطين بل حاولوا تهدئة الصراع بوسائل مختلفة، فقد تزوج المنصور بن الناصر من المرابطين عندما هم بالهجوم على تلمسان وحصارها حصارا طويلا، لذا فان المنصور فك حصار المدينة خضوعا لصلات القربى .

لكن المرابطين الذين حكموا تلمسان كانوا يتأوثون الحماديين كلما أتيحت لهم فرصة، ولقد تحكمت فى علاقة المرابطين بالحماديين معالم وظروف الامتداد المرابطى ولقد حققت صلة الوشائج والقربى دورا فى هذه العلاقات .

لكن العلاقات السياسية بين المرابطين وبنى حماد لم تشبها شائبة العلاقات مع بنى زيرى ولم تتكرر حوادث العدوان من قبل المرابطين على الحماديين بل ان الحدود التى حددوها لانفسهم لم يحاولوا أن يتخطوها حفاظا على صلة القربى وحسن الجوار .

لكن العلاقات الثقافية كانت على أشدها قوية ومترابطة فالعلماء يتحركون من بجاية إلى فاس ومراكش ومن المدن الحمادية إلى المغرب الاقصى طلبا للتدريس بعد أن غادروا القيروان، بل ان كثيرا من العلماء استقروا بعضا من الوقت فى المغرب الاوسط ثم رحلوا مرة ثانية إلى المغرب الاقصى وكذلك رحل الطلاب من أبناء الحماديين إلى ديار المرابطين حيث أفسح المرابطون المجال للطلاب والعلماء واحتلت فاس مكانة القيروان وصارت فاس جامعة ذات شأن فى الحياة الثقافية وشد اليها الرحال المغاربة والمشارقة ونهلوا من علومها ما طاب لهم وظلت فاس تغذى الحياة الثقافية فى العالم الاسلامى طيلة قرون طويلة حيث كان من الطبيعى أن يعتصم هؤلاء العلماء باقاليم بعيدة عن المخاطر وتيعابعوا نشاطهم العلمى فالتجأ أغلبهم إلى مدارس المغرب الاوسط حيث الحماديين وبعض منهم إلى مدارس المغرب الاقصى حيث المرابطين إلى فاس ومراكش وتلمسان وسبتة وأغمات وطنجة وغيرها من المدن .

ولقد تبادلت هذه المدن الصلات والروابط الثقافية والعلمية مع مدن المغرب الاوسط وكان العلماء والطلاب صلة الربط الدائمة بين الطرفين ومن هنا ازدهرت الحضارة والثقافة .

كذلك كانت العلاقات الاقتصادية بين البلدين تسير سيرها الطبيعى حيث التكامل الاقتصادى بين الطرفين كل قطر يصدر ما لا يحتاج اليه من محاصيل ويستورد ما يحتاج اليه من محاصيل فى أمس الحاجة اليه وارتبط تجار البلدين فى روابط تجارية واقتصادية وشاركوا الرحلة إلى بلاد المشرق الاسلامى وجنوب أوربا وصقلية وبلاد السودان ونشطت الحركة التجارية لتعاون تجار بجاية مع تجار المغرب الاقصى وتمتعت مكانة بجاية بميزة تجارية ممتازة .

وكان التجار المغاربة يتعاملون فيما بينهم متخذين من الوكالة نظاما ووصل التجار

المغاربة إلى جنوه والبندقية وبيزا وعرفت أسواق المغرب نشاطا تجاريا اتسم بالبيع والشراء وأفسح المغاربة مجال الفنادق للاجانب فى بجاية وشهدت أسواق المدن تنظيما ساعد على تزايد أعداد التجار الاجانب ودورهم فى التجارة المغربية لاسيما بعد ازدهار بجاية كمحطة رئيسية للسفن القادمة من الشمال والقوافل القادمة من الجنوب حيث بلاد السودان وكان البحر المتوسط يربط بين بيئات المغرب الثلاث وقامت السفن الاسلامية بنشاط كبير فى نقل تجارة البحر المتوسط وكانت بجاية تشكل قطب النشاط التجارى مما جعل التجار الاجانب يتجهون إلى بجاية للحصول على التجارة المغربية التى شارك فيها المرابطون لاسيما انهم كانوا فى حالة حرب مع الاندلس (المسلمين) وكانوا يجدون فى بجاية منفذا لتجارتهم .

بنو حماد والاندلس

فى الوقت الذى كان فيه بنو حماد يقيمون دولتهم فى المغرب الاوسط ويبذلون أقصى جهودهم لظهور هذا الكيان على مسرح الاحداث فى المغرب فى شكل صورة دولة شبه مستقلة تابعة لبنى زيرى كانت القوى الاسلامية فى البحر المتوسط الغربى مع اطلالة القرن الخامس الهجرى قد بدأت تتقهقر وبدأت ترتد على أعقابها خاسرة وبدأت القوى المسيحية تنتقل إلى مرحلة السيادة وبدأت القوى الاسلامية فى التدهور حتى سقطت الخلافة الاموية وعكف ملوك الطوائف على شئونهم الخاصة وأخذت القوات البحرية الاندلسية التى طالما أدخلت الرعب إلى قلوب الفرنجة يضعف شأنها وكان الدور على بنى زيرى الذين ورثوا ملك الفاطميين فى المغرب وقد أخذوا يعملون قدر طاقتهم على الاحتفاظ برمق البحرية الاسلامية الا أنهم كانوا يعملون منفردين ولم يكن

باستطاعتهم أن يضطلعوا بالعبء كله لاسيما بعد أن انفصل بنو حماد عن القيروان منذ عام ٣٩٥هـ وبدأت الغزوة الهلالية عام ٤٤١هـ مما أثقل كاهل بني زيرى ومنعهم من الالتفات إلى القوى الاوربية التى بدأت تأخذ زمام المبادرة فى يدها بعد أن تشتت شمل الدولة الزيرية بين الحماديين والعرب الهلالية .

وانتهزت القوى المسيحية ما أصاب بلاد المغرب والخلفاء الفاطميين فى مصر من ضعف من جراء انفصال الحماديين وغارات الاعراب الهلاليين وأخذ الزحف المسيحى فى الاندلس القادم من الشمال يكسب كل يوم أرضا جديدة بعد رفع شعار حركة الارتداد وقذف المسلمين وراء المضيق ورفع المسيحيون شعار بعث القوى النصرانية فى شبه جزيرة أيبريا دفاعا عن بلادهم وأخذوا يمضون فى التقدم صوب الجنوب كلما حققوا نصرا على القوى الاسلامية وأخذ المتطوعون من فرنسا وألمانيا وبلجيكا وايطاليا يشاركوا فى قتال المسلمين .

بل اننا لا نبالغ اذا قلنا ان عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٨م الذى شهد بداية استقرار الامور لحماد بن بلكين فى المغرب الاوسط قد شهد انهيار الدولة الاموية وتفكك الاندلس بل ان عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م فى عهد حكم القائد ابن حماد (٤١٩-٤٤٦هـ) قد شهد أحداث التقدم الصليبى من الشمال وبذلك ظهر أمراء النواحى الذين تطلق عليهم المصادر ملوك الطوائف وهم لم يكونوا ملوكا ولا ملوك طوائف وانما كانوا عمالا على الولايات ثم استبدوا بالامر كل بولايته ومن هنا لم يكن هناك سياسة خارجية حمادية ولا علاقات مع هؤلاء الملوك، ذلك لان سياسة الحماديين كانت مجرد تابع لسياسة بنى زيرى ومن هنا لم تكن هناك علاقات خارجية بالمعنى المفهوم للعلاقات وربما كانت هناك علاقات حضارية وثقافية واقتصادية تجارية. اضافة إلى روح العداء بين الفاطميين الشيعة وملوك الطوائف السنين الذين خلفوا الخلافة الاموية

المغاربة إلى جنوه والبندقية وبيزا وعرفت أسواق المغرب نشاطا تجاريا اتسم بالبيع والشراء وأفسح المغاربة مجال الفنادق للاجانب فى بجاية وشهدت أسواق المدن تنظيما ساعد على تزايد أعداد التجار الاجانب ودورهم فى التجارة المغربية لاسيما بعد ازدهار بجاية كمحطة رئيسية للسفن القادمة من الشمال والقوافل القادمة من الجنوب حيث بلاد السودان وكان البحر المتوسط يربط بين بيئات المغرب الثلاث وقامت السفن الاسلامية بنشاط كبير فى نقل تجارة البحر المتوسط وكانت بجاية تشكل قطب النشاط التجارى مما جعل التجار الاجانب يتجهون إلى بجاية للحصول على التجارة المغربية التى شارك فيها المرابطون لاسيما انهم كانوا فى حالة حرب مع الاندلس (المسلمين) وكانوا يجدون فى بجاية منفذا لتجارتهم .

بنو حماد والاندلس

فى الوقت الذى كان فيه بنو حماد يقيمون دولتهم فى المغرب الاوسط ويبذلون أقصى جهودهم لظهور هذا الكيان على مسرح الاحداث فى المغرب فى شكل صورة دولة شبه مستقلة تابعة لبنى زيرى كانت القوى الاسلامية فى البحر المتوسط الغربى مع اطلالة القرن الخامس الهجرى قد بدأت تتقهقر وبدأت ترتد على أعقابها خاسرة وبدأت القوى المسيحية تنتقل إلى مرحلة السيادة وبدأت القوى الاسلامية فى التدهور حتى سقطت الخلافة الاموية وعكف ملوك الطوائف على شئونهم الخاصة وأخذت القوات البحرية الاندلسية التى طالما أدخلت الرعب إلى قلوب الفرنجة يضعف شأنها وكان الدور على بنى زيرى الذين ورثوا ملك الفاطميين فى المغرب وقد أخذوا يعملون قدر طاقتهم على الاحتفاظ برمق البحرية الاسلامية الا أنهم كانوا يعملون منفردين ولم يكن

باستطاعتهم أن يضطلعوا بالعبء كله لاسيما بعد أن انفصل بنو حماد عن القيروان منذ عام ٣٩٥هـ وبدأت الغزوة الهلالية عام ٤٤١هـ مما أثقل كاهل بني زيرى ومنعهم من الالتفات إلى القوى الاوربية التي بدأت تأخذ زمام المبادرة في يدها بعد أن تشتت شمل الدولة الزيرية بين الحماديين والعرب الهلالية .

وانتهزت القوى المسيحية ما أصاب بلاد المغرب والخلفاء الفاطميين في مصر من ضعف من جراء انفصال الحماديين وغارات الاعراب الهلاليين وأخذ الزحف المسيحى في الاندلس القادم من الشمال يكسب كل يوم أرضا جديدة بعد رفع شعار حركة الارتداد وقذف المسلمين وراء المضيق ورفع المسيحيون شعار بعث القوى النصرانية في شبه جزيرة أيبريا دفاعا عن بلادهم وأخذوا يمضون في التقدم صوب الجنوب كلما حققوا نصرا على القوى الاسلامية وأخذ المتطوعون من فرنسا وألمانيا وبلجيكا وايطاليا يشاركوا في قتال المسلمين .

بل اننا لا نبالغ اذا قلنا ان عام ٤٠٨هـ/ ١٠١٨م الذى شهد بداية استقرار الامور لحماد بن بلكين في المغرب الاوسط قد شهد انهيار الدولة الاموية وتفكك الاندلس بل ان عام ٤٢٢هـ/١٠٣١م في عهد حكم القائد ابن حماد (٤١٩-٤٤٦هـ) قد شهد أحداث التقدم الصليبى من الشمال وبذلك ظهر أمراء النواحى الذين تطلق عليهم المصادر ملوك الطوائف وهم لم يكونوا ملوكا ولا ملوك طوائف وانما كانوا عمالا على الولايات ثم استبدوا بالامر كل بولايته ومن هنا لم يكن هناك سياسة خارجية حمادية ولا علاقات مع هؤلاء الملوك، ذلك لان سياسة الحماديين كانت مجرد تابع لسياسة بنى زيرى ومن هنا لم تكن هناك علاقات خارجية بالمعنى المفهوم للعلاقات وربما كانت هناك علاقات حضارية وثقافية واقتصادية تجارية. اضافة إلى روح العداء بين الفاطميين الشيعة وملوك الطوائف السنين الذين خلفوا الخلافة الاموية

اضافة إلى أن بنى زناتة الذين كانوا يحكمون فى المغرب الاقصى قبل قيام دولة المرابطين كانوا حجر عثرة بين بنى حماد وحكام الاندلس، كما ان ملوك الطوائف المتعددين الذين شغلتهم الاحداث الداخلية لم تكن لهم علاقات خارجية مع بنى حماد أو سياسية خارجية ثابتة أو ذات شأن مع بنى حماد .

انما شهدت العاصمة الحمادية بجاية والمدن الساحلية أيضا هجرة واسعة من الاندلسيين الذين كانوا يصلون إلى هذه الديار هربا من الاحتلال المسيحى وفرارا من الحروب الطاحنة التى تدور رحاها على أرض الاندلس وكانت بلاد بنى حماد تفتح زراعيها لاستقبال هؤلاء المهاجرين لكى يعيشوا بين اخوانهم وكان المغرب الاوسط هو المكان المفضل للهجرة الاندلسية لاسيما ان بلاد المغرب الاقصى والاندلس قد خضعت منذ عام ٤٥٠هـ لحكم المرابطين، اضافة إلى هذه السنوات قد شهدت صراع بنى زيرى مع العرب الهلالية ومع النورمان فى صقلية الذين كانوا فى ذلك الوقت قد وضعوا أقدامهم على أرض صقلية وبدأوا يكملون زحفهم حتى سيطروا عليها نهائيا عام ٤٨٤هـ .

كذلك فان صراع المرابطين مع ملوك الطوائف ومحاولتهم توحيد الاندلس والمغرب تحت قيادة واحدة قد دفعهم إلى الدخول فى صراع مع ملوك الطوائف مما حدا بعلى بن مجاهد العامرى أن يفر من وجه يوسف بن تاشفين ويترك الاندلس ويرحل إلى بجاية وينزل فى ضيافة الناصر بن علناش (٤٥٤- ٤٨١هـ) كما لجأ أيضا حاكم مدينة المرية إلى بجاية ولقد كانت مدينة بجاية لموقعها الممتاز الساحلى منفذا لخلق علاقات متنوعة مع الاندلس لاسيما العلاقات الثقافية والحضارية والتجارية والاقتصادية بل والصناعية ولقد كانت مدن بنى حماد الساحلية والداخلية مفتوحة الابواب أمام الاندلسيين الذين رأوا فى استقبال هذه البلاد لامرائهم حافزا لهم للقدوم اليها

والاستقرار والعمل فى جميع الاعمال لاسيما وان الاندلسيين كانوا قد تفوقوا فى علوم الادب والفن والفلسفة وغيرها من ألوان الحياة العقلية والرفيعة وشهدت الحياة الاجتماعية الحمادية ألوان الحضارة الاندلسية الرفيعة التى تغلبت على نهج الحياة وبدا الاندلسيون يتغلغلون فى مختلف مناحى الحياة الاجتماعية والعلمية والفكرية والاقتصادية وتركت حركة الاندلسيين طابعا فى الحياة الاجتماعية وأحدثت تغييرا تاما بعد أن تغلبت على الطابع البدوى الصحراوى الذى كان يغلب على حياة بنى حماد وأضحت المؤثرات الاندلسية واضحة أتم الوضوح لاسيما ان الامراء الاندلسيين كانوا قد انتقلوا إلى المغرب الاوسط وعاشوا فى العاصمة بجاية وكان الامير الذى يلجأ إلى بجاية كأمير المرية، وعلى بن مجاهد العامرى يصحب معه عند الانتقال بطانته وأسرته ووزراءه وكتابه وقد اتخذ هؤلاء الامراء القصور الحسان وعاشوا عيشة رفيعة مترفة فيها رخاء ومتعة فتأنقوا فى المأكل والملبس والمشرب واتخذوا مجالس من الشعراء والمغنيين وعاشوا حياة لا تكاد تختلف عما كانوا يعيشونها أيام أن كانوا ملوك طوائف فى الاندلس .

وكل هذه الامور قد تركت آثارها الاجتماعية والفنية والحضارية فى بجاية وغيرها من المدن الساحلية الكبرى التى انتقل اليها الاندلسيون لاسيما أن المدن الحمادية كانت تضم أعدادا كبيرة من المهاجرين الاندلسيين الذين انتقلوا إلى الجزائر ومعهم خبراؤهم وعلومهم لاسيما فى المجال البحرى والتجارى والحضارى والعلمى والعمرانى ومن هنا فقد كانت بلاد المغرب الاوسط من أكثر بلاد المغرب الاسلامى استفادة من الهجرة الاندلسية ومن الظروف التى تمر بها الاندلس وعلى هذا فقد كانت العلاقات الحمادية الاندلسية علاقات اقتصادية تجارية وحضارية ثقافية أكثر منها سياسية وبذلك استفادت الجزائر كثيرا من جراء هذه العلاقات .

على الرغم من أن الدولة الحمادية طوال تاريخها الذى امتد من عام ٤٠٥هـ إلى عام ٥٤٧هـ لم تذكر المصادر التاريخية أدنى اشارة إلى اشتراك بنى حماد فى حركة الجهاد الاسلامى على أرض الاندلس سواء كان اشتراكا فعليا بارسال القوات أو السفن البحرية أو العتاد العسكرى أو ارسال الخيول أو المهمات التى تحتاج اليها القوات أو السماح للقبائل التى تعيش فى وطنها بالاشتراك فى حركة الجهاد، بل انها كانت تستغل ظروف انشغال المرابطين بالغزو فى الاندلس وتقوم بمهاجمة الحدود الغربية للمغرب الاقصى .

لكن نظرا لطبيعة تكوين القيادة الحمادية وانغلاقها على نفسها وعدم المساهمة فى الغزوات الاسلامية التى كانت تنطلق من المغرب الاقصى بقيادة يوسف بن تاشفين وولده على بن يوسف أو يوسف بن على فاننا لم نشاهد أو نعثر على أدنى أدلة تبين اشتراك الحماديين فى الصراع الدائر على أرض الاندلس ولكن ربما قد يكون لهم عذرهم باعتبار أنهم دولة اقليمية صغيرة ذات امكانات وقدرات محدودة وليست دولة كبرى كالمرابطين، لكننا نلاحظ عند الدخول فى صراع داخلى مع بنى زيرى أو المرابطين فان قواتهم كانت دائما تتكون بين العشرين ألف أو الثلاثين ألف ومن هنا فقد كانوا مشغولين عن الاندلس وما يدور على أرضه لكنهم استفادوا تجاريا وعلميا وحضاريا وتبادلوا المنتجات التجارية والزراعية والصناعية مع بلاد المغرب وانتقل علماء الاندلس إلى بلادهم وكذلك شجعوا أبناءهم الطلاب لتلقى العلوم على أيدى هؤلاء العلماء والمهاجرين مما أشاع جوا حضاريا وعلميا لم تشهده البلاد من قبل بعد أن أفسحوا المجال أمام هؤلاء العلماء لكى يشاركوا فى حلقات الدرس فى المساجد والمدارس والكليات لاسيما جامعة سيدى التواتى، التى كانت تضم ثلاثة آلاف طالب والتى كان يدرس بها مالا يقل عن عشرة من علماء الاندلس فى مختلف العلوم المعاصرة لاسيما

فى الرياضيات والطب والهندسة والجبر والفلسفة والفلك وعلوم الزراعة والحشرات والكيمياء وغيرها من العلوم .

لكن المصادر لم تذكر أدنى اشارة إلى علاقات سياسية أو مراسلات بين حكام بنى حماد وحكام الطوائف الذين شهدوا فترة من حكم بنى حماد، لكن بعد دخول المرابطين إلى الاندلس ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وكان ذلك فى عهد الناصر بن علناش الحمادى فان الاندلس قد ارتبطت سياسيا بالسياسة المرابطية والتى سبق الاشارة إلى العلاقات الحمادية المرابطية والتى كانت تصدر أوامرها من العاصمة مراكش .

بنو حماد والدول الاوربية

كانت سياسة بنى حماد الخارجية تجاه القوى الاوربية المسيحية رغم اختلال التوازن العسكرى لصالح هذه القوى وسيطرتها على الجزر الاسلامية فى البحر المتسط وحركة الارتداد فى الاندلس والصراع الدائر على أرضه هى عدم فتح أدنى باب للدخول فى صراع مع هذه القوى سواء أكان ذلك على أرض الاندلس أو فى جنوب ايطاليا وصقلية ومالطة وغيرها من الجزر التى استولى عليها الاوربيون ككريت وسردانية وكوركسيا وجزر البليار، ومن هذا الجانب السلبى فى السياسة الحمادية الخارجية قبل هذه القوى فقد استغلت القوى الاوربية هذه السياسة وعملت من جانبها على استغلال هذا الموقف السلبى لتعميق الصلات والعلاقات مع بنى حماد بما يحقق مصالحها وأهدافها البعيدة المدى من وراء هذه السياسة، ذلك لان بنى حماد لم يكن لهم أدنى دور فى حركة الجهاد المقدس فى الاندلس أو البحر المتوسط لكن هذه العلاقات الحمادية مع القوى الاوربية لم تظهر بشكل واضح فى النصف الثانى من القرن

الخامس الهجرى وبالتحديد فى عهد الناصر بن علناش (٤٥٤- ٤٨١هـ) وكذلك كانت بصورة واضحة في عهد يحيى بن العزيز آخر أمراء بنى حماد. لكن الاختلاف فى المطامع فى السيطرة على الدولة الزيرية وهجوم النورمان واضافة إلى هجوم الناصر عام ٤٥٧هـ كل هذا يشكل موقفا يؤخذ على الدولة الحمادية التى تركت بنى زيرى تهيأ للمطامع الاوربية فما كان من النورمان الا أن هاجموا الموانى والمدن الحمادية بكل عنف وشراسة مما جعل الحماديين يذكرون انهم وقعوا فى خطأ تاريخى عندما أحسوا بالقوى التى سيطرت على ديار بنى زيرى لابد قادمة للسيطرة على بلادهم بعد أن احتلوا وسيطروا على بونة (عنابة) وبعض المدن الاخرى .

وأقام الناصر بن علناش علاقات من المودة والصداقة مع بابا روما (جريجورى السابع) وأمراء بعض المدن الايطالية كجنوة وبيزا والبندقية رغم الصراع الذى كان لايزال يدور على أرض صقلية والتعدى على المسلمين والبدء فى انتزاع بعض المدن الصقلية من أيدى المسلمين ولم يجد مسلمو صقلية دولة اسلامية قوية تغيثهم وتقدم لهم النجدة أو المساندة وتنشلهم من هذه المحنة الشديدة، فتم للنورمان الاستيلاء على صقلية نهائيا عام ٤٨٤هـ وبدأوا يرنون بأبصارهم إلى الشاطئ الافريقى المقابل فأغارت قواتهم على مدينة زويلة كما أغارت أساطيل بيزة وجنوة على المهدية عاصمة بنى زيرى وفى عهد حكم الناصر بن علناش حليف الاوربيين وقبل وفاته بعام واحد وذلك عام ٤٨٠هـ حتى لقد قيل ان أساطيل هذه الجمهوريات بلغت ثلاثمائة سفينة تضم ثلاثمائة ألف محارب وشهدت المهدية محنة لم يشهدها المغرب منذ الفتح الاسلامى ورغم هذا لم يتخذ الناصر بن علناش أو ابنه المنصور أدنى اجراء قبل الدول الاوربية التى هاجمت البلاد الاسلامية .

لكن فترة تحسين العلاقات بين بنى حماد والاوربيين فان الناصر بن علناش وقد أدار ظهره للاوربيين بعدا من شرهم هاجم ابن عمة تميم بن المعز عام ٥٤٧هـ في المهدية وكأنه يعطى اشارة اللأوروبيين انه مثلهم يهاجم هذه الديار وكان شأن الاستيلاء عليها من الاوربيين لا يهمه أو يعنيه مادام هو نفسه يطمع فى عرش بنى زرى يستوى عنده اذا أستولى هو عليها بنفسه أو استولى عليها الأوروبيون حيث كانت هناك صداقات تربطه مع البابا .

بل أكثر من ذلك فان البابا جوريجرى السابع أستغل هذه العلاقات ونجح فى اقناع الناصر بن علناش فى الموافقة على اقامة أسقفية مسيحية فى بونة (عنابة) وترك للنصارى حرية انتخاب أسقفهم وقد صادق الناصر على تعيين هذا الاسقف بل ان الدوائر الكنسية فى ذلك الوقت استغلت سماحة وطهارة الناصر بن علناش فى هذا الموقف وعملت على اقناعه بالدخول فى المسيحية ظنا منها انها ربما تفلح فى ذلك ولكن خاب مسعاها ولكن فى حركة أرضاء القوى المسيحية الاوربية والبابا بالذات فانه بناء على طلبات البابا جريجورى السابع قام الناصر بن علناش بشراء جميع الاسرى المسيحيين الموجودين فى بلاده وأرسلهم هدية إلى البابا ووعد بأن يقوم بشراء كل من تقع عليه يده أو يعثر عليه ويرسله إلى روما فيما بعد وقام الناصر بن علناش بارسال هدايا جليلة قويمة إلى البابا جريجورى السابع وحمل أسقف بونة رسالة ود وصداقة إلى البابا كما ان البابا أرسل فى عام ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م رسالة إلى الناصر وتعتبر أهم رسالة فى ذلك الوقت يقوم بارسالها البابا إلى ملوك المغرب وهى رسالة تدل دلالة قاطعة على مهارة فائقة من الدبلوماسية المسيحية فى ذلك الوقت محاولة منها فى شق الصف الاسلامى واستمالة بعض حكامها إلى جانبهم وقد يكون هذا ربما من الاسباب القوية التى كانت وراء عدم اشتراك بنى حماد فى حركة الجهاد الاسلامى فى ذلك

الوقت، ولقد كانت كل هذه التحركات المسيحية تضع فى الاعتبار الاول تلبية الاستجابة لمصالحها وتحقيق مطامعها، رغم اشارة بعض المؤرخين السذج إلى أن هذه الرسالة دليل الود والتقدير للناصر من قبل البابا، مع العلم بأن البابا فى نفس الوقت هو الذى كان يقود حركة طرد المسلمين من كل الاراضى الاوربية بل قيادة حركة الحروب الصليبية فى بلاد الشام .

لكن سياسة بنى حماد قد غلب عليها طابع السياسة البلهاء فى ذلك الوقت الذى كان الصراع فيه يأخذ شكل الصراع الدينى ولم يكن الصراع السياسى يأخذ الطابع الذى يأخذه فى العصر الحديث فكيف يتسنى لنا أن نقول ان سياسة الحماديين تجاه المسيحيين كانت سياسة التسامح وروح المودة فى حين أن أخوانهم فى العقيدة كانوا يغرقون فى بحور الدماء على مرمى البصر منهم فى صقلية والاندلس وغيرها من الاماكن التى كانت فيها حركة الصراع تدور على قدم وساق فى اقرن الخامس الهجرى. انها لم تكن سياسة تسامح بقدر ما كانت سياسة تخاذل وتقوقع ونوع من السلبية البلهاء لقادة ربما بدوا يغرقون فى الملذات بعد حياة البداوة ولم يعيروا أدنى اهتمام لما يدور من صراع على الارض الاسلامية فى الاندلس وصقلية والتى كانت وفود المهاجرين من هذه الديار تتوافد إلى بلادهم وتصلهم صيحات اخوة الاسلام .

لكن الجانب المسيحى لم يكن ليترك فرصة الا واستغلها لتعميق هذه العلاقات لانهم كانوا ينظرون إلى الامور من زاوية بعيدة وهى تحقيق أهداف مصلحية ومستقبلية هدفها ابعاد الحماديين عن الدخول فى الصراع وتقديم يد العون والدعم والمساندة والاكثر خطورة الانقضاض على الحماديين وامتلاك ديارهم وهذا ما كان سيحدث كما حدث للزيريين فى المهدية لولا ان الله قيض للمغرب الاسلامى قوة الموحدين التى استطاعت ان تسد الطرق على النفوذ الاوربى وتوحد المغرب الاسلامى عام ٥٥٥هـ

تحت قيادتها .

لكن الحماديين لم يحاولوا أن يستفيدوا من الدروس لاسيما بعد أن قام الاسطول النورمانى عام ٥٢٩هـ/ ١١٠٦م بمحاولة اغراق الاسطول الحمادى أمام المهدية كما شهدت سواحل بنى حماد هجرما أوربيا نورمانبا عام ٥٣٧هـ/ ١١١٤م على مدينة جيجل الحمادية وغيرها من المدن الاخرى كما هاجموا مدينة بونة (عنابة) ودخلت أساطيلهم هذا الميناء وعاشت فيه ثم ارتدت بعد ذلك ظافرة ولم تمس بأدنى سوء وامتهنوا الرجال والنساء وأخذوا العديد منهم أسرى واستدلوا واستضعفوا وأغار عليهم المسيحيون فى عقر دارهم بأمرون وينهبون وينكلون والانكى من ذلك أن كل هذه الاحداث تمر ببنى حماد دون أن تهز مشاعر حكامهم أو تشحذ عزائمهم للدخول مع اخوانهم لخوض حركة الجهاد حياة أو موتا، وبينما كان الحماديون ينهجون سياسة التسامح والتعايش من أجل المصالح التجارية كانت المسيحية وثبث الحمية فى نفوس الفرنجة وراح البابوات يباركون جهود المسيحيين فى ايطاليا وجزر البحر المتوسط والاندلس وكان الصراع يمتد ما بين الاسلام والمسيحية والحروب الصليبية تدور رحاها على أبواب أوربا ذاتها وكان من الممكن أن يتغير وجه التاريخ والموقف السياسى العالمى برمته لو تضافر الحماديون مع بنى زيرى والمرابطين والمجاهدين المسلمين فى الاندلس وغيرها ونجحوا وصمدوا فى وجه التيار الاوربى الذى تؤيده كل أوربا بدعوة البابوات لكن موقف الحماديين المخزى من الصراع أطمع الاوربيين فى الهجوم على المدن الساحلية الحمادية نفسها وبدأ استيلاءهم على المهدية عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م ومحاولة الاستيلاء على مدينة الجزائر الحمادية وهاجموا بونة لذلك الغرض ولم يمنعهم من التوغل فى الاراضى الحمادية الا ظهور الموحدين الذين حطموا أطماعهم التوسعية، وقد تمسك الحماديون بالسياسة الفاشلة وعلاقتهم المشبوهة مع المسيحيين فعندما

الوقت، ولقد كانت كل هذه التحركات المسيحية تضع فى الاعتبار الاول تلبية الاستجابة لمصالحها وتحقيق مطامعها، رغم اشارة بعض المؤرخين السذج إلى أن هذه الرسالة دليل الود والتقدير للناصر من قبل البابا، مع العلم بأن البابا فى نفس الوقت هو الذى كان يقود حركة طرد المسلمين من كل الاراضى الاوربية بل قيادة حركة الحروب الصليبية فى بلاد الشام .

لكن سياسة بنى حماد قد غلب عليها طابع السياسة البلهاء فى ذلك الوقت الذى كان الصراع فيه يأخذ شكل الصراع الدينى ولم يكن الصراع السياسى يأخذ الطابع الذى يأخذه فى العصر الحديث فكيف يتسنى لنا أن نقول ان سياسة الحماديين تجاه المسيحيين كانت سياسة التسامح وروح المودة فى حين أن أخوانهم فى العقيدة كانوا يغرقون فى بحور الدماء على مرمى البصر منهم فى صقلية والاندلس وغيرها من الاماكن التى كانت فيها حركة الصراع تدور على قدم وساق فى اقرن الخامس الهجرى. انها لم تكن سياسة تسامح بقدر ما كانت سياسة تخاذل وتقوقع ونوع من السلبية البلهاء لقادة ربما بدوا يغرقون فى الملذات بعد حياة البداوة ولم يعيروا أدنى اهتمام لما يدور من صراع على الارض الاسلامية فى الاندلس وصقلية والتى كانت وفود المهاجرين من هذه الديار تتوافد إلى بلادهم وتصلهم صيحات اخوة الاسلام .

لكن الجانب المسيحى لم يكن ليترك فرصة الا واستغلها لتعميق هذه العلاقات لانهم كانوا ينظرون إلى الامور من زاوية بعيدة وهى تحقيق أهداف مصلحية ومستقبلية هدفها ابعاد الحماديين عن الدخول فى الصراع وتقديم يد العون والدعم والمساندة والاكثر خطورة الانقضاض على الحماديين وامتلاك ديارهم وهذا ما كان سيحدث كما حدث للزيريين فى المهدية لولا ان الله قيض للمغرب الاسلامى قوة الموحدين التى استطاعت ان تسد الطرق على النفوذ الاوربى وتوحد المغرب الاسلامى عام ٥٥٥هـ

تحت قيادتها .

لكن الحماديين لم يحاولوا أن يستفيدوا من الدروس لاسيما بعد أن قام الاسطول النورمانى عام ٥٢٩هـ/ ١١٠٦م بمحاولة اغراق الاسطول الحمادى أمام المهدية كما شهدت سواحل بنى حماد هجوما أوربيا نورمانيا عام ٥٣٧هـ/ ١١١٤م على مدينة جيجل الحمادية وغيرها من المدن الاخرى كما هاجموا مدينة بونة (عنابة) ودخلت أساطيلهم هذا الميناء وعاشت فيه ثم ارتدت بعد ذلك ظافرة ولم تمس بأدنى سوء وامتهنوا الرجال والنساء وأخذوا العديد منهم أسرى واستذلوا واستضعفوا وأغار عليهم المسيحيون فى عقر دارهم يأمرون وينهبون وينكلون والانكى من ذلك أن كل هذه الاحداث تمر ببنى حماد دون أن تهز مشاعر حكامهم أو تشحذ عزائمهم للدخول مع اخوانهم لخوض حركة الجهاد حياة أو موتا، وبينما كان الحماديون ينهجون سياسة التسامح والتعايش من أجل المصالح التجارية كانت المسيحية وتبث الحمية فى نفوس الفرنجة وراح البابوات يباركون جهود المسيحيين فى ايطاليا وجزر البحر المتوسط والاندلس وكان الصراع يمتد ما بين الاسلام والمسيحية والحروب الصليبية تدور رحاها على أبواب أوربا ذاتها وكان من الممكن أن يتغير وجه التاريخ والموقف السياسى العالمى برمته لو تضافر الحماديون مع بنى زيرى والمرابطين والمجاهدين المسلمين فى الاندلس وغيرها ونجحوا وصمدوا فى وجه التيار الاوربى الذى تؤيده كل أوربا بدعوة البابوات لكن موقف الحماديين المخزى من الصراع أطمع الاوربيين فى الهجوم على المدن الساحلية الحمادية نفسها وبدأ استيلاءهم على المهدية عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م ومحاولة الاستيلاء على مدينة الجزائر الحمادية وهاجموا بونة لذلك الغرض ولم يمنعهم من التوغل فى الاراضى الحمادية الا ظهور الموحدين الذين حطموا أطماعهم التوسعية، وقد تمسك الحماديون بالسياسة الفاشلة وعلاقتهم المشبوهة مع المسيحيين فعندما

سقطت بجاية واستسلم الامير يحيى بن العزيز الحمادى ونقل إلى فاس لحق أخوه الحارث بن العزيز حاكم بونة بالقوات المسيحية فى صقلية وذهب إلى (روجيه الثانى) حاكم صقلية فى ذلك الوقت يطلب مساعدته ونجدته فأرسل معه أسطولا تغلب به على بونة وظل بها بمساعدة النورمان إلى عام ٥٥٢هـ/ ١١٥٦م حتى استولى الموحدون على بونة وقتلوا الحارث وطردوا النورمان .

وهكذا كانت سياسة الحماديين الخارجية مع أوربا فى ذلك الوقت سياسة ساذجة بلهاء لاتنم عن عمق اسلامى ولا فهم لحركة الصراع وموقف الاسلام من الجهاد، كما انها كانت سياسة محبطة لهمم المجاهدين بعدم الاشتراك فى الغزو بل الاكثر بلاهة فتح اسقفية فى بونة فى الوقت الذى تتحول فيه المساجد إلى كنائس فى بلاد الاندلس وصقلية ومالطة وكريت وسردانية وكوريكسا وجزر البليار، لقد فشل الحماديون فى سياستهم الخارجية .

العلاقات المحلية

العلاقات الحمادية الهلالية

فى باب سابق وصفحات عديدة سابقة تحدثنا عن الغزوة الهلالية فى بلاد المغرب ومشاركتها فى الاحداث الجارية على أرضه وربما هناك اشارات عديدة عن موقف الهلالية من بنى حماد ولاسيما فى الصراع الخارجى مع بنى زيرى وموقفهم من غزوة سبيبة عام ٤٥٧هـ وكذلك اشتراكهم مع الحماديين فى الهجوم على تلمسان وفاس فى قلب المغرب الاقصى وهجومهم على الحدود الغربية للدولة المرابطية مساعدة لبنى حماد، لكن العلاقات لابد أن تقتضى اشارات أوسع لاسيما ان بنى حماد كان لهم

موقفا مغايرا فى تعاملهم مع القبائل الهلالية لبنى زيرى وحاولوا الاستعانة بهم والاستفادة من طاقاتهم وتحالفوا معهم وتمكنوا بهذه المساعدة من تحقيق عدة انجازات سياسية وحضارية وثقافية واقتصادية وفى تدعيم نفوذهم فى بلاد المغرب الاوسط بل وفى كل دول المغرب وكيف انهم كانوا فى مقدمة القوات التى حاصرت تلمسان ودخلت فاس مما استدعى أمير المرابطين يوسف بن تاشفين أن يراسل حكام بنى حماد شاكيا لهم كيفية الاستعانة بالقوات العربية الهلالية فى غزوهم لبلاده واعتداءاتهم على الحدود الغربية لبلاده .

ولقد كان بنو حماد من الذكاء والحنكة فى علاجهم موضوع القبائل الهلالية بالطرق الدبلوماسية الهادئة اذ انهم نجحوا فى مهادنتهم ومصالحتهم مما جعلهم فى وضع أفضل عن بنى عمومتهم بنى زيرى .

وكما سبق القول أن الغزوة الهلالية بما حشدت من مليون نفس أو أقل من ذلك أو نصف مليون فانها كانت حدثا مضيئا فى تاريخ المغرب حيث حققت وجودها فى الانتصار على المعز بن باديس فى موقعة حيدران ودخول القيروان عام ٤٤٩هـ وتوفقها فترة من الزمن فى بلاد المغرب الادنى ثم استمرت فى التقدم فى بلاد المغرب الاوسط وقد شهد عصر القائد بن حماد بن بلكين (٤١٩– ٤٤٦هـ) ظهور بوادر الزحف الهلالى على بلاد الجزائر ووصول طلائعهم إلى ديار الحماديين قبل دخولهم القيروان ومن هنا فقد وصلوا إلى قرب الجزائر ووجدوا الطريق مفتوحا أمامهم فتقدموا فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ولقد كانت موقعة سبيبة عام ٥٤٧هـ من أكبر أخطاء الناصر بن علناش اذ اضطرب أمر الناصر بعد ذلك وكثر الزحف الهلالى وتوغل الهلاليون بأعداد كبيرة ومدوا نفوذهم وتوسعوا غربا حتى وصلوا إلى حدود بلاده الغربية ومن ثم تخوف الناصر منهم ومن هجماتهم الساحقة لاسيما بعد حصارهم

للعاصمة القلعة .

ولقد تحالف بنو حماد مع بعض الاعراب وحاولوا اخضاعهم لنفوذهم واضعاف قوتهم وتحالف مع قبائلهم حتى يضمن ولاء الجميع له ونجح الناصر بن حماد نجاحا عظيما في ذلك وتحالف مع الاثبج وعدى واستعان برجالها فى الدفاع عن دولته واستفاد منهم فى حروبهم ضد بنى زيرى وبنى زيان وعن طريقهم تمكن الحماديون من حكم بعض المدن الزيرية واستعملوهم فى قتال المرابطين وقد استعملوا معهم سياسة التفرقة لدرجة جعلت بعض القبائل العربية تحس بولاء عظيم للدولة الحمادية كما ظهر فى ثورتهم وقتالهم للموحدين منذ دخلوا بجاية وقاوموا عبد الله بن الامير عبد المؤمن بن على وقتلوا قائد جنده (للتوسع فى ذلك يرجع إلى باب القبائل الهلالية فى نفس الدراسة وفى صفحات متفرقة) .

لكن الحماديين أجزلوا لهم العطاء ومنحوهم الاقطاعيات وعينوا منهم مستشارين فى الجيش والقيادة والشرطة وصاهروهم وأدمجوهم فى المجتمع الحمادى واستعانوا بهم فى شتى المجالات التى تحتاج إلى وجودهم ودفعوابعضا منهم للسكنى فى المناطق الجنوبية من التلال والبوادى والمدن والحضر والجبال وساهموا فى وضع الفرشة العريضة لحركة التعريب واندماج الجيش العربى مع البربرى وظهور نسل جديد يتسم بالقوة والشجاعة والشهامة والكرم والرجولة وبذلك تركت الغزوة الهلالية بصماتها واضحة جلية على أرض المغرب الاوسط ولكن رغم سياسة المهادنة والمسالمة لكن التأثير الهلالى العربى لم يكن قويا فى بلاد المغرب الاوسط شأنه شأن البلاد الشرقية الواقعة من حدود مصر غربا حتى بلاد الجزائر ذلك لان الاستقرار فى المغرب الادنى كان أشمل وأوسع كما ان الموحدين نقلوا العديد من الهلالية من المغرب الاوسط بصفة خاصة إلى بلاد المغرب الاقصى مما أوجد بقية بربرية قليلة تتحدث اللغة البربرية حتى وقتنا الحاضر .

العاقات الحمادية الزناتية

ظهرت حالة العداء بين صنهاجة البربرية وزناتة أيضا منذ أن خلف بلكين بن زيرى الصنهاجي الفاطميين فى حكم المغرب ذلك لان زناتة كانت ترى انها أحق بحكم المغرب من صنهاجة حيث انها كانت صاحبة السيادة فى المغرب الاسلامى بجميع أجزائه فقد كان لها وجود قوى فى المغرب الادنى حيث طرابلس وجنوبها وكذلك قد اتخذت من المغرب الاوسط وطنا لها ومدينة تلمسان مركزا لنفوذها اضافة إلى انها كانت صاحبة السيادة على بلاد المغرب الاقصى وانها كانت تقسم الوطن الصنهاجي قسمين، قسم شرقى وقسم غربى، كما ان البطون الزناتية كانت تضرب فى صحراء افريقية جنوب تونس وسفوح الاوراس والهضاب العليا ونطاق المراعى، ومن هنا كانت الاوطان متجاورة مختلطة والعداء بينهما عداء تقليدى يضرب بجذوره فى عمق التاريخ المغربى منذ القدم وقبل الرومان وقبل الفتح الاسلامى وبعد الفتح وطوال العصر الاموى والعباسى والفاطمى وكان لها دور فى حياة المغرب .

لكن كان رحيل الفاطميين فى القرن الرابع الهجرى إلى مصر وتركهم المغرب تحت حوزة وسيطرة صنهاجة، قد أبرز الصراع بصورة واسعة وجعله صراعا طويلا مستمرا لا ينقطع بل انه اكتسب صفة الدموية واكتسب التباغض صفة عالمية دولية، وكانت زناتة تناصب الفاطميين العداء أثناء حكمهم فكيف يكون الحال بعد رحيلهم لقد أرادت زناتة أن تقوض كيان الدولة الفاطمية بمآزرتها لثورة اليزيد بن كيداد لولا الانتصار الاخير على هذه الثورة .

لكن تصدى زيرى بن مناد الصنهاجي والد بلكين مؤسس الاسرة الزيرية والحمادية لهذه القبائل واسخانه (قتله) فيها جعل جموع زناتة ترحل من المغرب الاوسط وتفرق شملها بعد أن دمرت عاصمتها «أفكان» وكانت مدينة بالمغرب الاوسط

بالقرب من تاهرت واسترد الصنهاجة تاهرت منهم وسيطرت صنهاجة على المغرب الاوسط مدينة مدينة وقصدت طبنة وأشير وتلمسان والمسيلة وبسكرة وبغاية. وهكذا فقدت زناتة قوتها ونفوذها فى المغرب الاوسط التى اضطرت تحت الهجوم الكاسح أن ترحل عنه ولذا صار المغرب الاوسط لاول مرة منذ الفتح الاسلامى شبه خال من زناتة .

لكن بعد رحيل الفاطميين كان على زناتة أن تزحف من جديد على ديارها الاولى فى المغرب الادنى والاوسط لاسيما أن الفاطميين صحبوا معهم العديد من القبائل فى حملة الفتح التى قادها جوهر الصقلى (كتامة صنهاجة وغيرها) وتطلعوا إلى انتزاع الحكم من بلكين والقدرة على مناوئته في السيادة على البلاد، وبذل بلكين بن زيرى الصنهاجى الحاكم القوى للمغرب الاوسط والادنى وما يتم فتحه فى بلاد المغرب الاقصى كل قوة لكنه لم يستطع أن يقضى على الخطر الزناتى نهائيا فى المغرب الاقصى فانه ما كاد يعود أدراجه إلى القيروان حتى استولى الزناتيون على سجلماسة وأعادوا الكرة من جديد فى توحيد الصف وأعلاء الكلمة والعمل يدا واحدة لتدمير قوة الصنهاجيين الذين أصبحوا هم القوة الوحيدة فى الميدان والمتحكمة فى مصير المغرب سياسيا بعد أن توحدت كلمة مغراوة وبدأت تباشر العدوان والهجوم على المدن التى كانت تحت يدها لمحاولة انتزاعها من يد بنى زيرى، وفى ظل المتغيرات التاريخية زال الخطر الصنهاجى عن المغرب الاقصى لانشغال بنى زيرى بمشاكلهم فى المغرب الادنى وأصبح التفكير فى المغرب الاقصى لايشغل بالهم لكن أصبح همهم الوحيد هو المحافظة على المغرب الاوسط ودفع عدوان زناتة على حدود الدولة الغربية وفى عهد المنصور بن بلكين بن زيرى ثاني خلفاء الزيريين فانه دفعا للخطر الزناتى عين أخاه حماد بن بلكين قائدا للجبهة الغربية وأمده بكل ما يحتاج من عتاد وقوات وأموال للوقوف بحزم أمام عدوان زناتة ومن ناصرها من البطون الزناتية الصغرى واستغل حماد هذه الظروف

وحاجة الدولة اليه فاشترط على ابن أخيه باديس بن المنصور أن يتولى حكم الاقاليم التى يستطيع تحريرها من أيدى زناتة وحقق له كل ما أراد وظهرت دولة بنى حماد على مسرح الاحداث فى أراضى زناتة بالمغرب الاوسط وهكذا أقام حماد دولته على حساب الوجود الزناتي بالمغرب الاوسط ومن هنا اشتدت العداوة وزادت حدتها وأصبح طابع العلاقة هو العداء منذ اللحظة الاولى التى ظهرت فيها دولة بنى حماد واستحكم العداء منذ اليوم الاول لظهورها على مسرح الاحداث فقد كانت زناتة لاتزال تسيطر على الجزء الشرقى من الجزائر إلى قرب تاهرت والقطاع الغربى من المغرب الاقصى بعد أن ارتد على أعقابه مهزوما أكثر من مرة وحاول الزناتيون الاغارة على المغرب الاوسط لكن بنى حماد كانوا لهم بالمرصاد وتم عقد صلح بين المعز بن باديس بن زيرى وبين زناتة على أن يقدم المعز لهم كل عام عددا من الخيول والسلاح .

لكن زناتة وقد أدركت بعد خوضها حروبا طاحنة مع بني زيرى تفرق شملهم وشتتت قبائلهم وفقدوا قوتهم فى المغرب الاوسط وفقدوا زهرة فرسانهم ونخبة رجالهم وخاضوا حروبا استمرت قرونا من الزمان لم يحالفهم النصر الا قليلا .

ومن هنا كان عليهم أن يصافحوا اليد التى امتدت لهم بالصلح والمهادنة من حماد بن بلكين وابنه القائد بن حماد اللذين استطاعا ان يكسرا حدة الجزء الذى تبقى منها بالمغرب الاوسط وتم اخضاعهم واعترافهم بالنفوذ السياسى والسيادة للاسرة الحمادية ومن هنا كان هناك نوع من الاستقرار فى العلاقات، لكن هذا الاستقرار الوقتى لم يمنع من سيادة زناتة على الجزء الغربى للجزائر، ولكن عصر القائد بن حماد (٤١٩– ٤٤٦هـ) قد شهد قيام زناتة بالاعتداء على الدولة الحمادية وقام حمامة بن زيرى المعراوى الزناتي بالهجوم على الجزائر بعد أن زادت مطامع زناتة فى الاستيلاء على المغرب الاوسط وطرد بنى حماد إلى افريقية لكى يعيشوا فى كنف أبناء عمومتهم

بنى زيرى أصحاب القيروان، واشتبكت زناتة مع القائد بن حماد وكادت تقضى على دولته لولا أن القائد أدرك الامر واستخدم سلاح المال الذى بذله بسخاء وسعة ووزع الاموال الكثيرة سرا على رؤساء بعض البطون مما دفعهم إلى الانسحاب ليلا من ميدان المعركة وترك حمامة بى زيرى بواجه قوات بنى حماد بقيادة القائد فانهزم الزناتيون واضطر حمامة إلى طلب الصلح والعودة إلى فاس بالمغرب الاقصى، وبذلك تمكن القائد من اخضاع بقايا زناتة فى المغرب الاوسط بعد أن فر الكثير منها إلى الصحراء خوفا من بطش الحماديين والتنكيل بهم وخضعوا لكيان وسلطة الدولة واعترفوا بالحكم الحمادى .

واتبع الحماديون عدة وسائل مع زناتة وصولا إلى اخماد ثوراتهم المتلاحقة وذلك بالتفريق بين البطون واستمالة بعضها ومصاهرة بعض منها كفرع زناتة. وعلى هذا النحو لم يترك الحماديون وسيلة الا واتبعوها مع زناتة، ورغم ان المرابطين هزموا زناتة وشتتوا جموعهم وقلصوا نفوذهم الا انهم كانوا يتحالفون مع المرابطين ضد بنى حماد، لكن الحماديين من جانبهم كانوا يستقبلون أمراء زناتة الفارين من وجه المرابطين ويجزلون لهم العطاء ويقدمون لهم كل عون نكاية فى المرابطين .

بل ان عهد الناصر بن علناش (٤٥٤– ٤٨١هـ) شهد نوعا من التعاون بين الدولة وزناتة ذلك لان الناصر عندما قرر الهجوم على المهدية عاصمة بنى زيرى عام ٤٥٧هـ فان هناك العديد من البطون الزناتية قد صحبته فى غزوته للمغرب الادنى لكن عندما اشتدت المعركة فى سبيبة وازاء اغراء تميم بن المعز لهم بالاموال فانهم انسحبوا من ميدان المعركة تاركين الناصر يواجه عار الهزيمة والفشل .

وفى عهد الناصر بن المنصور (٤٨١– ٤٩٨هـ) ثارت عليه زناتة عدة ثورات مما اضطره إلى الدخول معها فى العديد من المعارك التى منيت فيها زناتة بالفشل والهزيمة.

وهكذا مع نهاية القرن الخامس الهجرى كانت قبضة زناتة قد أصابها الضعف وعصفت الفرقة بهذه القبائل لاسيما ان كثيرا من بطونها كانت تهاجر إلى الاندلس للاشتراك فى حركة الجهاد المقدس بعد أن أغلق ميدان المغرب أمامهم وفشلوا فى اقامة دولة لهم بعد أن خضعوا للمرابطين ومن قبل للحماديين .

وهكذا ضاع تاريخ زناتة بعد أن تفرقت كلمتهم وأصبح حب الترحال والتنقل شعارهم فلم يستطيعوا توحيد صفوفهم وتكوين حلف قوى لهم يصمد أمام الاخطار وهكذا أخفقوا فى ايجاد نوع من الوحدة وبناء دولة .

ومن ثم ظلوا يناصبون العداء الدائم والمناوشات والاغارة على المدن وسلب الاموال حتى قيام الدولة الموحدية كما كانوا السبب فى استنزاف موارد دولة بنى حماد وكان الغزو الهلالى قد استنزف أيضا موارد دولة بنى زيرى فى المهدية وهكذا سقطت الدولتان ضحية الفرقة والعداء المستمر والدائم والطويل من قبائل زناتة .

بنى زيرى أصحاب القيروان، واشتبكت زناتة مع القائد بن حماد وكادت تقضى على دولته لولا أن القائد أدرك الامر واستخدم سلاح المال الذى بذله بسخاء وسعة ووزع الاموال الكثيرة سرا على رؤساء بعض البطون مما دفعهم إلى الانسحاب ليلا من ميدان المعركة وترك حمامة بى زيرى بواجه قوات بنى حماد بقيادة القائد فانهزم الزناتيون واضطر حمامة إلى طلب الصلح والعودة إلى فاس بالمغرب الاقصى، وبذلك تمكن القائد من اخضاع بقايا زناتة فى المغرب الاوسط بعد أن فر الكثير منها إلى الصحراء خوفا من بطش الحماديين والتنكيل بهم وخضعوا لكيان وسلطة الدولة واعترفوا بالحكم الحمادى .

واتبع الحماديون عدة وسائل مع زناتة وصولا إلى اخماد ثوراتهم المتلاحقة وذلك بالتفريق بين البطون واستمالة بعضها ومصاهرة بعض منها كفرع زناتة. وعلى هذا النحو لم يترك الحماديون وسيلة الا واتبعوها مع زناتة، ورغم ان المرابطين هزموا زناتة وشتتوا جموعهم وقلصوا نفوذهم الا انهم كانوا يتحالفون مع المرابطين ضد بنى حماد، لكن الحماديين من جانبهم كانوا يستقبلون أمراء زناتة الفارين من وجه المرابطين ويجزلون لهم العطاء ويقدمون لهم كل عون نكاية فى المرابطين .

بل ان عهد الناصر بن علناش (٤٥٤– ٤٨١هـ) شهد نوعا من التعاون بين الدولة وزناتة ذلك لان الناصر عندما قرر الهجوم على المهدية عاصمة بنى زيرى عام ٤٥٧هـ فان هناك العديد من البطون الزناتية قد صحبته فى غزوته للمغرب الادنى لكن عندما اشتدت المعركة فى سبيبة وازاء اغراء تميم بن المعز لهم بالاموال فانهم انسحبوا من ميدان المعركة تاركين الناصر يواجه عار الهزيمة والفشل .

وفى عهد الناصر بن المنصور (٤٨١– ٤٩٨هـ) ثارت عليه زناتة عدة ثورات مما اضطره إلى الدخول معها فى العديد من المعارك التى منيت فيها زناتة بالفشل والهزيمة.

وهكذا مع نهاية القرن الخامس الهجرى كانت قبضة زناتة قد أصابها الضعف وعصفت الفرقة بهذه القبائل لاسيما ان كثيرا من بطونها كانت تهاجر إلى الاندلس للاشتراك فى حركة الجهاد المقدس بعد أن أغلق ميدان المغرب أمامهم وفشلوا فى اقامة دولة لهم بعد أن خضعوا للمرابطين ومن قبل للحماديين .

وهكذا ضاع تاريخ زناتة بعد أن تفرقت كلمتهم وأصبح حب الترحال والتنقل شعارهم فلم يستطيعوا توحيد صفوفهم وتكوين حلف قوى لهم يصمد أمام الاخطار وهكذا أخفقوا فى ايجاد نوع من الوحدة وبناء دولة .

ومن ثم ظلوا يناصبون العداء الدائم والمناوشات والاغارة على المدن وسلب الاموال حتى قيام الدولة الموحدية كما كانوا السبب فى استنزاف موارد دولة بنى حماد وكان الغزو الهلالى قد استنزف أيضا موارد دولة بنى زيرى فى المهدية وهكذا سقطت الدولتان ضحية الفرقة والعداء المستمر والدائم والطويل من قبائل زناتة .

الفصل السادس

نهاية العرش الحمادى

واجهت العرش الحمادى عدة صعوبات بالغة منذ ظهور السيادة الحمادية على مسرح الاحداث فى المغرب الاوسط كدولة شبه مستقلة وكان استقلالها عن بنى زيرى فى القيروان وهى دويلة فى المهد قد جعلها تواجه صعوبات متعددة وقوى كثيرة من الداخل والخارج فى الداخل كما سبق القول واجهت قوى قبائل زناتة العدو التقليدى والمنافس الوحيد على عرش المغرب الاوسط لكن حمادا وابنه القائد استطاعا أن ينزلا بها العديد من الهزائم وكانت بين الدولة الحمادية وزناتة العديد من المعارك والحروب والوقائع ولم تفلح الدولة الحمادية فى القضاء نهائيا على قوة زناتة وظلوا يثيرون القلاقل والمتاعب فى وجه الامراء مما أضعف قوة الدولة وجعلها لا تقدر على مواجهة التحديات الخارجية، لكن يبدو ان هذه المخاطر قد قل شأنها منذ عهد الناصر بن علناش الحمادى، لكن كان عليهم أن يواجهوا خطر أبناء عمومتهم بنى زيرى الذين كانوا يرون انهم أصحاب السلطة الشرعية فى بلاد المغرب الاوسط وان استقلالهم عن الدولة قد جاء فى ظروف لم يكن المسئولون يدركون أن هذا الاستقلال سوف يصبح بهذه الصورة واقعا تاريخيا وقد كان الصراع بين القوتين منذ عام ٤٠٥هـ عندما أعلن حماد بن بلكين استقلاله وساعدت الظروف بنى حماد على تحقيق حلمهم فى الاستقلال التام لكن هذا التحدى للحماديين استمر حتى سقوط دولة بنى زيرى، وظل الصراع بين القوى الثلاث بنى حماد، بنى زيرى، زناتة طوال تاريخ هاتين الدولتين حتى ظهور الموحدين كقوة سياسية ودينية استطاعت توحيد المغرب .

لكن العرش الحمادى كان عليه أن يواجه أيضا قوة المرابطين القوية النامية التى

استطاعت أن تسيطر على المغرب الاقصى وبدأت تدق أبواب الجزائر من أجل السيطرة على المغرب الاوسط ويسطوا نفوذهم السياسى على تلمسان والجزائر ووقفوا عند هذه الحدود وهى الحدود السياسية الشرقية للمرابطين والتى كانت تهدد الحماديين ولقد كان بامكان المرابطين أن يبسطوا نفوذهم على كل أراضى المغرب الاوسط والادنى لولا احساسهم برابطة الدم وصلة القربى والاصل الواحد (صنهاجة) وهكذا أضيف تحد آخر غير زناتة وبنى زيرى للحماديين حد من طموحاتهم ووقف سدا منيعا أمام مد أبصارهم للمغرب الاقصى، ثم كان التحدى الرابع وهو تحدى القبائل العربية الهلالية وهو التحدى الذى بدأ يطرق أبواب المغرب الاوسط فى أواخر عهد القائد بن حماد ٤٤٦هـ وذلك بعد السيطرة على القيروان عام ٤٤٩هـ وكان حصارهم الشديد والمتواصل بعد معركة سبيبة وهزيمة الناصر بن علناش عام ٤٥٧هـ وقراره بترك العاصمة القلعة عام ٤٦١هـ والرحيل إلى بجاية كما رحل المعز بن باديس سابقا من القيروان إلى المهدية بعد أن رأى الناصر بن علناش انه لاقبل له بالقوة العربية الهلالية التى لاتعرف الهزيمة فكان قراره إلى بجاية بعد أن أشار عليه وزيره ابن البعبع لتحاشى هجومهم الساحق على عاصمته القلعة وكانت سياسة المهادنة خروجا من هذا المأزق السياسى الذى وقع فيه الناصر بن علناش بتسبيه فى معركة سبيبة .

وكان التحدى الخامس الذى واجهه بنو حماد وكان السبب الرئيسى وراء نهاية العرش الحمادى والحافز الاول للتدخل الموحدى السريع للحيلولة دون سقوط بجاية فى أيدى النورمان هو تحدى القوات الفرنجية القادمة من أوربا بعد أن استولى النورمان على صقلية عام ٤٨٤هـ وهددوا السواحل المغربية واستولوا على المهدية بعد عدة محاولات عام ٥٤٣هـ وقضوا بذلك على دولة بنى زيرى وأحاطت الاخطار بالدولة وكان الخطر النورمانى هو أشد الاخطار التى عصفت بالدولة الحمادية بعد أن بدأ يسيطر على الموانئ

الساحلية التابعة لبنى حماد وبعد أن سيطروا على المهدية .

ولقد اصطدم الحماديون بكل هذه القوى لانهم وقعوا فى أخطاء تاريخية قاتلة تأخذ عليهم عبر حكمهم للبلاد ومنها انهم تركوا أبناء عمومتهم بنى زيرى يواجهون الزحف الهلالى الجارف منفردين اللهم الا من ألف فارس أرسلها القائد بن حماد للمعز بن باديس كمساعدة رمزية وكان من الممكن أن يبدى له من النصائح فى اتباع الاسلوب الذى اتبعه هو نفسه بسياسة الاحتواء والمسالمة والتنازل عن بعض الاقطاعات واشراكهم فى الجندية والشرطة لكنه تركهم يواجهون المصير وشجعوا الثورات ضدهم وأخضعوا العديد من المدن الزيرية لنفوذهم كما انهم لم يعيروا الالتفات إلى الخطر النورمانى وسقوط صقلية ومالطة وغيرها من الجزر وعدم وجود أدنى اهتمام بالصراع الدائر يدل على سذاجة وبلاهة من قبل القائمين على الامر فى العاصمة بجاية، بل انهم لم يمدوا يد العون لابناء عمومتهم بنى زيرى وتركوهم نهبا ومطمعا ونهاية لدولتهم أمام خطر النورمان بل انهم لم يحركوا ساكنا لمساعدة الحسن بن على آخر خلفاء بنى زيرى، بل اننا نجد معاملة قاسية منهم له فكان الحسن بن على قد أرسل أولاده الكبار على ويحيى وتميم إلى ابن عمه يحيى بن العزيز الحمادى صاحب بجاية لكى يأذن لهم بالمرور فى أرضه وصولا إلى أمير الموحدين عبد المؤمن بن على فأذن له يحيى فسار اليه الحسن بن على لكن يحيى تنكر له وخدعه وذلك لان الحسن بن على عندما وصل إلى بجاية رفض أن يقابلة بل أمر بأن يؤخذ سجينا إلى الجزائر وأصدر أوامره بمنعه من اكمال سفره وأن يكون مقامه بمدينة الجزائر هو وأولاده تحت حراسة مشددة، وعرف الحسن انه خدع فى ابن عمه ولقد كان الدافع وراء منعه من اكمال السير هو خوفه من الوصول إلى عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين وربما يكون اتصال الحسن مقدمة لاستيلاء الموحدين على بجاية ومنعه من السفر والكتابة بما جرى

فى بلاده إلى الخليفة عبد المؤمن، كذلك فان التنافس والحروب والبغضاء بين الحماديين وأبناء عمومتهم كانت السبب وظل الحسن مقيما بالجزائر ومنع من الذهاب لمقابلة عبد المؤمن بن على لشرح قضية بلاده ولنصر المسلمين من نصارى صقلية وبعيد المهدبية وقد حقق الله للحسن أمنيته حين قدم لبجاية بقوات الموحدين واستولى عليها عام ٥٤٧هـ ولم يدم بقاء النورمان بالمهدية طويلا .

ولقد كانت نهاية العرش الحمادى فى عهد الامير يحيى بن العزيز ابن المنصور بن الناصر بن علناش الحمادى (٥١٠- ٥٤٧هـ/ ١١٢٧- ١١٥٢) ذلك لانه عندما تولى يحيى بن العزيز عرش بنى حماد كان المرابطون قد بدأوا يدخلون طور الانهيار وزوال هيبتهم فى نفوس الاندلسيين والمغاربة وكان محمد بن تومرت الملقب بالمهدى قد نجح فى أن يجمع حوله عددا من الانصار من قبيلة المصامدة بعد أن عاد إلى المغرب وكان محمد بن تومرت المصمودى قد وصل من المشرق إلى بجاية عام ٥٨٢هـ فى عهد العزيز بن المنصور (٥٩٨- ٥١٥هـ) وهناك سعى إلى العزيز من وشاية وائتمر عليه فخرج إلى قبيلة «ورياكل الصنهاجية» ونزل عندهم وأقام يدرس العلم وطلبه العزيز لكن أهل هذه القبيلة منعوا قواته وقاتلوا دونه وكان قد التقى بعبد المؤمن بن على بالمغرب الاوسط ثم ارتحلا سويا إلى المغرب وأخذ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويهاجم أمراء العصر المسلمين ويتهمهم بأنهم مسؤلون عما حل بالمجتمع من مصائب وما وصل اليه من انحلال واستطاع بعد جهود متصلة أن يهدد الدولة المرابطية وأن يتهم المرابطين بالزندقة ورميهم بالضلالة والكفر وما أصاب البلاد من فساد وتهيأ ابن تومرت لكى ينال من المرابطين ونجح محمد بن تومرت المصمودى فى كسب الانصار لدعوته الجديدة وجمع جيشا من المصامدة وهزم المرابطين عام ٥١٧هـ/ ١١٢٣م وكانت دولة المرابطين قد مضى على ظهورها وقت طويل وبدأ الفساد يدب

في أوصالها وتفقد أثرها في نفوس القوم .

وعلى الجانب الشرقي كان بنو زيرى في المهدية في الرمق الاخير لبقاء دولتهم بعد أن بدأوا يتعرضون لغزو النورمان في أيام الحسن بن على كما سبق القول وكان ظهور الموحدين قد جعل المرابطين لا ينظرون خارج حدودهم السياسية وجعلهم لا يتفرغون الا لمواجهة مشاكلهم الداخلية وكان يحيى بن العزيز كما سبق القول مولعا بالنساء ومحبا للدعة والراحة ومولعا بالصيد وكان عبد المؤمن بن على يصف حكام بجاية بالقسوة والجبروت وهو الذى عاش زمنا في المغرب الاوسط .

ولكن كانت الدولة الحمادية قد استقرت بالجزائر وكانت قوية مرهوبة الجانب لفترة تزيد عن اثنين وستين عاما ثم أصيبت ببعض الضعف ولكنها لم تصل إلى درجة دولة بنى زيرى واذا ألقينا نظرة على حال الدولة فاننا نستشف من مجريات الاحداث انها كانت تتسم بالقوة التامة منذ تأسيسها عام ٤٠٥هـ إلى عام ٤٦٠هـ حتى سنة قرار الناصر بالرحيل إلى بجاية وهزيمته أمام تميم بن المعز عام ٤٥٧هـ في سبيبة، ومن هذه السنة إلى زوال العرش الحمادى عام ٥٤٧هـ كانت قوتها تختلف باختلاف أمرائها الذين جلسوا على عرشها ولعل أكبر سبب عجل بسقوطها هو عدم مبالاتها بما يجرى لاشقائها بنى زيرى وتركها وحيدة منفردة تدافع العرب الهلالية والنورمان في صقلية وأخيرا في المهدية حتى سقطت صريعة أمامها ثم سرت العدوى اليها فأصيبت ببعض ما أصيب به بنو زيرى ولو طال بها الامد لاحتل النورمان كثيرا من مدنها الساحلية ولكن أواخر النصف الاول من القرن السادس الهجرى كان يتمخض عن ظهور قوة كبرى فتية لتجابه قوة النورمان والاسبان المتكالبة على المغرب الاسلامى ولتوحد شمل المغرب بأقسامه المختلفة والاندلس المشتت وتلك القوة التى نتحدث عنها هى قوة الموحدين التى كانت وراء سقوط هذه العروش المتهالكة والتى لم يكن يعنيها

من أمر الدين الا اسمه ومن أمر الاسلام الا الحكم تاركة الامور تجرى بلا وعى ولا دراسة ولا خطة ولا نظرة موضوعية للاحداث والمشاركة فيها، بل كانت الاطماع فى ديار الاسلام هى نهجهم وابتزاز الاهالى وجمع المال هو هدفهم، ولم ينظر إلى بنى زيرى الذين كانوا يعانون فى المهدية ويلات الالتفاف النورمانى والذين ملكوا جميع البلاد الاسلامية فى جنوب أوربا ويقومون بتحريض بابوات روما بدك ديار المسلمين وبنى حماد يراسلون البابوات فى روما ويرسلون لهم الهدايا ويشترون بأموال المسلمين الاسرى المسيحيين ويتم ارسالهم إلى روما ويعذب المسلمون فى الاندلس وصقلية، بل الهجوم على المهدية قد تم بتحريض ومباركة من البابا .

ويذكر ابن الاثير فى كتابه الكامل أن الحقد التاريخى الكامن فى نفس يحيى بن العزيز ونفوس آبائه وأجداده كان من أهم الاسباب التى دفعت يحيى بن العزيز للهجوم على المهدية عام ٥٢٩هـ/ ١١٣٤م كما سبق أن هاجمها جده الناصر بن علناش عام ٤٥٧هـ، فى حين يرى ابن عذارى المراكشى أن القبائل العربية هى التى دفعت يحيى ابن العزيز إلى غزو المهدية ومساعدته من أجل تملكها ويذكر ابن أبى دينار، أن يحيى ابن العزيز قصد المهدية لما سمع بأن الحسن بن على هادن روجار الثانى صاحب صقلية وتعهد بدفع جزية سنوية كبيرة له .

ويذكر الجيلالى فى تاريخ الجزائر ان الوفد الذى قدم من المهدية ليحيى بن العزيز شرح له سوء حال البلاد مع النورمان وسوء سلوك الحسن بن على ومصادقته لروجار وكان لجوء الحسن بن على إلى الصلح مع النورمان نوعا من الاستسلام فى نظر فقهاء المسلمين رغم ان الظروف أملته عليه ولم نسمع عن محاولة حمادية للوقوف بجانب بنى زيرى فى هذه الظروف وان اهانه النورمان للزيريين كانت فرصة للحماديين للاستيلاء على أملاكهم .

بل ان النزاع الذى وقع بين الحماديين والزيريين كان نوعا من الصراع على أملاك الدولة الزيرية وميراثها وبينما كانت مشاكل الحسن بن على آخر سلاطين بنى زيرى تتكالب عليه فى الداخل والخارج كان الحماديون يستغلون الفرصة وينقضون على الدولة الزيرية من أطرافها كما فعل النورمان والعرب .

واذا كان الناصر والمنصور والعزيز قد حاولوا التقرب إلى أبناء عمومتهم عن طريق المصاهرة الا ان يحيى بن العزيز هذا لم يقدم أية محاولة لابناء عمومته لذا أثبتت الاحداث ان الزيريين كانوا أكثر انسانية وولاء للدم والصلة كموقف تميم بن المعز وصلحه مع الناصر بن علناش وموقف الحسن بن على من الاسطول الحمادى الذى جاء لغزو المهدية ومنع أسطول صاحب صقلية من الاشتباك معه وموقف المعز بن باديس مع حماد بن بلكين مؤسس الاسرة عام ٤٠٨هـ وموقف المعز بن باديس أيضا مع القائد بن حماد عام ٤٣٢هـ ولم تجد هذه المواقف أدنى صدى لدى الحماديين بل ان من حسن النية ما جاء من تصرفات الحسن بن على وذهابه إلى بجاية ما حدث له من أحداث كما سبق القول .

بل ان هذه الافعال وما حدث من أحداث جعلت النورمان لا يهابون المرابطين بعد أن كانت ترتعش فرائصهم عند سماعهم بالمرابطين والذين غزوا صقلية أكثر من مرة ولكن لم يأت عام ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م الا وكان النورمان يهاجمون مدن الحماديين أصدقائهم فهاجموا مدينة جيجل وقد نجح روجال الثانى فى أخذها عنوة وفى عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م فتحت برشك وسواحلها وسبوا أهلها وباعوهم فى صقلية. وبعد هذه الاحداث فطن الحماديون إلى أخطائهم فى الاختلاف مع بنى زيرى، عندما قدم النورمان يغيرون على شواطئ المغربين الاوسط والادنى وأصبحوا قبل تحرك الموحدين مسيطرين على الساحل الممتد عبر ليبيا وتونس والجزائر حتى عناية فى

الساحل الشرقى للجزائر. وكان الوجود النورمانى سببا فى تقدم الموحدين شرقا للسيطرة على المغرب الاسلامى لاسيما بعد مراسلات الحسن بن على الذى كان سجينا فى الجزائر .

ولقد كانت سياسة الموحدين ترمى إلى توحيد المغرب الاسلامى كله والسيطرة على الجانب الشرقى من بلادهم وكانت بجاية بنى حماد والقلعة التى ثبت ضعفها وتخاذلها فى وجه النورمان وهادنت المسيحيين بعد أن سيطروا على الساحل المغربى الممتد من ليبيا وتونس وجزء من المغرب الاوسط، ومن ثم استنجد المسلمون بالخليفة عبد المؤمن بن على الموحدى ذلك لان دولة بنى حماد فى ظل حكم يحيى العزيز لم تعد قادرة على حماية بلادها من احتلال النورمان وكان الموحدون ينظرون إلى امداد يحيى بن العزيز الحمادى لتاشفين بن على بن يوسف آخر حكام المرابطين عام ٥٣٩هـ/ ١١٤٢م بالعدة والسلالح والرجال، كما ان لجوء بقايا المرابطين إلى الحماديين فى بجاية، كما ان القبائل العربية المنتشرة فى تونس والجزائر كانت تسبب القلاقل لدى الموحدين وتخل بأمن المغرب الاقصى، ومن هنا كان الموحدون يرنون بأبصارهم إلى الدولة الحمادية بعد أن اشتبكوا مع قواتهم بقيادة ميمون بن حمدون حين هزم وهو يساعد تاشفين بن على بن يوسف بن تاشفين وهرب إلى تلمسان ثم أخذ طريقة مسرعا إلى الشرق، ومن أجل ذلك تحرك عبد المؤمن واتخذ قراره بالاستيلاء على بجاية فتحرك من عاصمته عام ٥٤٦هـ/ ١١٥٢م وأعد أسطوله وحشد قواته وتظاهر بالرغبة فى العبور إلى الاندلس ومن ثم أفشل مخطط الحماديين وهاجمهم على حين غفلة وطرق الجزائر وفر منها واليها الحمادى وهو القائم بن العزيز شقيق الامير الحاكم يحيى وعندما وصل القائم إلى أخيه لم يكن قد أخذ للامر أهبته واستعداده ولم يجد وسيلة أمامه ولا وقتا الا والموحدون يحاصرون بجاية وضيقوا عليها الخناق

واستسلمت المدينة فى ذى القعدة ٥٤٧هـ وأحدث سقوط بجاية رد فعل عنيف فى المغرب لان سقوطها يعنى سقوط صنهاجة كبرى القبائل البربرية وتقدمت جيوش الموحدين بقيادة عبد الله ابن عبد المؤمن إلى القلعة والتى كانت العاصمة الثانية للبلاد ودخل الموحدون القلعة وأشعلوا النيران فى مساكنها وقاموا بعملية تخريب شملت كل المدينة وامتلأت أيدى الموحدين بالغنائم والاسرى والسبايا أقوال غريبة (جوتيه) ولقد كانت أعمال الموحدين فى بجاية والقلعة سببا فى اثارة القبائل العربية الهلالية من الاثيج ورباح وزغبة وغيرها وجهز عبد المؤمن جيشا لقتالهم لكنهم هزموا جيش الموحدين وقاتلوا قائد هذا الجيش، لكن عبد المؤمن حشد كل جيوش الموحدون لقتالهم ونشبت معركة شديدة هزم فيها العرب (مصطفى أبو ضيف أحمد، أثر العرب فى تاريخ المغرب) واستولى الموحدين على أملاكهم ونجحوا فى القضاء على ملك العرب فى هذه الانحاء عام ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م وحققوا فى ذلك نجاحا كبيرا فى السيطرة على الجزائر الحالية .

ولقد كانت خيانة ميمون بن حمدون وزير يحيى بن العزيز الحمادى وارتماؤه فى أحضان الموحدين من أكبر العوامل التى ساعدت على وضع نهاية للعرش الحمادى، ولقد خرج يحيى بعد الهزيمة هاربا بأسطوله يريد صقلية ومنها إلى بغداد للاستعانة بالخلافة العباسية لكن عدل عن ذلك ورحل إلى بونة (عناية) نازلا لدى أخيه الحارث بن العزيز لكنه أساء معاملته فاضطر إلى الخروج إلى قسنطينة لدى الحسن بن العزيز أخيه فأحسن معاملته وتحصن يحيى بقلعة قسنطينة استعدادا لمقابلة هجوم الموحدين لكن عبد المؤمن بن على ضيق عليه الخناق مما اضر يحيى بن العزيز إلى التفاوض وأعلن خضوعه للموحدين وأما أخوه عبد الله فقد فر إلى صقلية واستنجد بالنورمان فأمدوهم بأسطول حاصر بونة وأعانهم العرب فاستولوا عليها وظلوا يحكمونها حتى عام

٥٥١هـ/ ١١٥٦م لكن الموحدين استولوا على المدينة للمرة الثانية وتعتبر اعادة الاستيلاء على بونة نهاية للدولة الحمادية والاستيلاء على كل أملاك بنى حماد كما كان استسلام الامير يحيى بن العزيز فى قسنطينة اعلانا بنهاية العرش الحمادى، ولولا ظهور الموحدين لسقطت دولة بنى حماد فى أيدى النورمان الذين استولوا على المهدية عام ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م والذين كانوا يستعدون للزحف على بجاية بعد أن نقضوا صلحهم مع الحماديين ولم يعد الصلح يحقق مصالحهم .

وهكذا طويت صفحة من صفحات التاريخ الاسلامى فى المغرب الاوسط ليدخل المغرب الاسلامى مرحلة جديدة من تاريخه والذى توحد فيه على أيدى الموحدين ولم تعد هذه الوحدة للظهور مرة أخرى عبر أدوار التاريخ المختلفة حتى وقتنا الحاضر وان كانت محاولات توحيد المغرب العربى فى مجلس اتحاد المغرب العربى لم تبلغ ما يصبو اليه أهل المغرب من قيام المغرب الكبير ككيان واحد ودولة واحدة فى ظل الاسلام والعروبة لكى تواجه التحديات التى يتعرض لها والمخاطر التى تتهدده .

أمراء بنى حماد الزيريين الصنهاجة

حكام المغرب الاوسط (الجزائر)

١ - حماد بن بلكين بن زيرى الصنهاجى

٤٠٥- ٤١٩هـ- ١٠١٤- ١٠٢٨م

٢ - القائد بن حماد بن بلكين

٤١٩- ٤٤٦هـ- ١٠٢٨- ١٠٥٤م

٣ - محسن بن القائد بن حماد

٤٤٦- ٤٤٧هـ- ١٠٥٤- ١٠٥٥م

٤ - بلكين بن محمد بن حماد

٤٤٧- ٤٥٤هـ- ١٠٥٥- ١٠٦٢م

٥ - الناصر بن علناش بن حماد

٤٥٤- ٤٨١هـ- ١٠٦٢- ١٠٨٩م

٦ - المنصور بن الناصر بن علناش

٤٨١- ٤٩٨هـ- ١٠٨٩- ١١٠٤م

٧ - باديس بن المنصور بن الناصر

٤٩٨- ٤٩٨هـ- ١١٠٤- ١١٠٥م

٨ - العزيز بن المنصور بن الناصر

٤٩٨- ٥١٥هـ- ١١٠٥- ١١٢١م

٩ - يحيى بن العزيز بن المنصور

٥١٥- ٥٤٧هـ- ١١٢١- ١١٥٢م

الخاتمة

من خلال هذا العرض لجوانب الموضوع المختلفة عن دولة بنى زيرى والهلاليين وبنى حماد فى المغربين الادنى والاوسط ومن ندرة المصادر التى تتحدث عن المغرب الاقصى خلال تلك الفترة الزمنية وقبل قيام دولة المرابطين وحالة الفوضى التى كان يعيش فيها المغرب الاقصى والاضطراب السياسى فانه يتضح لنا كيف ان الدولة الفاطمية فى عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمى عندما قرر الرحيل إلى مصر وترك المغرب في عام ٣٦١هـ/ ٩٧٢م فانه اختار زعيم قبيلة صنهاجة بلكين بن زيرى والذى كان والده زيرى وهو شخصية قد قام بدور كبير فى خدمة الدولة الفاطمية لكى يتولى حكم المغربين الادنى والاوسط ومحاولة السيطرة على بلاد المغرب الاقصى ومن ثم كان تولى بلكين بن زيرى ادارة المغرب هو أول عهد بالبربر لقيادة البلاد بأنفسهم والاعتماد على ذاتهم بعد أن وضع الفاطميون أساس الحكم وادارته التى تسير عليها البلاد .

ومن ثم كان على بلكين بن زيرى أن يظل وفيا عارفا بالولاء للدولة الفاطمية والخضوع لتعاليم القاهرة وظل الحال على هذا المنوال طوال حكم ابنه المنصور وحفيده باديس وان كانت نزعة الاستقلال تختمر فى عقولهم محاولين التحرر من السيطرة الفاطمية لاسيما وان شعب المغرب كان يرفض المذهب الاسماعيلى الشيعى وكان الولاه من جانبهم يرغبون فى الولاء للخلافة العباسية ونزع طاعة الفاطميين .

وفى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى قام رابع أمراء بنى زيرى السلطان المعز ابن باديس بخلعه لطاعة الفاطميين واعترافه بالخلافة العباسية والقضاء على كل أثر ونفوذ للشيعة فى البلاد وأعاد المذهب المالكى إلى سالف عهده قبل دخول الفاطميين

إلى بلاد المغرب وتأسيس عبد الله المهدى للدولة الفاطمية. لكن ذلك أغضب القاهرة والخليفة ووزيرة أبا الحسن اليازوروى الذى فكر فى ترحيل القبائل العربية الهلالية إلى المغرب وأقطاعها حكم هذه البلاد من قبل الخلافة الفاطمية وتم له ما أراد وتحركت القبائل العربية الهلالية فى هجرات واسعة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ الاسلامى والذى قدرت المصادر عدد أفراد هذه الغزوة التى تمت فى النصف الاول من القرن الخامس الهجرى ما يقرب من المليون نسمة أو نصف مليون أو يقل عن ذلك. المهم ان هذه القوات نزلت أرض المغرب وبدأت تنتشر فيه وما أن جاء عام ٤٤١هـ حتى كانت هذه القبائل قد انتصرت على المعز بن باديس فى معركة حيدران ومن ثم بدأت تبسط نفوذها وتعلن عن قوتها وهيمنتها على بعض المدن التى خضعت لحكمها لاسيما صفاقس وقفصة وتونس والاقاليم الجنوبية فى الزاب ومن ثم بدأت تتحرك تجاء المغرب الاوسط بعد أن طاب لهم المقام فى أرض المغرب الادنى وكانت معركة سبيبة عام ٤٥٧هـ بين تميم بن المعز بن باديس وبين الناصر بن علناش الحمادى وما ترتب عليها من انتصار لتميم بن المعز بمساعدة القبائل العربية الهلالية .

ومن ثم افتتح الطريق أمام هذه القبائل للتحرك غربا إلى أراضى الدولة الحمادية وبدأوا يضيقون الخناق على بنى حماد وحاصروا القلعة عاصمتهم السياسية وخشى الناصر بن علناش على كيانه السياسى من النفوذ الهلالى العربى فكان قراره بأن ترك العاصمة القديمة القلعة كما ترك ابن عمه المعز بن باديس القيروان عاصمة المغرب الادنى من قبل عام ٤٤٩هـ وكان انشاء العاصمة بجاية كما زاول الزيريون حكمهم فى المهدية من قبل، لكن الحماديين كانوا يخشون على بلادهم من تعرضها للاخطار فكانت سياسة المهادنة والاحتواء واستخدام الاسلوب اللين فى التعامل مع القبائل العربية فأشركوهم فى الجيش وفى الشرطة وفى الدفاع عن بعض المدن وأقطعوهم

الاقطاعيات الكبيرة وتقربوا اليهم بالمصاهرة وفى مجالسهم الاستشارية ومن ثم أصبح للعرب الهلالية نفوذ فى دولة بنى حماد حيث استفادوا من وجود العرب فى النواحى السياسية والحضارية والثقافية والعسكرية والشرطة وفى مختلف المجالات كالاقتصاد والتجارة والزراعة وحماية الامن والقوافل التجارية ولاسيما قافلة الحجيج المتجهة إلى الاراضى الحجازية .

والذى يطالع تلك الدراسة بأبوابها الثلاث يجد أن هذه الكيانات اذ جاز لنا أن نقول أن العرب الهلالية كيان بذاته رغم أنهم فشلوا فى اقامة دولة لهم الا انهم حكموا العديد من المدن وكان تأثيرهم واضحا كل الوضوح على أوجه الحياة فى دولة بنى زيرى وبنى حماد يدرك ان هذه الكتل الثلاث كانت مترابطة متصلة بل أن تاريخها يكاد يكون تاريخا واحدا وان كانت هناك بعض الفوارق البسيطة، فالدولة الزيرية والحمادية تعود فى أصولها إلى جد واحد هو مؤسس هذه الاسرة وهو بلكين بن زيرى وان اختلفت بعد ذلك مصالح كل منهما عن الاخرى لاسيما بعد استقلال الحماديين بحكم المغرب الاوسط فى ظل الحكم الزيرى ومن ثم بدأت الامور تأخذ بعدا آخر بينهما بعد الغزوة الهلالية التى رأى فيها بنو حماد ضالتهم المنشودة لكى يحققوا حلمهم فى الانفراد بزعامة المغرب والاحساس بقوتهم بعد أن ضعف بنو زيرى وتركهم منفردين يواجهون خطر الهلالية من صقلية عبر البحر المتوسط وكان النورمان سادة هذا الزحف الذى كانت نهاية دولة بنى زيرى على يديه بعد أن أصاب الدولة الضعف والانهيار والتفكك من جراء الصراع المتصل مع بنى حماد وزناتة والعرب ومن ثم انتهت الدولة الزيرية عام ٥٤٣ بسقوط المهدية عاصمة الدولة تحت ضربات القوة النورمانية التى استطاعت الانفراد بدولة بنى زيرى ودخول دولة المرابطين القوية مرحلة الضعف ولم يعد النورمان يعملون لها أدنى حساب ولم يعد أسطولهم البحرى القوى

يهدد صقلية أو يقف حجر عثرة أمام طموحات النورمان فى مدن ساحل المغرب فتم لهم ما ارادوا من السيطرة الفعلية وبعد ذلك مدوا أبصارهم إلى المغرب الاوسط فاحتلوا بعض مدنه مثل بونة (عنابة) وغيرها من المدن وكانوا قبل ذلك قد نقضوا صلحهم مع بنى حماد لان هذا الصلح لم يعد يحقق لهم أهدافهم ومآربهم فى السيطرة والاحتلال وبسط النفوذ .

وفى كل هذه الاحوال فان الغزوة الهلالية التى أشار اليها المؤرخون بأنها سبب انتكاسات شديدة للتاريخ المغربى لم يكن هذا فى جانب الصواب بل كان فيه الكثير من المغالطات والغربة التاريخية التى انساق وراءها العديد من المؤرخين دون أن يفندوا ذلك تفنيدا علميا فوقعوا فى الخطأ الذى أوقع فيه ابن خلدون نفسه والذى كتب عن الغزوة الهلالية فى القرن السابع الهجرى، وأوائل القرن الثامن الهجرى فى حين ان الغزوة الهلالية كانت فى النصف الاول من القرن الخامس الهجرى وشتان بين المشاهدة والعيان وبين الاعتماد على مصادر معادية للعرب والعروبة وربما للاسلام ومن هنا فان قراءة علمية صحيحة فى تاريخ بنى هلال ودراسه الآثار التى ترتبت على هذه الغزوة سواء كانت مؤثرات سلالية بربرية جنسية عرقية أو حضارية لغوية ثقافية واجتماعية ودراسة التقاليد والعادات والقيم الاخلاقية والحضارية التى تركتها هذه الغزوة فى حياة المجتمع العربى من حدود مصر الغربية حتى المحيط الاطلسى يدرك ان تلك الغزوة كانت صفحة مضيئة فى تاريخ هذه البلاد، بل انها كانت السبب المباشر والقوى بل الاوحد فى صيانة كيان المغرب عربيا واسلاميا وحضاريا وتاريخيا ووقوفه فى وجه التحديات العاتيات وانتصاره على كل تحديات الازمان والمكان التى حاولت أن تطمس شخصيته أو تنقص من كيانه العربى الاسلامى الخالد فى وجه الطغاه والغزاه فالى الغزوة الهلالية يعود كل هذا الفخار والزهو العربى الاصيل فى بلاد المغرب .

ومن ثم اذا كانت الظروف التاريخية فى القرنين الخامس والسادس الهجرى لم تساعد القوى الاسلامية فى بلاد المغرب على التوحد والعمل يدا واحدة فى مواجهة الاخطار التى كادت تعصف بالقوى الاسلامية فى هذا البلد الاسلامى الخالد ولم تكن القوى السياسية كبنى حماد تفهم حقيقة الصراع الدائر فى العصور الوسطى والذى كان يأخذ طابع الصراع الدينى بين الاسلام والمسيحية مما أوقع البلاد فى أخطاء شديدة أدت إلى الانهيار السياسى والضعف الاقتصادى والاضمحلال العسكرى والانحدار التاريخى فى ظل أبعاد خطيرة كانت تدور على الوجهة المقابلة للبحر المتوسط حيث الشاطئ الشمالى وحيث سياسة الابادة والطرد والقتل والحرق والتدمير التى اتبعها الاوربيون مع المسلمين فى كل البلاد الاسلامية فى جنوب أوربا وجزر البحر المتوسط والاندلس، ثم القفز على الساحل الجنوبى لاحتلاله وبسط النفوذ عليه والسيطرة على المغرب العربى الاسلامى .

وفى حقيقة الامر لقد وقع كل من ساسه بنى زيرى وبنى حماد فى أخطاء تاريخية قاتلة تجاه التعامل مع العرب الهلالية وتجاه التعامل فيما بينهما وفى النظرة إلى حقيقة الصراع بين القوى الاسلامية والقوى المسيحية .

ولولا أن قيض الله للامة العربية الاسلامية فى بلاد المغرب قوة اسلامية فتية شابة أدركت أبعاد المخطط الذى يحاك ضد القوى الاسلامية لاسيما ان الصراع كان يدور فى شمالها حيث الاندلس وفى الشرق منها حيث احتلال المغرب الادنى من طرابلس شرقا إلى بونة بالمغرب الاوسط غربا فكان أن تحركت القوى الاسلامية الموحدية بقيادة عبد المؤمن بن على أول خلفاء الموحدين للوقوف ضد الاطماع الاوربية ووضع حد لهذا النفوذ فتم الاستيلاء على بجاية عاصمة بنى حماد عام ٥٤٧هـ قبل سيطرة النورمان عليها وتم طرد النورمان من المهدية عام ٥٥٥هـ بعد أن كان النورمان قد سيطروا عليها

عام ٥٤٣هـ وكان ذلك انقاذا للامة الاسلامية فى المغرب من خطر كان يتهددها ويعمل على تقويض كيانها الاسلامى ومن كل هذه التحركات اننا لا ننسى ان بابوات روما كانوا يشجعون مثل هذه الحملات العسكرية على ديار المسلمين لاخضاعهم واضعافهم والقضاء على قوتهم الروحية التى كانت لاتزال تتهددهم لانهم يرون أن الخطر الوحيد الذى يتهدد كيان أوربا فى ذلك الوقت هو خطر انتشار الاسلام وبهذا طويت صفحات هذا الجزء من الموسوعة ونحن ندرك من قبلنا ان الوحدة الاسلامية التى لم تكن قد سادت بلاد المغرب الاسلامى فى ظل التواجد الهلالى العربى ودولة بنى زرى وبنى حماد لو كان قد تم لها الظهور ولم يحدث الانقسام الذى حدث بين المغربين الادنى والأوسط ولو ان السياسة الزيرية استطاعت احتواء الغزوة الهلالية والاستفادة منها مبكرا واستغلالها فى تحقيق خدمة الاسلام والجهاد فى جنوب أوربا، لتغير وجه التاريخ نهائيا ولما سقت الدول الاسلامية فى جزر البحر المتوسط وجنوب أوربا والاندلس لكن الفرقة واستغلال الدول الاوربية حال التشرذم التى كان يعيشها بنو حماد وتحسن العلاقات معهم وتبادل الهدايا وشق الصف الاسلامى، كل ذلك أدى إلى ضعف هذا الصف وانقسام وحدته وتفرق شمله .

فكانت الاحداث التى وقعت والمصائب التى أصابت العالم الاسلامى فى تلك الوقت من جراء السياسة الرعناء التى اتبعها بعض الولاه قبل الدول الاوربية وقبل أبناء عمومتهم وقبل القبائل العربية الهلالية فحقت عليهم الهزيمة والانكسار والزوال التاريخى من ساحة الاحداث وقيام كيان عربى اسلامى واحد تمثل فى دولة الموحدين التى وحدت المغرب الاسلامى بجميع أقسامه وقدر لها أن تحكم هذه الديار فى ظل العقيدة الاسلامية وفى ظل القوة الايمانية التى قطعت داير الاعداء ولم يكن لهم أدنى مقدرة على تحدى الارادة العربية الاسلامية التى وقفت لمخططاتهم بالمرصاد دفاعا عن الحق العربى الاسلامى فى ديار الاسلام بعد أن شاهدوا بأعينهم كيف يتعرض أخوة لهم فى الاندلس لكل ما تعرضوا له من أحداث جسام .

المصادر والمراجع

أولا – المصادر العربية :

١ – ابن الآبار (أبو عبد الله محمد) : الحلة السيراء ، نشرة حسين مؤنس . القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٢ – ابن الاثير (أبو الحسن الجرزى) الكامل فى التاريخ . القاهرة، ١٣٠٣هـ.

٣ – الادريسى : أبو عبد الله الشريف : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق المغرب وأرض الاندلس ومصر ، ليدن ، ١٨٦٦ م .

٤ – البكرى (عبد الله المرسى) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، نشرة دى سلان ، الجزائر ، ١٩١١ م .

٥ – التيجانى (أبو محمد بن محمد) رحلة التيجانى ، نشرة حسن حسى عبد الوهاب ، تونس ، ١٩٥٨ م .

٦ – الجرنائى : أبو الحسن على : زهرة الاسى فى بناء مدينة فاس ، الجزائر ، ١٩٢٣ م .

٧ – ابن حزم (أبو محمد الاندلسى) جمهرة أنساب العرب . نشرة عبد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٢ م .

٨ – ابن أبى دينار : محمد القيروانى : المؤنس فى أخبار افريقية وتونس . تونس ، ١٣٥٠ م .

٩ – ابن أبى زرع ، أبو الحسن على الفاسى : الانيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس ، أوبسالا . ١٨٤٣ م .

١٠ – ابن أبى الضياف : أتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، تونس ، ١٩٦٣ م .

١١ – ابن الخطيب ، لسان الدين : الاحاطة فى أخبار غرناطة . القاهرة . ١٩٥٥ م .

١٢ – ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب . بيروت، ١٩٥٠ م .

١٣ – ابن الخطيب ، لسان الدين : أعمال الإعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . الدار البيضاء ، ١٩٦٤ م .

١٤ – ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن) العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذى السلطان الأكبر . القاهرة ، ١٢٨٤ هـ .

١٥ – ابن خلدون : المقدمة ، بيروت ، ١٩٦٣ م .

١٦ – ابن خلدون : أبو زكريا يحيى : بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد . الجزائر ، ١٩٠٣ م .

١٧ – الدباغ (عبد الرحمن الأنصارى) : معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان . تونس ، ١٣٢٠ هـ .

١٨ – الرفيق القيروانى : تاريخ افريقية والمغرب . تونس ، ١٩٦٨ م .

١٩ – الزركشى ك أبو عبد الله بن ابراهيم : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تونس ، ١٢٨٩ هـ .

٢٠ – السلاوى : أبو العباس الناصرى : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، القاهرة ، ١٨٩٤ م .

٢١ – أبو العرب تميم : طبقات علماء افريقية ، الجزائر ، ١٩١٥ م .

٢٢ – ابن هذيل ، على بن عبد الرحمن : حلبة الفرسان وشعار الشجعان ، القاهرة ، ١٩٤٩ م .

٢٣ – العمرى ، شهاب الدين فضل الله ، مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ، وصف افريقية والاندلس . نشرة حسن حسنى عبد الوهاب، تونس . د.ت.

٢٤ – القلقشندى (أحمد بن على) : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب . القاهرة ، ١٩٥٩ م .

٢٥ – القلقشندى : أحمد بن على : قلائد الجمان فى التعريف بقبائل عرب الزمان . القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٢٦ – ابن القنفذ : أبو الحسن بن الخطيب : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ، تونس ١٩٦٨ م .

٢٧ – المالكى (أبو عبد الله المالكى) : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وافريقية ، القاهرة ، ١٩٥١ م .

٢٨ – المراكشى (محيى الدين التميمى) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، القاهرة ، ١٩٠٦ م .

٢٩ – المقرى (شهاب الدين التلمسانى) نفح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب ، القاهرة ، ١٣٠٢ هـ .

٣٠ – المقريزى (تقى الدين أحمد على) اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء . القاهرة ، ١٩٤٨ م .

٣١ – المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) : البيان والاعراب عما بأرض مصر من الاعراب . القاهرة ١٩٦١ م .

٣٢ – مؤلف مجهول : مفاخر البربر ، نشرة ليفى بروفسال . الرباط ، ١٩٣٤م.

٣٣ – مؤلف مجهول : تغريبة بنى هلال ورحيلهم إلى بلاد المغرب ، نشرها عمر أبو النصر ، بيروت ، ١٩٧١ م.

٣٤ – مؤلف مجهول : كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار ، نشرة سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨ م .

٣٥ – ياقوت الحموى : معجم البلدان فى معرفة المدن والقرى والعمارة . القاهرة ، ١٢٢٣ هـ .

٣٦ – اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب) : كتاب البلدان ، صفة المغرب ، ليون ، ١٨٨٠ م .

٣٧ – البيذق (أبو بكر بن على الصنهاجى) أخبار المهدى وتاريخ الموحدين ، نشرة بروفسال ، باريس ، ١٩٥٨ م .

٣٨ – ابن غبوش : التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار طرابلس ، ١٩٦٧ م .

٣٩ – ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ، ١٩٣٥ م .

٤٠ – االباجى (أبو عبد الله محمد) الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ، تونس، ١٣٢٣ م .

٤١ – الاندلسى (أبو عبد الله محمد بن محمد) : الحلل السندسية فى الأخبار التونسية . تونس ، ١٢٨٧ م .

٤٢ – الاصطخرى (أبو اسحق ابراهيم محمد) : المسالك والممالك . القاهرة ، ١٩٦١ م .

٤٣ - الجنجانى (الحبيب) : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الرسلامية فى المغرب العربى . تونس ، ١٩٦٨ م .

٤٤ - الجنجانى الحبيب : المغرب الإسلامى ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية . تونس ، ١٩٧٧ م .

٤٥ - دائرة المعارف الإسلامية .

٤٦ - الألوسى ، محمود شكرى . بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب . القاهرة ، ١٩٢٤ م .

٢ - المراجع العربية :

ابراهيم العدوى : المجتمع المغربى مقوماته العربية والإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠م.

٤٧ - ابراهيم أحمد العدوى : الاساطيل البحرية فى البحر المتوسط . القاهرة ، ١٩٥٧ م .

٤٨ - ابراهيم على طرخان : المسلمون فى أوربا فى العصور الوسطى . القاهرة ، ١٩٦٦ م.

٤٩ - أحمد توفيق الحدى : الجزائر ، القاهرة ، ١٩٦٣ م .

٥٠ - أحمد توفيق المذنى : المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا . الجزائر، ١٩٦٩ م .

٥١ - احسان عباس : العرب فى صقلية . القاهرة ، ١٩٥٩ م .

٥٢ - احسان حقى : تونس العربية . بيروت ، ١٩٦٢ م .

٥٣ - أحمد فكرى : مسجد القيروان . القاهرة ، ١٩٣١ م .

٥٤ - أحمد الزواوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا . القاهرة ، ١٩٥٤ م .

٥٥ – جمال الدين الشيال : تاريخ الحضارة المصرية . المجلد الثانى . القاهرة ، ١٩٦٢ م .

٥٦ – حسن ابراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى . القاهرة ، ١٩٥٨ م .

٥٧ – حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام فى القارة الافريقية . القاهرة ، ١٩٦٤ م .

٥٨ – حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين . القاهرة ، ١٩٥٧ م .

٥٩ – حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية فى افريقية ، القاهرة ، ١٩٥٨ م .

٦٠ – حسن أحمد محمود : الدولة الزيرية فى المغرب . القاهرة ، د. ت .

٦١ – حسن حسنى عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس: تونس ، ١٣٧٣ هـ .

٦٢ – حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية. تونس ، ١٩٦٦ م .

٦٣ – حسن حسنى عبد الوهاب : بساط العقيق فى حضارة القيروان . تونس . ١٣٣٣ هـ .

٦٤ – حسن حسنى عبد الوهاب : مجمل تاريخ الأدب التونسى . تونس ، ١٩٦٨ م .

٦٥ – حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب . القاهرة ، ١٩٤٧ م .

٦٦ – حسين مؤنس : فجر الاندلس . القاهرة ، ١٩٥٩ م .

٦٧ – حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس . القاهرة ، ١٩٨٠ م .

٦٨ – حسين مؤنس : أطلس العالم الإسلامى . القاهرة ، ١٩٨٩ م .

٦٩ – سعد زغلول عبد الحمدى : تاريخ المغرب العربى . الاسكندرية ، ١٩٦٤م .

٧٠ – ابراهيم على طرخان : امبراطورية غانا الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٧١ – ابراهيم على طرخان : دولة مالى الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٧٣ م .

٧٢ – شكيب أرسلان : تاريخ العرب فى فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزر البحر المتوسط . القاهرة ، ١٩٣٣ م .

٧٣ – أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والاندلس . الاسكندرية، ١٩٦٨ م .

٧٤ – أحمد مختار العبادى : التاريخ العباسى والاندلسى . بيروت . ١٩٧١م.

٧٥ – أحمد مختار العبادى : تاريخ البحرية الإسلامية فى المغرب والاندلس ، بيروت ، ١٩٦٩ م .

٧٦ – عبد العزيز السيد سالم : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس . القاهرة ، ١٩٦٨ م .

٧٧ – عبد العزيز السيد سالم : المغرب الكبير . القاهرة ، ١٩٦٦ م .

٧٨ – عبد الحميد العبادى : المجمل فى تاريخ الاندلس . ١٩٥٨ م .

٧٩ – عبد العزيز يتعبد الله معطيات الحضارة المغربية ، المغرب ، ١٩٥٧ م .

٨٠ – عبد الله خورشيد البرى : القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة . القاهرة ، ١٩٦٧ م .

٨١ – عبد الله كنون : النبوع المغربى فى الأدب العربى . تطوان ، ١٩٥٧ م .

٨٢ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الإسلام والثقافة العربية فى أوربا . القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٨٣ - عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بافريقية الغربية . القاهرة ، ١٩٦١ م .

٨٤ - عبد الوهاب بن منصور : قبائل المغرب ، الرباط ، ١٩٦٨ م .

٨٥ - عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام . بيروت ، ١٩٦٥ م .

٨٦ - عثمان الكعاك : الحضارة العربية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة ، د.ت.

٨٧ - عثمان الكعاك : البربر ، تونس . د.ت.

٨٨ - عثمان الكعاك : بلاغة العرب فى الجزائور ، تونس . د.ت .

٨٩ - عثمان الكعاك : مراكز الثقافة فى المغرب العربى . القاهرة ، ١٩٥٨ م .

٩٠ - عثمان الكعاك : موجز التاريخ العام للجزائر ، تونس ، ١٩٢٥ م .

٩١ - الحموى محمد بن ياسين : تاريخ الأسطول العربى . دمشق . د. ت.

٩٢ - عبد الله شريط : الجزائر مرآة التاريخ . قسنطينة ، ١٩٦٥ م .

٩٣ - عبد الله على علام : الدولة الموحدية فى عهد عبد المؤمن بن على . القاهرة ، ١٩٧١ م .

٩٤ - عبد المنعم ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . القاهرة ، ١٩٥٣م.

٩٥ - رابح بونار : المغرب العربى تاريخه حضارته . الجزائر ، ١٩٦٨ م .

٩٦ - عبد الحميد يونس : الهلالية فى الأدب والتاريخ . القاهرة ، ١٩٥٦ م .

٩٧ - أنور الجندى : الفكر والثقافة المعاصرة فى شمال افريقية . القاهرة ، ١٩٦٥م.

٩٨ - محمد عبد المنعم الشرقاوى : ملامح المغرب العربى ، الاسكندرية ، ١٩٥٩ م .

٩٩ - محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، القاهرة ، ١٩٦٧ م .

١٠٠ - محمد جمال الدين سرور : مصر فى عصر الدولة الفاطمية . القاهرة ، ١٩٦٩ م .

١٠١ - محمد عبد الهادى شعيرة : المرابطون وتاريخهم السياسى . القاهرة ، ١٩٦٩ م .

١٠٢ - محمد الفاسى : التعريف بالمغرب . القاهرة ، ١٩٦١ م .

١٠٣ - محمد عبد الله عنان : ملوك الطوائف . القاهرة ، ١٩٦٠ م .

١٠٤ - العسوسى ، أحمد الأنصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب . اسطنبول ، ١٣١٧م .

١٠٥ - ابن غليون : أبو عبد الله محمد بن خليل : التذكار فيمن ملك طرابلس وما بها من أخبار . القاهرة ، ١٣٤٩ هـ .

١٠٦ - المسيلى : مبارك بن محمد الهلالى : تاريخ الجزائر . الجزائر ، د. ت.

١٠٧ - صلاح العقاد : المغرب العربى . القاهرة ، ١٩٧٤ م .

١٠٨ - أما رى ميخائيل : المكتبة الصقلية . لينبرج ، ١٨٥٧ م .

١٠٩ - ماكيفيدى ، كولين : أطلس التاريخ الافريقى ، ترجمة مختار السويفى. القاهرة ، ١٩٨٧ م .

١١٠ - محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس . القاهرة ، ١٩٦٤ م .

١١١ – مراجع عقيلة الغناى : قيام دولة الموحدين ، بنغازى ، ١٩٧٠ .

الرسائل الجامعية :

١١٢ – عبد الحميد محمود الشرقاوى : الملاحة البحرية الاندلسية ، كلية الآداب – جامعة القاهرة ، ماجستير ، ١٩٣٥ م .

١١٣ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الإسلامية ، دكتوراه ، ١٩٨٣ م .

١١٤ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة برنو الإسلامية ، ماجستير ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨ م .

١١٥ – السيد داود : بنو باديس وحضارتهم بالقيروان والمهدية ، دار العلوم جامعة القاهرة ، ماجستير .

١١٦ – طاهر راغب حسن : الدولة الحفصية بالمغرب ، دار العلوم جامعة القاهرة، ماجستير .

١١٧ – عبد الحليم عويس : دولة بنى حماد فى الجزائر ، ماجستير – دار العلوم ، ١٩٧٥ م .

١١٨ – حسن على حسن : الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية فى المغرب الأقصى ، دكتوراه – دار العلوم .

1 - Cooley W.D. : The Negre Land of the Arabs. London. 1841.

2 - Dozy R. : History des Musulmanes d'Espagne. Leydeu, 1861 .

3 - Gautier. E.F. : Histoire de Muria Musulmane, 1905.

4 - Gautier, E. F. : L'Islamisation de l'Afrique du Nord, Paris, 1927.

5 - Goitein S.D.: Studies in Islamic History and Institutions. Leiden 1968.

6 - Hopkins, J.P. : Medieva Muslim Government in Barbary. London, 1968.

7 - Julien, A. : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris, 1931 .

8 - Marcais. G. : Les Arabes en Berberie du XI au XIV siécle. paris. 1913.

9 - Massignon, L. : Le Maroc dans les premiers années du XVI siécles, 1906.

10 - Terrasse, H. : Histoire du Marce, 1946.

11 - Wamington. B. : The North African provinces. Cambridge, 1954.

12 - O'Leary : A short history of the Fattimd Khalifate. London, 1956.

13 - Watt, W. : The influence of Islam in Medival Europe, 1972.

14 - Maslatrie : Relations et commerce de l'Afrique septentrionale au Magreb avec les Nations Chrétiens au Moyen Age.. Paris, 1886.

15 - Marcais, G. : L'Architectine Musulmane d'Occident. Paris, 1956.

16 - Hare A. : Cities of Southern Italy and Sicily. London, 1893.

17 - Golvin, L. : Le Magrib Central a " Epoque des Zikides. Paris, 1957.

18 - Gibb H. : The Influence of Islamic Culture on Medival Europe.

19 - Dachraoui, F. : Contribution à l'Histoire Fatimides en ifriqiyya 1961.

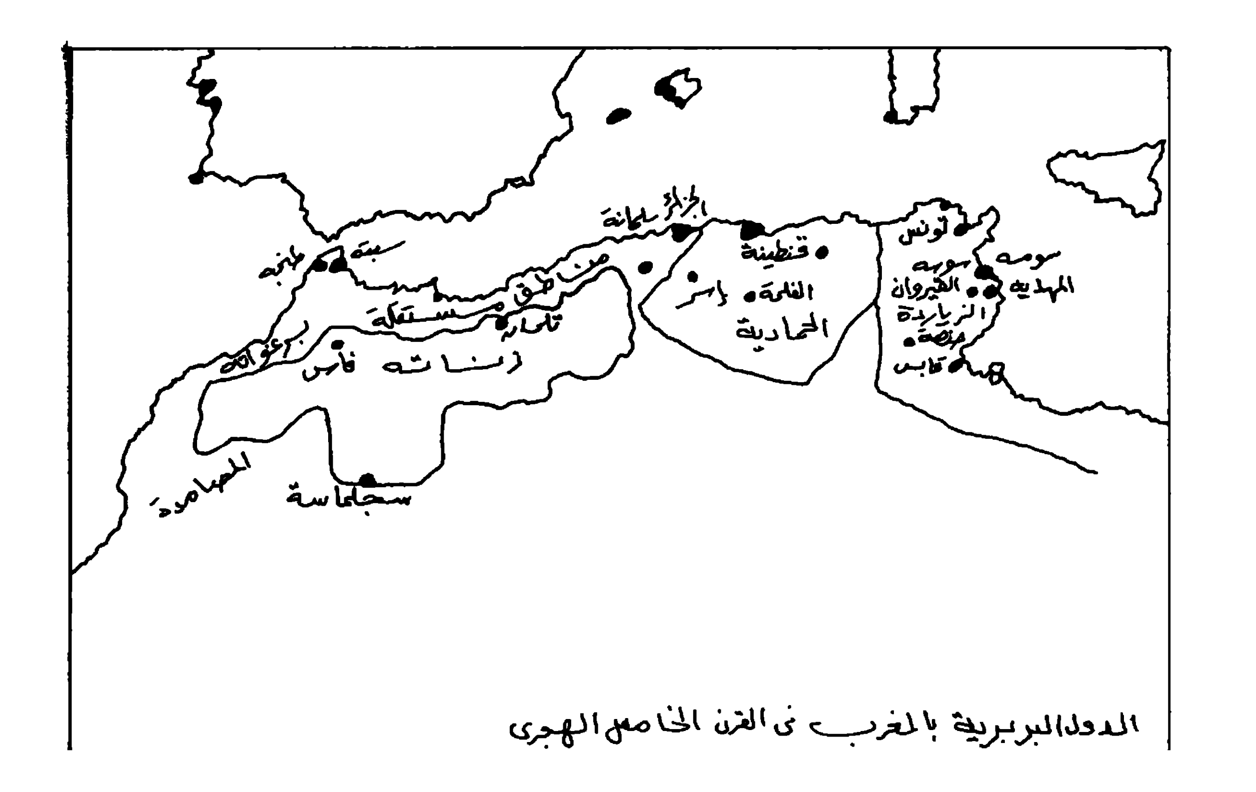
20 - Bausani. A. : Notes on the History of Arabic and Islamic Studies in Italy, 1955.

21 - Brenner, Louis : The North Africa Trading Community, Boston, 1971.

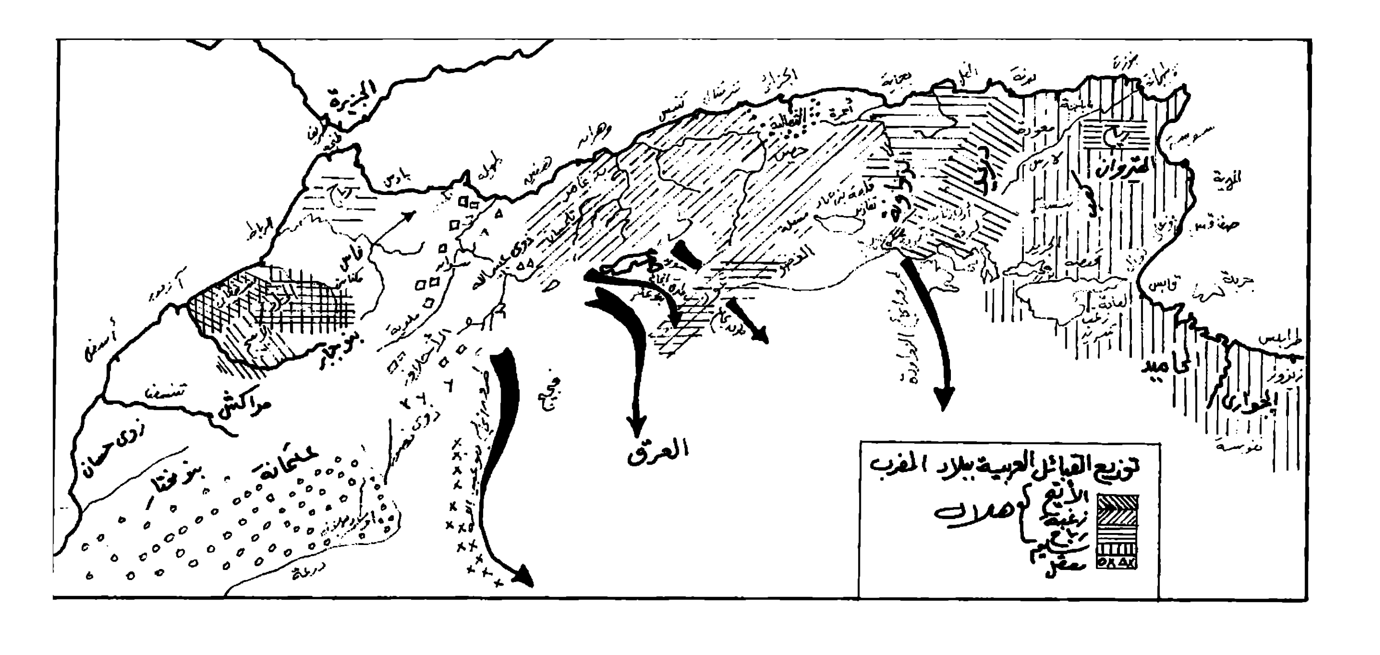
الفهـــرس

الموضـــــــــوع	الصفحة

تم بحمد الله



الدول البربرية بالمغرب فى القرن الخامس الهجرى


توزيع القبائل العربية ببلاد المغرب
الأثبج
زغبة
رياح
سليم
معقل
هلال
العرق
القيروان
قابس
طرابلس
المهدية
الجزيرة
طنجة
فاس
مراكش
تونس
بجاية
الجزائر
وهران
تنس
بونة
الثعالبة
حصين
تلمسان
زوي حسان
بنو جابر
الجواري
تاجورا
زيزور
مكناسة
بادس
سجلماسة
مليلة
فجيج
ذوي عبدالله
قابس
قاصد
الشرط

هذه الدراسة عن المغرب العربي نقدمها للقارىء العربي والمسلم ولكل الذين يهتمون بالتاريخ الإسلامي تتناول حقبة تاريخية على امتداد ١٤٠٠ سنة وصل فيها المد الإسلامي أبعاداً واسعة حتى يمكن القول أن الإسلام استطاع أن يكون قارة إسلامية شملت أجزاء متجاورة من آسيا وأفريقيا وأوروبا. وعلى هذا تكون هذه الدراسة عن جزء عزيز من عالمنا العربي والإسلامي والذي لعب دوراً في إثراء الحركة العربية الإسلامية حتى وقع على تلك الكتلة من القارة الإسلامية دور كبير في نشر الإسلام والعروبة في أرجاء واسعة من القارة الإفريقية لا سيما تلك الأقاليم التي تقع إلى الجنوب من المغرب العربي وكذلك في أوروبا حيث الأندلس وما جاورها من أقاليم.

مكتبة مدبولي

MADBOULI BOOKSHOP

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة - ت: ٧٥٦٤٢١

6 Talat Harb SQ. Tel. : 756421